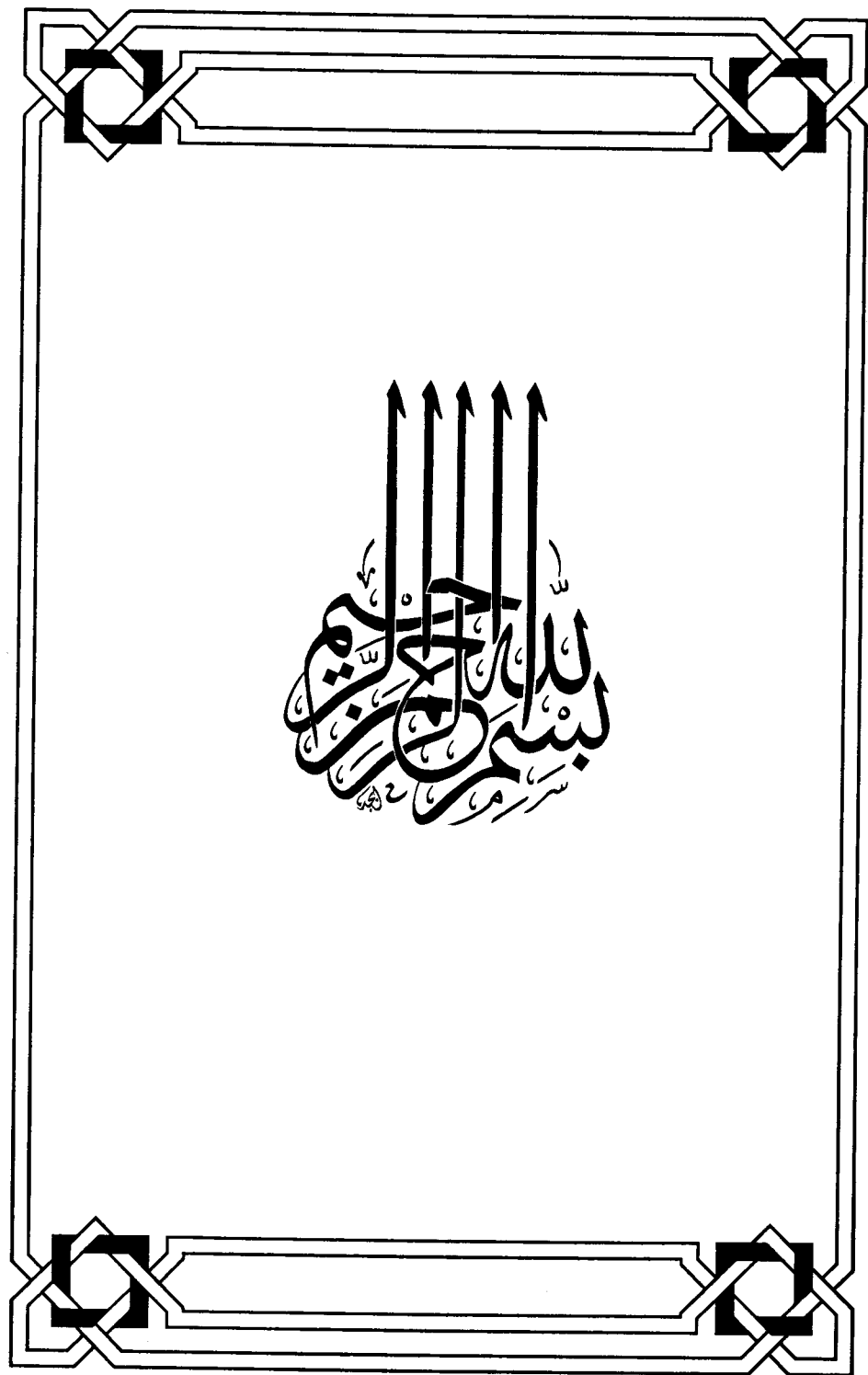


مَهَارَاتُ إِنْسَانِيَّةٍ فِي رِحَابِ
السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ

تَأليفُ
علي شرجي

دارُ البشائر



مَهَارَاتُ إِنْسَانِيَّةٍ فِي رَحَابِ
السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العنوان : مهارات إنسانية في

السيرة النبوية

تأليف : علي الشربجي

عدد الصفحات : ٦٠٧ صفحة

قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤ سم

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

الطباعة : المطبعة الدمشقية

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

الكتب والدراسات التي تصدرها
الدار لا تعني بالضرورة تبني
الأفكار الواردة فيها ؛ وهي تُعبّر
عن آراء واجتهادات أصحابها



دار البشائر

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - شارع ٢٩ أيار - جادة كرجية حداد

هاتف : ٢٣١٦٦٦٨ - ٢٣١٦٦٦٩

ص. ب ٤٩٢٦ سورية - فاكس ٢٣١٦١٩٦

www.daralbashaer.com

الموقع :

البريد الإلكتروني : info@daralbashaer.com

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، حمداً يوافي نعمه ،
ويكافىء مزيده .

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا ونبيّنا وحبيب
قلوبنا محمد الهادي البشير .

وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، ومن تبعهم ، وسار على
هديهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الله عز وجلّ خاطب نبيّه محمداً ﷺ أوّل ما خاطبه بقوله الكريم :
﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ - ٥] .

وكان هذا الخطاب الكريم مصحوباً بحالة فريدة من الإثارة في تكوين مهارة
فائقة في كيفية الإلقاء والتلقي وإحداث القناعة في حقيقة الموقف ، وضخامة
التكليف .

روى البخاري في كتاب بدء الوحي ، من صحيحة (٣) ومسلم (١٦٠) في
الإيمان عن السيدة عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت :

«أوّل ما بُدِيَءَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصّالحة في النوم ، فكان
لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصّبح ثمّ حُبّبَ إليه الخلاء ، وكان يخلو بغارٍ

حرّاء ، فيتحنّث فيه - وهو التَّعبُدُ اللَّيالي ذَوَاتِ الْعَدَدِ - قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ،
ويتزوّدُ لذلك ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي
غارِ حرّاء ، فجاءه الملكُ ، فقال : اقْرَأْ .

قال : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذني فغطّني حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فقال : اقْرَأْ .

قلت : ما أنا بقارىء .

فأخذني ، فغطّني الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فقال :
اقْرَأْ .

فقلت : ما أنا بقارىء .

فأخذني ، فغطّني الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ .

فرجع بها رسولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فدخل على خديجة بنتِ خُوَيْلِدٍ
رضي الله عنها ، فقال :

زَمِّلُونِي ، زَمِّلُونِي .

فزَمِّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوَغُ ، فقال لخديجة ، وأخبرها : لقد خشيتُ على
نَفْسِي .

فقالت خديجةُ : كلا والله ، ما يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ ،
وتحملُ الكلَّ وتكسِبُ المَعْدُومَ ، وتَقْرِي الضَّيْفَ ، وتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ .

فانطلقت به خديجةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدٍ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ، ابْنَ
عَمِّ خَدِيجَةَ ، وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرَفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ،
فِيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ .

فقالت له خديجةُ : يَا ابْنَ عَمِّ ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ .

فقال له ورقةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟

فأخبره رسولُ الله ﷺ خَبَرَ ما رأى .

فقال له ورَقَّةُ: هذا التَّامُوسُ الذي نَزَلَ الله على مُوسى ، يا لَيْتَنِي فيها جَدَعاً ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ .

فقال رسولُ الله ﷺ: أَوْ مُخْرِجِيْ هُمْ؟

قال: نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي ، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُّؤَزَّرًا .

ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَّةُ أَنْ تُوفِّي وَفَتَرَ الْوَحْيُ» .

تفسير ألفاظ الحديث :

الرُّؤْيَا: ما يراه النائم في النوم .

الصالحة: الصادقة ، وهي التي يجري في اليقظة ما يوافقها .

فلق الصبح: نوره وضيأؤه .

الخلاء: الخَلْوَةُ والانفراد .

ينزع: يرجع .

فغطني: ضمني بشدة .

الجهد: غاية الوسع .

أرسلني: تركني وأطلقني .

عَلَقَ: جمع عَلَقَةٍ ، وهي المنيُّ بعد أن يتحول إلى دم غليظ متجمد .

يرجف فؤاده: يخفق قلبه ويضطرب .

زملوني: لفوني بثوب وغطوني .

الرَّوْع: الفزع والخوف .

الرحم: القرابة .

تحمل الكل: تقوم بشأن من لا يستقل بأمره ، ليتمه ، أو ضعفه .

تكسب المعدوم: تتبرع بالمال لمن عَدِمه .

تقري الضيف: تقدم له القرى ، وهو ما يقدم للضيف من طعام وشراب .

نوائب الحق: جمع نائبة ، وهي ما ينزل بالإنسان من المهمات ، وأضيفت إلى الحق ، لأن منها ما يكون في الباطل .

تنصّر: اعتنق النصرانية .

الناموس: صاحب السرّ ، والمراد جبريل عليه السلام .

جذع: شاب قوي .

مؤزرّاً: قوياً .

ينشب: يلبث .

فتر: تأخر عن النزول .

مواقف من المهارات المستفادة من الحديث :

يلفت هذا الحديث النظر إلى طائفة من المهارات والمواقف الفائقة ، ومنها :

١ - إعداد النفس إلى تحمل الجلائل من الأمور .

ففي الوحدة ، والخلوة ، تكوين للفكرة الناضجة ، وتثبيت للخطة الناجحة ، وتقوية للروح ، وتربية للضمير ، وكل هذه مهارات مكتسبة يحتاجها الداعي ، ومن يتهيأ لحمل مسؤولية عظيمة .

٢ - الاستعانة بتوفير الوسائل المادية المعينة ، للوصول إلى الغاية المنشودة ، لذلك كان رسول الله ﷺ يتزود لرحلته ، وخلوته ، بالطعام ونحوه .

٣ - الإثارة لاكتساب مهارة: وفي لقاء جبريل النبي ﷺ بمثل تلك الحال إثارة فريدة لبعث الكوامن ، وتحريك الطاقات ، لاكتساب مهارات فائقة في كيفية الإلقاء والتلقي ، وإحداث القناعة في حقيقة الموقف . وضخامة التكليف ، فما كان لمن لاقى ذلك الموقف أن يشك لحظة أنه أمام موقف

خطير ، وتكليف حق ، تشترك فيه جميع طاقاته الجسدية والعقلية ، فلا يدع مجالاً لأي هاجس يتسلل إلى التشكيك في جدية الموقف وحقيقته .

٤ - ضرورة التروي بعد العاصفة ، فالمفاجأة المثيرة ، والعاصفة الشديدة كثيراً ما تُحدث زلزلة فكرية ، وجسدية ، يحتاج المرء بعدها إلى فترة راحة واسترخاء ليكتسب مهارة جدية ورويةً بصيرةً يتبصر بهما أسباب ، وعواقب ما حدث ، ليخرج بقرارات حكيمة مدروسة ، ومواقف راسخة مقبولة وهكذا كان من رسول الله ﷺ حين قال : زملوني ، ليقوم من بعده بالنظر بما رأى ، والعمل بما يرى في هدوء ورويةً فهذه الهدوء إلى أن يشرك زوجته الوفية في تحليل عناصر هذا الموقف ، واتخاذ القرار تجاهه ، فما خاب رأيه ، ولا أخطأ ظنه ، فكانت خديجة ذلك الإنسان العظيم في اتخاذ القرار في هذا الموقف .

٥ - البعد عن الارتجالية والانفراد بالرأي : والإنسان العظيم في المواقف الخطيرة ، لا يستبد برأيه ، ولا يرتجل ما يقدم عليه ، بل يسعى في تكوين مهاراته ، وبلورة قراراته ، إلى الاستعانة بأهل البصر والبصيرة ، وهكذا فعل النبي ﷺ ، وخديجة حينما أسرعاً بوضع القضية بين يدي خبير ، وبصير بالرأي والتجربة فذهبا إلى ورقة بن نوفل ، وقصا عليه القصة من أولها إلى آخرها .

٦ - المستشار مؤتمن : فورقة لم يقصّر في بذل الجهد لاستكشاف الموقف ، وتلمس تداعياته ، والنظر في ملابساته ، واستخلاص النتائج من مقدماته ، وكان أميناً في قراراته : إنه الناموس . إنه لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . ليتني فيها جذعاً . ليتني أكون معك . هذه مهارات من الرجل ، وهذه قناعات ، وأمنيات ومواقف فذة في المهمات والملمات .

٧ - ترك المربي من يُربيه فترة : لتتفاعل في نفسه أفكاره وعواطفه ومشاعره ، ويتطلع بجدية إلى إعمال طاقاته كلها في اكتساب مهارات تكون السند له في نجاحاته ، والدليل له في مهاراته ، ولهذا انقطع الوحي عن النبي ﷺ حتى حنَّ له ، واشتاق إليه ، وأحس بالحاجة إليه .

عودة إلى رحاب البيان الإلهي :

لقد استعمل الربُّ عزَّ وجلَّ في خطابه الكريم ، وبيانه المبين لفظ القراءة والكتابة بياناً أنهما وسيلتا العلم والمعرفة فهماً ونقلًا ، ونشراً ، وانتفاعاً .

وخاطب بذلك الإنسان الذي هو محطُّ البيان ، وخليفة الرحمن ، ورسول العمران ، ومعمِّرُ هذه الأرض بحضارة المادة والروح ، والدنيا والآخرة .

والذي يلفت النظر ، ويشدُّ الانتباه إنما هو ربط هذا التكليف في هذه المقولة الفُخْمة بعزَّة خالق الخلق ، وبارئ النّسم :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾ أي افعل ما أمرت به من القراءة معتصماً بهدي ربِّك الذي خلق جميع الخلائق - والإنسان في قمته - وهو أعلم بمصالحها ، ودُروب فلاحها ، فلا تَحِدْ عنه ، فإنه الكريم الأكرم ، الذي لا يعدله كريم ، ولا يوازيه حكيم ولا عليم .

وهذا يشكل الأرضية الصلبة التي تنطلق منها جحافلُ الخير بما تملك من مهارات ، وإبداعات راشدة ، تبني ، وتهدي وترعى ، وتصون .

لقد ذكر الرّب عز وجل في بيانه الكريم : (القلم) مُمْتَنّاً به ، لأنه نعمة من الله تعالى عظيمة ، لما فيه من المنافع التي لا يحيط بها إلا الله تعالى .

فما دُوِّنَت العلوم ، ولا قِيِدَت الحِكَم ، ولا ضُبِطَت أخبار الأمم ، ولا رُسِمَت منجزات الحضارات ، ولا حُفِظَت كتب وسنن وسير الأنبياء إلا بالكتابة بالقلم ، ولذا كان من أوائل ما خلق الرب عزَّ وجلَّ .

ولا تخرج وسائل الكتابة الحديثة كلها عن كونها أقلاماً تنقل العلوم والفهوم ، وتسجل وتضبط المنجزات والمستحدثات .

هذا ، وليس في تعليق النظر برَبِّ العزَّة عزَّ وجلَّ توهين من مواهب الإنسان ، فإن الإنسان هو بيت القصيد في هذا الوجود ، وإنما فيه توهين لأمر القطيعة بين الإنسان وربّه ، فإن الإنسان يوم يستغني عن فضل ربّه ، وهدي خالقه يسعى لحثفه بنفسه ، ويخرج عن جوهره الأصيل ، ليرتكس إلى مستوى

البهائم الأخرى ، التي لا تعي ، ولا تفهم .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٥] .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] .

فالإنسان ما دام ذا بصيرة تُنير ضميره وطريقه ، وعلاقة طيبة بربه ، فهو أهل لكل تقدير واحترام ومصدر لكل خير وإحسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

فهو إذاً المخلوق في أحسن تقويم ، وهو المنتفع الأول والأخير بما خلق الله سبحانه وتعالى ، وهو المؤكول إليه التصرف بهذه الخلائق المسخرة له ، والمذلة لاختياراته واختباراته ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِي وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٢ - ٣٣] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الباقية : ١٣] .

ورسل الله عز وجل في قمة هذه البشرية والإنسانية عقلاً وفضلاً ، وكمالاً وجمالاً .

لذا كان هؤلاء الأفاضل مُزوَّدين خُلُقاً وخُلُقاً بكل المهارات والمؤهلات والمقومات التي تؤهلهم للقيادة والريادة والهداية ، وفي طليعة هؤلاء الأفاضل سيد البشر محمد بن عبد الله الذي وصفه ربه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

رفع ذكره ، وحطَّ عنه وزره ، وجعله قدوة للعالمين إلى يوم الدين .

فأتى العالم بالمعجزات والمنجزات ، وشق لهم طريق المهارات ، وحثهم على التنافس في دروب الخيرات ، والمبرات ، وإقامة التمدن ، وإنشاء الحضارات ، ولم يضيق على الناس إلا سُبُل الشر والفساد .

وسيرته الشريفة حافلة بضروب من المهارات الإنسانية ، والبراعات الفكرية

والسلوكية ، والإبداعات الأخلاقية والاجتماعية ، على اختلاف مسالكها ،
ومسار بها .

من هنا رأينا أن نبذل جُهداً في دراسة سيرته العطرة لنقف على نماذج من
مهاراته الرائدة الهادية ، التي تشكل نماذج مشرقة ، ومناثر هادية ، تنير الطريق
للسائرين على دروب الهداية الفكرية والعملية ، تحميمهم من التردّي ،
وتصونهم من المزالق ، وتقودهم إلى معالي الفضيلة ، ومعارج الكمال .

ولقد اخترنا لعملنا هذا : اسم .

«مهارات إنسانية في رحاب السيرة النبوية» .

وجعلنا عملنا هذا يتكوّن من :

- تمهيد ، وستة فصول ، وخاتمة :

الفصل الأول : تعريف المهارات .

الفصل الثاني : أنواع المهارات .

الفصل الثالث : سبب اختيارنا الكتابة في هذا الموضوع .

الفصل الرابع : نعمة الدين ودوره في تكوين المهارات الإنسانية .

الفصل الخامس : مؤهلات النبي ﷺ الخلقية ، والخُلُقِيّة .

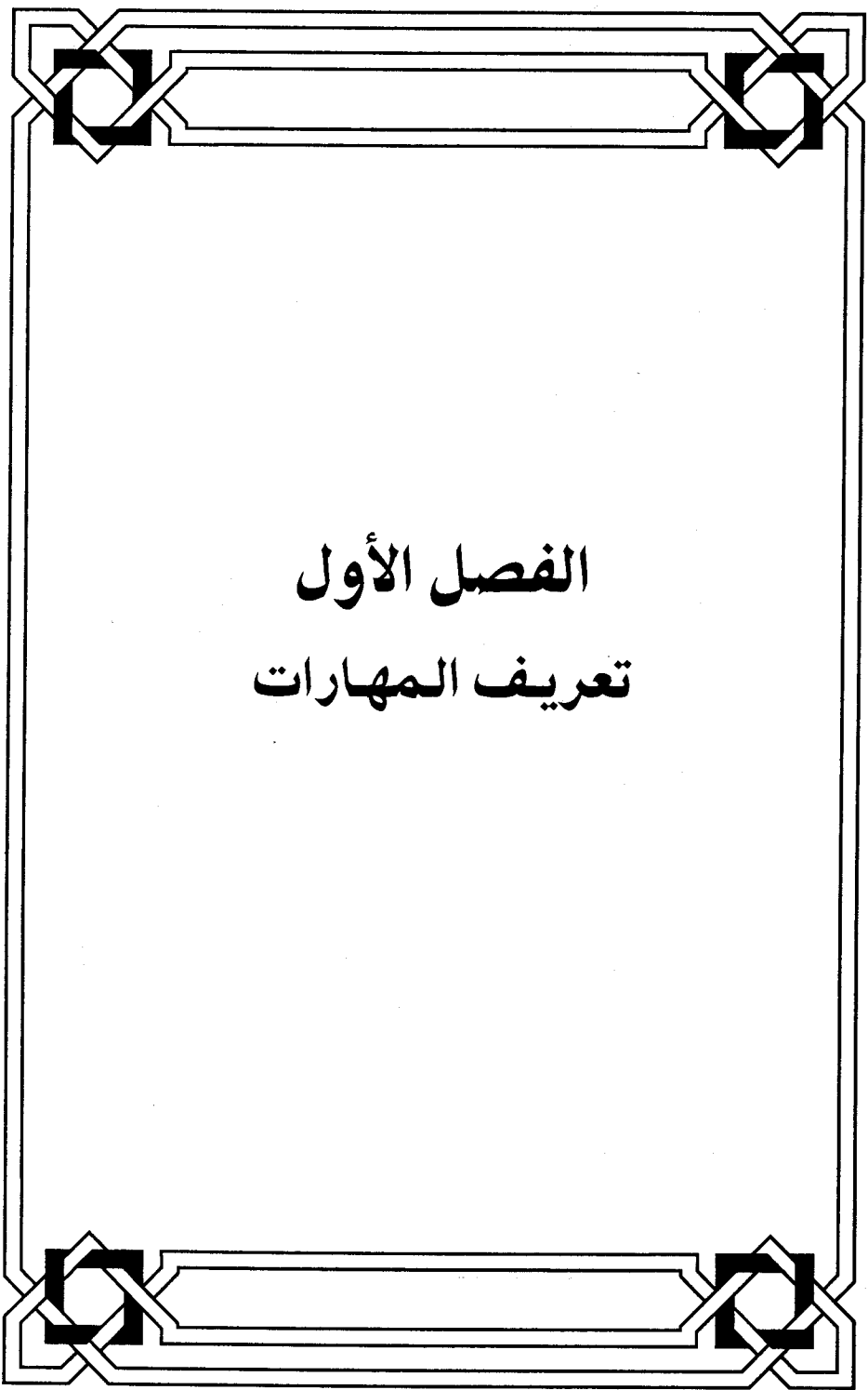
الفصل السادس : ميادين مهارات النبي ﷺ في سيرته الكريمة .

الخاتمة : تقويم لما قدمنا ، وتلخيص لأهم ما عملنا .

والله عز وجل نسأل أن نكون قد وفقنا للخير فيما أردنا كما نسأله ، أن ينفعنا
وينفع بنا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على نبينا محمد وآله وأصحابه
أجمعين .

١٤٢٢/١٢/١٨ هـ

٢٠٠٢/٣/٢ م .



الفصل الأول

تعريف المهارات

الفصل الأول

تعريف المهارات : المهارات : جمع مهارة :
والمهارة في اللغة تعني : الحِذْقُ ، والإتقان ، والإحكام .
والماهر : هو الحاذق بكل عمل ، والجمع مَهَرَة .
يقال : مَهَرْتُ بهذا الأمر مَهَارَةً : أي صرت به حاذقاً ، وله متقناً .
مهر الشيء يَمْهَرُهُ ، ومهر فيه : أحكمه وصار به حاذقاً . وتمهَّر في كذا :
حَذَق فيه ، فهو مُتَمَهِّر .

الألفاظ ذات الصلة بالمهارة :

هناك ألفاظ تقترب في معناها ، والمراد منها من لفظ المهارة ، وتدور قريباً
من فلكه ، وتسبح قريباً من شطآنه ، ومنها :

١ - الحِذْقُ : المهارة في الشيء ، والإيغال في ممارسته ، والإتقان له .
يقال : حَذَقَ في صنعه يَحْذِقُ حِذْقاً ، وَحَذَقَ يَحْذَقُ حَذَقاً مهر فيها ،
وعرف غوامضها ودقائقها .

وحَذَقَ العمل ، وَحَذَقَ فيه : أي أوغل في ممارسته حتى مهر فيه ، فهو
حاذق ، والجمع : حُذَّاق ، والشيء : مُحَذَّق ، وحذيق .
وتَحَذَّق : أي صار حاذقاً ، وتكلف الحِذْقُ ، وتظاهر به ، وأحذقه : صَيَّرَهُ
حاذقاً .

ورجل حُذَّاقِيٌّ : بَيَّنَّ الحِجَّةَ .

٢ - الإتقان: الإحكام والإجادة ، والإحسان ، والتحسين يقال: أتقن عمله: إذا أحكمه ، وأجاده ، فهو مُتَقِنٌ.

ومنه قول الله عز وجل: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَىٰ أَتَقْنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] أي أحكمه وحسنه ، وأحسنه .

والتَّقْنُ: الرجلُ المتقنُ الحاذقُ ، الماهر .

٣ - الإحكام: الإتقان .

يقال: أحكمتُ الشيءَ إْحْكاماً: إذا أتقنته ، وجوّته .

ومنه اشتقاق: «الحِكْمَة» وهي: السَّدَادُ ، ووضع الشيء في موضعه ، وتطلق على العلم ، والتفقه ، والسنة النبوية .

وقالوا: الحِكْمَة: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وأيضاً: الكلامُ الذي يقلُّ لفظه ، ويجلُّ معناه .

والمَحْكَمُ: الشيءُ المتقنُ .

والحكيم: ذو الحكمة .

واستُحْكِمَ فلانٌ: صارَ حكيماً ، وتناهى عما يضرُّه .

والحكيم: اسم من أسماء الله تعالى .

٤ - الإحسان: الإجادة والإتقان .

يقال: أحسن فلان: فعل ما هو حسن وجميل .

وأحسن الشيء: اتقنه ، وأجاد صنعه .

وحسَّنَ الشيء: جعله حسناً ، وزَيَّنَهُ ، ورقَّاه ، وأحسن حالته .

والأَحْسَنُ: الأفضل ، والحُسْنُ: الجمال وكل مُبْهَج مرغوب فيه ،

والحسنة: ضدُّ السيئة من قول أو فعل .

٥ - الإبداع: التفوق في الشيء ، والإتيان به جديداً .

يقال: بَدَعَهُ يَبْدَعُهُ بَدْعاً: أنشأه على غير مثال سبق ، وبَدَعُ يَبْدَعُ بَداعةً ،

وَبُدُّوعاً صَارَ غَايَةً فِي صِفَتِهِ ، فَهُوَ بَدِيع .

وَأَبْدَعُ : أَتَى بِالْبَدِيعِ .

يقال: هذا من البدائع ، أي مما بلغ الغاية في بابه .

والبِدْعُ: الأمرُ الذي يفعل أولاً ، والغايةُ في كل شيء ، وذلك إذا كان عالماً ، أو شجاعاً أو شريفاً.

والإبداع عند الفلاسفة، إيجاد الشيء من العدم، فهو عندهم أخصُّ من الخلق.

٦ - البراعة: كمالُ الفضل وحسنُ الفصاحة الخارجة عن نظائرها.

يقال: بَرَعَ يَبْرِعُ بُرُوعاً: فاق نظراءه في أمر ، فهو بارع ، أي فائق ، متقن ، متميز .

٧- الخِبرَةُ: معرفة الشيء على حقيقته ، وعلم دقائقه .

يقال: خَبَرَ الشيءَ خَبْرًا ، وَخَبْرًا ، وَخَبْرًا ، وَخَبْرَةً ، وَخَبْرَةً ،
وَمَخْبَرَةً ، بلاه ، وامتحنه ، وعرف خَبْرَهُ على حقيقته ، فهو خابِر .

وخبّر الرجلُ: صار خبيراً.

والخير: اسم من أسماء الله عز وجل العالم بما كان ، وبما يكون

والخبير: ذو الحِبرة الذي يخبر الأشياء بعلمه.

وفي التنزيل: ﴿ فَسْئَلُ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩].

وفي المثل: «على الخير سقطت».

والمختبر: المكان الذي تجري فيه التجارب العلمية.

٨- التفوق: التقدم على الغير بالفضل والعلم ، والسبق .

يقال: فاق أصحابه: فضلهم ، وصار خيراً منهم ، ومثله: تَفَوَّقَ عليهم .

والفائق: الجيد من كل شيء.

٩- الإجابة: الإحسان ، والإتقان ، وهي ضد الرداءة والإساءة .

يقال أجاد الرجل: أتى بالجميل من قول أو عمل ، ومثله أجود.

وجاد الرجل: أتى بالجميل من قول ، أو عمل .

وجوّد الشيء: أجاده ، وجاد الشيء: صار جيداً.

وتجوّد في العمل: تأتق فيه .

وتجوّد الشيء: تخيّرّه ، وطلب أن يكون جيداً.

الجَوْدَةُ في اصطلاح أهل النظر: صحّة الانتقال من الملزومات إلى اللوازم .

١٠ - المبادرة: المسارعة إلى الشيء ، والسبق إليه .

يقال: بَدَرَ إلى الشيء يَبْدُرُ بُدوراً: أسرع .

وبادر إلى الشيء مُبادرة ، وبداراً: أسرع .

وبادر فلاناً: سبقه إلى الغاية .

المهارات اصطلاحاً: معنى المهارات في الاصطلاح قريب من معناها عند

أهل اللغة .

ولكننا نحن نصطلح على أن يكون المراد منها فيما يخصُّ السيرة النبوية كل ما أحاطت به الألفاظ التي ذكرناها سابقاً ، فهي تشمل الحذق ، والإتقان ، والإحكام ، والإحسان ، والإجادة ، والإبداع ، والبراعة ، والخبرة ، والتفوق ، والسبق في مجالات الفكر والفهم ، والعاطفة ، والسلوك .

فرسولنا المصطفى ﷺ أعظم الناس حذقاً في الأمور ، وإتقاناً وإحكاماً وإجادة لها ، وإحساناً فيها ، وهو أشدُّهم فيها خبرة وبراعة وإبداعاً وتفوقاً ، وهو أسرعهم وأسبقهم في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية ، وصدق من قال: «ما فوقه حقاً سوى الخلاق» .

خلقت مبرراً من كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قد خُلقت كما تشاءُ

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف رسول الله ﷺ: «من رآه بديهته هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله» .

رواه الترمذي (٣٦٣٨) في المناقب .

المهارات الإنسانية: إننا نعني بهذا المصطلح جملة الصفات التي تميز الإنسان ، وتجعله مُنفرداً عن غيره من المخلوقات .

فالإنسان هو الكائن الحيّ المفكر الراقى ذهنًا وخلقًا .

والإنسان المثالي: هو الذي يفوق غيره بقوى يكتسبها بالمعرفة ، والتجربة أو توهب له بالفطرة .

فالمهارات الإنسانية إنما نعني بها مهارات الإنسان المتميز الذي يفوق غيره في خضم الحياة الإنسانية ، فيفكر ويتأمل ، ويعمل ، ويقود ويسوس ، وينفذ بقوة ذهن ، وثبات قلب . ونفذ فكر ، ونور بصيرة ، وبالغ حكمة ، وتفوق إتقان وإبداع ، وهذا كله يتجلى واضحاً في سيرة حبيبنا ونبينا المصطفى ﷺ ، فهو الإنسان الكامل ، والمثل الأعلى ، والقائد الفذ ، والسياسي البارع ، والبصير الخبير بالمقدمات والنتائج .

والمؤيد بالوحي الذي لا يشذ ولا يخطئ ، وصدق ﷺ حيث قال: «أنا سيّد ولد آدم» رواه أبو داود (٤٦٧٣) في السنة .

وقال: «أنا سيّد النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» . ورواه البخاري (٣٣٤٠) في الأنبياء ، ومسلم (٣٢٧) في الإيمان .

قال القاضي عياض: السيّد هو الذي يفوق قومه ، والذي يُفْزَعُ إليه في الشدائد .
تعريف السيرة النبوية :

السيرة في اللغة: الطريقة ، والحالة التي يكون عليها الإنسان .

يقال: فلان حسنُ السيرة ، أي حسن الحالة والطريقة والسلوك .

وسيرة فلان: أي تاريخ حياته .

وسيرة النبي ﷺ: تاريخ حياته ، وبيان ما كان عليه منذ ولادته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

دراسة سيرة النبي ﷺ :

قراءة السيرة النبوية ودراستها دراسة تدبر ، وتأمل ، والوقوف على أحوال

صاحبها من الأهمية بمكان ، وهي مسؤولية منوطة بعنق كل مسلم ، لأن محبة المصطفى ﷺ عاطفة وفكرأ وسلوكأ ، واتباعأ لهديه أمر لازم على المسلمين ، يحتاجون إليه ، ما دامت الحياة ، واستقامت الأرض والسموات .

إذ كيف يتسنَّى لمسلم أن يحبَّ هذا النبي ﷺ ، ويتبع هديه إذا كان جاهلاً بسيرته ، بعيداً عن أنوار هدايته ، وقديماً قيل : «المرءُ عدوُّ ما يجهل» .

من هنا كان لابدً من معرفة هذا النبي ﷺ والوقوف على أخباره ، وتفاصيل سيرته ، والإلمام بدقائق تصرفاته في كل ناحية من نواحي حياته .

فوائد دراسة سيرة النبي ﷺ :

لدراسة سيرته الكريمة فوائد جمة ، يمكن أن نجملها فيما يلي :

١ - فهم شخصية الرسول ﷺ ، من خلال حياته ، وظروفه التي عاش فيها ، للتأكد من أن محمداً ﷺ - فوق عبقريته التي سمت به كان رسولاً مؤيداً بوحي من عند الله عز وجل ، وتوفيق من لدنه .

قال الله عز وجل في وصفه : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ ﴾ [النجم : ٣ - ٤] .

٢ - أن يجد الإنسان في دراسة سيرته ما يعينه على فهم كتاب الله عز وجل ، وتذوق روحه ومعانيه .

٣ - أن يتجمع لدى المسلم من خلال دراسته سيرة النبي ﷺ أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية الصحيحة ، سواء ما كان منها متعلقاً بالعبقيدة ، والأحكام والأخلاق ، أو غيرها ، إذ لا ريب أن حياته إنما هي صورة مجسدة نيرة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه .

٤ - أن يكون لدى المعلم والداعية نموذج حي عن طرائق التربية والتعليم ، فقد كان محمد ﷺ معلماً ناصحاً ، ومربياً فاضلاً ، لم يأل جهداً في تلمس أجدى الطرق الصالحة إلى كل من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته ، فمهاراته وإبداعاته في هذا الرحاب لا يشق لها غبار ، ولا يساويه فيها أحد .

مصادر سيرة النبي ﷺ :

من أعظم المصادر والمراجع التي ترشدنا إلى معرفة سيرة المصطفى ﷺ وتدلنا على تفاصيل حياته ، المصادر التالية :

١ - القرآن الكريم : وهو كلام رب العالمين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وفي القرآن الكريم نصيب موفور يدور حول حياة النبي ﷺ في أخلاقه وكفاحه ، وعلاقاته ، وحسن تصرفاته مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقوله : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقوله في وصف النبي ﷺ : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وقوله : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] .
وقوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب : ٥٢] .

٢ - الكتب السماوية السابقة :

لقد دلنا القرآن الكريم على أن الكتب السماوية السابقة أخبرت عنه ، وحوث كثيراً من صفاته ، وبشرت به ، وذكرت بعض هديه وما يدعو إليه .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ - ١٥٧] .

ومثل هذا كثير ، نجده ، ويجده أهل الكتاب في كتبهم ، إذا ما استقرؤوا

نصوصها الصحيحة ، ودرسوها بصدق وإخلاص نية .

٣ - كتب الحديث : فقد حوت أقواله ، وحفظت أفعاله ، وبينت ما كان منه ، وهي على كثرتها صورة صادقة لترجمة حياته ، وبلورة صفاته ، وقد قيل : «الكلام صفة المتكلم» .

٣ - أقوال الصحابة الكرام : فهم الذين شاهدوه ، وعاشروه ، وعاشوا حياته في حلّه وترحاله ، فكانوا أعلم الناس به ، وبما كان عليه .

فقد نقلوا الكثير الكثير مما عرفوه وشاهدوه من سلوكياته ، ودقائق حياته ، وشؤونه الخاصة والعامة ، ومن ذلك ما قاله البراء بن عازب : «كان رسول الله ﷺ أحسن النَّاس وجهاً ، وأحسنه خلقاً ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير» رواه البخاري (٣٥٤٩) في المناقب .

وقالت عائشة رضي الله عنها : «كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلٍ يفهمه كلُّ من سمعه» رواه أبو داود (٤٨٣٩) في الأدب .

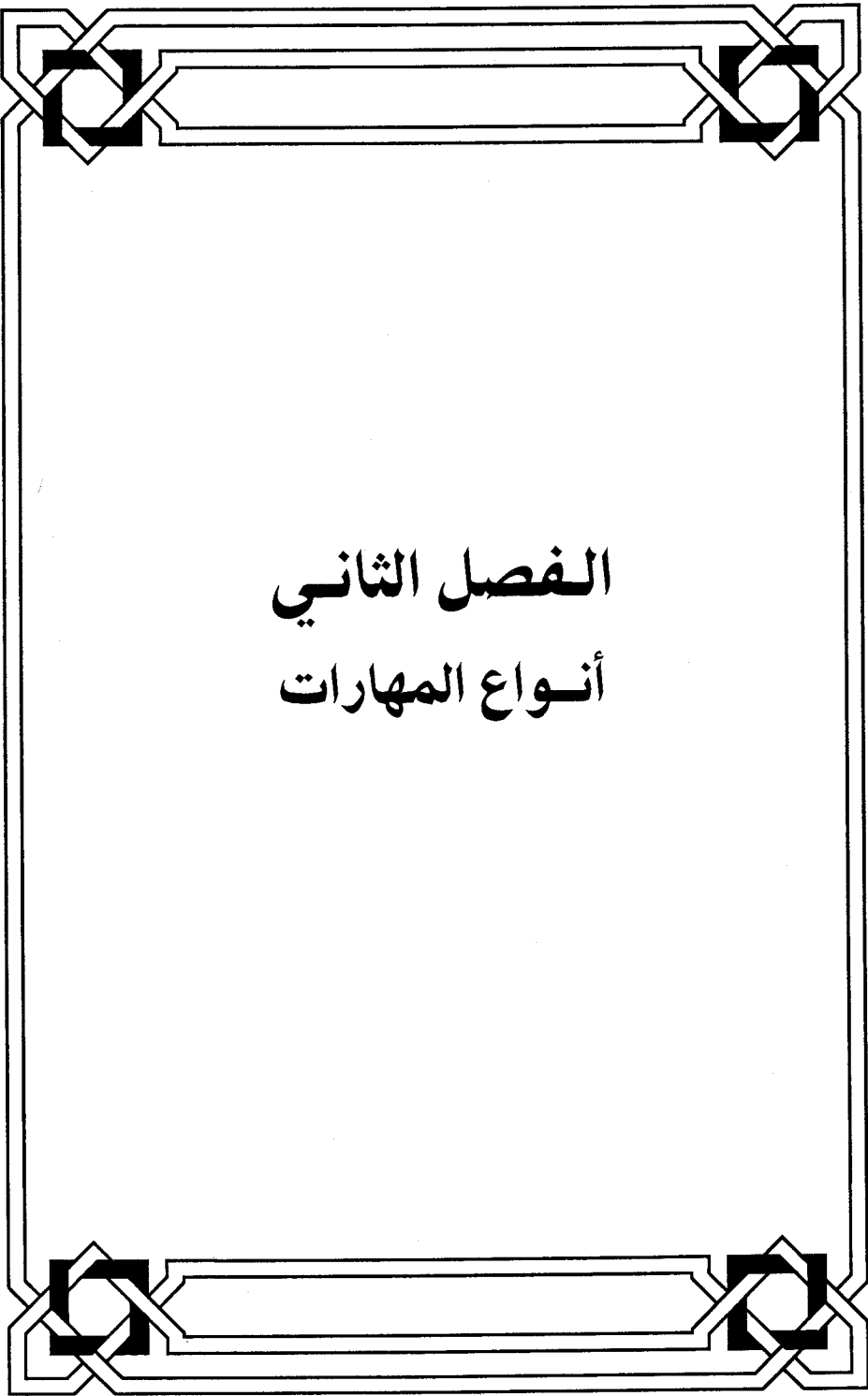
وقالت : «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد النَّاس منه» رواه البخاري (٣٥٦٠) في المناقب ، ومسلم (٢٣٢٧) في الفضائل .

وقالت : «ما ضرب رسول الله ﷺ قطُّ بيده ، ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يُجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قطُّ ، فينتقم من صاحبه ، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله فينتقم» . رواه مسلم (٢٣٢٧) في الفضائل .

٥ - كتب التواريخ والسِّير ، وما أكثرها قديماً وحديثاً ، فليس هناك شخص في الدنيا ألفت في حياته المؤلفات ، وكتبت في سيرته المجامع مثل هذا النبي العظيم .

فإنه بمقدور كل فرد بعد هذه المئات من السنين أن يتبين كل شيء في حياة رسول الله إذا ما رجع إلى هذه المصادر ، والمراجع .

* * *



الفصل الثاني

أنواع المهارات

الفصل الثاني

أنواع المهارات :

المهارات : جمع مهارة .

والمهارة تعني : الحذق في الشيء ، والإتقان له ، والإبداع فيه .

والمهارة : كثيرة الأفنان ، والألوان ، والأشكال ، والأنواع .

ويمكن أن نصنّفها ضمن نوعين كبيرين :

مهارات دنيوية .

ومهارات دينية .

أولاً - المهارات الدنيوية :

ونقصد بها ما يتعلق بشؤون الدنيا من صناعات ، ومخترعات ، واكتشافات ، وزراعات ، وتجارات ، وغيرها مما يتعلق بشؤون الدنيا أرضاً وسماء ، وفضاء ، براً وبحراً .

وهذه الفنون والعلوم ، والمجالات لا تحصى عدداً ولا تحصر ضمن طائفة معينة .

فأعمال الدنيا كثيرة ، ومجالاتها في الكون والأنفس والحياة متنوعة ، ومتعددة ، وفنونها لا يأتي عليها العدّ ، ولا الحدّ .

وقد انفتحت أبواب الدنيا على سيول من العلوم ، والفنون ، والصناعات والمخترعات ، والتقنيات ، واستسلمت الأفاق والأعماق لتلك المهارات ، وأسلمت قيادها لتلك المواهب المبدعة ، والطاقات ، والمواهب الخلاقة ، حتى كاد يقف العقل مشدوها أمام ما تدفقت به الدنيا من مخترعات ، ومستحدثات ، وما ابتكرته تلك المواهب والمهارات من صناعات ، ومنجزات ، وما تكشف عنه من ألوان من التجارات والعلاقات والسياسات .

لقد خبر الناس الدنيا ، ومهروا في تفجير طاقاتها ، واستخراج مكنوناتها ، وأتوا بما يشبه المعجزات من معطياتها ، فقرّبوا المسافات ، وسهّلوا الصعوبات ، وذلّلوا العقبات ، وكل ما قطعوا في أجوائها مسافة ، ونزلوا في أفيائها مناخاً نادتهم بلسان حالها : هل من مزيد؟

فشمّروا له ، وجدوا فيه ، فباض لهم ، وفرّخ ما لم يخطر لهم ببال .

مهارات مذهشة أفرزت منجزات ومخترعات مذهلة ، أدت خدمات كثيرة ومتنوعة ، وضعت الناس على سواحل بحار مغرية ، وفي قمم روابٍ مُخصّبة .

موقف الدين من هذه المهارات الدنيوية :

للدين موقف مشجع ، ومرغب في الاستفادة مما خلق الله تعالى في الأكوان ، ومؤيد لكل مهارة مبدعة ، ما دامت تصبّ في رياض المصالح الإنسانية الصالحة ، فالله عزّ وجل قال لعباده : ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : ٧٧] .

إن الله عز وجل خلق هذه الأكوان ، وشحنها بالمنافع قبل أن يخلق الإنسان .

قال تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ ﴾ ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن : ١٠ - ١٢] .

وقال : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ ﴿ وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ﴾ ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ [النازعات : ٣٠ - ٣٣] .

وقال: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾
[النحل: ٥].

وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَak لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٣].

ومعلوم أن التسخير لهذه الخلائق والمكونات إنما يعني تذليلها للعباد ، وتمكينهم من صياصيتها ، ونواصيها ، لينتفعوا بها .

والله عز وجل خلق الناس في أحسن تقويم ، وفضلهم على العوالم كلها ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وأعمرهم هذا الكون ، وكلفهم أن يعمره ، ويستخرجوا ما فيه ، ويسخروا كل طاقاته في مصالحهم الخيرة ، ومنافعهم الطيبة ، ولم يمنعهم إلا مما يسيء إليهم ويضر بهم .

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فإذا كان هذا هو موقف الدين من الكون والإنسان ، أفيقتل أن يمنع الدين الإنسان من بذل مجهوده في الاستفادة من هذه الدنيا الاستفادة المشروعة ، وينتفع بها الانتفاع الطيب . ويأخذ كل ما فيها ليسخره في وجوه مصالحه ، وساحات منفعه ، وليس هناك من خطر إلا أن يتحكم في رقاب هذه المعطيات العلمية ، والتقنية والخضارية زمر من الأشرار ، وطوائف من الفجار ، فيقودوا هذه الثروة ، والثورة في دروب الأذى والسوء .

وهذا مشاهد في جوانب كثيرة في هذه الحياة ، حتى توقع بعضهم أن تكون هذه الثورة الهائلة من المعطيات والمنجزات سبب الهلاك والخراب .

ولقد قال بعضهم :

ماذا يفيدك بعد اليوم يا بشر إن كنت بالعلم لا بالجهل تنتحر
النبي ﷺ والمهارات الدنيوية :

النبي ﷺ رسول من رب العالمين ، جاء ليقود قافلة الحياة ، وركب
الإنسانية إلى واحات الأمن والأمان ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ،
ويضع العباد كلهم على صعيد واحد من التأخي ، والتعاون ، يعبدون رباً
واحداً ، ويخضعون لسلطان دينه ، ونبراس شرعه ، وأنوار هديه وهذا
النبي الكريم ما وقف معارضاً ، ولا محارباً ، ولا صاداً عما يمكن أن تجود به
يد الإنسان في أي مجال من مجالات الدنيا من المهارات والابداعات ،
والاختراعات ما دامت هذه المعطيات تصب في مصالح العباد ، وتخدم دينهم
ودنياهم ، والنبي ﷺ لم يكثر التردد على الساحات الدنيوية ، ولم يفض
بالحديث عن أساليب استخدام الكون ، والتحكم في نواصيه ، بل ترك هذا
الجانب لعبقريات الناس ، ومواهبهم ومهاراتهم ، يتصرفون فيه وفق حاجاتهم
المتجددة المتطورة فالتعايش مع الدنيا ضرورة حياتية ، والإنسان بدافع
فطرته ، وحبه للبقاء سيبدع إنتاج ما يحتاجه ، ويبني هرم علومه عن الدنيا
بالتدرج وفق حاجاته المتجددة ، وسيستخدم ما يطبق من أساليبه المتطورة ،
فهو ليس بحاجة لمن يعلمه فنون الزراعة ، والصناعة ، وأساليب ابتكار التقنية
والاختراعات .

والله عز وجل الذي أوحى إلى النحل ﴿ أَنْ اخْذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّعَرَةِ فَأَسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ [النحل : ٦٨ - ٦٩] .

سيوحي لهذا الإنسان سبل التعرف على خزائن هذا الوجود ، ويلهمه طرق
التعرف عليه والانتفاع به .

وصدق الله حيث قال :

﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] .

وقال : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ عَيْنَيْنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

لكن النبي ﷺ أرشد الناس بعبقريته ، ومهاراته إلى معالم الطريق السوي في التعامل مع هذه الدنيا ومعطياتها المادية والحضارية ، بعباراته المحكمة ، وكلماته البليغة ، وأساليبه الدقيقة ، وترك المجال مفتوحاً لمواهبهم الدنيوية ، ومهاراتهم الإبداعية يضربون بها في كل فج ، ويمخرون بها في كل عُباب ، ما دامت المسيرة محوطة بأسلاك البرّ والمعروف ، ومحمية بحمى الأخلاق والفضائل .

قال ﷺ: «إن الله كَتَبَ الإحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» رواه مسلم (١٩٥٥) في الصيد.

قال النووي : وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة .

والأحسان: فعل ما هو حَسَنٌ.

وأحسن الشيءَ: أجاد صُنْعَهُ ، وأتقنه .

وحَسَّنَ الشيءَ: زينه ، ورقَّاهُ وأحسن حالته .

فالأمر بالإحسان مبدأ نبوي ديني دنيوي ، يفترض الاتقان والإجادة في كل قول ، أو عمل ديني ، أو دنيوي ، فهو مثل قول النبي ﷺ الآخر:

«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ الْعَامِلُ إِذَا عَمَلَ أَنْ يُحْسِنَ» «الجامع الصغير» ١٨٦٢ .

أي أن يأتي به على أحسن وجوهه وأحواله الممكنة ، وهذا عام في أعمال الدين والدنيا .

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» . رواه مسلم (٩١) في الإيمان .

والجمال: صفة كمال .

والجمالُ: صفة تلحظ في الأشياء تبعث في النفس سروراً ورضاً .

وأجمل الصَّنْعَة: حَسَّنَهَا .

وجمَّلَ الشيءَ: حَسَّنَهُ وزَيَّنَهُ .

فالجمال في الشيء: صفة مطلوبة ، وهذا عام في شؤون الدين والدنيا .

وقال ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكلَ من عملِ يده». رواه البخاري (٢٠٧٢) في البيوع.

وهذا حثٌّ على العمل ، وطلب الكسب ، وتلمس أحسن الطرق وأشرفها لتحصل المعيشة الهنيئة الرضية ، عن طريق الزراعة أو الصناعة .

وقال: «ما من مسلم يغرسُ غرساً ، أو يزرعُ زرعاً ، فيأكلُ منه طَيرٌ ، أو إنسانٌ ، أو بهيمة إلا كان له به صدقة» .

رواه البخاري (٢٣٢٠) في الحرث والمزراعة .

قال الإمام ابن حجر في «فتح الباري»: في الحديث فضل الغرس والزرع ، والحضُّ على عمارة الأرض ، ويستنبط منه: اتخاذ الصُّنعة والقيام عليها ، وفيه فساد قول من أنكر ذلك من المتزهدة .

وقال: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» رواه الترمذي (٢٠٩) في البيوع ، وابن ماجه (٢١٣٩) في التجارات .

وقال: «إن الله عزَّ وجلَّ يدخل بالسَّهم الواحد ثلاثة نَفَرٍ الجَنَّةَ: صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، ومُنْبَلُهُ» . رواه أبو داود (٢٥١٣) في الجهاد .

وأثنى النبي ﷺ على امرأة ذات صنعة كانت تصنع وتبيع ، وتنفق على أهلها .

روى الإمام أحمد ٣/٥٠٣ عن رائطة امرأة عبد الله بن مسعود أنها قالت للنبي ﷺ:

«إني امرأة ذات صنعة ، أبيع منها ، وليس لي ، ولا لولدي ، ولا لزوجي نفقة غيرها ، وقد شغلوني عن الصدقة ، فما أستطيع أن أتصدق بشيء ، فهل لي من أجر فيما أنفقت؟» .

فقال لها رسول الله ﷺ: «أنفقي عليهم ، فإن لك في ذلك أجرٌ ما أنفقت عليهم» .

مما ذكرنا يتضح أن النبي ﷺ وجه الناس إلى الكدح الحلال في الدنيا وإظهار المهارة في الكسب عن طريق الزراعة والتجارة والصناعة ما داموا يلتزمون ذلك من الطرق المشروعة وهذا اعتراف منه بقيمة الحياة ، ودور العمل في الدنيا ، في تحقيق المكاسب والمصالح المفيدة النافعة .

أمثلة من المهارات الدنيوية :

المهارات في الدنيا كثيرة ذات فنون ، وشجون ، وهي ليست حكرًا على المسلمين ، بل قد يمهر غير المسلم في كثير من الأعمال والصناعات وقد يتقنها ، ويحذق فيها كثير من الأشرار ، والفجار ، فليست المهارة الدنيوية دائماً صنو الأخلاق ، أو من بناتها .

فالمؤمن والمسلم يحوط مهاراته الدنيوية بسياج من الشرع والأدب والفضلية ، وغيره قد يستبيح المآثم في إنتاجه ، ويرتكب الحرام في حرفته وصنعتة ، رغم إبداعه فيها ، وتفوقه في ممارستها .

- هناك مفكرون موهبون يستخدمون عقولهم ، ويغوصون بأفكارهم ويخلقون بأذهانهم ، ويأتون بالعجائب .

- وهناك موهوبون في حركاتهم ، وسكناتهم أمثال السحرة والمشعوذين الذين يتصرفون بخفة ، وحذق ومهارة ، ويأتون بما يشبه الخوارق أمام أعين الناس .

- وهناك المغنون والمطربون أصحاب الألحان الشجية والأصوات الندية ، الذين برعوا في الغناء والموسيقا ، فأقاموا الناس وأقعدوهم بألحانهم وأصواتهم .

قال ابن العماد في كتابه «شذرات الذهب» ٣٥٢/٢ : كان أبو نصر الفارابي محمد بن محمد بن طرخان التركي ذو المصنفات المشهورة في الحكمة والمنطق والموسيقا أول من اخترع الآلة المسماة بالقانون ، وكان يتصرف فيها بالفلك والتركيب ، ويأتي بألحان مذهلة .

قال له سيف الدولة مرّة هل تسمع؟

فقال: نعم.

فأحضر كل ماهر بأنواع الملاهي ، فما حرك أحد منهم آلة إلا وعابها الفارابي ، وقال لصاحبها: أخطأت.

فقال له سيف الدولة: وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً؟

قال: نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة - كيساً - ففتحها وأخرج منها عيداناً فركبها ، ثم لعب بها ، فأضحك كل من في المجلس ، ثم فكّها وغيّر تركيبها ، وركّبها تركيباً آخر ، وضرب بها ، فبكى كل من في المجلس ، ثم فكّها وغيّر تركيبها وحركها ، فنام كل من في المجلس ، حتى البواب ، فتركهم نياماً ، وخرج.

- وهناك الرسّامون والخطاطون ، والنحاتون ، والمزخرفون الذين أتوا بالعجب العُجاب في هذه الميادين ، ولا يزال كثير من زخارف الأولين شاهداً على ما وصلوا إليه من مهارات في هذه الفنون.

وهناك الشعراء والأدباء الذين أجادوا وتفننوا في الشعر والنثر ، وكم خلّد الناس للشعراء والأدباء ، من قصائد رائعة ، واحتفظوا لهم بأقوال وحكم راقية.

- وهناك الوعاظ ، والخطباء ، والمجادلون والمناظرون الذين برعوا ، وأتوا بمهارات فائقة في هذه الميادين.

- وهناك الصناع وأصحاب الحرف اليدوية وهناك التجار وأصحاب الأموال الذي تفننوا ومهروا في حرفهم وتجاراتهم ، وخبروا الطرق المؤدية إلى ثرائهم ، وتثمير أموالهم. وتصريف بضائعهم.

وهناك اليوم أصحاب المواهب العلمية والتقنية الذين غزوا الفضاء ، وجابوا الأنحاء: صواريخ عابرة ، ومركبات فضائية ، وهواتف نقالة ،

وشاشات ، ورادارات ، وأقمار صناعية ، وفضائيات ، وأشياء لا تعدُّ ولا تحصى .

وهناك صنّاع السلاح المدمر ، والعتاد المخرب .

- وهناك أصحاب العلوم والنظريات في الفلك ، والطب ، والكيمياء ، والفيزياء ، والهندسة ، وغيرها .

والخلاصة ، فالمهارات كثيرة الفنون ، ومتعددة النواحي ، والله عز وجل أقام هذه الدنيا مسرحاً للأبصار ، والأفكار ، وقال للجميع :

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

ثانياً: المهارات الدينية :

ونقصد بها ما يتعلق بأمور الدين عقيدة ، وعبادة ، وشريعة ، وأدباً ، وثقافة .

والنبي ﷺ كان مثلاً أعلى في كل هذه النواحي حذقاً وإتقاناً ، وتوظيفاً وأداء ومهارة .

- ففي مجال العقيدة كان ﷺ راسخ العقيدة . رسّخها بسلوكيات فذة مؤثرة ، وممارسات ذكيّة نيرة ، أشرقت لها دنياه ، واستنارت بها حياته ، وامتدت أنوارها من حوله حتى عمّت أصحابه ، وغطت بهديها أتباعه واستمع إليه ، وهو يعبر عن مضمون ضميره في مناجاة ربه عز وجل ، واعترافه له بالوحدانية والربوبية .

«اللهم أسلمتُ نفسي إليك ، ووجهتُ وجهي إليك ، وفوضتُ أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك ، لا ملجأ ولا منجأ منك إلاّ إليك ، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلتُ» رواه البخاري (٦٣١٣) في الدعوات ، ومسلم (٢٧١٠) في الذكر .

«اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكلتُ ، وإليك أنبثُ ، وبك

خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاعْفُزْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ
وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمَقْدَّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ» .

رواه البخاري (٦٣١٧) في الدعوات ، ومسلم (٧٦٩) في الذكر .

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ
أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ
حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ،
وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ» . رواه البخاري (٦٣١٧) في الدعوات .

هذا التوظيف للعقيدة في هذه الألفاظ والتعابير ، لهو أعظم مهارة وأشرف
أداء ، وأجلُّ انتماء .

لقد عمل النبي بمقتضى عقيدته ، واستجاب قولاً وعملاً لمقتضى إيمانه ،
ومارس ذلك سلوكاً رائعاً ، قولاً وعملاً ، وبلاغاً .

لقد أفاض هذه الزُّوحانية الجيَّاشة على أصحابه ، فغمرهم بعواطف
الإيمان ، وغشيهم بأنوار الحق ، حتى غدوا نسخاً عنه ، يؤمنون بما يؤمن ،
ويقولون ما يقول ، ويفعلون ما يفعل بمهارة تشبه مهارته ، وحذق يشبه
حذقه .

لقد راوده المشركون ليرك إيمانه ، ومثَّوه بالأمانى ، وأرجفوا به بكل
شدة ، ليرك دينه فكان جوابه على كُلِّ ذلك .

«والله لو وضعوا الشَّمْسَ في يميني ، والقمر في شمالي على أن أترك هذا
الأمر حتى يظهره الله ، أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ مَا تَرَكْتَهُ» .

- وفي مجال العبادة لله عز وجل ، فقد أدَّى سول الله ﷺ ألواناً منها بكل
إخلاص ، وإتقان ، وجدِّ ونشاط . حتى أشفق عليه أصحابه ، لمَّا رأوا أن
قدميه قد تشبقتا من طول القيام في الصلاة .

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صَلَّى حتى انتفخت قدماه ، وفي رواية: حتى ، تشققت .

وفي رواية: حتى ورمت قدماه ، فقليل له : أَتَكَلَّفُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ، فقال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» رواه البخاري (٤٨٣٦-٤٨٣٧) في التفسير ، ومسلم (٢٨١٩) في المنافقين .

لقد تشققت قدماه لطول القيام في الصلاة ، يقرأ القرآن ، ويؤدي مراسم الطاعة والعبادة لربه عز وجل بلذة ، وخشوع ، متشاعلاً عن كل تعب أو نصب .

قال حذيفة رضي الله عنه : صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة ، فافتتح (البقرة) فقلت : يركع عند المئة ، ثم مضى ، فقلت : يصلي بها في ركعة ، فمضى ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح (النساء) ، فقرأها ، ثم افتتح (آل عمران) فقرأها ، يقرأ مترسلاً ، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مرّ بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ ، ثم ركع ، فجعل يقول : سبحان ربي العظيم ، فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد ، فقال : سبحان ربي الأعلى ، فكان سجوده قريباً من قيامه . رواه مسلم (٧٧٢) في صلاة المسافرين .

هذه القدرة على القيام هذا الزمن الطويل ، يقرأ من القرآن هذا القدر الكبير في ذلك الأسلوب الفريد من التدبر والتأني نابعة من حبّ الله تعالى شغله عن كل ما وراءه .

ولقد صدق ﷺ حيث قال : «وجعل قرّة عيني في الصلاة» . رواه أحمد . ١٢٨/٣

لقد التزم بقول الله عز وجل بكل صدق ومهارة ، وحبّ ﴿قُرْآنًا لِّقَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٢﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل : ٢ - ٤] .

وكان ﷺ يصوم ، ويكثر الصيام ، حتى قال أنس رضي الله تعالى عنه :

ما كنت أحبُّ أن أراه من الشهر صائماً إلاَّ رأيته» رواه البخاري (١٩٧٣) في الصوم.

وروي عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان يصوم تسع ذي الحجة ، ويوم عاشوراء ، وثلاثة أيام من كل شهر. رواه أبو داود (٢٤٣٨) في الصوم.

وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله ، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى ربِّ العالمين ، فأحبُّ أن يرفع عملي وأنا صائم». رواه النسائي ٢٠١/٤ في الصيام.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ، كان رسول الله ﷺ يصوم شعبان إلا قليلاً ، رواه النسائي ٢٠١/٤ في الصيام ، وقالت: كان النبي ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس. رواه الترمذي (٧٤٥) في الصوم ، والنسائي ٢٠٢/٤ في الصيام.

حتى إنه ﷺ كان يواصل الصوم ، فلا يفطر عند الغروب ، وهذا من خصوصياته.

ولما أراد بعض أصحابه أن يقتدي به ، نهاهم ، وقال: «إني لست كهيتكم ، إني يطعمني ربي ويسقيني». رواه البخاري (١٩٦٤) في الصوم.

قال ابن حجر في «الفتح» ٢٤٤/٤: يُحمل ذلك على حالة استغراقه في أحواله الشريفة ، حتى لا يؤثر فيه حينئذ شيء من الأحوال البشرية.

- وفي مجال التشريع ، والأحكام ، فقد بدَّع رسول الله ﷺ فبين الحلال والحرام ، والمصالح والمفاسد ، والمشروعات ، والممنوعات ووضع الناس على المحجَّة البيضاء ، ثم رعى هذه الشرائع والأحكام ، وطبقها على أحسن وجوه التطبيق.

فحارب الربا والقمار ، والغش ، والاحتكار ونهى عن كل عقود الغرر ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وقال: «من غشَّنَا فليس منا» رواه مسلم (١٠١) في الإيمان.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرة طعام ، فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللاً ، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» .

قال: أصابته السَّمَاءُ يا رسول الله ، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه النَّاسُ ، من غشٍّ ، فليس مني» رواه مسلم (١٠٢) في الإيمان .

وقال: «لا يحتكر إلا خاطيء» رواه مسلم (١٦٠٥) في المساقاة . وقال: «الجالِبُ مَرْزُوقٌ ، والمحتكرُ ملعون» رواه ابن ماجه (٢١٥٣) في التجارات .

وقال: «الحلفُ مَنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْبِرْكََةِ» . رواه مسلم (١٦٠٦) في المساقاة .

ونهى ﷺ عن الظلم ، وأمر بطاعة أولي الأمر ، وأمر بالتعاون بين الحاكم والمحكوم .

فقال ﷺ: «اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظُلُمَاتٌ يوم القيامة» . رواه مسلم (٢٥٧٨) في الب .

وقال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشيَّ كأن رأسه زبيبة» . رواه البخاري (٧١٤٢) في كتاب الأحكام .

وقال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ، ويلعنونكم» .

قيل: يا رسول الله ، أفلا تُنابذهم بالسيف؟ قال: لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، وإذا رأيتم من ولائكم شيئاً تكرهونه ، فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يداً من طاعة» . رواه مسلم (١٨٥٥) في الإمارة .

وأكد ﷺ على عقاب المجرمين ، وإقامة الحدود عليهم ، وطبق ذلك بنفسه ﷺ ، فرجم الزاني ، وضرب شارب الخمر ، وقطع يد السارق ، وقال:

«حَدَّثَ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِلنَّاسِ مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا ثَلَاثِينَ ، أَوْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا» .
رواه أحمد ٣٦٢/٢ .

وقال : «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَائْتُمِ اللَّهُ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتَ يَدَهَا» . رواه البخاري (٦٧٨٨) في الحدود ، ومسلم (١٦٨٨) في الحدود .

- وأما الآداب والفضائل والشيم الكريمة ، من سخاء ووفاء ، وبر ، وتواضع ، ولين جانب ، وغيرها ، فقد رعاها النبي ﷺ حق رعايتها ، ودعا إليها بأفضل ما يكون الدعاء ، وحَبَّبَ بها بأفضل ما يكون التحبيب ، كما نفر من أصادها ، وحذَّرَ من ركوب متون النواقص ، والمثالب ، والمنكرات ، فقال ﷺ : «مِمَّنْ شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَسَنِ الْخَلْقِ ، وَإِنْ اللَّهُ يَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ» . رواه الترمذي (٢٠٠٣) في البر .

وعن عبد الله بن عمرو قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا مُتَفَحِّشاً ، وكان يقول : «إِنْ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقاً» رواه البخاري (٣٥٥٩) في المناقب ، ومسلم (٢٣٢١) في الفضائل .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل عليه السلام يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الرياح المرسلة . رواه البخاري (٣٥٥٤) في المناقب .

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : كان النبي ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها ، رواه البخاري (٣٥٦٢) في المناقب .
وكان ﷺ يقول : «أَنْفَقَ يَا ابْنَ آدَمَ يُنْفَقَ عَلَيْكَ» .

رواه البخاري (٤٦٨٤) في التفسير ، ومسلم (٩٩٣) في الزكاة .

وقد سئل ﷺ : أي الإسلام خير ، فقال : «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف» .

رواه البخاري (١٢) في الإيمان ، ومسلم (٣٩) في الإيمان .
وقال ﷺ: «ما زد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عزَّ وجلَّ» رواه مسلم (٢٥٨٨) في البر .
وقال: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله تعالى» رواه البخاري (٧٣٧٦) في التوحيد ، ومسلم (٢٣١٩٠) في الفضائل .
وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» رواه البخاري (٦٠٢٤) في الأدب ، ومسلم (٢١٦٥) في السلام .
وقال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه» رواه مسلم (٢٥٩٤) في البر .
وقال: «من يُحرِم الرفقَ يُحرِم الخير» . رواه مسلم (٢٥٩٢) في البر .
وفضائله وآدابه ﷺ - قولاً وفعلاً وتوجيهاً أكثر من أن تحصي ، فقد قال له ربه عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] .
أما التثقيف والتعليم ، فقد كان له فيهما القدح المعلى ، والنصيب الأوفى ، فقد علم أصحابه أفضل العلوم ، وثقفهم بها ، ورباهم عليها بكل حذق ومهارة ، وإخلاص ، وهو القائل:
«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة» رواه مسلم (٢٦٩٩) في الذكر .

وقال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» .
رواه الترمذي (٢٦٤٧) في العلم .
وقال: «إن الله وملائكته ، وأهل السماوات والأرض ، وحتى النملة في حُجْرها ، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير» .
رواه الترمذي (٢٦٨٥) في العلم .
وبين ﷺ أن من الخطر بمكان أن يموت العلماء ، ويقل العلم بفقدهم ،

ويقوم أنصاف العلماء ، أو المحسوبون عليهم بأدوار القيادة ، والصدارة .

عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس» ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتي إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا ، وأضلوا» .

رواه البخاري (١٠٠) في العلم ، ومسلم (٢٦٧٣) في العلم .

والخلاصة ، فإن النبي ﷺ أولى هذا الجانب من المهارات ، وهي المهارات الدينية عناية عظيمة ، فتدخل في كبيره وصغيره ، وأصل وفصل ، في كل جوانبه ونواحيه ، على العكس من المهارات الدنيوية ، فإنه وقف عند سواحلها ، ولم يخض في لججها ، وأعماقها ، ذلك أن القضايا الدينية أمرها خطير ، ولا يصح أن تترك للناس ليضربوا فيها أخماساً بأسداس ، فيخطئون مرّةً ويصيبون أخرى ، لذلك تولّى هذا الجانب ، فأبدع فيه ، وأفاض ، وترك الناس على المحجة البيضاء ، وترك لهم تراثاً لا يضلون ما تمكسوا به .

* * *

الفصل الثالث

أسباب اختيارنا الكتابة في هذا
الموضوع

الفصل الثالث

أسباب اختيارنا الكتابة في هذا الموضوع :

لقد اخترنا أن نكتب في هذا الموضوع لأسباب عدّة :

أولها : لأنه من الجدّة والأهميّة بمكان فرسلنا الكريم مُرَبِّ فذُّ ، ورائد وقائد فريد ، ومثل أعلى في ميادين العلم ، والقيادة والتربية والتوجيه ، ومهاراته الفكرية والسلوكية بلغت القمة في تاريخ العلماء والعظماء ، فاقهم في الكمال ، وسلم مما لحقهم من الهنات والعيوب ، فإنه المختار من الخلق ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وعلمه فأكمل تعليمه ، ووصفه بقوله الكريم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقال : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء :

١١٣] .

ورُوي أَنَّ النبي ﷺ قال : «أَدَّبَنِي رَبِّي ، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي» . رواه ابن السمعاني في «أدب الإملاء» عن ابن مسعود . «الجامع الصغير» (٣١٠) .

قال الزكشي : هذا حديث معناه صحيح ، لكنه لم يأت من طريق صحيح .

قال المناوي : أدبه بإفضاله عليه بالعلوم الكسبية ، والوَهْبِيَّة ، بما لم يقع نظيره لأحد من البشر .

وقال القرطبي : حفظه الله من صغره ، وتولّى تأديبه بنفسه ، ولم يَكِلْهُ فِي

شيء من ذلك لغيره ، ولم يزل يفعل به حتَّى كَرَّهَ إليه أحوال الجاهلية ، وحماه منها ، فلم يَجْرِ عليه شيء منها ، وكُلُّ ذلك لطفٌ به ، وعَظْفٌ عليه ، وجَمْعٌ للمحاسن لديه .

إن سيرته الكريمة بما فيها من روائع المهارات ، وما تنطوي عليه من عيون الخبرات والإبداعات ، وفنون المحاسن والكمالات جديرة أن تظل محل نظر الباحثين والعلماء والقادة والموجهين ، يصوغون من معينها مناهج التربية والتعليم ، ويقطفون من ثمارها أصول الحكمة ، وفنون القيادة .

لذلك اخترنا أن تكون سيرته العطرة محطاً لبحثنا ، وموثلاً لدراستنا .

ثانيها : كثرة الأمثلة والشواهد في سيرة المصطفى ﷺ ، التي تؤكد وتؤيد تحليه بهذه المناقب العظيمة ، والشيم الرفيعة ، مما يجعل الموضوع غنياً بالمفاخر ، ثرياً بالمآثر ، وهذا يجعل أمته في أعلى ، وأعلى قناعة بقيادته ، وريادته ، وإمامته ، وضرورة اتباعه ، والسير على مناهجه ، وكيف وقد قال - كما أمره ربُّه في محكم كتابه : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

ثالثها : تزكية وتنمية محبتنا لرسول الله ﷺ وتعظيمنا لجنابه الكريم .

فإن المحبة لا يمكن أن تستقر ، وتستمر وتشتد وتتموا إلا في أحضان إدراك فضائل المحبوب ، والوقوف على محاسنه ، وكمالاته ، فإن الإنسان يبدع جمال ما يحب ، وقدسمة ما يعتق ، وهو في الوقت نفسه عدو ما يجهل .

لهذا أوجب الدين محبة النبي ﷺ ، وجعلها بعد محبة الله تعالى ، وفوق محبة ما عداهما من أهل ونفس ومال .

قال الله تعالى في حقه الكريم : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّابَعُوا أَلْتُورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ومعنى : (عزَّروه) أي عظموه تعظيم طاعة ، ومحبة واحترام .

وإذا رحنا نبحث عن الفضائل التي تحمل على الحب وتدعو إلى التعظيم

والاحترام ، وترغُّب في الاقتداء والالتزام لما وجدناها تتجمع في شخص
تجمُّعها في شخصية النبي المصطفى ﷺ .

لذلك رأينا أن نذكر من سيرته العطرة أنواعاً من مهاراته ، وشيمه ، وجلائله
ما يُنمِّي في قلوبنا محبته ، وتعظيمه ، والرغبة في محاكاته واتباعه ، ويكفيه
ﷺ فخراً في هذا الرحاب قول الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا
عَنكَ وَزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ ﴾ [الشرح : ١ - ٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۖ ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ ﴾ وداعياً إلى الله بإذنه
وسراً جاثراً ﴿ ﴾ [الأحزاب : ٤٥ - ٤٦] .

وقوله : ﴿ فِيمَا رَحِمْتُم مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

رابعها : تكوين مهارات متميزة عند الأمة ، قادة ، ومقودين ، مربين ،
ومريدين ، أتباعاً ، ومتبوعين ، وذلك عن طريق إبراز النماذج الراقية ،
والأمثلة السامية من سيرة المصطفى ﷺ ، ومحاولة إيصالها إلى أذهان
المسلمين ، وأفكارهم وقناعاتهم ، فإن الإنسان إذا اتَّضح له الجمال لا يمكنه
أن لا يدركه ، وسوف يجد نفسه مدفوعة إلى حبه ، وإذا فاحت الروائح
الطيبة ، لا يمكنه أن لا يشمَّها ، وهكذا الأفكار النيرة إذا استقامت على سوقها
راجت ونفقت ، وكثر روادها ، والمؤمنون بها ، من هنا جعل الرب عزَّ وجل
نبيه قدوة للأنام بما جبله عليه من جليل الخلال ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ
اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

من هنا نلمح السرَّ في عظمة جيل الصحابة رضي الله عنهم في حبه للنبي ،
وتلمسهم أصناف مهاراته ، ومحاكاتهم له في جُلِّ سلوكياته ، فاستحقوا الثناء

العطر ، والذكر الحسن بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لذلك جزاهم بقوله الكريم:

﴿سَيَبْذِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِالنَّهِمِ﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿[محمد: ٥ - ٦].

إن تأصيل هذا المبدأ: «المهارات الإنسانية» وإبرازه بأمثلة حيَّة ، ونماذج مشرقة من سيرة رسولنا الكريم ﷺ يضع أمام الأجيال القدوة المتميزة ، والأسوة المحبَّبة ، مما يدفع تلك الأجيال إلى النظر فيها ، والإكبار لها ، والعمل على محاكاتها ، والتشبه بها ، وهذا ما تحتاجه الأمة ، وتتطلبه حياتها السامية ، فإن الإنسان يكتسب خبراته الراقية ، أو الهابطة مما يقع عليه سمعه وعقله من النماذج والأمثلة .

لذا رأينا أن نكثر من هذه الأمثلة من سيرته الكريمة المليئة بالمثل الرفيعة .

خامسها: تولي القرآن الكريم إبراز هذا المبدأ ، والتركيز عليه بذكر أمثلة نيرة من تصرفات أشخاص اتسمت تصرفاتهم بمثل هذه المهارات الرائدة ، وفي هذا فتح لهذا الباب ، ودعوة إلى تبنّيه والتأكيد عليه ، والتحلي به .

وفي هذ تلبيةً لدعوة الحق عز وجل ، وطاعة له ، وعبادة يؤجر المرء عليها ، وإليك طائفة من هذه الأمثلة .

١ - قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخِمْكُمَا فِي الْأَرْضِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانٌ وَكُلًّا ؕ إِنَّا نَحْكُمُكُمْ وَأَعْلَمُ الْغُيُوبِ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩].

أي اذكر يا محمد قصّة داود وسليمان في هذه القضية وحكمهما فيها ، وخلاصة هذه القضية :

أن رجلين دخلا على داود ، فقال أحدهما : إن غنم هذا دخلت زرع ليلاً ، فوقعت فيه ، فأفسدته ، فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع ، لأنه قد استوت قيمة الغنم وقيمة النقصان من الحرث ، وهذا حكم حسن ، لكن سليمان اهتدى لما هو أحسن ، فقال : غير هذا أرفق بالفريقين ، قال : تدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بألبانها وأولادها وأصوافها ، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم حتى يصلحه ، ويعود كهيتته يوم فسد ، ثم يترادآن .

فقال داود : القضاء ما قضيت ، وأمضى الحكم بذلك .

لقد كان ما حكم به كل واحد منهما نابعاً من اجتهاد منهما ، والاجتهاد مشروع من الأنبياء فيما لا نصوص ، ولا وحي فيه .

وفي هذا فتح لأبواب المواهب ، وتفتح العبقريات ، وإجادة النتائج ، وتحقيق المهارات ، وتحري الأصبوب والأنفع من الاجتهادات والقرارات والحلول .

لقد قدم الدين عندهما حكم الابن على حكم الأب ، وكلاهما نبي ورسول ، لأن الدين لا يراعي الأبوة ، أو البنوة ، مراعاته الحق والمصلحة فأينما وجد الحق والمصلحة فثم شرع الله عز وجل .

وعلى الناس أن يصفقوا المواهب ، وينموا المهارات ، للوصول إلى المصالح ، والحقائق ، ولا يضيرهم أمن عليّة القوم كانوا أو من عامتهم .

٢ - ذكر القرآن الكريم ذا القرنين ، كرجل فذ ، وقائد موفق ، سمت مواهبه ، ورقت مهاراته ، واستقامت قراراته ، فقال عز وجل :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ^(٨٦) إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ^(٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا ^(٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَّاقُوا الْعَذَابَ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ^(٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ^(٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ^(٨٨) [الكهف : ٨٣ - ٨٨] .

ذو القرنين رجل قائد فاتح طاف البلاد ، وأطلق الحقُّ يده في معاملة العباد فكان فذاً في تصرفاته ، وعدلاً في معاملاته ، وحكماً في سياساته وقراراته ، ماهراً في أحكامه ، أخذ نفسه بعقاب الظالم ، ونصر المظلوم والإحسان إلى كل محسن ، ترسم أحكام الحق في عبادته ، وسار على نهج الدين في رشاده ، وهذا القائد وأمثاله محط أنظار المصلحين ، ومنار القادة العادلين وما كان منه إنما هو وليد ثقافة حقّة ، وتربية رشيدة ، وتنشئة راقية ، لذا ذكر في معرض المدح ، والثناء ، ووضع موضع الأسوة والقدوة .

٣ - ذكر القرآن الكريم بلقيس ملكة سبأ من غير أن يسميها ، بل اكتفى بقوله : ﴿ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٣] .

ذكر الله تعالى هذه المرأة مشيراً إلى عدد من السمات المتميزة في شخصيتها ، من حيث أناتها في الأمور ، وتريثها في اتخاذ القرار ، وحسن سياستها في مشاورة القادة ، ومعاملة الملوك ، ودقة أجوبتها في المحرجات ، وفضلها في الرجوع إلى الحق ، وهذه كلها مهارات ، امتلكتها بوفرة الذكاء ، وطول التجارب ، وسعة المعرفة ، ومعايشة الناس والأحداث ، واستمع إلى آيات من حديثها . قال الله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَأْيُهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٥﴾ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَىَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٢٩ - ٣١] .

موقف رائع في الرجوع إلى عليّة القوم ، وتلقّي حسنٍ للكتاب فيه كل الأدب ، (إنَّه كتابٌ كريمٌ) والأمانة في النقل والبلاغ لم تخف من كتاب سليمان شيئاً ، ثم تابعت الحديث .

﴿ قَالَتْ يَأْيُهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل : ٣٢] .

إنه موقف رائع يعبر عن رفيع في القيادة ، ومعرفة في استرضاء القوم ، واختبار النوايا ، وحرص على البعد عن الاستبداد ، وارتجال القرار ، وها نحن نستمع إلى ما أجابها القوم : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل : ٣٣] .

موقف رائع من العزة والطاعة ، يُغري بالتزق ، ويوحى بالطيش والغرور ، ولكنها كانت أكبر من ذلك ، كانت ماهرة ، وحاذقة : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] .

موقف آخر من المهارة أرادت أن تضع أصابع القادة على الأمر الخطر ، وتستشير فيهم الخوف من الوقوع في شباك الذل وفخاخ الهوان ، فقالت ما قالت ، ثم قالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٥] .

وهذا موقف رائع أيضاً باختبار الحقائق ، والدوافع فإن كان خصومها طلاب دنيا أغرتهم الهدايا ، وإن كانوا غير ذلك كان لها معهم موقف آخر ، وشأن مختلف .

ولم يكن سليمان عليه السلام بأقل مهارة وحذقاً منها ، واستمع إلى القرآن الكريم يتحدث عنه حين وصلت إليه الهدايا : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُمُ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَبَتَأْتُ الْمُلُوكَ أَنِيئِي بَعْرِشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفَرْتُ مَنِ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي لَبِئَئِذَا شَكَرْتُمْ أَكْفَرْتُمْ أَمْ أَكْفَرْتُمْ مِّنْ شُكْرٍ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٣٦ - ٤٠] .

مواقف عظيمة من الحزم والعلم واختبار القدرات ، واستنهاض الملكات والمهارات ، وأداء واجب الشكر لرب الأرض والسموات .

ثم يعود النص إلى بلقيس ليسجل النهاية الرشيد ، والموقف المشرف ، والمهارة البارعة ، قال سليمان عليه السلام : ﴿ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ فَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي

ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ [النمل: ٤١ - ٤٤].

إن المهارة والبراعة تبدى في جوابها الذكي: ﴿كَانَهُ هُوَ﴾. لم تقل: نعم ، خوفاً من الكذب ، ولم تقل: لا خوفاً من التكذيب ، وإنما قالت: ﴿كَانَهُ هُوَ﴾ فشبهت عليهم كما شبهوا عليها ، فإنهم قالوا لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ أي أمثل هذا عرشك؟ ولم يقولوا: أهذا عرشك؟ حتى لا يكن تلقيناً لها ، فالتقت مهارات سليمان بمهاراتها ، وتراءت براعاتهما في هذا المشهد القرآني الفريد ، الذي يلفت الأنظار إلى ما يمكن أن يتحلى به الناس من الفطن ، والمهارة في أقوالهم وأفعالهم .

وانتهى المشهد بإبراز الملكة الخيرة عند هذه السيدة الراقية بأن أعلنت إسلامها ، وتخلصت من ظلمها ، لما لمعت لها بوارق الحق ، واستقامت عندها براهين النبوة. ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٤ - لقد ذكر القرآن الكريم مكراً مجدها لدورها البناء في عجلة الحياة ، وذكر في مقابلها غباءً: يتنطع ، بعض الأغبياء ، ويتكلفه بعض المتشدين ، ليظهر الفرق بين الثرثرة الفارغة ، والمهارات النافعة .

قال الله تعالى لبني إسرائيل لما طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه ، ويتخلصون به من عار الهزيمة التي أخرجتهم من ديارهم ، وأوقعتهم في السبي هم وأبنائهم .

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فقوة الجسم ، ووفرة العلم هما عمودا التَّجَحُّج ، وسببا الحذق والمهارة والإبداع ، فمن امتلكهما فقد امتلك مفاتيح السبق والتفوق ، شريطة أن يصحبهما نور الهداية ، وضياء التوفيق .

٥ - لم يكتف القرآن الكريم بذكر المهارات والخبرات في مقومات الرجال والنساء ، بل تجاوز ذلك إلى ذكر بعض الحيوان ، ظهرت عنده في بعض المواقف ، نماذج راقية من القول والعمل تشير إلى خبرة منجية ، ومعرفة مفيدة ، قال الله تعالى : ﴿ وَخَيْرَ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَبَسَّرَ صَاحِبُكَ مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَا أُغَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ لَحُظْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

بعد هذه المقالة المنجية إن صدقت قال له سليمان : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٥) أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٦﴾

فذهب الهدهد بالكتاب ، وألقاه إلى بلقيس ، وكان من أمرها مع سليمان ما كان ، وبيت القصيد هنا : تلك النملة الحكيمة ، ذات المهارة الفائقة ، لقد خطبت في قومها ، وأندرت أمتها ، وحذرتهم عواقف الغفلة والتسبب ، ونادتهم النجاة النجاة ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

لقد أعجب هذا الموقف من هذه الحشرة نبياً من الأنبياء ، ﴿ فَبَسَّرَ صَاحِبُكَ مِنْ قَوْلِهَا ﴾ وحرك في ضميره إدراك مظاهر النعمة ، ومواقف الشكر .

وليس أمر الهدهد بأقل إثارة من أمر النملة ، فهو جوال يستطلع الأخبار ، ويُقدِّم المشورة والعلم لأعظم الأخيار ، ويقوم بمهمة جمع الشمل والدعوة إلى الله تعالى ، وهذه مهارات تذكر حتى للحيوانات ، وخبرات تمجِّد حتى

للحشرات وهذا دليل اهتمام الدين بهذه الكفاءات والمهارات .

فما أجملها يوم تكون عند الناس ، ويزدان بها البشر الذين هم في أعلى وأعلى درجات سلم الحياة والأحياء .

﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران :

٨].

ثم إن ربنا سبحانه وتعالى ذكر نفسه ، وصنعه في مجال الإحسان والإتقان ، ليسنَّ لعباده هذه السنة المباركة في الحِزْق والمهارة والإجادة والإبداع ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ [السجدة : ٧].

وقال : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨].

وقال : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾ [الملك : ٣].

ولهذا قال لعباده : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥].

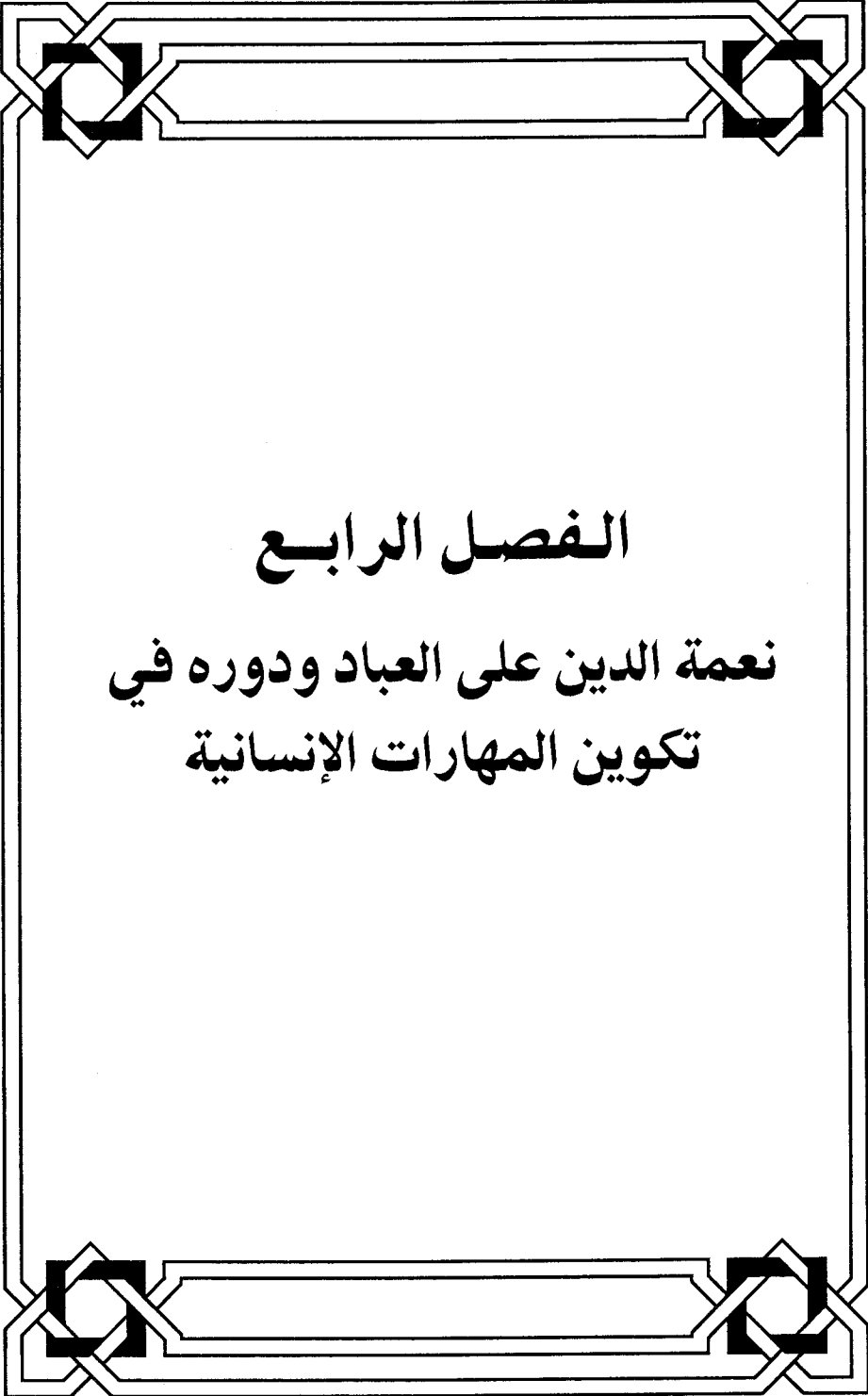
وقال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦].

وقد سئل النبي المصطفى عن الإحسان فقال :

« أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » [رواه مسلم (٨) في

الإيمان .

* * *



الفصل الرابع

نعمة الدين على العباد ودوره في تكوين المهارات الإنسانية

الفصل الرابع

نعمة الدين على العباد ، ودوره في تكوين المهارات الإنسانية :

(١) تعريف الدين :

الدين في اللغة : الخضوع والطاعة ، يقال : دان ، يدين ديناً ، وديانة : خضع وأطاع .

والدين شرعاً : الخضوع والطاعة لله تعالى ، مع الحب والتعظيم لجنابه الكريم .

والدين : اسم لجميع ما يُعبد به الله تعالى من اعتقاد بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح والأركان .

وقد عرفه العلماء بقولهم : الدين : وضع إلهي ، سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود لما فيه صلاحهم في الدنيا ، وسعادتهم في الآخرة .

فهو إذاً تفضل من الله تعالى ، لم يشركه فيه أحد ، لينال به العباد حظهم من صلاح الدنيا ونعيم العقبى .

(٢) قدم الدين :

الدين قديم ، بقدم الإنسان ، فأدم أول البشر ، خلقه الله تعالى بيده ، ونفخ فيه من روحه ، فكان في أحسن تقويم ، ثم أوحى إليه وعلمه كل ما هو بحاجة إليه ، فكان أول الدين .

قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

ولمزيد فضله ، وكرامته بتعليم ربه ، أمر الله ملائكته بتكريمه ، والسجود له ، ففعلوا إلا إبليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين .

قال عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فطرده الله تعالى من رحمته ، وأخرجه من فسيح جنته ، إذ كان أول من عصى وتكبر ، وأصر ، فلم يتب ولم يستغفر ، فقال له ربه : ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وقال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨].

وخلق الله عز وجل لآدم زوجه حواء ، وأسكنهما الجنة ، وأباح لهما أن ينعما بكل ما فيها ، ونهاهما عن شجرة معينة منها اختباراً لهما ، وحذرهما من فتنة الشيطان ، وغوايته ، وقد جاء في البيان الإلهي :

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال تعالى له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩].

لكن الشيطان احتال لهما ، وأقسم لهما ، وأغراه وزوجه أن يأكلا من الشجرة ، فصدقاها ، ونسيا نهي الله ، فأكلا ، فكانت الخطيئة الأولى ، ونزلت العقوبة ، وقص الله عز وجل مجمل ما كان ، فقال عز من قائل :

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلَهُمَا بِفُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢].

فلما أحسَّ الزوجان أنهما وقعا في الفخّ وأتيا ما لم يكن لهما أسرعاً إلى

التوبة وعبراً عن مزيد من الندم ، وطلباً من الله تعالى المغفرة ، وقالوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، قال تعالى :

﴿ ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رِبُّهُ فَثَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢٢].

لكن كان ما قدر الله عز وجل ، فقال : ﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف : ٢٤].

ولما كان ما كان طمأن آدم ربُّه ، بأنه سوف يتولاه برعايته ، ويكلؤه بعنايته ، ويمده بأنوار دينه ووحيه ليظل هو وذريته سائرين في ركاب الخير ، محميين بسياج من الهداية ، وأنوار من الله تبارك وتعالى فقال عز وجل :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] ، وصدق الله تعالى وعده ، فكان دين الله عز وجل ، وكان وحيه لآدم ، وكان آدم رسولاً لمن جاء من ولده ، يعلمهم ويهديهم ، ويشرهم ، وينذرهم ، ويرعاهم ، وينصحهم ، ويمهد لهم طريق العودة إلى الجنة ، وبهذا تعلم أن آدم أول رسول ، وأن دينه أول دين ، وأن الدين قديم بقدم الناس ، وأنه من وضع الله تعالى ، تكرم به على عباده ، رعاية لهم ، وإقامة للحجة عليهم ، وبهذا يعلم خطأ من يقولون : إن الدين حدث أخيراً بعد وجود الناس بأزمان ، وإنه كان وليد علاقات الناس ، وثمرة إفرازاتهم ، ونتيجة احتكاكاتهم ، وتطلعاتهم وتخوفاتهم ، وهو من مواطاتهم فيما بينهم ، ولذلك أخذ التدين أشكالاً مختلفة حسب الأهواء ، والبيئات ، وهذا القول مجرد رجم بالغيب ، وتخوض في الجهل ، وتقول بالظن المنافي لصريح الأديان والشرائع ، ومناهض لفضل الله ، وحكمته في رعاية عباده ، وتكريمه لهم ، وإن حصل ما حصل من ضلال ، واختلاف في الأديان والمسالك فما ذلك إلا من عصيان العصاة ، وإغواء الشياطين ، وليس من خلو الحياة من الدين .

وقد أخبر النبي المصطفى ﷺ أن الناس إنما كانوا على الدين ، وأنهم إنما شذ من شذ منهم بعمل الشياطين .

عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته :
«ألا إن ربي أمرني أن علمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا ، كل مال نحلته
عبداً حلال ، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين ،
فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي
ما لم أنزل به سلطاناً» (رواه مسلم (٢٨٦٥) في كتاب الجنة .

قال الإمام النووي :

● حنفاء : أي مسلمين ، وقيل طاهرين من المعاصي .

● اجتالتهم : أي استخفوا بهم ، فذهبوا بهم ، وأزالوهم عما كانوا عليه ،
وجالوا معهم في الباطل .

والحديث يدل بوضوح على أن الأصل في الناس التدين ، وأن الضلال
وارد عليهم ، حادث فيهم ، وهذا دليل قدم الدين ، وأنه رافق الإنسان منذ
نشأته .

(٣) ضرورة وجود الدين :

الدين الإلهي ضرورة أكيدة للناس في كل زمان ومكان ، لا ينفكون عنه ،
والتدين فطرة إنسانية فطر الله تعالى الناس عليها ، وحاجة ملحة لا يستغنون
عنها ، مهما تطورت بهم الحياة ، وأشرقت فيهم المعارف والعلوم ، وتقدم
بهم العمران ، وارتفع صرح التمدن ، وقامت أشكال الصناعات ،
والمخترعات ، وألوان الآداب والفنون .

إن الدين سوف يظل حاجة أساسية لا غنى عنه ، لأنه الربان الذي يقود
سفينة الحياة ، ويتجاوز بها لجج البحار ، لينجو بها إلى ساحل الأمان ،
وشطآن السلامة .

وإلا فمن ذا الذي يقود القافلة على هدى وبصيرة ، ويسدد خطاها ألا
تنحرف يمناً أو يسرة ، فتضل في فيافي الظلام ، وتتكسر على صخور الجهل
والأوهام .

إن الإنسان عرضة للخطأ ، والجهل ، والانحراف ، والإنسان بطبعه العجلة ، والضعف والغفلة ، والقصور ، ولا بد له من حارس يحرسه ، ومرشد يبصره ، ومعلم يسدده ، وناصح يقومه ، وليس أقدر على ذلك من الدين ، لأنه من صنع العليم الخبير ، الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، وقرب القافلة من السلامة إنما يقاس بمقدار قربها من الدين ، وعرضتها للهلاك بمقدار بعدها عن الدين ، فالدين عامل حماية ، والبعد عنه عامل هلاك ، وهذا صريح قول الله عز وجل : ﴿ قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

فاتباع دين الله ، والتمسك بأهداب هدايته ضمان من الضلال والشقاء والضنك والتكد والهلاك ، والعمى في الدنيا والآخرة ، وليد الإعراض عن دين الله القويم ، وشرائعه المنيرة . فاعتبروا يا أولي الأبصار .

لقد عاش الناس فترات تدين ، فأحسوا بالنعيم ، وتمتعوا بالأمن والأمان ، وتنكبوا طريق الدين أحياناً ، فغرقوا بألوان من الشقاء ، وضروب من الهلاك .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وخلاصة القول: أن الحياة لا تستقيم بغير دين ، وأن الناس لا تصلح أحوالهم بعيداً عنه ، لأن الناس اجتماعيون في طبائعهم ، ومختلفون في رغائبهم ومصالحهم ، ولا بد لهم من نظام يحكمهم ، ويقيم العدل بينهم ، يؤمنون به ، ويحترمونه ، ويكون عوناً لهم ، ومصلحاً لضمائرهم ، وظواهرهم ، وجميع مسالكهم وتصرفاتهم .

ولا بد لهذا النظام من أن يكون مُلَمَّاً بكل شيء ، سديداً في كل شيء ، ثابتاً في ثوابته لا يتبدل ومرناً في أحكامه يرفع الواقع مهما تغير ، وسطاً يسوس الناس بالحكمة ، وهذا شأن دين الله ، فالله عز وجل منذ كان الدين أحسن كل

شيء خلقه ، ثم هدى ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، وما كان ربك نسياً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُورًا بِئْسَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَسِفُّ مِمَّا فُتِنَ بِهِ ﴾ [ق : ١٦] .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبأ : ١ - ٢] .

وقال : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سبأ : ٣] .

فإذا كان الله تعالى كذلك ، وكان هو صاحب الدين ، والمتفضل به كان دينه مبرراً من العيوب ، وصالحاً لكل زمان ومكان ، أما ما يتواطأ الناس على وضعه من نظام ، فهو عرضه للأخطاء والنواقض . وما أكثر ما تقود الأخطاء إلى الهلاك ، وتسوق إلى الشتات ، والخصام . وليس هذا بخافٍ على من ألقى السمع ، وهو شهيد ، وصدق الله عز وجل إذ يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

(٤) دين الله أجل النعم على العباد :

نعم الله تعالى على العباد في الأرض ، والسماء ، والنفس والحياة لا تعد ولا تحصى ، فهو مولياها ، وهو خالقها ، ومصدرها ، ولا يملكها سواه ، ولا يجود بها إلا هو ، وصدق الله عز وجل إذ يقول : ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ إِلَّا بِآيَاتِهِ يَتَخَرَّوْنَ ﴾ [النحل : ٥٣] .

وقال : ﴿ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

ولكن ، فإن نعمة الدين سوف تظل في قمة هذه النعم ، لأن هذه النعم على وفرتها عدداً ، ومدداً سوف تنقلب إلى نقم ، ومصائب إذا لم يكن هناك دين يأخذ بنواصيها ، ويوجه مساراتها ، لأنها أسلحة ذوات حدود ، تصلح

وتفسد ، فالدين يصلح بها ، والكفر يخرب بها ، وأسوأ مافي الأمر أن أصحاب هذه النعم ، يوم لا يدينون بدين يخربون الدنيا ، من حيث يظنون أنهم يحسنون ، لاختلال موازينهم وفساد معاييرهم .

قال الله عز وجل فيهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١١ - ١٣] .

وقال عز من قائل : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ (١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ - ١٠٥] .

وقال في شأنهم : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ (٢٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِئْسَ الْمُهَادُّ ﴾ [البقرة : ٢٥ - ٢٦] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَكُ الْقِرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨ - ٣٠] .

هذا حال هذه النعم في أيدي هؤلاء الكفرة الفجرة ، أسلحة من حديد ونار ، وذرة وجراثيم ، يخربون بها العامر ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويزرعون في الأرض الفساد ، والله لا يحب المفسدين .

وهذا على النقيض تماماً من حال المؤمنين المتدينين بدين الله ، المعتصمين بحبله ، المستنيرين بهديه ، الخائفين من الخطأ بين يديه .

قال تعالى فيهم : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

نعم إنهم أصلحوا ما بينهم وبين الله ، وما بينهم وبين الناس وزرعوا الدنيا بالخير ، وكنسوا منها بذور الشر ، ومنعوا مظاهر السوء ، فسعدوا ، وسعدت

بهم الحياة والأحياء ، وكان لهم عند الله تعالى حسن المآب .

فالدين إذاً نعمة من أجل النعم ، والكفر نقمة من أفدح النقم ، وشتان بين هذا وذاك فاعتبروا يا أولي الأبصار .

قال تعالى : ﴿ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] .

وقال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ أَمْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمْ الَّذِينَ فَسَقُوا فَأَمَّا إِلَهُهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ [السجدة : ١٨ - ٢٠] .

(٥) محاسن الدين :

الدين منذ وجد ، إنما هو فيض من كمالات الله عز وجل فهو لهذا في قمة الحسن والكمال ، تتجمع مقاصده ومحاسنه وتدور كلها حول رعاية مصالح الناس ، ودرء الفساد عنهم ويتمثل ذلك بالمحافظة على ما يسمى بالضروريات الخمس ودرء الخطر عنها ، وتشريع كل ما يحوطها ، وينميها ويصونها ويحول دون تسرب الأذى إليها ، وهذه الضروريات هي : الدين ، النفس ، العقل ، العرض ، المال ، فما من شرع إلا وهو راع لها ، خادماً لمصالحها ، ساهراً على نمائها ، حارساً لأصولها ، أكمل بناءها بتشريع الحاجيات ، وجمل ظواهرها بتوفير التحسينات ، وكان الغرض من ذلك أن يعيش هذا الإنسان المكرم على ظهر هذه البسيطة موفور الكرامة ، محفوظ الحرية ، موفورة له أسباب الخلافة ، ليعمر هذه الأرض بالخير ، ويرعاها بالاستقامة ، ويتخذ منها وسيلة لبلوغ رضا الله عز وجل ، والعودة إلى دار كرامته في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فجنوح البعض عن الدين والخروج عن دائرته يمثل أبشع الجرائم وأشنع الجنايات على الحياة والإنسانية ومعالم الخير والسعادة في هذه الدنيا .

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

نعم ليس هناك أظلم وأضر على الإنسانية من هؤلاء الذين هداهم الله ، فاستحبوا العمى على الهدى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

نعم ليس هناك من هو أحسن منهم وأكثر نفعاً في الدنيا للحياة والأحياء .

إن الأمثلة في محاسن الدين منذ وجد الدين أكثر من أن تحصى لأن الدين كله محاسن ، وما دعا إلا إلى المحاسن فاستمع إلى قول الله عز وجل في ابني آدم لترى موقف الدين في تصرف صاحب الدين وموقف الفجر في صاحب الفجور ، ودين آدم في بنه أقدم الدين .

قال تعالى: ﴿وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ أي لتقواه الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخِرِ﴾ أي لفجوره ومعصيته لدين الله تعالى ﴿قَالَ﴾ الفاجر لأخيه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ﴾ له أخوه الصالح ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿لَنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِأُثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُمْ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣٠].

هذا نموذج لمن رعى جانب الدين ولمن خالف معالمه ، الأول خاف القتل وكف يده عن الدماء لأن الدين يحرم القتل ويعاقب عليه وهذا من محاسنه .

والثاني لم يرع لأخيه حرمة ولا ذمة لبعده عن الدين فارتكب جريمته وحمل إثم هذا العار إلى يوم القيامة وسن في الدنيا سنة منكرة .

قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » رواه البخاري ٣٣٣٥ في الأنبياء ومسلم ١٦٧٧ في القسامة .

وبناء على خطر هذه الجريمة أعلن الدين في شرائع بني إسرائيل وحشية هذه الجناية وآثارها الشنيعة .

قال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة : ٣٢] .

فالأديان كلها عملت على المحافظة على النفوس ، وهذا من محاسنها ، وشنعت على القاتل في ارتكابه جريمة القتل بغير حق ، والأديان كلها دعت إلى محاسن الأعمال والأخلاق ونهت عن مساوئها وما اختلفت الأديان كلها في شيء إلا ما كان في بعض الأحكام التي اقتضت الأزمان المتعاقبة أن يقع فيها بعض التعديل رعاية لما تقتضيه مصالح الناس في حياتهم .

فهذا شعيب يقول لقومه وهو رسول إليهم : ﴿ أَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨١ - ١٨٤] .

قال تعالى في شرائع بني إسرائيل : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِآلِهِدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة : ٨٣] .

وقال الله عز وجل في هذا الدين الذي أوحاه إلى محمد ﷺ : ﴿ إِنَّا اللَّهُ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ

يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ [النحل : ٩٠].

وقال : ﴿٩١﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٩٢﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٩٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّلِينَ عَفْوَ ﴿٩٤﴾ وَمَاتَ ذَا الْقَرْنَيْنِ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّرَ تَبْدِيرًا ﴿٩٥﴾ إِنْ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٩٦﴾ وَإِمَّا تَرَضْنَ عَنْهُمْ أَتَّبَعْنَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٩٧﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٩٨﴾ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٩﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ عَنْهُمْ قَتْلًا كَبِيرًا ﴿١٠٠﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١٠١﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿١٠٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُولًا ﴿١٠٣﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْهُولًا ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَمْسَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿١٠٦﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿١٠٨﴾ [الإسراء : ٢٣ - ٣٩].

هذه الطائفة من المحاسن هي شعار الإسلام وشعار كل دين إلهي التقى فيها الحسن ، وحبك بين جوانبها العقدية والاجتماعية والأخلاقية بخيوط من البر والإحسان والمعروف ورعاية الحقوق ، فهل بعدها في الحسن من زيادة لمستزيد .

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٤].

ويقول : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٦].

(٦) رسل الله تعالى قادة ودعاة خير ودين :

ومن رحمة الله تعالى بعباده أرسل إليهم على طول الزمان وعرضه رسلاً مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وجعل سبحانه وتعالى هؤلاء الرسل من الكثرة بحيث تقوم بهم الحجة على العباد ، وجعلهم أئمة قادة ، ودعاة معصومين ، مسلحين بأفضل المواهب والكمالات التي تؤهلهم لشرف القيادة والسياسة والتوجيه .

قال تعالى : لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّى بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر : ٧٨] .

وقال : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وقال سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

وقال تبارك وتعالى في رسله جميعاً منذ آدم إلى نبي محمد ﷺ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٣] .

(٧) محمد ﷺ آخر الرسل ودينه آخر الأديان :

محمد ﷺ آخر رسل الله تعالى ، ختم به سلسلة هؤلاء الكرام ، وأتم به الحجة على الأنام ، وهذا صريح قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وكانت رسالته للناس جميعاً عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم إلى أن تقوم الساعة ويرث الله الأرض ومن عليها ، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿[الأعراف: ١٥٨].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿سبأ: ٢٨].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» رواه البخاري ٣٣٥ في التيمم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم ١٥٤ في الإيمان.

وقد كان من مهمة هذا النبي العظيم أن يتم ما دعت الحاجة إليه مما خلت منه الأديان ، وأن ينسخ ما لم يعد مناسباً منها حسب تطور الأزمان وتجدد الحاجات ، وأن يصحح ما وقع فيه الناس من أخطاء وما تقولوه على الله تعالى من أقوال ، ويظهر ما أخفاه أهل الكتاب من الشرائع والأحكام ، وما كتموه من أخبار وأوصاف ، وأن يعود بالناس إلى الحنيفية السمحة وبكل هذا جاءت النصوص والأخبار.

قال تعالى مخاطباً أهل الكتاب: ﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

وقال عز وجل مخاطباً نبيه ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال العلماء في معنى قول الله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ أي شاهداً على الكتب التي قبله يقر ما فيها من حق وينكر ما دخلها من تحريف ، وإنما كان

القرآن مهيمناً على الكتب قبله ، لأنه الكتاب الذي لا ينسخ ولا يغير ولا يبدل .
لذلك كانت شهادته على الكتب حقاً وصدقاً .

ولما كان النبي ﷺ آخر الرسل كان بالضرورة دينه آخر الأديان وكان عاماً للناس كلهم وشاملاً لكل ما يحتاجونه من أوجه نشاطاتهم وألوان تصرفاتهم وعلاقاتهم ، ومن مزاياه : أن الله عز وجل لا يقبل من العباد التدين بغيره ولا الرجوع إلى سواه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

وقال : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وقال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وقال رسول الله ﷺ في دينه السمح وشريعته الغراء . «وقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» حديث صحيح رواه ابن ماجه (٤٣) في المقدمة .

وقال : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه» رواه مالك (٣) في كتاب القدر . وقال : «إني أرسلت بحنيفية سمحة» رواه أحمد ١١٦/٦ .

وروى البخاري تعليقاً عن النبي ﷺ : «أحب الدين إلى الله تعالى الحنيفية السمحة» الإيمان باب ٢٩ .

وقال عز وجل : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُسَمِّيَكُمْ عَلَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

هذه نعم الله عز وجل في أديانه وأنعم بها من نعم والحمد لله رب العالمين .

٨- دور الدين في تكوين مهارات إنسانية :

الدين بمفهومه الشامل أكبر مصدر في تكوين ضروب المهارات كلها على اختلاف أشكالها ، وأسمائها ، وأغراضها ، ودوافعها ، لأن الدين هو المربي السليم لهذا الإنسان بكل ملكاته ، وتطلعاته ، إذ الحذق في الأمور والاتقان لها ، والإبداع فيها من أغراضه ، وأوامره ، وشرائعه ، بل جعل هذا من جُمل عباداته التي تجب على العبد ، ويأجر عليها ، ويسأل عنها .

فقد قال الله عز وجل لآخر أنبيائه ، وهو محمد ﷺ : ﴿ وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩] .

فاتباع الحق في الحكم أمر واجب ، افترضه الدين ، وتحري الحق ، ومعرفته ، يحتاج إلى مهارة ، وحذق ، وبحث ونظر ، والحكم به يحتاج إلى تدبير ، وورع ، وخوف من الله عز وجل ، كما أن الجنوح عن الحق ، والتهاون في تحريمه وليد ضعف في الدين ، وقلة خوف من الله عز وجل .

ومثل ما قال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ قال لرسوله داود عليه الصلاة والسلام : ﴿ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا سَوْءَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] .

وقال الله عز وجل خطاباً لعباده قاطبة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨] .

فالإنسان يحتاج إلى حذق ومهارة في حفظ الأمانة ، ومعرفة الحق ، وإقامة العدل ، بين كل الناس على اختلاف صلاتهم ، ومراكزهم .

وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ الْعَمَلَ أَنْ يُتَّقَنَهُ » .

وفي رواية : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسَنَ » .

رواه أبو يعلى ، والبيهقي والطبراني ، وانظر : « كشف الخفاء » ١ / ٢٨٥ .

وقال رسول الله ﷺ: «المَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مع السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ» رواه البخاري في التوحيد ، باب (٥٢) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٨).

وفي رواية: «الذي يقرأ القرآن وهو مَاهِرٌ به مع السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ» رواه أبو داود (١٤٥٤) في الصلاة والترمذي (٣٠٨٠) في فضائل القرآن.

الماهر: الحاذق المتقن لقراءة القرآن.

السفرة: الملائكة جمع سافر.

البررة: المطيعون ، جمع بَرَّ.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَزْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَزْتَعَ فِيهِ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلَا ، وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ ، أَلَا ، وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». رواه البخاري (٥٢) في الإيمان ، ومسلم (١٥٩٩) في المساقاة.

استبرأ: حصل له البراءة من الذم.

حمى: المحمي الذي يُحظر الاقتراب منه.

وفي هذا الحديث الشريف أسلوب طريف من أساليب التبليغ ، وإثارة الانتباه ، وذلك باستعمال: كلمة «ألا» عدة مرة ، وفيه تصوير بليغ للبعد عن المحرمات والأمور المشتبهات ، كما فيه حث على التسلح بالفهم والوعي والحدق والمهارة لمعرفة مواقع الأمور المشتبهة ، ومواطنها للحذر من الوقوع فيها ، أو القرب منها.

والخلاصة أن الدين له دور إيجابي وأساسي ، في الحث على تكوين الحدق والمهارة في كل أمر من الأمور ، لينجو المرء بنفسه من غوائل المسؤولية ، ويظفر بالسلامة لدينه ، وعرضه في الدنيا والآخرة.

الفصل الخامس
مُوهَّلات النبي ﷺ والخَلْقِيَّة
والخَلْقِيَّة

الفصل الخامس

مؤهلات النبي ﷺ الخلقية والخلقية:

إن الله عز وجل منح نبيه محمداً ﷺ من كمالات في الدنيا والآخرة ما لم يمنحه أحداً قبله ، ولا بعده ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فكان بفضل الله عز وجل ذا مواهب ، ومؤهلات عجيبة وفريدة زانته بكمالها ، وسلحته بجمالها ، وجعلت منه قمة سامقة . أهله للقيام بأعباء الرسالة ، وأطوارها ، وأدوارها والنجاح فيها ، فكان النبي المصطفى والرسول المجتبي .

قال الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٥] .

وقال : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وها نحن نشير إلى أطراف من هذه المواهب ، ونذكر نبذاً من هذه المؤهلات ، لتكون نموذجاً يُحتذى ، ومثلاً نسير عليه ونسلك به ، ونصوغ حياتنا الخاصة والعامة على ضوئه ، فنستحق الحمد في الدنيا والمثوبة في العقبى .

ومما هو معلوم ومعروف أن خصال الكمال والجلال والجمال في البشر

نوعان :

١ - خصال وصفات خَلْقِيَّة غير مُكتسبة ، يزود الله تعالى بها من يشاء من عباده .

٢ - خصال وصفات خُلُقِيَّة مُكتسبة ينالها المرء بالجُهد والمجاهدة ، والصبر والمصابرة ، والتربية الرشيدة ، والثقافة الحميدة ، والقُدوة الصالحة ، والمؤهلات المتميِّزة .

وفي كلا النوعين كان نبينا محمد ﷺ صاحب القِدْح المعلى ، والمكان الأسمى ، فله الذكر الحسن ، والمقام المحمود والحوض المورود ، وهو أسوَّة العباد في الكمال والجمال ، ومرجعهم في الحلال والحرام ، وإليه المنتهى في بيان الخير والشر ، والنفع والضرر ، فصلَّى الله عليه وسلَّم تسليماً كثيراً .

من خصال الفضل الخَلْقِيَّة :

لقد خص الله عز وجل نبيا محمداً ﷺ بشرف النسب ، وعزَّة القوم ، وكرم الأرض ، وكمال الخَلْقَة ، وجمال الصورة ، وقوة العقل ، وصحة الفهم ، وفصاحة اللسان ، وقوة الحواس والأعضاء ، واعتدال الحركات والسكنات ، مما جعله قادراً على امتلاك المهارات النادرة ، والقدرات الهائلة ، والكفاءات الفريدة ، وإليك النصوص والشهادات التي تجعلك على قناعة مما تسمع وتقرأ وتعلم .

١ - شرف نسبه ﷺ :

لقد امتاز محمد رسول الله ﷺ بنسب شريف : آباء طاهرون وأمّهات طاهرات ، لم يزل عليه الصلاة والسلام ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله تعالى هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً ، فهو من صميم قريش التي لها القدم الأولى في الشرف ، وعلو المكانة بين العرب ، ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كراماً ، ليس فيهم مسترذل ، بل كلهم سادة قادة ، وكذلك أمّهات آبائه من أرفع قبائلهن شأناً ، ولا شك أن شرف النسب ، وطهارة المولد من شروط النبوة ، وكل اجتماع بين آبائه وأمّهاته كان شرعياً بحسب الأصول

العربية - ولم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية ، بل طهره الله من ذلك ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم (٢٢٧٦) في الفضائل .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا ، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ مِنْهُ» . رواه البخاري (٣٥٥٧) في المناقب .

وروى الترمذي (٣٦٠٨) في المناقب بسند حسن ، قال : جاء العباس إلى رسول الله ﷺ ، فكأنه سمع شيئاً ، فقام النبي ﷺ على المنبر ، فقال : «من أنا؟»

قالوا : أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، عَلَيْكَ السَّلَام .

قال : «أنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنْ اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا وَخَيْرَهُمْ نَفْسًا» .

أما بلده التي ولد على ترابها ، وترعرع في هوائها ، فهي مَكَّةُ ، وَبَكَّةُ ، وَأُمُّ الْقُرَى ، وَالْبَلَدُ الْأَمِينُ ، وكثرة أسمائها تدل على مزيد شرفها ، وعلو فضلها ، وهي أفضل أرض الله تعالى قاطبة .

عن أبي شريح العدوي عن النبي ﷺ قال :

«إِنَّ مَكَّةَ حَرَمَهَا اللَّهُ ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرٍ يَوْمُنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفَكَ بِهَا دَمًا ، وَلَا يَعْصِدَ بِهَا شَجَرَةً» رواه البخاري (١٨٣٢) في كتاب جزاء الصيد ، ومسلم (١٣٥٤) الحج .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ يَوْمَ يَوْمِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» . رواه البخاري (١٨٣٤) في كتاب جزاء الصيد ، ومسلم (١٣٥٣) في الحج .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «مَا أَطْيَبُكَ مِنْ بَلَدٍ ، وَأَحَبُّكَ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ» . حديث صحيح رواه الترمذي (٤٢٠٢) في المناقب .

وعن عبد الله بن عدي بن حمراء رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الخَزْوَرَةِ ، فقال: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ» . حديث صحيح ، رواه الترمذي (٤٢٠١) في المناقب ، وابن ماجه (٣١٠٨) في المناسك .

٢ - كمال خلقه ﷺ ، وجمال صورته وطيب رائحته ، وفصاحة لسانه ، ووفور عقله .

وهذا مما لاشك فيه ، فإنه ﷺ كان أكمل الناس ، وأحسنهم خلقاً ، وأجمعهم لشتات تلك المحاسن ، وقد كثر في الصحابة نقلة صفاته ، ورواة شيمه وشمائله ، ومنهم علي ، وأنس ، وأبو هريرة ، والبراء بن عازب ، وجابر بن سمرة ، وابن عباس ، وأبو جحيفة ، وعائشة ، وأم معبد ، وغيرهم رضي الله عنهم وأرضاهم .

فهو كما وصفوه ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، كث اللحية ، واسع الصدر ، ليس بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد ، إذ افترَّ ضاحكاً افترَّ عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حب الغمام ، وإذا تكلم رُئي كالنور يخرج من ثناياه ، يقول ناعته: «لم أر قبله ، ولا بعده مثله» . رواه الترمذي (٣٦٣٨) في المناقب .

وقال البراء بن عازب رضي الله عنه: «ما رأيت من ذي لمة سوداء ، في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ» . رواه مسلم (٢٣٣٧) في الفضائل .

وقال: «كان رسول الله ﷺ: أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَحْسَنَهُمْ خَلْقًا ، لَيْسَ

بالطويل الذاهب ، ولا بالقصير» . رواه مسلم (٢٣٣٧) في الفضائل .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : «كان رسول الله ﷺ أبيض ، كأنما صيغ من فضة ، رَجَلَ الشَّعْرَ» رواه الترمذي (١١) في الشمائل .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : «كان رسول الله ﷺ إذا تكلم رُوي كالنور يخرج من بين ثناياه» . رواه الترمذي (١٤) في الشمائل .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : «رأيت رسول الله ﷺ في ليلةٍ إضحيانٍ - مضيئة مقمرة - وعليه حُلَّةٌ حمراء ، فجعلتُ أنظرُ إليه وإلى القمر ، فلهو أحسنُ عندي من القمر» . رواه الترمذي (٩) في الشمائل .

وعن أنس رضي الله عنه قال : «ما شِمتُ عنبراً قط ، ولا مسكاً ، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ ، ولا مسِستُ شيئاً قط ديباجاً ولا حريراً ألين مساً من رسول الله» رواه مسلم .

وقال : «كان رسول الله ﷺ أزهر اللون ، كأن عرقه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفاً ، ولا مسِستُ ديباجة ولا حريرةً ألين من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شِمتُ مسكاً ، ولا عنبرةً أطيب من رائحة رسول الله ﷺ» . رواه مسلم (٢٣٣٠) في الفضائل .

تكفاً : مال إلى جهة قصده ، كما جاء في رواية «كأنما ينحط في صَبَب» .

ورحم الله تعالى الشرف البوصيري حيث قال في وصفه ومدحه :
فهو الذي تمَّ معناه وصورته ثم اصطفاه حياً بارئ النسم
مُنَزَّه عن شريك في محاسنه فجوهر الحُسن فيه غير منقسم
وقال ابن الفارض :

وعلى تَفَنٍّ واصفيه بحُسْنِه يَفْنَى الزَّمانُ وفيه ما لم يُوصَفِ
أما وفورُ عقله ، وذكاءُ لبِّه ، وقوَّةُ حواسه ، وفصاحةُ لسانه ، واعتدالُ
حركاته ، وحُسْنُ شمائله ، فلا مِزية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم ، وهذا
لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه .

قال وَهْبُ بن مُنبه: «قرأتُ في أحدٍ وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أَرْجَحُ الناسَ عَقْلاً ، وأَفْضَلُهُم رَأياً. «الشفاء» ١/ ١٦٢ .

وقال الإمام العلامة أبو سليمان أحمد الخطابي رحمه الله تعالى : «اعلم أنَّ الله تعالى لما وضع رسول الله ﷺ موضع البلاغ من وحيه ، ونصبه مَنْصِبَ البيان لدينه اختار له من اللغات أعذبها ، ومن الألسُن أفصحها وأبينها ، ثم أمدّه بجوامع الكلم التي جعلها رِداءً لنبوّته ، وعَلِّماً لرسالته ، لينتظم في القليل منها عِلْمٌ كثير يسهل على السامعين حفظه ، ولا يَؤوِّدُهُم حَمْلُهُ ، ومن تتبّع الجوامع من كلامه لم يَعدِمَ بيانها». «سُبُل الهدى والرشاد» ٢/ ٩٣ .

وقال الإمام أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير رحمه الله تعالى في أول: «النهاية»:

«قد عرُفْتَ - أَيْدِكَ اللهُ تعالى وإِيَّانا بلطفه وتوفيقه - أن رسول الله ﷺ كان أفصح العرب لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأعذبهم نطقاً ، وأسدّهم لفظاً ، وأبينهم لهجة ، وأقومهم حجة ، وأعرَفهم بمواقع الخطاب ، وأهداهم إلى طريق الصواب ، تأييداً إلهياً ، ولفظاً سمائياً ، وعناية ربانية ، ورعاية روحانية» ، «سبل الهدى والرشاد» ٢/ ٩٣ .

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى: «وأما فصاحة اللسان ، وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يُجهل سلامة طبع ، وبراعة مَنزَع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معانٍ ، وقلة تكلف ، أوتي جوامع الكلم ، وخصَّ ببدايع الحِكم من تأمل حديثه ، وسيره علم ذلك وتحققه» «الشفاء» ١/ ١٦٧ .

وإليك نماذج من ماثور قوله :

«المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم». رواه أحمد ١/ ١١٩ . وأبو داود (٤٥٣٠) .

«المرءُ معَ مَنْ أَحَبَّ». رواه البخاري (٦١٦٨) في الأدب ، ومسلم (٢٦٤٠) في البر .

«النَّاسُ مَعَادِنٌ». رواه البخاري (٣٤٩٦) في المناقب ، ومسلم (٢٥٢٦) في فضائل الصحابة .

«المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ» رواه الترمذي (٢٨٢٣) في الأدب ، وأبو داود (٥١٢٨) في الأدب .

«ذو الوجهين لا يكون عند الله وجهاً». رواه البخاري (٣٤٩٤) في المناقب ، ومسلم (٤٥٢٦) في البر .

«الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه البخاري (٢٤٤٧) في المظالم ، ومسلم (٢٥٧٩) في البر .

من خصال الفضل المكتسبة :

إن الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة ، والآداب الشريفة ، التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها ، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها ، فضلاً عما فوقه ، إن هذه الخصال جميعها كانت لبنينا لمحمد ﷺ على الانتهاء في كمالها ، والاعتدال إلى غايتها ، فاستحق بها من ربه عز وجل الثناء العطر ، قرآنًا يقرأ إلى يوم القيامة : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقد بعثه الله عز وجل بهذا الواجب إلى العباد ، فقال عليه الصلاة والسلام : «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ» . رواه مالك في «الموطأ» (٩) في كتاب حسن الخلق ، والإمام أحمد ٣٨١/٢ ، ولفظه عنده : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» .

قال القاضي رحمه الله تعالى في كتابه : «الشُّفَا بتعريف حُقوق المصطفى» ٢٠٦/١ : الأخلاق المحمودة ، والخصال الجميلة كثيرة ، ولكننا نذكر أصولها ، ونحقق وصفه ﷺ بها ، إن شاء الله تعالى ، فأولُّها :

١ - العقل :

فهو أصل الفضائل ، وعنصر يناييعها ، ونقطة دائرتها ، منه ينبعث العلم والمعرفة ، ويتفرع من هذا ثقبوب الرأي ، وجودة الفطنة ، والإصابة ، وصدق

الظن ، والنظر في العواقب ، ومصالح النفس ، ومجاهدة الشهوة ، وحسن السياسة والتدبير ، واقتناء الفضائل ، وتجنب الرذائل ، وقد بلغ عليه الصلاة والسلام منه ، ومن العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه ، يعلم ذلك من تتبع مجاري أحواله ، واطراد سيرته ، وطالع جوامع كلمه ، وحسن شمائله ، وبدائع سيره ، وعلمه بسياسة الأنام ، وتقرير الشرائع والأحكام ، وتأصيل الآداب النفسية ، والشيم الحميدة ، وبَحَسَب عقله كانت معارفه إلى سائر ما علَّمه الله تعالى ، وأطلععه عليه من علم ما كان ، وما يكون ، وعجائب قدرته ، وعظيم ملكوته .

قال الله تعالى ممتناً عليه :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٣] .

٢- الحلم ، والاحتمال ، والعفو مع القدرة ، والصبر على ما يكره

وهذا كله مما اتصف به ﷺ ، وأدبه ربه عز وجل عليه ، وأمره به ، حيث قال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

وقال : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧] .

وقال : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣] .

فالحلم : هو حالة أناة ، وثبات عند الأسباب المحركة .

والاحتمال : حبس النفس عند الآلام والمؤذيات ، والصبر مثله .

وأما العَفْوُ : فهو المسامحة ، وترك المؤاخذه .

قالت عائشة رضي الله عنها : « ما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه ، إلا أن تُتْهَكَ حُرْمَةُ الله فينتقمُ الله تعالى » رواه البخاري (٦١٢٦) في الأدب ، ومسلم (٢٣٢٧) في الفضائل .

قال العلماء : لقد تضافرت الأخبار على أنصاف النبي ﷺ بنهاية هذه الأوصاف ، فما من حلیم إلا عُرِفَ منه زَلَّةٌ ، وحُفِظَ عنه هفوة ، ونبينا لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حِلماً .

ولما آذاه المشركون يوم أحد ، وفعلوا به ، وبأصحابه ما فعلوا ، طُلب منه أن يدعو عليهم ، فما كان منه إلا أن قال: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» رواه البخاري (٦٩٢٩) في استتابة المرتدين ، ومسلم (١٧٩٢) في الجهاد.

٣- الجُودُ والكرم والسخاء :

فكان عليه الصلاة والسلام لا يوازي في هذه الأخلاق الكريمة ، ولا يُبارى وصفه بهذا كُلُّ من عرفه .

قال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه : «ما سئل النبي ﷺ عن شيء قَطُّ ، فقال : لا» رواه البخاري (٦٠٣٤) في الأدب ، ومسلم (٢٣١١) في الفضائل .

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : «كان رسولُ الله ﷺ أجودَ النَّاسِ بالخيرِ ، وكان أجودَ ما يكونُ في شهر رمضان ، إنَّ جبريلَ كان يلقاهُ في كُلِّ سَنَةٍ في رمضانَ حتَّى يَنسَلَخَ ، فيُعَرِّضُ عليه رسولُ الله ﷺ القرآنَ ، فإذا لقيه جبريلُ كان رسولُ الله ﷺ أجودَ بالخير من الريحِ المرسلةِ» . رواه البخاري (٦) في بدء الوحي ، ومسلم (٢٣٠٨) في الفضائل .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، فسأله أن يعطيه ، فقال النبي ﷺ : «ما عندي شيءٌ ، ولكن ائْتَعْ عليَّ ، فإذا جاء شيءٌ قضيتُهُ» .

فقال عمر : يا رسولَ الله ، ما كَلَّفَكَ اللهُ ما لا تَقْدِرُ عليه .

وكره النبي ﷺ قولَ عُمَرَ .

فقام رجلٌ من الأنصار ، فقال : يا رسولَ الله ، أنْفِقْ ، ولا تَحْشَ من ذي العَرْشِ إقْلالاً .

فتبسَّم رسولُ الله ﷺ ، وعَرِفَ البُشْرُ في وجهِهِ .

يقول الأنصاري ، ثم قال :

«بهذا أُمِرْتُ». رواه مسلم (١٠٦٠) في الزكاة ، والبغوي (٣٦٧) في الشمائل .

وعن جُبَيْر بن مُطْعَم رضي الله عنه لما قَفَلَ رسولُ الله ﷺ من غَزْوَةِ حَنِينَ تبعه الأعرابُ يسألونَهُ ، فألجؤوه إلى شجرة ، فحُطِفَ رداؤُهُ - وهو على راحلته ، فقال : «رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي ، أَتَخْشَوْنَ عَلَيَّ الْبُخْلَ ، فوالله لو كان لي عَدَدُ هذا العِصْيَاءِ نَعَمًا لَقَسَمْتُه بَيْنَكُمْ ، ثم لا تجدوني بخيلًا ، ولا جبانًا ، ولا كَذَّابًا». رواه البخاري (٢٨٢١) في الجهاد ، والبغوي (٣٦٢) في الشمائل .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فسأله ، فأعطاه غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فأَتَى الرَّجُلُ قومه ، فقال : أسلموا ، فإن محمداً يُعْطِي عطاء رجل ما يخاف فاقَةً. رواه مسلم (٢٣١٢) في الفضائل ، والبغوي (٣٦٤) في الشمائل .

وعن صفوان بن أمية ، قال : «والله لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني وإنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ ، فما برح يعطيني حتى إنه لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ». رواه مسلم (٢٣١٣) في الفضائل .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حَتَّى نَفِدَ ما عنده قال :

«ما يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَذْخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُ يُعْفِهِ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يَغْنِهِ اللهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللهُ ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عطاءً هو خير وأوسع من الصبر». رواه البخاري (٦٤٧٠) في الرقاق ، ومسلم (١٠٥٣) في الزكاة ، والبغوي (٣٧٣) في الشمائل .

٤ - الشجاعة والنجدة :

الشجاعة : الثبات ورباطة الجأش في مواطن الأخطار .
يقال : شَجُعَ يَشْجُعُ شجاعة : قوي قلبه واشتدَّ عند البأس .

وقال القاضي عياض : الشجاعة : فضيلة قوة الغضب ، وانقيادها للعقل .
وقال الجرجاني في كتاب «التعريفات» : الشجاعة : هيئة حاصلة للقوة
الغضبية بين التهور والجبن بها يُقدم على أمور ينبغي أن يقدم عليها .
أما النجدة : فهي الشجاعة في القتال ، وسرعة الإغاثة .

قال في «المصباح المنير» النجدة : هي الشجاعة ، والشدة ، والبأس .
وقال القاضي عياض : النجدة : ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث
يُحمد فعلها دون خوف .

وقد كانت شجاعته عليه الصلاة والسلام ونجدته بالمكان الذي لا يجهل ،
وبالقدر الذي لا يستنقص ، سددها العقل ، وزانتها الحكمة ، فكانت في
المكان الصالح ، والسييل الأنفع .

قال العلماء : لقد كان رسول الله ﷺ أثبت الناس في مواقف الخطر ،
وأقربهم منها ، وأسرعهم إليها .

روى البخاري (٢٨٦٤) في الجهاد أن رجلاً قال للبراء بن عازب أفرتم عن
رسول الله ﷺ يوم حُنين؟ قال : لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ ، فلقد رأيته ، وإنه
لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان أخذ بلجامها ، والنبي ﷺ يقول : «أنا النبيُّ
لا كذب أنا ابن عبد المطلب» .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : «كُنَّا إذا حمي البأس ، ولقي
القومُ القومَ اتَّقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدوِّ منه» رواه
الإمام أحمد ١/١٥٦ ، والبغوي (٣٥٦) في السمائل .

وعن علي أيضاً قال : «لقد رأيته يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبي ﷺ ، وهو
أقربنا إلى العدوِّ ، وكان من أشدَّ الناس يومئذٍ بأساً» رواه الإمام أحمد
١/٨٦ - ١٢٦ ، والبغوي (٣٥٧) في السمائل .

وعن أنس رضي الله عنه قال : «كان النبي ﷺ أحسن الناس ، وأجود
الناس ، وأشجع الناس ، ولقد فزع أهلُ المدينة ذات ليلة ، فانطلق الناس قبل

الصوت ، فاستقبلهم النبي ﷺ ، قد سبق الناس إلى الصوت ، وهو يقول : «لم تُراعُوا ، لم تُراعُوا» .

وهو على فرس لأبي طلحة عُرِي ، ما عليه سَرَجٌ في عنقه سيف ، فقال :
لقد وجدته بَحْرًا ، أو إنه لَبَحْرٌ» . رواه البخاري (٢٨٢٠) في الجهاد ،
ومسلم (٢٣٠٧) في الفضائل ، والبغوي (٣٥٣) في الشمائل .

٥ - الحياء والإغضاء :

لقد اشتهر عند القاصي والداني أن النبي ﷺ كان أشدَّ الناس حياءً ،
وأكثرهم عن العورات إغضاءً ، فكان عليه الصلاة والسلام لا يلقي أحداً بما
يكره ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾
[الأحزاب : ٥٣] .

فالحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته ، أو ما يكون
تركه خيراً من فعله .

والإغضاء : التغافل والتشاغل عما يكره الإنسان بطبيعته .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً
من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عُرف في وجهه» . رواه البخاري
(٣٥٦٢) في المناقب ، ومسلم (٢٣٢٠) في الفضائل .

قال القاضي عياض : وكان ﷺ لطيف البشرة ، رقيق الظاهر ، لا يشافه
أحداً بما يكرهه ، حياء وكرم نفس .

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم
يقُل : «ما بال فلان يقول» ولكن يقول : «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا» رواه
أبو داود (٤٧٨٨) في الأدب .

وقد جاء عنه ﷺ أنه قال : «الحياءُ خَيْرٌ كُلُّهُ ، أو قال : الحياءُ كله خير» رواه
مسلم (٣٧) في الإيمان ، وأبو داود (٤٧٩٦) في الأدب .

وقال : إن مما أدرك النَّاسُ من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع

ما شئت» رواه البخاري (٦١٢٠) في الأدب ، وأبو داود (٤٧٩٧) في الأدب .
٦ - حُسْنُ الْعِشْرَةِ وَبَسْطُ الْخُلُقِ :

لقد انتشرت الأخبار الصحيحة ، واستفاضت بحسن عشرته ، وبسط خلقه مع أصناف الخلق .

كان ﷺ : دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، يبشر ولا ينفر ، يتفقد أصحابه ، ويعطي كلاً من جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه .

وكان يجيب من دعاه ، ويقبل الهدية ولو كانت كُرَاعاً ، ويكافئ عليها ، وكان يمازح أصحابه ، ويخالطهم ، ويحادثهم ، ويلعب صبيانهم ، ويجيب دعوة الحرّ والعبد ، والأمة ، والمسكين ، ويعود المرضى ، ويقبل عذر المعتذر ، يبدأ من لقيه بالسلام .

قال عليّ رضي الله عنه : «كان رسولُ الله ﷺ أوسعَ الناسَ صدراً ، وأصدقَ الناسَ لهجةً ، وألينهم عريكةً ، وأكرمهم عشرةً» . رواه الترمذي (٣٦٣٨) في المناقب .

وعن أنس رضي الله عنه قال : «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ ، فما قال لي : أَفَّ قَطُّ ، وما قال لشيءٍ صنعته : لم صنعتُه ، ولا لشيءٍ تركته : لم تركتهُ ، وكان رسولُ الله ﷺ من أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقاً» . رواه الإمام أحمد ١٠٠/٣ ، والترمذي (٢٠١٦) والبخاري (١٩١) في الشمائل .

وعن أنس رضي الله عنه قال : «ما رأيتُ رجلاً اتَّقَمَ أُذُنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيُنَحِّيَ رَأْسَهُ ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يُنَحِّي رَأْسَهُ ، وما رأيتُ رجلاً أخذ بيده ، فترك يدهُ ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدَعُ يَدَهُ» . رواه أبو داود (٤٧٩٤) في الأدب .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : «ما كان أحداً أَحْسَنَ خُلُقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ، ولا من أهله إلا قال : لَيْتَكَ ، فلذلك أنزل الله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾» . رواه البخاري (١٩٦) في الشمائل .

٧ - طلاقة الوجه ودوام البسمة :

لقد كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، يكسو جلاله طلاقة الوجه ، ودوام البسمة ، وهو بهذا الخلق قد استأثر بمحبة إخوانه ، وجلّأسه ، وبرع في تطيب نفوسهم ، وإرضاء عواطفهم ، فما كان يلقي أحداً إلا كانت البسمة تملأ شفّته ، والبشر يكسو محياه ، وهو القائل - عليه الصلاة والسلام - «إن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طَلَّتٍ». رواه الترمذي في البر (١٦٠٥).

وقال عليه الصلاة والسلام: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»، رواه الترمذي (١٥٩٤) في البر.

وعن الحسين بن علي رضي الله عنه قال: سألت أبي عن سيرة رسول الله ﷺ في جلسائه ، فقال: «كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب» [الشماثل المحمدية] (٣٥٢).

وقال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «ما حجّني رسول الله ﷺ ، ولا رأيته منذ أسلمت إلا تبسم». [الشماثل (٢٣٢)].

وقال عبد الله بن الحارث رضي الله عنه: «ما رأيته أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ». [الشماثل (٢٢٨)].

إن البسمة الحلوة في وجوه الناس فَن يُثَقِّنَه أصحاب المهارات في أساليب الصّحة ، والخطاب ، وتأليف القلوب ، وكسب المحبة ، والنبي ﷺ في هذا الرّحاب مدرّب ، ومرب ومعلم وهو بهذه المهارة بلغ القمة في نفوس أصحابه محبّة وإيثاراً وتفذية ولقد صدق عروة بن مسعود في قوله لقريش: «يا معشر قريش ، لقد جئت كسرى في ملكه ، وقصر في عظمته ، فما رأيته ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه» «نور اليقين» ص ٢٠١.

٨ - الشفقة والرحمة والرأفة :

الشفقة: الرقة والعطف على الآخرين ، والرحمة والحنان ، والخوف من حلول مكروه بهم ، يقال: شَفَقَ عليه: رَقَّ له ، وعطف عليه ، فهو: شفيق.

وأشفق عليه : عطف وخاف عليه .

والرحمة: الرقة ، والحنانُ ، يقال: رَحِمْتُ زيدا رُحماً ، ورَحْمَةً ، ومَرَحِمَةً إذا رَقَّتْ له ، وَحَنَنْتَ عليه ، والفاعل: راحم ، وفي المبالغة: رحيم ، والجمع رحماء .

وقد عُرِفوا الرحمة: بقولهم: رقة في القلب تستدعي مدد يد العون ، والإحسان .

والرأفة: أشدُّ الرحمة ، يقال: رأف به رأفةً ، رحمه أشدَّ الرحمة ، وعطف عليه ، فهو رائف ، ورأف به رأفاً ، فهو رَئِفٌ ، ورؤف به رأفةً فهو رؤوف .

وهذه الصفات الكريمة النبيلة تجلَّت في شخصية النبي ﷺ في أوج كمالها ، وجمالها ، ورافقته في جميع أوجه نشاطاته وعلاقاته ، ولم تتخلف عنه ساعة من الدهر .

فهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، والرحمة المهداة إلى سائر العالمين .

قال الله عز وجل في وصفه - وهو أصدق القائلين :

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾
[التوبة: ١٢٨] .

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

وقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وروى البخاري (٦٠٠٨) في الأدب ، ومسلم (٦٧٤) في المساجد عن مالك بن الحُوَيْرِث رضي الله عنه قال: «أتينا النبي ﷺ ، ونحن شبيبةٌ مُتقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظنَّ أننا اشتَقْنَا أهلنا ، وسألنا عَمَّنْ تركْنَا في أهلنا فأخبرناه ، وكان رقيقاً رحيماً ، فقال: «ارجعوا إلى أهليكم ، فعلموهم ، ومروهم ، وصلُّوا كما رأيتموني أصلي ، وإذا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فليؤذِّنْ لكم أحدُكم ، ثم ليؤمِّكم أكبرُكم» .

ومن شففته ورحمته قال لأئمة المسلمين في الصلاة:

«إذا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِنَّ فِيهِمُ السَّقِيمَ ، وَالضَّعِيفَ ،
وَالكَبِيرَ ، وَإِذَا صَلَّى لِنَفْسِهِ ، فَلْيَطْوِلْ مَا شَاءَ». رواه البخاري (٧٠٣) في
الأذان ، ومسلم (٤٦٧) في الصلاة.

وقال ﷺ: «إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَطْوِلَ فِيهَا ، فَأَسْمَعُ بكَاءَ
الصَّبِيِّ ، فَاتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ». رواه البخاري (٧٠٧)
في الأذان ، ومسلم (٤٧٠) في الصلاة.

وقيل له عليه الصلاة والسلام: ادْعُ عَلَى الْمَشْرِكِينَ ، فقال: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ
لِعَانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً». رواه مسلم (٥٩٩) في البر.

وهو القائل: «مَنْ لَا يَرْحَمُ ، لَا يُرْحَمُ». رواه البخاري (٥٩٩٧) في
الأدب ، ومسلم (٢٣١٨) في الفضائل.

واستمع إليه عليه الصلاة والسلام ، وهو يعبر عما في نفسه الشريفة من
شفقة ورحمة بأمته: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَءُوا
إِنْ شِئْتُمْ ﴿الَّذِينَ أَوَّلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فَإِنَّمَا مُؤْمِنٌ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ
عَصْبَتُهُ مِنْ كَانُوا ، وَمَنْ تَرَكَ ذَنْبًا ، أَوْ ضِيَاعًا فَلْيَأْتِنِي ، فَأَنَا مَوْلَاهُ». رواه
البخاري (٢٣٩٩) في الاستقراض ، ومسلم (١٦١٩) في الفرائض.

وما أكثر ما كان يبكي عليه الصلاة والسلام رقةً ورحمةً وشفقةً إذا ما أصيب
أحد من أصحابه بمصاب.

فهذا عثمان بن مظعون رضي الله عنه يموت ، فيأتيه رسول الله ﷺ فيقبله ،
وهو يبكي. رواه أبو داود (٣١٦٣) في الجنائز ، والترمذي (٩٨٩) في
الجنائز.

وهذه ابنته زينب رضي الله عنها ترفع إليه ولدًا لها ، وهو يجود بنفسه ،
فتفيض عيناه بالدموع ، فيقول له سعد بن عباد: ما هذا يا رسول الله ، فيقول:
«هَذِهِ الرَّحْمَةُ يَضَعُهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ

عباده الرُّحَمَاءُ». رواه البخاري (٥٦٥٥) في المرضى ، ومسلم (٩٢٣) في الجنائز .

ومن رحمته ﷺ : «أنه ما كان يُخَيَّرُ بين أمرين إلا كان يختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً». رواه البخاري (٦١٢٦) في الأدب ، ومسلم (٢٣٢٧) في الفضائل .

والشواهد في شفقتة ورأفته ورحمته أكثر من أن تحصى ، فهو النبي المختار ﷺ ، الذي تولى ربه عزَّ وجلَّ تعليمه وتأديبه .

٩ - الوفاء وحسن العهد :

الوفاء : الأداء ، والتمام ، والعطاء .

يقال : وَفَى الشيءُ وفاءً ، وَوَفِيًا : تَمَّ .

وَوَفَى الشيءُ وَفِيًا : كَثُرَ .

وَوَفَى فلانٌ نَذْرَهُ وفاءً : أَدَّاهُ .

وَوَفَى بعُهدِهِ : عمل به .

وَأَوْفَى بالوعد ، والعهد : أَدَّاهُ وأَتَمَّهُ .

وَأَوْفَى فلاناً حقَّه : أعطاه إيَّاه وافيًا تاماً .

وَوَفَى فلاناً حقَّه : أعطاه إيَّاه وافيًا تاماً .

والوَفِيُّ : التَّامُّ ، والكثيرُ الوفاء ، والذي يأخذ الحقَّ ويعطي الحقَّ .

والعهد : المعاهدة والمعاقدة والمحالفة ، والأمان والذِّمة .

وعَهْدُ فلانٍ إلى فلان عهداً : ألقى إليه العهد ، وأوصاه بحفظه ، وتعهدَ

بالشيء : التزم به .

وحُسْنُ العهد : رعاية العهود ، والمواعيد ، والمواثيق ، والمحافظة

عليها ، والالتزام بها ، وعدم الإخلال بشيء منها .

والنبي الكريم اشتهر بأداء الحقوق وافية كاملة في أوقاتها وأوصافها ، فكان

الوفى الكامل ، لا يخس ، ولا يخس ﷺ .

وكما اشتهر بالوفاء اشتهر بالمحافظة على العهود والمواعيد والمواعظ ، وحسن رعايتها ، والتقيد بها ، وعدم المكر فيها ، والنقض لها .

وقد كان خلقه عليه الصلاة والسلام القرآن ، يلتزم به ، ويعمل بما فيه ، والله عز وجل هو القائل : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] .

وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل : ٩١] .

وقد عدَّ عليه الصلاة والسلام نكران الأمانات ، ونقض العهود ، من علامات النفاق ، ومن أخلاق المنافقين ، فقال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتمن خان » رواه البخاري (٣٣) في الإيمان ، ومسلم (٥٩) في الإيمان .

١٠ - التواضع ولين الجانب وخفض الجناح :

وهذه كلها من شيم الرجال العظماء ، التي من شأنها أن ترفع المرء ، وتمكن له في قلوب العامة الحب ، وسرعة الانقياد والاتباع ، ونبينا الكريم ﷺ حازها طبعاً ، وكسباً ، وزاولها أدباً وسلوكاً ، وكان فيها صاحب المكان الأسمى .

عن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء ، فقالت : يا رسول الله ، إن لي إليك حاجة ، فقال : « يا أم فلان ، اجلسي في أي سَكِكِ المدينة ، شئت اجلس إليك » .

قال : ففعلت ، فقعد إليها رسول الله ﷺ حتى قضت حاجتها ، رواه مسلم (٢٣٢٦) في الفضائل ، والبعوي (٣٧٤) في السمائل .

وعن أنس أيضاً قال : إن كانت الوليدة من ولائد المدينة ، تجيء ، فتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت ، رواه

الإمام أحمد ٣/ ١٧٤ ، وابن ماجه (٤١٧٧) في الزهد ، والبغوي (٣٧٦) في الشمائل .

وعن أبي رفاعه رضي الله عنه قال: انتهيتُ إلى النبي ﷺ ، وهو يخطُبُ ، فقلت: يا رسول الله ، رَجُلٌ غريبٌ جاء يسأل عن دينه ، لا يدري ما دينه ، قال: فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ ، وترك خُطْبَتَهُ ، حتى انتهى إليَّ فأُتِيَ بكرسيٍّ ، حسبتُ قوائمه حديداً ، فقعده عليه رسولُ الله ﷺ ، وجعل يُعلِّمني مما علَّمه الله ، ثم أتى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخرها ، رواه مسلم (٨٧٦) في الجمعة ، والبغوي (٣٧٨) في الشمائل .

هذه مهارة أتقنها رسول الله ﷺ ، وبرع فيها ، أدبه ربه وعلمه كيف يتواضع للناس ، وكيف يخفض جناحه لهم ، ليكسب حبهم ، ويظفر بطاعتهم . قال له ربُّه عز وجل: ﴿وَآخِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] .

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنه ، قال: كان رسول الله لا يأنف ، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة ، والمسكين . رواه الحاكم (٦١٤/٢) والبغوي (٣٨٢) في الشمائل .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل ، لم ينزع يده من يده حتى يكونَ هو الذي ينزع يده ، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه - ولم يُرْ مُقَدِّماً ركبتيه بين يدي جليسي له . رواه ابن ماجه (٣٧١٦) في الأدب ، والبغوي في الشمائل .

وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يعود المريض ، ويتبع الجنازة ، ويُجيب دعوة المملوك ، رواه البغوي (٣٨٥) في الشمائل .

وكان ﷺ يقول: «لو دعيتُ إلى ذراع أو كُرَاع لأَجَبْتُ ، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كُرَاع لقبِلْتُ» رواه البخاري (٢٥٦٨) في الهبة .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، ويعقل الشاة ، ويجيب دعوة المملوك . رواه البغوي (٣٨٤) في الشمائل .

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يخفض نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته . رواه الإمام أحمد ١٢١/٦ ، والبغوي (٣٨٨) في الشمائل .

وقال أنس رضي الله عنه : لم يكن شخص أحب إليهم رؤية من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا ، لما يعلمون من كراهيته لذلك . رواه الترمذي (٢٧٥٥) في الأدب ، والبغوي (٣٩٢) في الشمائل .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أتى النبي ﷺ رجلٌ يُكَلِّمُهُ ، فأزعد ، فقال : «هُوَ عَلِيكَ ، فَلَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ» . رواه ابن ماجه (٣٣١٢) في الأُطعمة والبغوي (٤١٣) في الشمائل .

وقال ﷺ : «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ - إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» . رواه البخاري (٣٤٤٥) في الأنبياء ، والبغوي (٤٢٠) في الشمائل .

١١ - الْعَدْلُ وَالْأَمَانَةُ وَالْعِفَّةُ :

أما عدل النبي ﷺ وأمانته ، وعفته ، فحدث عنها ، بما شئت ، وكيف شئت ، ولا حرج ، فقد كان عليه الصلاة والسلام أعدل الناس ، وأكثرهم أمانة ، وأشدهم عفة ، عرفه بذلك كل الناس ، وشهد له بهذا أعداؤه ومحبيه على السواء ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

وهو الناقل إلينا قول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء : ٥٨] .

وقوله : ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة : ٨] .

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ولذلك عرف عليه الصلاة والسلام بين الناس بالأمين ، وكان الناس

يتحاكمون إليه في الجاهلية قبل الإسلام .

لقد بنى أهل مكة الكعبة لما هدموها ، ولما وصلوا إلى مكان الحجر الأسود ، اختلفوا على من يضعه مكانه ، فيكون له الشرف على الناس ، وكادوا يقتتلون ، لولا أن قال لهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي ، وكان أسنَّ قريش يومئذٍ : حَكِّمُوا يَا قَوْمَ بَيْنَكُمْ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ بَابَ هَذَا الْمَسْجِدِ ، فكان أَوَّلَ دَاخِلِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وكانت سُنَّةٌ حَيْثُ دُخِلَ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ .

فلما رَأَوْهُ قَالُوا : هَذَا الْأَمِينُ رَضِينَا ، هَذَا مُحَمَّدٌ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، قَالَ - بِحِكْمَةٍ فَذَّةٍ ، وَبَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ : «هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا» فَأَتِي بِهِ ، فَأَخَذَ الرُّكْنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : «لَتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا ، فَفَعَلُوا ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ ، وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ ، فَالْتَأَمَ الشَّمْلُ ، وَرَضِيَ الْقَوْمُ ، وَنَامَتِ الْفِتْنَةُ» «سبل الهدى والرشاد» (١٧١/٢) .

قال النضر بن الحارث - وكان من أشدَّ أعداء رسول الله ﷺ - لقريش كلمة حق في رسول الله ﷺ : «قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غَلَامًا حَدَثًا ، أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ ، وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا ، وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْغِيهِ الشَّيْبَ ، وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ قُلْتُمْ : سَاحِرٌ ، لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ» . «الشفاء» ٢٧٠/١ .

وكيف لا يكون عليه الصلاة والسلام أشدَّ الناس عدلاً وأمانة ، وعفةً ، وهو القائل : «إِنَّ الْمَقْسُطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، الَّذِي يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِهِمْ ، وَمَا وَلُّوا» . رواه مسلم (١٨٢٧) في الإمارة .

والقائل : «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقٌ الْقَلْبُ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ» رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة .

والقائل : وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ .

رواه البخاري (١٤٢٧) في الزكاة .

والقائل: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك». رواه الترمذي (١٢٨٧) في البيوع.

هذا قلٌّ من جُلٍّ من صفاته ، ومهاراته ، في عدله ، وأمانته ، وعفته في نفسه ، وأهله ، والناس أجمعين ، فصلّى الله عليه وسلم صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين .

١٢ - الوقار والصمت والتؤدة :

الوقار: الرّزانة ، والحلم ، والعظمة .

والموقر: العاقل الرصين ، والمجرّب الذي عجمته الحوادث وحنّته التجارب .

ومعنى عجمته : درّبته .

والتؤدة: الرّزانة ، والأناة ، والحلم ، والتأني ، والرفق في الأمور .

وهكذا كان رسول الله ﷺ ، وقوراً ، رزيناً ، حليماً ، ذا صبر وأناة ، لا يتكلم فيما لا يعنيه ، وهو القائل :

«من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» رواه الترمذي (٢٤٣٣) في الزهد .

والقائل : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلّ خيراً ، أو ليصمت» رواه البخاري (٦٠١٨) في الأدب .

والقائل : «إنّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه» رواه مسلم (٢٥٩٤) في البر .

قال خارجة بن زيد رضي الله عنه : كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه .

وكان ضحكه ﷺ تبسماً ، وكلامه فصلاً ، لا فضول ، ولا تقصير ، مجلسه مجلس حلم وحياء ، وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرّم ، إذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير . «الشفاء» ٢٧٥/١ .

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدّه العادُّ لأحصاه». رواه مسلم (٢٤٩٣) في الزهد.

إن هذه الخلال الكريمة ، والخصال العظيمة ، والشيم الرفيعة ، مكّنت لرسول الله ﷺ في القلوب ، ووسعت له في النفوس ، ومنحته المهارة والقدرة على التصرف في الأمور ، وحسن السياسة للعباد والبلاد .

لقد غدا رسول الله ﷺ المثل الأعلى للسادّة والقادة ، والدعاة والرعاة ، والمربين والساسة والموجهين ، يجدون في مواهبه ، وأخلاقه ، ومهارته القدوة الحسنة ، والأسوة الرائعة .

١٣ - الزُّهْدُ في الدنيا :

الزهد في الدنيا ترك الرغبة فيها ، وأخذ الكفاية منها ، والرضا باليسير من حطامها .

وقد كان عليه الصلاة والسلام في أعلى المراتب زهداً في المال ، وتشفّافاً في الدنيا ، وما رُوي يوماً مزاحماً أهلها ، ولا منافساً أربابها ، ولا مستشرفاً لحطامها ، علماً منه ﷺ ، أنها فانية ، وأن التعلق بها سوف يشغله عن المهم من واجباته ، ويصدّه عن العظيم من مقاصده .

وليس شيء في الدنيا أضرَّ على القادة والدعاة من الطمع في الدنيا والشره فيها .

فإن الزاهد في الدنيا بريء الساحة من الحسد ، بعيد المرتبة عن المصارعة ، لا يجد فيه الناس مزاحمة على أرزاقهم ، ولا تطلعاً إلى أموالهم ، فيرتاحون إليه ، ويجدون الأمان عنده .

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، دلّني على عمل إذا عملته أحبّني الله ، وأحبّني الناس ، فقال : «ازهد في الدنيا يُحبّك الله ، وازهد فيما عند الناس يُحبّك الناس» . رواه ابن ماجه (٤١٠٢) في الزهد .

ولو انشغل رسول الله ﷺ بجمع الدنيا ، والترفيه فيها ، وتكديسها لورثته ،
لقعدت به عن حمل رسالته ، وتبليغ دعوته ، ولوجد فيه طلاب الدنيا الويل
على أموالهم ، فاشتدت منافستهم له ، وصراعهم معه ، ولكن الله عز وجل
حماه مغبة ذلك كله ، فأرضاه بالقليل ، وشغله بالجليل .

لقد قال ﷺ : «اللهم اجعل رِزْقَ آل محمدٍ قوتاً» . رواه البخاري (٦٤٦٠)
في الرقاق ، ومسلم (١٠٥٥) في الزكاة .

وقال لعائشة رضي الله عنها : «إنا أهل بيت اختار الله عز وجل لنا الآخرة
على الدنيا» . رواه البغوي (٤٣٠) في السمائل .

وقال ﷺ : «لا يقتسم ورثتي ديناراً ، ما تركت بعد نفقة نسائي ، ومؤنة
عاملي ، فهو صدقة» . رواه البخاري (٣٠٩٦) في فرض الخمس ، ومسلم
(١٧٦٠) في الجهاد .

عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «عرض عليَّ ربِّي ليجعل
لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا ربَّ ، ولكن أشبعُ يوماً وأجوعُ يوماً ، فإذا
جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعْتُ شكرتك وحمدتُك» رواه الترمذي
(٢٣٤٧) في الزهد ، وقال : هذا حديث حسن .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلتُ عليَّ امرأة من الأنصار ، فرأتُ
فِراشَ رسول الله ﷺ مشيئةً ، فانطلقتُ ، فبعثتُ إليَّ بفراشٍ فيه صُوفٌ ، فدخل
رسول الله ﷺ ، فقال : «رُدِّيه ، يا عائشةُ ، فوالله لو شئتُ لأجرى الله عليَّ جبال
الذهبِ والفضة» .

قالت : فرددته . رواه أحمد (١٤) في الزهد ، والبغوي (٤٢٩) في
السمائل .

ورحم الله الإمام البوصيري حيث قال :
وَشَدَّ مَنْ سَعَبِ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى تَحْتَ الْحِجَارَةِ كَشْحاً مُتَرَفِ الْأَدَمِ
وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيُّمَا شَمِّمِ

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ نام على حصير ، وقام وقد أثر في جسده ، فقال له ابن مسعود : يا رسول الله ، لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل ، فقال : « مالي وللدنيا ، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » . رواه البغوي (٤٣٢) في الشمائل .

وعن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها قالت : « لا والله ، ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ، ولا درهماً ، ولا عبداً ، ولا أمة ، ولا شيئاً ، إلا بغلته البيضاء وسلاحاً ، وأرضاً تركها صدقة » رواه البخاري (٤٤٦١) في المغازي ، والبغوي (٤٤٥) في الشمائل .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : « توفّي النبي ﷺ ، ودرعهُ مرّهونَةٌ عند يهوديّ بثلاثين ، يعني : صاعاً من شعير » . رواه البخاري (٤٤٦٧) في المغازي .

١٤ - الخوف من الله والطاعة له :

الخوف من الله عز وجل والطاعة له ثمرة من ثمرات الإيمان بالله تعالى ، والعلم بجنابه الكريم ، ورسول الله ﷺ أعلم الخلق بربه تعالى ، وأعظمهم إيماناً به ، وهذا ما فجر ينبوع الخوف من الله تعالى في حياته ، وكرس دأبه المتنامي في طاعة ربه عز وجل ، فكان خوفه وطاعته وشدة عبادته على قدر علمه بربه وإيمانه به .

قال ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » .

رواه البخاري (٤٦٢١) في التفسير ، ومسلم (٢٣٥٩) في الفضائل .

وقال : « أما والله ، إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له » . رواه البخاري (٥٠٦٣) في النكاح ، ومسلم (١١٠٨) في الصيام .

وقال : « فوالله إني لأعلمهم بالله ، وأشدّهم له خشية » . رواه البخاري (٦١٠١) في الأدب .

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ يُصليّ وفي

صَدْرِهِ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الرَّحَى مِنْ الْبُكَاءِ . رواه أبو داود (٩٠٤) في الصلاة .

وأزيز الرحى : صوتها .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ صَلَّى حَتَّى انْتَفَحَتْ قدماه ، فقيل له : أَتَكْلَفُ هَذَا ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك ، وما تأخّر ، فقال : «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» رواه البخاري (٦٤٧٠) في الرقاق ، ومسلم (٢٨١٩) في صفات المنافقين .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تَفْطَرَ رِجْلَاهُ . رواه مسلم (٢٨٢٠) في صفات المنافقين .

لقد استجاب ﷺ لربه عز وجل بجدّ ونشاط ، وقام كما أمره بقوله الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْسَلُ ﴿١﴾ قُلْ أَتِلْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل : ١ - ٤] .

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِيْنُ﴾ [الحجر : ٩٩] .

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ﴾ [الأنعام : ١٥] .

هذا الخوف من الله عز وجل ، وتلك الطاعة والعبادة هيأت لرسول الله ﷺ مزيداً من القوة ، والجلد ، والمهارة والإبداع في كل ما كان يقوم به ، ويؤديه . هذا ونحبّ أن نختم هذا الفصل «مؤهلات النبي ﷺ الخَلْقِيَّةُ وَالْخُلُقِيَّةُ» بحديث البخاري (٢١٢٥) في البيوع ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في صفات رسول الله ﷺ حيث قال : «والله إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَحِزْزًا لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ ، لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيْمَ بِهِ الْمَلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بَأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيُفْتَحَ بِهَا أَعْيُنُ عُمِّيٍّ ، وَأَذَانُ صُمٍّ ، وَقُلُوبُ غُلْفٍ» .

* * *

الفصل السادس

ميادين مهارات النبي ﷺ في
سيرته الكريمة

الفصل السادس

ميادين مهارات النبي ﷺ في سيرته الكريمة:

تمهيد:

١ - ليس غرضنا من دراسة السيرة النبوية المشرفة مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية ، وسرد الطُرف من الأقاويص والأخبار والأحداث .

وإنما غرضنا إبراز القدوة الفاضلة في صياغة الحياة الراقية ، وإبراز ما تنطوي عليه هذه الوقائع من المهارات الفائقة ، والمواهب الرائعة ، والأساليب التربوية البلاغية الهادفة ، التي من شأنها أن تؤدي دوراً مهماً في تكوين مهارات نافعة عند الأجيال المسلمة المعاصرة .

٢ - إن هوية محمد ﷺ الحقيقة التي ينبغي أن نتصورها فيه دائماً ، ولا تغيب عن أذهاننا أبداً هي أنه نبيُّ الله ورسوله ، وسفيره إلى عباده ، فهو - من وراء مواهبه كلها ، وملكاته جميعاً ، ومهاراته قاطبة - موجَّهٌ بوحى الله تعالى ، ومعلَّم من طرفه ، ومؤيَّد من قبله ، ومحفوظٌ برعايته ، ومحفوظ بعنايته ، ومعصوم بسلطانته ، فهو لا يخرج عن دائرته ، ولا يميل عن سبيله ، ولا يساوم على مهمته ولا يقف دون أداء رسالته .

فعبقريته وملكاته ، ومهاراته تأتي كلها في واحات وساحات هذه الهوية الحقيقية ، وضمن هذه الصبغة العلوية الإلهية .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠].

﴿ قُلْ يَتَّيْنُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨].

٣ - إن محمداً ﷺ ولد ، وبعث في فترة من الزمن أشد ما تكون تفلتاً ، وتقلباً ، وتجنياً على الحق والحقيقة ، وتدهوراً في المتاهات الضالة المضلة .

فالفرس عبدة النيران كانوا غارقين في صراعات وفلسفات مختلفة ، وانحرافات خلقية مشينة ، ومن درس الزرادشتية ، والمزدكية ووقف على حقيقتهما ، وتطبيقاتهما عرف كيف كانت تعيش تلك الأمة في خرافاتها وضلالاتها وانحرافاتهما .

والرومان عباد المادة والقوة كانت تسيطر عليهم الروح الاستعمارية وتفرقهم الخلافات الدينية ، بالإضافة إلى الانحلالات الخلقية ، والمظالم الطبقية .

واليونان بخرافاتهما ، وأساطيرها الكلامية ، ومفاسدها الاجتماعية لم تكن أحسن حالاً من غيرها .

ورجال الدين من أهل الكتاب عاشوا في كهنتهم ، يبدلون ، ويحرفون في نصوص أديانهم وكتبهم حسب أغراضهم وأهوائهم بدافع الشره وحب الجاه والشهرة .

والعرب في جزيرتهم - رغم سلامتهم من كثير من عيوب جيرانهم - كانوا أيضاً يعيشون حياة جاهلية ، انتشرت فيها عبادة الأصنام ، ونفقت خرافة الأزام ، وطفعت فيها عصبية الجاهلية .

في هذه الفترة المضطربة ، والساحة الملتهبة ولد ، وبعث النبي المصطفى ﷺ شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فمجد الخير ، وحارب الشر ، ودعا إلى وحدة العقيدة ، وتوحيد الناس على صعيد العبودية لله تعالى .

٤ - إننا في دراستنا لسيرة النبي ﷺ: سنصطلح على تقسيمها إلى أربعة أدوار:

الأول: من ولادته إلى بعثته.

الثاني: من بعثته إلى هجرته.

الثالث: من هجرته إلى فتح مكة المكرمة.

الرابع: من فتح مكة إلى وفاته ﷺ.

الدور الأول

مهاراته ﷺ من ولادته إلى بعثته :

١ - مولده عليه الصلاة والسلام :

الأرجح عند العلماء أن ولادته ﷺ كانت «يوم الاثنين» .

هذا ما أكده رسول الله ﷺ بَعْدُ ، حين سئل عن صومه يوم الاثنين ، فقال :
«فيه ولدْتُ ، وفيه أنزل عليَّ» . رواه مسلم (١١٦٢) (١٩٨) في الصيام .
«الثاني عشر من شهر ربيع الأول» .

رواه ابن أبي شيبة في «المصنّف» عن جابر وابن عباس رضي الله عنهما .
«عام الفيل» وهو العام الذي غزا فيه أبرهة الحبشي مكّة فأهلكه الله تعالى
وجيشه .

قال ابن كثير : وهو المشهور عند الجمهور ، وبالع خليفة بن خياط ، وابن
الجزار ، وابن دحية ، وابن الجوزي ، وابن القيم ، فنقلوا فيه الإجماع .

قال بعضهم :

توالّت أمورُ السَّعدِ في خير ساعةٍ بمولِدِ خيرِ الرُّسلِ في ساعةِ السَّعدِ
فيا طيبَ أوقاتٍ ويا طيبَ مولِدٍ ويا طيبَ مولودٍ حوى سائرَ المجدِ
وقال آخر :

يقولُ لنا لسانُ الحالِ مِنْهُ وقولُ الحقِّ يَعْذِبُ لِلْسَّمِيعِ
فوجْهِي والزَّمانُ وشهُرُ وضْعِي ربيعٌ في ربيعٍ في ربيعٍ
٢ - ما رأت أمه عند وضعه :

روى بن سعد في «الطبقات» (١/١٠٢) بسند صحيح عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «رأْتُ أُمِّي كأنَّه خرج منها نُورٌ أضاءَتْ منه قُصورُ الشام» .

انظر : «فيض القدير» شرح «الجامع الصغير» (٤٣٥٩ و ٤٣٦٠) .
وهذا يبشر بعموم رحمته ونور هدايته ﷺ .

٣ - قابلته :

وكانت قابلته عند وضعه الشِّفاءُ أمُّ عبد الرحمن بن عوف الزهرية رضي الله عنها .

٤ - حضانتها : وكانت حاضنته الأولى بعد ولادته أم أيمن ، بركة الحبشية ، أمة أبيه عبد الله .

٥ - إرضاعه : وكان أول من أرضعته ثوية أمة عمه أبي لهب ، وذلك قبل إرضاع حليلة السعدية له .

٦ - تسميته : لما ولد محمد ﷺ أرسلت أمه إلى جدّه عبد المطلب تبشره ، فأقبل مسروراً ، وسمّاه محمداً ، ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند العرب ، ولكن الله تعالى أراد ، وألهمه إيّاه .

كل هذه المناسبات جعلت من هذا المولد الكريم مكاناً للتفاؤل بولادة مواهب ، وإمكانات ، ومهارات سوف يكون لها دورها المقدر بعلم الله عز وجل .

فأبوه عبد الله ، وأمه آمنة ، من الأمن والأمان ، وقابلته الشِّفاء ، من الشفاء ، وحاضنته بركة ، ومرضعته ، حليلة من الحلم ، والسعدية من السعد .

قال الإمام محمد بن يوسف الصّالحي الشامي في كتابه: «سبل الهدى والرشاد» (١/ ٣٣٧ و ٣٣٤).

إن ظهوره في شهر ربيع فيه إشارة ظاهرة لمن تظن لها بالنسبة إلى اشتقاق لفظة «ربيع» إذ أن فيه تفاؤلاً حسناً ، وبشارة لأمته ، وينعقد في سلكه ما هياً الله تعالى له ﷺ من أسماء مربّيه ، في الوالدة ، والقابلة الأيمن والشفاء ، وفي اسم الحاضنة البركة والنماء ، وفي مرضعيه الثواب ، والحلم والسعد.

وهذا كله مؤذن بولادة فجر جديد ، ومبشّر بخير عميم .

٧ - الخير والبركة في ديار حليلة السعدية :

النجابة في الولد مطلب وكان العرب يعرفون ذلك ، ويقدرونه ، ويسعون إليه ، لذلك كانوا يلتمسون لأولادهم المراضع في البوادي ، ليكون الولد أنجب ، وكانوا يقولون: إن المربّي في المدن يكون كليل الذهن ، فاتر العزيمة ، وهذا ما دعا عبد المطلب جدّ النبي ﷺ أن يسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها: حليلة بنت أبي ذؤيب وقد أجمع رواة السيرة أن بادية بني سعد كانت تعاني إذ ذاك سنة مُجدبة ، قد جفّ فيها الضرعُ ، ويس الزرعُ ، فما إن صار محمد في دار حليلة ، واستكان إلى حجرها ، حتى تبدل حال ديارها ، فعادت منازلها حول خبائها مُمرّعةً ، وكانت أغنامها تروح عائدةً إلى فنائها شباعاً ممتلئةً الضروع .

وهذا يدل على علوّ شأن هذا الطفل ، وأنه سبب الخير والبركة على قومه وغيرهم .

هذا ولاشك أن البيئة المواتية والمناخ الملائم ، تساعد في نمو العبقريات ، وتؤهل لبروز المواهب والإبداعات ، وتوطّن لظهور الأدوار المرجوة ، والأعمال المطلوبة .

قالت حليلة مرضعته: كان محمد يشبُّ شاباً لا يَشِبُّهُ الغلمانُ ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفراً ، أي قوياً صلباً .

٨ - حادثة شق صدره ﷺ :

لقد حدثت للنبي ﷺ حادثة فريدة ، وهو طفل في ديار بني سعد ، تُعدُّ من إرهابات نبوته ، وتأصيل ملكاته ، ألا وهي حادثة «شق صدره» ﷺ .

روى الإمام مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه رقم (٢٦١) عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل ، وهو يلعب مع الأطفال ، فأخذه ، فصرعه ، فشقَّ عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقه ، فقال : هذا حظُّ الشيطان منك ، ثم غسله في طستٍ من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمِّه - مرضعته - فقالوا : إن محمداً قد قُتل ، فاستقبلوه ، وهو مُنتقع اللون .

وكان بعد هذا أن أعادته حليلة إلى أمِّه ، وقد تم له من العمر خمس سنوات .

قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «فقه السيرة» ص : ٦٣ : وليست الحكمة من هذه الحادثة والله أعلم - استئصال غُدة الشرِّ في جسم رسول الله ﷺ ، إذ لو كان الشرُّ منبعه غُدة في الجسم ، أو علقه في بعض أُنحائه ، لأمكن أن يصبح الشرير خيراً بعملية جراحية ، ولكن يبدو أن الحكمة هي إعلان أمر الرسول ﷺ ، وتهيُّؤه للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية ، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به ، وتصديقهم برسالته . إنها إذاً عملية تطهير معنوي ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي ، ليكون فيه ذلك الإعلانُ الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم .

وأياً كانت الحكمة ، فلا ينبغي أن نشكَّ وقد ثبت الخبر ، والله على كل شيء قدير ، والله في خلقه شؤون ، وله من وراء ذلك حِكَمٌ بالغة .

٩ - بداية الكفاح في الحياة :

حياة الصحراء في بادية بني سعد أفادت محمداً ﷺ صلابة في جسده ، وحادثة شق الصدر أفادته زكاة ، ونماء ، وطهرأ في روحه .

وما إن عاد إلى أهله في مكة حتى فاجأته وفاة أمه ، وهو في السادسة من سنه ، وتبع ذلك بعد سنتين وفاة جده عبد المطلب الذي كان يحنو عليه ويحبه .

وفي هذا إفراد للعناية الإلهية في تأهيله - وتربيته ، بعيداً عن الذراع التي تمنع في تدليله ، والمال الذي يزيد في تنعيمه لتبقى الحكمة الإلهية وحدها تبنيه ، وتصوغ مواهبه وإبداعاته ، وتقود خطاه في مهاراته ، وإراداته .

ولا يجد عندئذ طاعنٌ يشدُّقُ بأن محمداً إنما رضع لبان دعوته بتوجيه أبيه ، وزعامة جده ، فهو يتلمس الصدارة ، والزعامة من إرث خلفه له أمجاده وأجداده .

لقد استقبل محمد بداية شبابه بجداً يكافح بكد يمينه ، وعرق جبينه ، بالرغم مما كان يلقاه من عناية عمه أبي طالب به ، وحب له .

أ- رحلته الأولى إلى الشام :

وهذه تشكل بداية النشأة الواعية ، والسيرة الهادفة والثَّواة التي سوف تنمو مواهبها بصقل الأيام ، ووقع التجارب ، وتعدد الخبرات وتوفيق الله عز وجل وحفظه .

لما تمَّ للنبي ﷺ من العمر اثنتا عشرة سنة سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام ، ولما نزل ركب التجار «بصرى» مرُّوا على راهب هناك يقال له (بحيرا) وكان عليمًا بالإنجيل ، خبيراً بشؤون النصرانية ، وهناك أبصر (بحيرا) النبي ﷺ ، وراح يتأمله ويكلمه ، ثم التفت إلى أبي طالب ، فقال له : ما يكون هذا الغلام منك؟

فقال : ابني .

وكان أبو طالب يدعوه بابنه ، لشدة محبته له ، وشفقته عليه .

فقال له (بحيرا) :

ما هو بابنك ، وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حياً .

فقال أبو طالب : هو ابن أخي .

قال: فما فعل أبوه؟

قال: مات ، وأمه حبلى به .

قال (بحيرا): صدقت ، فارجع به إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه هنا ليُبلِغُنَّهُ شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .
فأسرع به أبو طالب عائداً إلى مكة .

وعى محمد ﷺ أبعاد هذه الرحلة ، واستبطن موادَّ ما دار بين (بحيرا) وأبي طالب ، وعملت على فتح كثير من المشاعر النفسية ، والملاحظات الذاتية ، وعاد منها برصيد كبير ، سوف يكون لبنة مُهمَّة في بناء إمكاناته ، ومهاراته إلى جانب ما سوف تجود به الأحداث والتجارب الأخرى .

والملاحظ أن أهل الكتاب كانوا على علم بنبا نبوَّته ، ولديهم الكثير من ملامح شخصيته ، ولكنهم لما ﴿جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] .

ب- رعيه الغنم:

لقد رعاها ﷺ ، وأفاد منها ، وهكذا الإنسان العظيم ، لا يمرُّ بالناس والأحداث مرَّ الرياح ، لكنه يمرُّ بها مرَّ الخبير البصير ، المتفكر المتأمل ، المنتج المستنتج .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبيّاً إلا رعى الغنم» .

فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم ، كُنْتُ أُرعاها على قراريط لأهل مكَّة» . رواه البخاري (٢٢٦٢) في الإجارة ، ومسلم (٢٠٥٠) في الأشربة .

والقراريط: جمع قيراط ، وهو جزء من الدينار ، أو الدرهم .

قال الإمام النووي: الحكمة في رعاية الأنبياء لها لياخذوا أنفسهم بالتواضع ، وتُصَفَّى قلوبهم بالخلوة ، ويترقَّوا من سياستها بالنصيحة إلى سياسة أممهم بالهداية والشفقة .

وقال ابن حجر في «الفتح» : الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرُّن برعيها على ما يكلّفونه من القيام بأمر أمتهم ، ولأن في مخالطتها ما يُحصِّل لهم الحلم والشفقة ، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، ودفع عدوّها من سَبُع وغيره كالسارق وعلموا اختلاف طباعها ، وشدّة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة أَلْفَوْا من ذلك الصبر على الأمة ، وعرفوا اختلاف طباعها ، وتفاوت عقولها ، فجبّروا كسرّها ، ورفّقوا بضعيفها ، وأحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أوّل وهلة ، لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم .

وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها .

وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله تعالى ما كان عليه من عظيم التواضع لربه عز وجل ، والتصريح بمنته عليه .

وقال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «فقه السيرة» ص : ٦٦ :
أما إقباله - ﷺ - على رعي الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق ، ففيه ثلاث دلالات هامة :

الأولى : الذوق الرفيع ، والإحساس الدقيق للذات جَمَل الله تعالى بهما نبيه محمداً ﷺ .

لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له في الحنو والشفقة كالأب الشَّفوق .

لكنه - ﷺ - ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ، ويَجهد جُهدَه لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤنة الإنفاق عن عمه .

وربما كانت الفائدة التي يجنيها من وراء عمله الذي اختاره الله تعالى له فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبي طالب ، ولكنه على كلّ تعبير أخلاقي رفيع عن الشكر ، وبذل للوسع ، وشهامة في الطبع ، وبرّ في المعاملة .

الثانية : وتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار الدنيا .

لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية أن تهَيَّ للنبي ﷺ وهو في صدر حياته من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ، ورعاية الأغنام سعيًا وراء القوت .

ولكن الحكمة الإلهية تريد منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكَدِّ يمينه ، ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه ، وشرُّ المال ما أصابه الإنسان ، وهو مستلق على ظهره ، دون أن يرى أيَّ تعب في سبيله ، ودون أن يبذل أي فائدة للمجتمع في مقابله .

الثالثة : إن صاحب أي دعوة لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته ، أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم ، ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أخرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشخصي ، أو مورد شريف لا استجداء فيه ، حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منَّة ، أو فضل في دنياه ، فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه غير مبال بالموقع الذي قد يقع من نفسه .

وهذا المعنى وإن لم يكن قد خطر في بال الرسول ﷺ في هذه الفترة ، إذ إنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن الدعوة والرسالة الإلهية ، غير أن هذا المنهج الذي هَيَّاه الله له ينطوي على هذه الحكمة ، ويوضح أن الله تعالى قد أراد أن لا يكون في شيء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته ، أو يؤثر عليها أي تأثير سلبي فيما بعد البعثة .

ج - حضوره حرب الفجار :

وكانت هذه الحرب بين كنانه ، ومعها قريش ، وبين قيس عيلان ، وسميت بهذا الاسم بما استحل بها المتحاربون من المحارم .

وكان النبي ﷺ يومئذ في الخامسة عشرة من عمره .

روى ابن سعد أن النبي ﷺ ذكر (الفجار) فقال: «حضرته مع عمومتي ،
ورميت فيه بأسهم ، وما أحبُّ أني لمن أكن فعلت .

وقال ابن هشام: قال رسول الله: «كنت أبئِّل على أعمامي» أي أردُّ عليهم
نبل عدوهم إذا رموهم بها .

وفي حضور هذه الحرب ، يُرى في حياة محمد بدء ظهور الجانب البطولي
والعسكري في شخصيته الكريمة ، فهو سوف يكون القائد الفذ ، والبطل
المتميز .

وسبب هذه الحرب بين الفرقاء: أن النعمان بن المنذر كان له تجارة يرسلها
كل عام إلى سوق عكاظ بأمان رجل ذي منعة ، فجلس يوماً وعنده البرّاض بن
قيس الكناني ، وعروة بن الرحال القيسي ، فقال: من يجيز لي تجارتي هذه
حتى يُبلغها عكاظ؟

فقال البرّاض - وكان فاتكاً خليعاً - أنا أجيزها على بني كنانة .

فقال النعمان: أريد من يجيزها على الناس كلهم .

فقال عروة: أبيت اللعن ، أيها الملك ، أكلب خليع يجيزها لك؟

أنا أجيزها على أهل الشَّيخ والقيصوم من أهل نجد وتهامة ، وعلى الناس
كلهم ، والشَّيخ والقيصوم: أنواع من شجر البوادي .

فقال البرّاض: أو تجهيزها على كنانة ، يا عروة؟

قال: وعلى الناس كلهم .

فأسرّها البرّاض في نفسه ، وتربص له حتى خرج بالتجارة قتله غدراً ، ثم
أرسل رسولاً يخبر قومه (كنانة) بالخبر ، ويحذرهم قيساً قوم عُرْوَة .

وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همت لتدرك ثأرها ، حتى أدركوا
قريشاً وكنانة بنخلة ، فاقتتلوا ، ولما اشتدّ البأس ، وحميت قيس ، احتمت
قريش بحرمها ، وكان فيهم رسول الله ﷺ .

ثم إن قيساً قالوا لخصومهم: إنا لا نترك دم عروة ، فموعدنا عكاظ العام

المقبل ، وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً ، فلما حال الحول جمعت قيس جموعها ، وكانت معها ثقيف وغيرها ، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش ، وهم حلفاء قريش ، وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ، ومعه إخوته ، أبو طالب ، وحزمة ، والعباس ، وابن أخيه النبي الكريم ﷺ ، وكان على بني أمية حرب بن أمية ، وله القيادة العامة ، لمكانه في قريش شرفاً وسناً ، وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ، ثم تناجزوا الحرب ، فكان يوماً من أشد أيام العرب هولاً ، وكادت الدائرة تدور على قيس لكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح على أن يُخصوا قتلى الفريقين ، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد ، فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش ، وتعهد بها حرب بن أمية ، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب ، تبدؤها صغيرات الأمور ، حتى أَلَفَ الله تعالى بين قلوبهم ، وأزاح عنهم هذه الضلالات على يدي هذا النبي الكريم ، لكن بتوفيق الله تعالى ، وانتشار نور الإسلام .

انظر: «نور اليقين» ص ٢٧ - ٢٨ ، و«عيون الأثر» ٤٦/١ ، و«طبقات ابن سعد» ١٢٨/١ ، و«سيرة ابن هشام» ١٨٤/١ - ١٨٧ - و«سيرة ابن كثير» ٢٥٥/١ .

قال الله تعالى ممتناً على نبيه ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ وَإِلْمًا وَمِنْكَ الْوَيْسُ وَالْعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلُوبُهُمْ مُّوَفَّقَاتُ لِقَوْلِ رَبِّي لَأَمْلَأَنَّ جَنَّاتٍ مِنْهُمْ وَأَفْضُحًا مِنْهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا لَفِي سَكِينٍ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣] .

د - حضوره حلف الفضول:

وكان هذا الحلف في ذي القعدة قبل مبعث النبي ﷺ بعشرين سنة ، ولرسول ﷺ يومها من العمر عشرون سنة ، وكان هذا الحلف أكرم خلف سُمع به ، وأشرفه في العرب .

والفضول: مصدر فَضَّلَ ، إذا اتصف بالفضيلة ، وهي ضدُّ النقيصة .

وكان أوَّلَ من تكلم بهذا الحلف ، ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب ، وكان

سببه أن رجلاً من (زَبيد) قدم مكة ببضاعة ، فاشتَراها منه العاصي بن وائل السَّهْمِي ، وكان ذا قَدَرٍ وشرف بمكة ، فحبس عن الزَّبيدي حَقَّهُ ، فاستدعى عليه الأحلاف: عبد الدار ، ومَخْزوماً ، وجُمحاً ، وسَهْماً ، فأبوا أن يُعينوه على العاصي ، ونهروه ، فلما رأى الزَّبيدي الشَّر رقى على أبي فُيَيْسٍ عند طلوع الشمس وقريش في أُنديتهم حول الكعبة ، فقال بأعلى صوته :

يا آلَ فِهْرٍ لمَظْلُومٍ بضاعته بيطنِ مَكَّة نائي الدَّارِ والتَّقْرِ
ومُحَرَّمٍ أشعث لم يَقْضِ عُمُرَتَه ياللرَّجال ويئن الحِجر والحَجَرِ
إن الحرام لمن تمت مكارمه ولا حرام لثوب الفاجر الغُدرِ
فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : «ألهذا مَتَرُكٌ» .

فاجتمعت هاشم ، وزُهرة ، وتيم في دار عبد الله بن جُدعان ، فصنع لهم طعاماً ، فتحالفوا في ذي القعدة ، وهو شهر حرام قياماً ، فتعاقدوا ، وتعاهدوا ليكوننَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يُؤدَّى إليه حَقُّه ، ما بَلَ بَحْرٌ صُوفَةٌ ، وما رَساً حِراء ، وثبير مكانهما ، وعلى التَّاسِي في المعاش .

فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر ، ثم مشوا إلى العاصي بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزَّبيدي ، فدفعوها إليه .

وقد حضر رسول الله ﷺ هذا الحلف مع أعمامه ، وقال بعد أن شَرَّفه الله بالرسالة :

«لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حِلْفاً ما أحبُّ أن لي به حُمْرَ النَّعَمِ ولو دُعي به في الإسلام لأحببت» رواه ابن إسحاق ، وابن سعد والبيهقي .

وفي رواية: «شهدت حلف المُطَيِّبين مع عمومتي ، وأنا غلام ، فما أحبُّ أن لي حُمْرَ النَّعَمِ ، وأني أنكُته» رواه أحمد وأبو يعلى .

وأراد بحلف المُطَيِّبين حلف الفضول ، وسمُّوا المُطَيِّبين ، لأن أصحاب بني عبد الدار أحضروا جَفَنَةً فيها طيب ، فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا .

هـ- تجارته بمال خديجة :

إن عمل النبي ﷺ بمال خديجة رضي الله عنها ، وسفره إلى الشام بهذا المال ما هو إلا استمرار لحياة الكدح ، والجِدِّ الذي بدأه برعي الأغنام انتهازاً للفرص ، واغتناماً للمناسبات التي من شأنها أن تصوغ المواهب ، وترعى الكفاءات والمهارات وتحقق الحياة الشريفة ، وتؤمن الكفاية اللازمة بعيداً عن الحاجة ، والركون إلى الغير .

لقد كانت خديجة رضي الله عنها امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إِيَّاه ، فلما سمعت عن السيد الكريم صدق الحديث ، وعظم الأمانة ، وكرم الخلق ، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ، فقبل محمد ﷺ بهذا العرض ، فسافر إلى الشام ، ومعه غلام خديجة (ميسرة) ، فحالفه التوفيق ، وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة ، وأدى لها ما عليه في أمانة ونبل وشرف ، وقد ظهر للسيد الكريم في هذه السفرة من البركات ، والخصائص ما عظمه في قلب ميسرة ، وحَبَّبه إليه ، فنقل ذلك بصدق إلى سيدته خديجة رضي الله عنها .

إن العباقرة من الناس والمبدعين فيهم لا يمكن أن تمرَّ بهم الأحداث والمناسبات دون أن يُفيدوا منها براعة وابتكاراً ، ويأخذوا منها أُهبةً ، وزاداً ، ويزادوا بها مهارة وحذقاً وإتقاناً ، وهكذا كان السيد الكريم تتدرج حياته صُعداً في مراقي الكمال والجمال ، والإبداع .

وقد روي عنه أنه قال فيما بعد :

«كُلَّ يوم لا أزداد فيه علماً يُقَرِّبني من الله تعالى ، فلا بُورك لي في طُلوع شَمْسٍ ذلك اليوم» . رواه الطبراني ، وأبو نعيم ، وابن عبد البر .
وهو القائل : «خَيْرُ النَّاسِ من طال عُمره ، وحَسَنَ عَمَلُهُ» .

رواه الترمذي (٢٣٢٩) في الزهد .

نعم إذا كان الزمان لا يقف ، فإن الرجل العظيم لا يقف ، بل يستمر ساعياً

إلى حيث الفضيلة ، والنبوغ ، والإبداع ، والبناء ، والعطاء ، وهكذا كان نبينا ﷺ ، حتى اكتمل ، وأكمل لنا معالم الخير ، ومحاسن الحياة ، وقال لنا : «وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء» .

رواه ابن ماجه (٥) في المقدمة .

وفي رواية : «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاء ، لَيْلُهَا كَنَهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ» رواه ابن ماجه (٤٣) في المقدمة .

١٠ - زواجه من خديجة بنت خويلد :

قال الشيخ محمد الخضري في كتابه «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» ص : ٣٠ :

لما قدم رسول الله ﷺ مكة عائداً من تجارته بمال خديجة ، ورأت ربحها العظيم ، وسمعت من غلامها سيرته العظيمة سُرَّتْ منه ، وأرسلت إليه تخطبه لنفسها ، وهي من أوسط قريش حسباً وأوسعهم مالاً ، وكان سنّها يومئذ نحو الأربعين ، وكان سنُّ محمد نحواً من خمس وعشرين .

فقام النبي ﷺ مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد ، فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب ، فزوّجها عمها .

وروى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» ١/ ١٣١ - ١٣٢ ، بسنده عن نفيسة بنت مُنيّة ، قالت : كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير - وهي يومئذ أوسطُ قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكلُّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك ، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال .

فأرسلتني خُفْية إلى محمد بعد أن رجع في غيرها من الشام ، فقلت : يا محمد ، ما يمنعك أن تزوج ؟ .

فقال : «ما بيدي ما أتزوج به» .

قلت: إِنَّ كُفَيْتَ ذَلِكَ ، وَدُعِيتَ إِلَى الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالشَّرَفِ وَالْكَفَاءَةِ ، أَلَا تَجِيبُ؟

قال: «فمن هي؟».

قلت: خديجة.

قال: «وكيف لي بذلك؟».

قالت: قلتُ: عليّ.

قال: «فأنا أفعل».

فذهبت ، فأخبرتها ، فأرسلت إليه: أن ائت لساعة كذا وكذا ، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر.

انظر: «سبل الهدى والرشاد» ٢/ ١٦٤ - ١٦٥.

قال الشيخ محمد الخضري: وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم ، فقال: «الحمدُ لله الذي جعلنا من ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَزَرَعَ إِسْمَاعِيلَ وَضِئْضِئِ مَعَدٍّ ، وَعُنْصُرَ مَضَرَ ، وَجَعَلَنَا حَصْنَةَ بَيْتِهِ ، وَسَوَّاسَ حَرَمِهِ ، وَجَعَلَ لَنَا بَيْتاً مَخْجُوجاً ، وَحَرَمًا آمِنًا ، وَجَعَلَنَا حَكَامَ النَّاسِ .

ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يُوزَنُ به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً ، وإن كان في المال قُلّاً ، فَإِنَّ الْمَالَ ظِلٌّ زَائِلٌ ، وَأَمْرٌ حَائِلٌ ، وَعَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ ، وَهُوَ ، وَاللَّهِ بَعْدَ هَذَا لَهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، وَخَطَرٌ جَلِيلٌ ، وَقَدْ خُطِبَ إِلَيْكُمْ رَغْبَةٌ فِي كَرِيمَتِكُمْ خَدِيجَةٌ ، وَقَدْ بَذَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ كَذَا .

وضئضئ: الأصل والمعدن.

قال ابن هشام: وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بَكْرَةً ، والبكرة الفتية من الإبل.

قال ابن سيد الناس في «عيون الأثر» ١/ ٥٠ - ٥١: تزوجت خديجة قبل رسول الله رجلين:

الأول: عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فولدت له جارية .

الثاني: أبو هالة التميمي ، واسمه هند بن زرارة .

والذي يلفت النظر قول أبي طالب في محمد ﷺ وهو يومئذ في مقتبل الشباب :

«إن ابن أخي هذا لا يوزن به رجل شرفاً ، ونبلاً ، وفضلاً ، وهو بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل» .

نعم ، لقد كان محمد كذلك ، ذا شرف ، ونبل ، وفضل ، وأدب وعفة ، وكمال ، عبر عن نفسه بسلوكه ، ومواهبه ، وملكاته ، وما كان يتمتع به من تفوق على الأقران ، وسمو بين الأهل والأصحاب ، عرفه بذلك الداني ، والبعيد ، وخلعوا عليه ألقاب ، الصادق والأمين ، وقد قيل : من أشرقت بدايته ، أشرقت نهايته .

وقيل أيضاً: يشب الفتى على ما نشأ عليه ، ويشيخ على ما شبَّ عليه ، فمحمد منذ البداية إلى النهاية مثل أعلى من الجلال والجمال والكمال ، فصلى الله وسلم عليه في الأولين والآخرين إلى يوم الدين .

١١ - اشتراكه في بناء الكعبة :

قال الشيخ محمد الخضري في كتابه : «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» :

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنة ، جاء سيل جارف فصعد جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل ، فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها ، فإنها كانت رضية أي مبنية بالصخر ، فوق القامة ، فاجتمعت قبائلهم لذلك ، ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في قلوبهم . فقال لهم الوليد بن المغيرة : أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح ، قال إن الله لا يهلك المصلحين ، وشرع يهدم ، فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ، وهناك وجدوا صحافاً نقش فيها كثير من الحكم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ، ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين .

(انظر «سيرة ابن هشام» ١/١٩٦ و«الروض الأنف» ١/٢٢٧ ، و«سبل الهدى» والرشاد ٢/١٦٩).

ثم ابتدؤوا في البناء ، وأعدّوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغيّ ، ولا بيع رباً ، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم ، وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل ، وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه باقوم .

(انظر «الفتح» ٣/٥١٦-٥١٧)

وقد خصص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة ، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل ، فأخرجوا منها الحجر ، وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة ، ولما تم البناء ثماني عشرة ذراعاً ، بحيث زيد فيه عن أصله تسعة أذرع ، ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يصعد إليه إلا بدرج ، أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه ، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه ، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تنشب بينهم نار الحرب ، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي عم خالد بن الوليد ، فقال لهم : يا قوم ، لا تختلفوا ، وحكموا بينكم من ترضون بحكمه . فقالوا : نكل الأمر لأوّل داخل ، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام ، فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الأمانة ، وصدق الحديث ، وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد ، لأنهم كانوا يتحاكمون إليه ، إذ كان لا يُداري ولا يُماري ، فلما أخبروه الخبر بسط رداءه . وقال : «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب» ثم وضع فيه الحجر ، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه ووضعوه فيه .

(انظر : «عيون الأثر» ١/٥١-٥٣ ، «وابن سعد» ١/١٤٥-١٤٧ ، وسيرة «ابن هشام» ١/١٩٢-١٩٧).

وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب ، لولا أن يمنّ الله عليهم بعقل مثل أبي أمية يرشدهم

إلى الخير ، وحكيم مثل الرسول ﷺ يقضي بينهم بما يرضي جميعهم ، ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا ، لأن البيت قبلة العرب ، وكعبتهم التي يحجون إليها ، فكل عمل فيه عظيم ، به الفخر والسيادة ، وهو أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم .

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٦ - ٩٧] .

وكان يلي أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جرهم ، فلما بغوا وظلموا مَنْ دخل مكة ، اجتمعت عليهم خزاعة ، وأجلوهم عن البيت ، ووليته خزاعة حيناً من الدهر ، ثم أخذته منهم قريش في عهد قصي بن كلاب ، وبسببه أمنوا في بلادهم ، فكانت قبائل العرب تهابهم ، وإذا احتموا به كان حصناً أميناً من أعتداء العادين ، وامتن الله عليهم بذلك في تنزيله ، فقال في سورة العنكبوت : الآية : ٦٧ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ .

١٢ - معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة :

لم يرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً ؛ بل ولد يتيماً عائلاً ، فاسترضع من بني سعد ؛ ولما بلغ مبلغاً يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْمَلَ عملاً كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية ، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط ، كما ذكر ذلك البخاري في «صحيحه» . ووجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومشاغلتها أمر لا بد منه ، لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا ، وشغلوا بها عن السعادة الأبدية ؛ ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد فيها ، والتباعد عنها ، وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك ، فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس في الدنيا ، وكذلك كان موسى وإبراهيم ، وكانت حالتهم في صغرهم ليست سعة ، بل كلهم سواء . تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ، ليكونوا نموذجاً لمتبعيهم في الامتناع

عن التكالب على الدنيا ، والتهاف عليها ، وذلك سبب البلى والمحن . وكذلك رعاية الغنم ، فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق في حديث للبخاري ، وهذه أيضاً من بالغ الحكم ، فإن الإنسان إذا استرعى الغنم ، وهي أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً ، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان لما هذب أولاً من الحدة الطبيعية ، والظلم الغريزي ، فيكون في أعدل الأحوال ، ولما شب عليه السلام كان يتجر ، وكان شريكه السائب بن أبي السائب ، وذهب بالتجارة لخديجة ، رضي الله عنها ، إلى الشام على جعل يأخذه ، ولما شرفت خديجة بزواجه ، وكانت ذات يسار عمل في مالها ، وكان يأكل من نتيجة عمله ، وحقق الله ما امتنّ عليه به في سورة الضحى بقوله جلّ ذكره :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۖ ﴾

أي : بالإيواء والإغناء قبل النوة ، والهداية بالنبوة هداه للكتاب والإيمان ، ودين إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن يدري ذلك قبل .

قال تعالى في سورة الشورى : ٥٢ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۖ ﴾ .

١٣ - سيرته في قومه قبل البعثة :

كان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خلقاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش ، والأخلاق التي تدنس الرجال ، حتى كان أفضل قومه مروءة ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، فسموه الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة ، والفعال السديدة من الحلم ، والصبر والشكر ، والعدل ، والتواضع ، والعفة ، والجود ، والشجاعة ، والحياء . حتى شهد له بذلك ألد أعدائه : النضر بن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم قلتم : ساحر ! لا والله ما هو

بساحر ، قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم ، حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه .

انظر حديث النضر مع زعماء قريش في «سيرة ابن هشام» ٢٩٩ - ٣٠٠ ، وقد كان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي النبي ﷺ وقد انتقم الله منه ، فقتل يوم بدر كافراً .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونهم بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا ، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . ورد ذلك في أول صحيح البخاري ، وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها ، وبُغِضَتْ إليه الأوثان بغضاً شديداً ، حتى ما كان يحضر لها احتفالاً ، أو عيداً مما يقوم به عبّادها ، وقال عليه الصلاة والسلام: «لما نشأت بغضت إليّ الأوثان ، وبغض إليّ الشعر ، ولم أهتم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما ، حتى أكرمني الله برسالته ، قلت ليلةً لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمّر الشباب ، فخرجتُ لذلك حتى جئتُ أولَ دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف ، والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك ، فضرب الله على أذني ، فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك» .

أخرج هذه القصة الحاكم في «المستدرک» ٢٤٥/٤ عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

وقال الحاكم ، صحيح على شرط مسلم ، وأخرجها ابن الأثير أيضاً في «الكامل» ٣٨/٢ .

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل مما ذبح على الثُصْب ، وحرّم شرب الخمر على نفسه مع شيعوه في قومه شيوعاً عظيماً ، وذلك كله من الصفات التي يحلّي الله بها أنبياءه ، ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقي وحيه ، فهم

معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها: أما قبل النبوة فليأتأهلوا للأمر العظيم الذي سيسند إليهم ، وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم ، عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات .

١٤ - ما أكرمه الله به قبل النبوة :

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليلة الذين كان مسترضعاً فيهم ، فقد كانوا قبل حلوله بناديبهم مجددين ، فلما صار بينهم صارت غنيماتهم تؤوب من مرعاها ، وإن أضراعتها لتسيل لبناً ، ويرحم الله البوصيري حيث يقول في همزيته :

وإذا سخر الإله أناساً لسعيد فإنهم سعداء

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره ، وإخراج حظ الشيطان منه ، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى ، فمن استبعد ذلك كان قليل النظر ، لا يعرف من قوة الله شيئاً ، لأنّ خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ، ولا المستغرب ، ومن المكرمات الإلهية تسخير الغمامة له في سفره إلى الشام ، حتى كانت تظله في اليوم الصائف ، لا يشترك معه أحد من القافلة ، كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذي كان مشاركاً له في سفره ، وهذا ما حبه إلى خديجة ، حتى خطبته لنفسها ، وتيقنت أن له في المستقبل شأناً . ولذلك لما جاءت النبوة كانت أسرع الناس إيماناً به ، ولم تنتظر آية أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الأخلاق ، وما سمعته من خوارق العادات ، ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار ، فكان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى ببناء ، ويفضي إلى الشعاب ، وبطون الأودية ، فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا سمع : الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً ، وقد حدّث بذلك عن نفسه .

انظر «الشفاء» للقاضي عياض / ٥٥٨ - ٥٩٠ ، وروى مسلم في «صحيحه» (٢٢٧٧) في الفضائل ، باب (١) فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ، عن جابر بن سمرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إني لأعرف حجراً

بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن» .

وليس في ذلك كبير إشكال فقد سخر الله الجمادات للأنبياء قبله ؛ فعصا موسى التقت ما صنع سحرة فرعون بعد أن تحوّلت حية تسعى ، ثم رجعت كما كانت ، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتي عشرة عينا ، لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين . وكذلك غيره من الأنبياء ، سخر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات ، لتدل العقلاء على عظيم قدرهم ، وخطارة شأنهم .

١٥ - بشارة الكتب السماوية به :

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن ، ونوّه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سير سلهم ، فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيدنا موسى عليه السلام : وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوانهم ، وأجعل كلامي في فمه ، ويكلمهم بكل شيء أمره به ، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه ، فأما النبي الذي يجتريء عليّ بالكبرياء ، ويتكلم باسمي بما لم أمره به ، أو باسم آلهة أخرى فليقتل ، وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك : أن ما قاله النبي باسم الرب ، ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ، ولذلك لا تخشاه .

ويقول اليهود إن هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام ، مع أنهم كانوا ينتظرون في مدّة المسيح نبياً آخر غير المسيح ، فإنهم أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه ، فقالوا له : أنت إيليا؟ فقال : لا ، فقالوا : أنت المسيح؟ فقال : لا ، فقالوا : أنت النبي؟ فقال : لا . فقالوا : ما بالك إذا تُعمّد إذا كنت لست إيليا ، ولا المسيح ، ولا النبي .

التعميد : التغطيس والغسل بالماء رمزاً للنقاوة والانخراط في سلك طائفة ما .

فهذه تدل على أن التوراة تبشر بإيليا ، والمسيح ، ونبي لم يأت حتى زمن المسيح .

ثم إن التوراة تقول في صفة النبي : إنه مثل موسى ، وقد نصت في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى ، وورد في هذه البشارة أن النبي الذي يفتری على الله يقتل ، ويشبه ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة : ﴿ وَلَوْ نَفَّوْا عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ .

والوتين : عرق في القلب ، إذا انقطع مات صاحبه ، والآيات من سورة الحاقة : ٤٤ - ٤٦ .

ونبينا ﷺ مكث بين أعدائه الألداء من مشركين ، ويهود ثلاثاً وعشرين سنة ، يدعوهم فيها إلى الله ، ومع ذلك عصمه الله منهم ، وأنزل عليه تظميناً لخاطره في سورة [المائدة : ٦٧] ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

أكان يعجز الله ، وهو القادر على كل شيء ، أن يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله ، وهو الذي قال في سورة [الشورى : ٢٤] : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَتَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ، وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه ، وهي الإخبار بما سيأتي ، وقد أخبر النبي عليه السلام عن أشياء كثيرة ، فحدثت كما أخبر عنها ، ومنها ما لا ينفع معه الحدُّ والتخمين : كالإخبار بأن الروم سيغلبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً ، حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم ، فالإخبار إذاً بأن الروم سيردّون ما فقد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلا من عند الله ، ولذلك استغربه جداً بعض المشركين من قريش ، وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد حقق الله الخبر فاستحق الصديق الرهن .

وروى القاضي عياض في «الشفاء» أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه السلام ، فقال : أجل ! والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] . «وحرزاً للأمين ، أنت عبي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع

السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا: لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً.

أخرجه البخاري (٢١٢٥) في البيوع: باب (٥٠) كراهية السَّخْب في الأسواق ولفظ البخاري: «ولا سخاب» والمعنى واحد «ويُفتح به أعين عمي ، وآذان صم ، وقلوب غُلف».

الملله العوجاء: دين العرب قبل بعثته ﷺ ، فقد كان شديد العوج ، وإقامتها ردها إلى التوحيد والاستقامة .

وروي مثله عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وهو الذي كان رئيس اليهود ، فلم تعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم ، وكذلك كعب الأخبار ، وفي بعض طرق الحديث: ولا صَخِب في الأسواق ، ولا قوال للخنا ، أسدده لكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبرّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد إسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأُعلِمُ به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة .

وأسمي به بعد التُّكْرَة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغني به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين قلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأمم متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، وقد أخبر . عن صفته في التوراة فقال: وهو الصادق الأمين: عبيد أحمد المختار مولده مكة ومهاجره بالمدينة - أو قال طيبة - وأتمته الحمادون الله على كل حال .

رواية عبد الله بن سلام أخرجه البخاري ٥٩/٣ تعليقاً ، وأسنده الدارمي ٥/١ . ورواية كعب أخرجه الدارمي ٤/١ من رواية أبي واقد الليثي الصحابي .

وبشر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط ، ومعناه قريب من محمد أو أحمد ، ويصدّقه في القرآن قول الله تعالى في سورة [الصف: ٦]:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ . وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبينا ، فقال إنه يوبخ العالم على خطيئته ، وإنه يعلمهم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم : ٤ .

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ .

وقد ورد في إنجيل برنابا الذي ظهر منذ زمن قريب ، وأخفته حُجب ، الجهالة : ذكر اسم الرسول عليه السلام صراحة .

ومما يدل بصراحة على أن النبي ﷺ معروف بالتوراة والإنجيل ، ومذكور ببعض أوصافه ، قول الله تعالى في سورة الأعراف ، الآية ١٥٦ - ١٥٧ ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ .

وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ١/ ٢٧٣ - ٣٨٣ .

١٦ - حركة الأفكار قبل البعثة :

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأبحار والرهبان قبيل البعثة ، فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر ، فقد حدثت عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه ، قالوا : إنما دعانا للإسلام - مع رحمة الله تعالى لنا - ما كنا نسمع من أبحار يهود ، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكثيراً ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله محمداً أجبننا حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فأما وكفروا .

(٤) انظر حديث عاصم في «سيرة ابن هشام» ٢١١/١ - ٢١٢ ، و«سيرة ابن كثيرة» ٢٩١/١ .

وإنما قال لهم اليهود ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، لأن من صفته عليه السلام في كتبهم أن هذا النبي يستأصل المشركين بالقوة ، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم ، فينبذون الدين القيم ، فيحق عليهم العذاب في الدنيا والآخرة .

وكان أمية بن أبي الصلت المتنصر العربي كثيراً ما يقول : إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا .

وحدث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه ، إنه صحب قسيساً فكان يقول له : يا سلمان ، إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد ، يخرج من جبال تهامة ، علامته أن يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان .

انظر حديث إسلام سلمان بطوله في «سيرة ابن هشام» ٢١٤/١ - ٢٢١ ، و«سيرة ابن كثير» ٢٩٦/١ - ٣٠٢ .

ولما راسل عليه السلام ملوك الأرض ، لم يهن كتابه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب ، وأما جميع ملوك النصارى : كالتجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر ، وقيصر ملك الروم ، فأكرموا وفادة رسله . ومنهم من آمن كالتجاشي ، ومنهم من ردّ ردّاً لطيفاً ، وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقصير ، ومنهم من هادى كالمقوقس ، ولم يكن عليه السلام في قوة يُرهب بها هؤلاء الملوك ، اللهم ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتي من بعده ، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم ، فأجابوا بالتّي هي أحسن .

أما ما سمع من الهوائف والكهان قبيل زمنه ، فهو ما لا يدخل تحت حصر ، ومع ذلك كله ، فالأعمال التي جاد الله بها على يديه ، والأقوال التي أتانا بها أعظم مقوّل لحجته .

١٧ - الرؤيا الصالحة في النوم :

روى البخاري (٣) في بدء الوحي ، ومسلم (١٦٠) في الإيمان أن النبي ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

والرؤيا : هي ما يراه النائم في النوم .

ومنها ما هو حق ، قال رسول الله ﷺ .

«الرؤيا الصالحة من الله» . رواه البخاري (٦٩٨٦) في التعبير ، ومسلم (٢٢٦١) في الرؤيا .

الرؤيا الصالحة : هي الصادقة ، وهي من المبشرات التي تؤذن بخير .

قال رسول الله ﷺ : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» .

قالوا : وما المبشرات ؟ قال : «الرؤيا الصالحة» . رواه البخاري (٦٩٩٠) في التعبير .

وهذه الرؤيا الصالحة عنوان صفاء القلب ، وسلامة الروح واستقامة السيرة غالباً .

قال رسول الله ﷺ : «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً» رواه مسلم (٢٢٦٣) في الرؤيا .

لذلك كانت هذه الرؤيا جزءاً من النبوة .

قال رسول الله ﷺ : «رؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» . رواه البخاري (٦٩٨٧) في التعبير ، ومسلم (٢٢٦٤) في الرؤيا ، فرؤى رسول الله ﷺ كانت من مبشرات نبوته . وإرهاصات انتشار أمره ، وظهور ذكره ، وتباشير كرامته .

قال الزهري : بلغنا أن رسول الله ﷺ رأى رؤيا ، فشق ذلك عليه ، فذكرها لخديجة رضي الله عنها ، فقالت : أبشر ، فإن الله لن يصنع بك إلا خيراً . «سبل الهدى والرشاد» ٢/ ٢٢٨ .

قال عبيد الله بن عمير رحمه الله تعالى: «رُؤيا الأنبياء وحي» رواه البخاري (١٣٨) في الوضوء.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: لقد بدىء رسول الله ﷺ بأول خصال النبوة ، وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا.

ورسولنا الكريم ﷺ يسير منذ النشأة صُعداً في مدرج المكارم ، والفضائل ، وبرز المواهب ، وظهور الخبرات والإمكانات حتى تتوج ذلك برسالته الكريمة ، ونبوته العامة.

١٨ - اختلاؤه في غار حراء:

ولما أخذت سنّه - ﷺ تقترب من الأربعين نشأ لديه حبٌ للعزلة بين الفئنة والأخرى ، فكان يخلو في غار حراء ، وحراء جبل يقع في جانب الشمال الغربي من مكة المكرمة.

فكان يخلو عشرة أيام ، ويتعبّد فيه الليالي ذوات العدد.

فتارة يخلو عشرة أيام ، وتارة أكثر من ذلك إلى شهر ، ثم يعود إلى بيته ، فلا يكاد يمكث قليلاً ، حتى يتزوّد من جديد لخلوة أخرى ، ويعود الكرة إلى غار حراء ، وهكذا إلى أن جاءه الوحي ، وهو في إحدى خلواته.

قال الشيخ محمد الخضري: وذلك في السابع عشر من رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة.

قال ابن أبي جمرة: إن الحكمة في اختياره ﷺ حراء لاختلائه هي أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة فيجتمع له فيه ثلاث عبادات: الخلوة ، والتعبّد ، والنظر إلى البيت.

أما غرضه ﷺ من هذه الخلوة ، والعزلة عن الناس فإنما هو فراغ قلبه لما يتوجه له ، من الذكر والفكر ، والتعبّد لله عز وجل.

إن لهذه الخلوة التي حُببت إلى قلب رسول الله ﷺ قبيل البعثة دلالة عظيمة وأهمية كبرى في حياة الدعاة إلى الله عز وجل ، فهي توضح وتؤكد أنه لابدّ

للداعي الحق إلى الله عز وجل من فترة خلوة وعزلة يصفو بها ، ويعود إلى نفسه بعيداً عن أعين الرقباء ، وحركات الداهيين والآيين ، يحاسب نفسه ، ويراقب ربه ، ويفكر في مظاهر الكون ، ودلائل ذلك على عظمة الله تعالى ، فإن للنفس الإنسانية آفات لا يقطع شرّتها إلا دواء العزلة عن الناس ، والخلوة بالنفس ، ومحاسبتها في نجوة من ضجيج الدنيا ، ومظاهرها ، والتفكير في الحال والمآل ، فعند التفكير المتكرر تتساقط تلك الآفات اللاحقة بالنفس ، من الغفلة والعجب ، والاغترار ، ويحيا القلب بنور العرفان والصفاء ، فلا يبقى لعكر الدنيا من سبيل إلى تكدير مرآته .

وفي هذه الخلوات المتكررة الهادفة الواعية ، الجادة في التفكير بفضل الله ورحمته ، ومظاهر عزته وقدرته ، وحكمته تنمو محبة الله عز وجل ، وتأخذ دورها ، في تأصيل العبودية لله عز وجل ، والانضباط بمنهجه الحكيم ، حيث يستصغر المحبُّ كل عظيم ، ويستعلي فوق كل إغراء يحدث من نشاطه ، ويحول دون أداء واجبه .

هذه الخلوة تعتبر العُدّة الكبرى التي ينبغي أن يتسلح بها الدعاة إلى الله عز وجل : وهي العُدّة التي جهز الله تعالى بها حبيبه محمداً ﷺ للقيام بأعباء دعوته ، والخلوة بالنفس بين الفترة والأخرى ، لا تعني الانقطاع عن الدنيا بالكلية ، ولا الانصراف عن الناس أبداً ، فهذا مخالف لهدى النبي ﷺ ، ولما كان عليه أصحابه عامة ، إنما المراد هو اتخاذ الخلوة دواءً لتلافي ما عساه أن يصدّ المرء عن بلوغ أعلى درجات الفداء والوفاء والقيام بالأعباء ، فالخلوة أشبه ما تكون إذًا بالدواء الذي يعطى وقت الحاجة وبقدر الحاجة .

في هذا الدور من أدوار سيرة النبي المصطفى ﷺ ، الذي أطل بولادته الكريمة وصولاً إلى تهيئته لتلقي الوحي عن ربه تعالى وقيامه بدور الرسول إلى أمته ، نلمس في كل حلقات هذا الدور روح التوثب ، والتّرقب للقيام بالأدوار المهمة والمبادرات الدقيقة ، والأعمال العظيمة التي تتم عن مهارات يقظة ، وإمكانات حرّة ، وطاقات متدفقة التي تجعل منه محلاً صالحاً ، وأهلية متميزة

للقيام بالدور الناجح لحمل الرسالة ، وتبليغها ، وبلوغ أقصى درجات النجاح في أدائها ، وتبليغها وترسيخها ، وإعلاء كلمتها ، ورفع رايته ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى ، وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ويقول: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

* * *

الدور الثاني

مهاراته ﷺ من بعثته إلى هجرته :

١ - بدء الوحي :

وكان هذا أول التلقي لقد جاءه الوحي بطريقة مشيرة ، وتلقاه النبي ﷺ بترتيبات ذكية ، ومهارات واضحة ، وقد أشرنا إلى هذا في أول بحثنا وقلنا :

إن جبريل قد جاءه بغار حراء ، بأسلوب مشير ، قد تهيأ بكليته بعده لتلقي ما يلقي إليه بكل إمكاناته ، فلم تبق منه حاسة إلا استنفرت بعد تكرار ذلك الأمر والضم العنيف .

قال في «سبل الهدى والرشاد» ٢ / ٢٤٠ : الحكمة في غط جبريل له شغله عن الالتفات لشيء آخر .

والحكمة في تكرير الغط المبالغة في التنبيه ، ففيه أنه ينبغي للمعلم أن يحتاط في تنبيه المتعلم وأمره بإحضار قلبه .

وكان بعد ذلك الأمر بالقراءة ، وذلك الغط والضم أن وعى النبي ﷺ تماماً ، وحفظ ما ألقى إليه ، حتى لكأنه نقش في قلبه نقشاً ، وذلك قول الله تعالى .

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ .

وكانت هذه الآيات الخمس أول ما نزل عليه من القرآن الكريم .

لقد فوجيء رسول الله ﷺ بما لم يكن يتوقع ، لذلك اهتز له كيانه ،
وارتجف له فؤاده ، ورجع يقول : زملوني ، زملوني .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾
[القصص : ٨٦] .

وبعد أن هدأت العاصفة ، وسكن القلب الوجف قام رسول الله ﷺ بدور
ذكي ، فقص على زوجه خديجة المرأة الواعية العاقلة خبر ما رأى ، وسار
بصحبتها إلى ورقة العالم المتعبد ، فقص عليه نبأ ما حدث ، فطمأنه الرجل ،
وسكن قلبه ، وأطمعه بما سيكون له من شأن ، وبما سيقوم به من دور ،
ووضع أصابعه على بعض ما سوف يلقي ، ليتهيأ له قلباً وعقلاً ، ونفساً .

لقد قال ورقة شعراً في لقائه للنبي ﷺ :

يا للرجال وَصَرَفِ الدَّهْرَ وَالْقَدْرَ	وما لشيء قضاء الله من غير
حتى خديجة تدعوني لأخبرها	أمراً أراه سيأتي الناس من آخر
وخبرتني بأمر قد سمعتُ به	فيما مضى من قديم الدهر والعُصر
بأن أحمَد يأتيه ويُخبرُهُ	جبريل أنك مبعوث إلى البشر
فقلتُ علّ الذي ترجين يُنجزُهُ	لك الإله فرجى الخير وانتظري
فقلتُ ظنّي وما أدري أيُصدقني	أن سوف تُبعثُ تتلو مُنزل السور
وسوف أنبيك إن أعلنتُ دعوَتهم	من الجهاد بلا من ولا كدر

٢ - فترة الوحي :

سبق أن ذكرنا حديث البخاري ومسلم عن بدء الوحي ، وقد جاء في آخره :
«ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي» .

ومعنى فتر الوحي : سكن وتأخر عن النزول مدة من الزمن .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي أربعون يوماً . «سبل الهدى والرشاد»
٢/ ٢٧٢ .

ولعل الحكمة من تأخر الوحي عنه هذه المدة أن يشتد شوقه إليه ، وترقبه لاستقباله ، باستنفار إمكاناته كلها .

قال الدكتور محمد سعيد البوطي في كتابه «فقه السيرة» ص ٨٧ :

لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء مدة طويلة ، وأن يستبدّ به القلق من أجل ذلك ، ثم يتحول القلق لديه إلى خوف في نفسه من أن يكون الله عز وجل قد قلّاه بعد أن أراد أن يشرفه بالوحي والرسالة لسوء قد صدر منه ، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه ، وراحت تحدّثه نفسه كلما وصل إلى ذروة جبل أن يلقي بنفسه منه ، إلى أن رأى ذات يوم الملك الذي رآه في حراء ، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض ، يقول : يا محمد ، أنت رسول الله إلى الناس ، فعاد مرة أخرى ، وقد استبدّ به الخوف والرعب إلى البيت ، يقول زملوني زملوني .

روى البخاري (٤) في بدء الوحي ، ومسلم (١٦١) في الإيمان ، أن النبي ﷺ قال : - وهو يحدث عن فترة الوحي :

«بينا أنا أمشي ، إذ سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعتُ بصري ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبتُ منه ، فرجعت ، فقلت : زملوني ، فأُنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى قوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فحمني الوحي وتتابع» .

والمدثر : هو المتلف بثيابه .

قم فأنذر : أي حذّر من العذاب من لم يؤمن بك .

وربك فكبر : أي عظمه بأنواع الذكر والفكر .

وثيابك فطهر : أي من النجاسة ، وقيل : أراد بالثياب : النفس .

وتطهّرها باجتنب النقااص .

والرُّجْزَ فَاهْجُر : بالغ في ترك الأوثان .

وأصل الرجز في اللغة: العذاب ، وسميت الأوثان هنا رجزاً ، لأن عبادتها سبب العذاب .

وفي هذا النداء الكريم من الرب العظيم إلى رسوله الحبيب غاية الملاطفة ، حيث لم يقل له : يا محمد ، أو يا فلان ، بل ناداه بحاله ، وعبر عنه بصفته ، ليستشعر اللين والملاطفة بعد تلك الفترة من الوحي .

وتصوّر كيف يكون حال الحبيب المصطفى بعد هذه الملامسة والملاينة ، وبعد ذلك النداء الكريم .

إنها نشوة يعود الوصال في أحضان الدلال ، ولا يقلل منها عظم الواجب ، وضخامة المسؤولية .

إن الرسول الكريم بشفافيته ، ومواهبه أعطي فترة من الوقت لتتفاعل في كيانه كل معاني الرغبة والرغبة ، وتستنفر كل ملكاته وحواسه الظاهرة والباطنة ، لتتجمع في شكل قوّة متدفقة ، ومهارة متميزة تصب كلها في أودية تبليغ الواجب ، وأداء الرسالة ، بأساليبها المتطورة ، وصيغها المتفوقة ، وأشكالها المناسبة .

وما إن نزل عليه الوحي ، وتأكد أنه النبي ، واطمأنت نفسه إلى أنه الرسول المبعوث حتى قام على أشده بصياغة هذا الواجب بأساليبه الممكنة ، وطرقه الحكيمة التي تنم عن وعي للإمكانات والطاقات ، مع ملاحظة الظروف والعقبات .

وهذا يعني أنه على دراية واسعة بأحوال الناس . ومعرفة الطريقة المفيدة لخطابهم ، والتعامل معهم حسب الظرف والحالة .

٣- الدعوة سرّاً:

ما إن نزل على النبي ﷺ قول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ .

حتى خفّ إلى القيام بالواجب ، وشمر عن ساعد الجدّ لتنفيذ مقتضى الأمر ، فجعل يدعو إلى عبادة الله تعالى وحده ، ونبذ الأوثان ، وترك كل

مظاهر الشرك ، لكنه كان مع نفسه ودعوته منطقياً ، وحكيماً ، فراح يدعو إلى الله تعالى سرّاً ، ويخصّ بدعوته من يثق بهم ، وتشدّه إليهم صلة ، ومودة ، وتوقع في استجابتهم ، وقبولهم .

ولم يُلْقِ بنفسه في أعتاب المتعصبين ، والمتكبرين ، أصحاب الزعامة الذين أعماهم الكبر ، وختّم على قلوبهم داء العصبية ومرض النفرة .

وفي أسلوبه هذا منتهى المهارة ، والحكمة ، والتعليم للدعاة وإرشادهم إلى الأخذ بالحيلة ، والأسباب الظاهرة ، والوسائل المقبولة والمعقولة التي من شأنها الوصول إلى الغايات والأهداف بأقل قدر من الأذى والإساءة وهذا منه ﷺ كان من قبيل السياسة الشرعية القائمة على الحكمة والبصر والنظر في العواقب .

وبناء على ما كان منه ﷺ ، فإنه يجوز لأصحاب الدعوة في كل عصر أن يستعملوا المرونة في طريقة الدعوة ، حسبما يقتضيه الظرف ، وحال العصر ، وقابلية الناس ، ويعرفوا كيف يتعاملون مع المستجدات والطوارئ .

ومع ما كان منه ﷺ من مراعاة الظروف لم ينس جانب الأنس بالله تعالى ، والتوكل عليه ، والثقة به ، والاطمئنان إلى أن الله عز وجل - الذي كلفه بالبلاغ - سيحميه من سيطرة الأعداء ، فهو في سرّيته شجاع غير هيّاب ولا وجل ، ولا متردد .

٤ - ثمرات الدعوة في هذه الفترة :

رغم أن الدعوة في هذه الفترة كانت سرية بعيدة عن الضوضاء ، وتسلّط الأضواء إلا أنها أثمرت من ناحيتين .

الأولى : دخول بعض العناصر الطيبة في رحابها .

الثانية : وصولها إلى أذهان الكثير من الناس بهدوء ، ومن دون تشنجات ، وردود أفعال .

وهذا من حكمة الرسول ﷺ أن شق الطريق لدعوته إلى العقول والقلوب

بدون أي مواقف للمقاومة لها في هذه الفترة التأسيسية من تاريخ دعوته ،
وحياتها ، وهذا مكسب عظيم ، ونجاح باهر .

٥ - السابقون الأولون إلى الإسلام :

لقد سطع نور الإسلام في أحيانه الأول في ضمائر الطيبين من أهل الهداية ،
وكان أكثرهم من الفقراء ، والضعفاء ، وفيهم من شرح الله صدره من السادة
والوجهاء ، ونذكر منهم :

خديجة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ فهي أول من آمن به مطلقاً .

قال أبو الحسن بن الأثير : خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين .

وقال ابن إسحاق : وآمنت به خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما جاء به من
الله ، وآزرتة على أمره ، فكانت أول من آمن بالله ورسوله ، وصدق بما جاء
به .

فخفف الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع بشيء يكرهه من رد عليه ،
وتكذيب له ، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها .

- علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وقد كان في حجر النبي قبل
الإسلام ، لما أراد الله به من الخير ، وكان يومئذ لم يبلغ الحلم . قيل : إن أبا
طالب قال لعلي ابنه : أي بني ، ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟ فقال : يا أبت ،
آمنت برسول الله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه ، فقال له : أما إنه لم
يدعك إلا إلى خير ، فالزمه .

وقال ابن إسحاق : ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت
الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من عمه
أبي طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصليان الصلاة ، فإذا أمسيا
رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً ،
وهما يُصلِّيان ، فقال لرسول الله ﷺ : ما هذا الذي تدين به ؟

قال: «أي عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ورسله ، ودين أبينا إبراهيم ، بعثني الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابني إليه ، وأعانني عليه .

فقال أبو طالب: أي ابن أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن ، والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت .

انظر ، أخي الكريم ، طفل يخرج به رسول الله إلى الشعاب ، يؤدي معه الصلاة ، ويحدثه بعقلانية ، وعاطفية ، عن محاسن هذا الدين ، أفتراه بعد ذلك يحيد عنه؟

وهذا عمه يصارحه بروية وهدوء بما جاء به ودعا إليه ، أفترى أبا طالب - رغم عدم إجابته - يمكنه أن يسد منافذ وعيه عن إدراك حقيقة ما سمع .

هذا أسلوب هذا النبي العظيم ، وهذه بعض مهاراته ، تجاه الناس ، والأحداث ، فهل تراه كان موفقا؟

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي ، مولى رسول الله ﷺ ، كان أول ذكر أسلم ، وصلى بعد علي بن أبي طالب .

كانت خديجة قد اشترته ، وأهدته إلى النبي قبل البعثة ، فاعتقه النبي ﷺ ، وتبناه قبل تحريم التبني .

أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، روى البيهقي عن ابن إسحاق ، أن أبا بكر رضي الله عنه لقي رسول الله ﷺ ، فقال: أحق ما تقول قريش من تركك آلهتنا؟

فقال رسول الله ﷺ: «بلى ، إني رسول الله ، ونبيّه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنه لحق ، فأدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ولا تعبد غيره ، والموالاة على طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فلم ينكر ، بل أسلم ، وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقرّ بحق الإسلام ، ثم رجع إلى أهله ، وقد آمن وصدق .

قال ابن إسحاق: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوتُ أحداً إلى

الإسلام إلا كانت عنده كِبْوَةٌ ، وتردّد ونظر ، إلا أبا بكر ، ما عَكَمَ عنه حين ذكرته له ، ولا تردّد .

ما عَكَمَ : ما تلبّث ، بل أجاب بسرعة . «سبل الهدى والرشاد» ٢ / ٣٠٢ .

وروى ابن الجوزي في «صفة الصفوة» عن الشعبي قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : أوّل من صلى أبو بكر ، وتمثل بأبيات حسان بن ثابت رضي الله عنه .

إذا تذكّرت شَجَوًّا من أخي ثقةٍ فاذكّر أخاك أبا بكر بما فعلا
خَيْرَ البريّة أنقاها وأفضلها بعد النبي وأوفاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهدهُ وأوّل الناس منهم صدق الرُسلُ
الشجو : الهمُّ والحُزن .

قال ابن إسحاق : فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله تعالى وكان رجلاً مؤلفاً لقومه ، مُحَبِّباً سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ، ذا خلق حسن ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ، ويألفونه لغير واحد من الأمر ؛ لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم على يديه فيما بلغني .

- عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية .

- الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .

- عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة .

- سعد بن أبي وقاص ، مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة .

- طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم .

قال ابن إسحاق : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا في الإسلام ، فصلّوا ، وصدّقوا رسول الله ﷺ ، فأمنوا بما جاء من عند الله . «سبل الهدى والرشاد» ٢ / ٣٠٥ .

ومن السابقين إلى الإسلام أيضاً .

عبد الله بن مسعود .

- وأبو عبيدة عامر بن الجراح .

وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد .

ومصعب بن عمير .

وعياش بن أبي ربيعة .

وعثمان بن مظعون .

والأرقم بن مظعون .

والأرقم بن أبي الأرقم .

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وامراته فاطمة بنت الخطاب .

- وخبّاب بن الأرت .

- وصهيب بن سنان .

- وعمار بن ياسر ، وأبوه ، وأمه سمية .

- وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر .

- وجعفر بن أبي طالب ، وامراته أسماء بنت عميس ، وأسلم غير هؤلاء

أيضاً ممن يعدّون في السابقين إلى الإسلام .

ويرى الناظر في تواريخ هؤلاء الأفاضل ممن أسلم في أيام الإسلام الأولى

أنهم أخلاط من الرجال والنساء ، الأغنياء والفقراء ، الأحرار والعبيد ، ممن

أراد الله تعالى بهم الخير ، وشرح صدورهم للإسلام .

ومن هؤلاء من أخفى إسلامه على قومه وعشيرته ، ومنهم من أعلن

إسلامه ، وتعرض للبلاء المبكر ، منهم أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ،

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه .

قال الشيخ محمد الخضري ، وهكذا دخل هؤلاء الأشراف في دين

الإسلام ، ولم يكن مع رسول الله ﷺ سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين ، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم ، وذوي الثروة منهم ، ويتبعوا الرسول ﷺ ليأكلوا من فضل ماله ، بل كان الكثير منهم أوسع ثروة منه .

والذين اتبعوه من الموالي ، والضعفاء ، اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول ، بحيث لو تبعوا سادتهم لكانوا أهدأ بالاً ، وأنعم عيشاً ، اللهم ليس ذلك إلا من هداية الله تعالى ، وسطوع نور الدين عليهم .

وهذا يصور لك ما كان عليه رسول الله ﷺ من الخبرة والمهارة في معاشة هؤلاء الناس ، والتطبيع لهم على الحق ، وبلورة الخير لهم حتى أشربته قلوبهم ، واستقامت عليه سرائرهم وظواهرهم ، وآثروه على كل شيء من حطام الدنيا ، واستعلوا به على كل الشدائد والصعاب .

٦ - مركز الدعوة في هذه الفترة :

لقد كثر أصحاب رسول الله ﷺ في فترة الدعوة سرّاً ، التي امتدت كما قيل ثلاث سنين ، وبلغوا ما يزيد على الثلاثين ما بين رجل وامرأة ، حرّ وعبد ، لذلك رأى الرسول الكريم أن يختار لهم مكاناً يجتمعون فيه سرّاً عن الأعين ، يلقاهم فيه ، يعلمهم ، ويرشدهم ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويستمع إلى ما لديهم ، وكان أبرّ بهم من أهليهم ، وأحنى عليهم من ذويهم .

لقد اختار لهم دار الأرقم بن أبي الأرقم ، أحد أصحابه المؤمنين به ، والسابقين إلى الإسلام .

وهي دار متواضعة ، عند الصفا ، تكامل فيها أصحابه أربعين مسلماً ومسلمة ، كان آخرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين .

هذه الدار كانت المدرسة الأولى للتربية والتعليم ، والإرشاد والتوجيه ، وإعداد النواة المؤسسة لدولة الحقّ والدين ، تشكلت فيها القيادات الراقية ، وبرزت فيها المهارات الصامدة ، والقناعات الراسخة ، وتأهلت للتحدي والصمود ، والوقوف في وجه الطغيان العاتي المنحدر من عبدة الطواغيب ،

والمتألهين من أصحاب الزعامات والشهوات .

﴿وَلْيَنْصُرِكَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠] .

٧- الجهر بالدعوة :

لما أسلم عمر بن الخطاب ، وكان رجلاً شهماً في العرب ، جريئاً لا يهاب ، طلب من النبي ﷺ أن يظهر أمره ، ويعلن للملأ عن دعوته .

ذكر صاحب «سبل الهدى والرشاد» ٣١٩/٢ : أن عمر لما أسلم قال : يا رسول الله ، علام نخفي ديننا ، ونحن على الحق ، وهم على الباطل؟ فقال : «يا عمر ، إنا قليل .

فقال عمر : فوالذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان .

وبهذا الظهور الذي وافق عليه الرسول ﷺ ، ورأى أن أصحابه على قلتهم صاروا أهلاً للتحدي ، واكتشف بحكمته وتوفيق الله له أن الظرف أصبح موافقاً للإعلان ، والاحتكاك بالآخرين ، سيما وقد فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به الناس ، فاعلن عليه الصلاة والسلام دعوته ، وجهر بها بعد أن نزل عليه قول الله عز وجل : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر : ٩٤] .

أي اجهر بما تؤمر به ، وأعلنه ، وبلغه ، ولا تلتفت إلى ما عسى أن يقوله المشركون ، ولا تبال به .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

روى البخاري (٤٩٧١) في التفسير ، ومسلم (٢٠٨) في الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ .

خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : «يا صباحاه» .

فقالوا : من هذا الذي يهتف؟

قالوا : محمدٌ ، فاجتمعوا إليه ، فقال : «يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني

فلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب ، فاجتمعوا إليه ، فقال :
«أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدّقين؟» .

قالوا : ما جربنا عليك كذباً .

قال : «إني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد» .

قال : فقال أبو لهب : تبأ لك ، أما جمعتنا إلا لهذا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما أنزلت هذه الآية : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ .

دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمّ وخصّ ، فقال : «يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مُرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة انقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها» .

رواه مسلم (٢٠٤) في الإيمان .

رحماً : قرابة .

سأبلها ببلالها : سأصلها .

نعم ، لقد عمّ ، وخصّ ، ودعا سلسلة النّسب ، بأسمائها ، فأحكم القول ، وصارح الجميع ، وصدقهم القول ، وأبدى حبّه لهم ، وخوفه عليهم ، ورغبته في هدايتهم ، وسلامتهم ، وكشف لهم وجه الحق الذي لا يحقّ سواه ، ولا ينفع غيره ، وقطع الأطماع المتطلعة ، وسدّ السبل المعتادة في دغل الحياة المنتشر المعتاد بين الناس .

إن القربابات المتسلطة ، والصلات الخاصة ، لا سلطان لها في منطق الحق والدين .

إن مبدأ العدل الذي تقوم عليه الحياة الفاضلة ، هو : «الجزاء من جنس العمل» .

﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم : ٣٩] .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الإسراء : ١٥] .

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] .

أما القرابة وحدها فلا تسمن ولا تغني من جوع .

وأما المحسوبيات والصدقات على حساب الحق فمفروضة أبداً .

هذه هي النباهة والمهارة ، والحكمة في منطق النبي العظيم ﷺ .

وتدبر أخي الكريم أسلوبه الآتي في البلاغ وبلاغه الرصين في الخطاب ،

لتدرك مدى مهارته ، وتقف على سر نجاحاته بعد توفيق الله تبارك وتعالى له .

روى ابن سعد والبيهقي وأبو نعيم أنه لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ ﴾ .

قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه : «يا علي اصنع لنا رجلاً شاة على

صاع من طعام ، وأعد لنا عسّ لبن ، ثم اجمع بني عبد المطلب» .

قال عليّ : فعلت ، فاجتمعوا له ، وهم يومئذ أربعون رجلاً ، يزيدون

رجلاً ، أو ينقصونه ، منهم : أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ،

وأبو لهب .

فقدّمت إليهم تلك الجفنة ، فأخذ رسول الله ﷺ منها حذية فشققها بأسنانه ،

ثم رمى بها في نواحيها ، وقال : «كلوا باسم الله» .

فأكل القوم حتّى نهلوا عنه ، ما ترى إلّا آثار أصابعهم ، والله إن كان الرجل

الواحد ليأكل مثل ما قدّمت لجميعهم ، ثم قال : «استق القوم» .

فجثّتهم بذلك العسّ ، فشربوا حتى رووا جميعاً .

والله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بذكره أبو لهب إلى الكلام فقال: لهذَّ ما سحركم صاحبكم ، ففرقوا ، ولم يكلمهم رسول الله ﷺ . فلما كان الغد ، قال: «يا عليّ ، عُدْ لنا بمثل الذي صنعتَ بالأمس من الطعام والشراب» .

ففعِلْتُ ، ثم جمعتهم إليه ، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس ، فأكلوا وشربوا حتى نهلوا ، ثم قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب ، والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة» .

ثم قال: «من يؤازرني على ما أنا عليه؟» .

قال علي: فقلت: أنا ، يا رسول الله ، وإني أحدثهم سناً .

وسكت القوم ، ثم قالوا: يا أبا طالب ، ألا ترى ابنك؟

قال: دَعُوهُ ، فلن يألو ابن عمّه خيراً .

ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣٠٥/٨ وعزاه للبخاري ، وأحمد ، والطبراني في «الأوسط» وقال: رجال أحمد ، وأحد إسنادي البخاري رجال الصحيح ، غير شريك ، وهو ثقة .

انظر: «سبل الهدى والرشاد» ٣٢٤/٢ .

الحذّية: القطعة من اللحم تصغير: حُذْوَة .

العُسُّ: القدح الكبير .

نهلوا: شربوا حتى رووا .

لهذَّ ما سحركم: كلمة يتعجب بها: أي ما أعظم ما سحركم به .

لقد استمعت قبائل قريش ، وقرابته ما قال لهم ، وما طلبه منهم ، فتملكهم العجب ، فسكت بعضهم وانصرف ، وكشّر بعضهم عن أنيابه ، وأعدَّ نفسه للخصام ، وعلى رأس هؤلاء ، أبو لهب ، عمّه .

وادّعى الجميع أنهم لا يستطيعون ولا يقبلون ترك ما ورثوه من دين ، وما كانوا عليه من أعراف وتقاليد .

رغم أن النبي ﷺ - وهو واحد منهم - وهم يعرفون صدقه وأمانته - نبههم إلى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من آفات التقليد الأعمى ، وأن ما عليه أبائهم ليس عذراً لهم في تجنب الحق ، والعكوف على تلك التقاليد .

ثم إنه ﷺ زادهم في النصيحة ، والشرح ، وبين لهم أن آلهتهم التي اتخذوها لا تضر ولا تنفع ، وهي من الهوان بحيث لا تحمي نفسها ، ولا تعقل أمرها .
وعندئذ أعظموا أمره ، وأجمعوا خصامه ، إلا من رحم الله ، وعصمه بالإسلام .

وإلا عمه أبا طالب ، فقد حذب عليه ، ووطئ النفس على القيام دونه .

٨ - بدء الصراع :

لقد فاجأ رسول الله ﷺ قومه لما جهر بأمره ، وأعلن لهم عن مضمون دعوته ، فرأى فيها أصحاب الزعامات ، وعباد الطواغيب الخطر الكامن على مراكزهم ، وأنانياتهم ، فأجمعوا أمرهم على صدها ، ومنع نشرها ، ومحاربة أصحابها ، والمناصرين لها بكل الوسائل الممكنة ، رغم أن النبي ﷺ صارحهم بحبه لهم ، وخوفه عليهم ، ونصحه لهم ، وقد استنطقهم بما يعلمونه فيه ، ويعرفونه عنه ، فقطع عليهم درب التشكيك به ، والتكذيب له ، فكان صدهم له خارجاً من أنانية وكبر ، ودفع للحق ، ورفض له ، وصدق الله عز وجل إذ يقول له : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

إنهم يحملون في صدورهم نقطة الضعف ، ووخز الضمير ، والشعور بالهزيمة رغم إصرارهم على حرب الدعوة ، ومقاومة الحق ، ومحاربة النبي ﷺ وأصحابه .

لقد اتخذوا في حربهم للدعوة سلماً من الدرجات والخطوات ، والأوليات ، فلجؤوا أولاً إلى :

أ - السخرية بالنبي ودعوته ، والهزء به فكان ﷺ إذا مرَّ بهم يقولون : هذا ابن

أبي كبشة يُكَلِّم من السماء ، هذا غلام عبد المطلب يُكَلِّم من السماء .
وكان أشدهم هزأً بالنبي ﷺ وسخرية منه نفر سماهم الحق تبارك وتعالى
بالمستهزئين ، حين قال له : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥] .
ومن هؤلاء :

- أبو جهل ، عمرو بن هشام المخزومي .

- عقبة بن أبي معيط بن أمية .

- العاص بن وائل السهمي ، والد عمرو بن العاص ، كان يقول غرَّ محمد
أصحابه أن يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر .

روي أنه كان لخباب دين عليه ، فتقاضاه إياه ، فقال له العاص : أليس
يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما يبتغي أهلها من ذهب
وفضة ، وثياب وخدم؟ قال خباب : بلى .

قال : فأنظرني إلى هذا اليوم ، فسؤتي مالا وولداً ، وأقضيك دينك ،
فأنزل الله عز وجل : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۖ اطَّلَعَ
الْغَيْبَ أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۚ
وَنَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَبِأَيْنِنَا فَرَدًّا ﴾ [مريم : ٧٧ - ٨٠] .

- الأسود بن عبد يغوث الزهري القرشي ، كان إذا رأى أصحاب النبي ﷺ
مقبلين يقول : قد جاءكم ملوك الأرض ، استهزاء بهم .

وكان يقول لرسول الله ﷺ : أما كُلِّمَت اليوم من السماء؟ استهزاء به .

- الأسود بن عبد المطلب الأسدي ابن عم خديجة رضي الله عنها ، كان هو
ورهطه إذا مرَّ عليهم المسلمون يتغامزون عليهم ، ويضحكون منهم ، وفيهم
نزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۚ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۚ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ
هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ [المطففين : ٢٩ - ٣٢] .

- النضر بن الحارث العبدي ، كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للناس

يحدثهم ، ويذكرهم ما أصاب من قبلهم ، قال النضر: هلم ، يا معشر قريش ، فإني أحسن حديثاً منه ، ثم يحدث بما كان يعلم من حديث ملوك فارس ، ويقول: ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين ، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦] .

ونزل فيه وفي أمثاله من المستهزئين: ﴿وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

أمام هذا الهزء المرير ، والسخرية اللاذعة كان محمد يمرُّ بهم مرَّ الكرام ، غير مبال بهم ، ولا ملتفت إليهم ، امتثالاً لأمر ربه عز وجلّ ، وتحلياً بمكارم الأخلاق التي جبل عليها ، وجعل منها سلماً لمهاراته ، ومرتقى لنجاحاته .

ب - التهم الباطلة : وهذه أسلحة فتاكة ، لولا العصمة ، والتحلي بالثبات والحكمة ، لأقعدت المرء مهما أوتي من القوة ، فتراهم تارة يقولون : محمد ساحر ، وأخرى يقولون : شاعر ، ومرة يقولون : مجنون ، ومرة يكابرون ويقولون كذاب ، وكلُّ هذا من هزئهم ، وتهكمهم قد سجله القرآن عليهم ، ووبخهم به ، مع علمهم بأن محمداً بريء مما يقولونه فيه قال الله تعالى في أقاويلهم ومواقفهم : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢ - ٣] .

وقال: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا هَٰذَا الْهَيْئَةَ الشَّاعِرَ فَجَحُونُ﴾ [الصفات: ٣٦].

وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرْتِصُ بِهِ رِبِّبَ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

وقال: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].

وقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلَّ مُمْرٍ إِنَّكُمْ لَهِي

خَلَقِي جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴿٨﴾ [سبأ: ٧ - ٨].

لقد ردَّ الله عليهم مثل هذه التهم الباطلة ، فقال : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور: ٢٩].

وقال : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: ٢].

وقال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢].

وقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٩] لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ [يس: ٦٩ - ٧٠].

ج - الإطماع بالجاه والتحذير بالقوة: وهذا مطمع مغرٍ لأصحاب الأطماع ، وأصحاب الدعوات الكاذبة ، فإن المال والجاه يفتان في العصد ، ويشيان عن المقاصد ، إن كان الدافع لمثل هؤلاء الناس هو الجاه والمال ، أما رسول الله ﷺ ، فليس طالب جاه ، ولا مال ، ولكنه صاحب حق مؤمن به ، وصاحب دعوة وقف حياته وجهده لها ، فأثى تلين من قناته المغريات ، أو تفت في عضده الأطماع .

ومثل ذلك الإطماع ، الإنذار بالقوة ، واستعمال العنف ، وهذه أيضاً في مواقف رسول الله ﷺ أخيب من أختها ، وأفضل منها. قال الصالحى في «سبل الهدى والرشاد» ٢/ ٣٣٥: روى أبو يعلى بسند جيد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «اجتمعت قريش للنبي ﷺ يوماً ، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليات هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ، ولينظر ما يردُّ عليه ، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا: أنت ، أبا الوليد .

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، قرقت به جماعتهم ، وسفّهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم .

يا محمد ، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ، فقال: أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله .

قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم ، فتكلم نسمع قولك .

إنا والله ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحُبلى أن يقوم بعضنا بعضاً إليك بالسيوف حتى نتفانى .

أيها الرجل فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها ، لعلك تقبل منا بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ: «قل أبا الوليد أسمع» . قال: يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت تريد به الشرفَ سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا .

وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يداوى منه .

عرض ذكي ، ومطلب ماكر ، يتصف بالمهارة ، والترغيب والترهيب ، والمهارة قد تكون في الشرّ ، كما قد تكون في الخير .

لكن رسول الله ﷺ كان أذكى منه ، وأعظم نباهة وفطنة ، وهذه الأساليب الماهرة الماكرة ، أضعف من أن تنال منه ، أو تقعد به ، فأجاب عتبة قائلاً: «أقد فرغت ، أبا الوليد؟» .

قال: نعم .

قال : « فاسمع مني » .

قال : أفعل .

قال رسول الله ﷺ : **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾** كَذَبُ فُصِّلَتْ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٤﴾ [فصلت : ١ - ٥] .

ومضى رسول الله ﷺ فيها ، يقرأها عليه ، وعتبة منصت قد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، فسمع إلى أن بلغ رسول الله ﷺ : ﴿ فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : ١٣] .

فأمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، أن يكف عنه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعت أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » .

وقال : ما عندك غير هذا؟

قال : « ما عندي غير هذا » .

فقام عتبة ، ولم يعد إلى أصحابه واحتبس عنهم .

فقال أبو جهل : والله يا معشر قريش ، ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد ، وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا في حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا إليه ، فأتوه ، فقال أبو جهل : والله يا عتبة ما جئناك إلا أنك قد صبوت إلى محمد ، وأعجبك أمره ، فإن كان لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب عتبة ، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً ، وقال : لقد علمتم أني من أكثر قريش مالا ، ولكني أتيت .

وقصَّ عليهم القصة .

قالوا : فما أجابك؟

قال : والله الذي نصبها بَيِّنَةً ، ما فهمتُ شيئاً مما قال ، غير أنه أنذركم

صاعقة مثل صاعقة عاد وثمرود ، فأمسكتُ بفيه ، وناشدته الرحم أن يكفَّ ،
وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .
قالوا: ويلك ، يكلمك الرجل بالعربية ، لا تدري ما قال؟ .

قال : والله ما سمعت مثله ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة .
يا معشر قريش ، أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلّوا بين الرجل وبين ما هو
فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ ، فإن تصبه العرب ، فقد
كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم وعزّه عزُّكم ، وكنتم
أسعد الناس به .

يا قوم ، أطيعوني في هذا الأمر ، واعصوني بعده ، فوالله لقد سمعت من
هذا الرجل كلاماً ما سمعتُ أذنائي كلاماً مثله ، وما دريت ما أردُّ عليه .

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد .

قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم .

المصغي لهذه الأدوار التي دارت بين الفرقاء ، يكبرها ، وتتملكه الدهشة
من الأدوار المتقنة سواء ما كان منها في الرد والصدّ ، أم ما كان منها في الحق
والبيان .

فعبئة استمع بوعي ، وعبر بصدق ، ونطق في أدواره كلها بحذق ومهارة .
والكفرة احتالوا له ، وعليه ، بمهارة ، وأثاروا حفيظته بقوة ، وأمسكوا
بيده التي توجعه ، فأنثروا عليه ، وغرروا به ، فأقسم لهم: لا يكلم محمداً
أبداً .

وهذا الجواب منه ، والرضوخ لهم معقول منه ، لأنه ليس صاحب رسالة ،
ولا هو صاحب مبدأ يموت من أجله ، أما رسول الله فما عملت به تلك
الحيل ، ولا فتّ في عضده الترغيب والترهيب ، والسُرُّ واضح ، فهو صاحب
مبدأ ، وصاحب رسالة مؤمن بها يعيش لها ، ويموت في سبيلها ، وكذلك
أصحابه المؤمنون .

وهذا يهديك إلى الفرق بين الرجلين .

شرح بعض الألفاظ :

السُّطّة : الوسط .

سفّهت أحلامنا : عبت عقولنا .

سخلّة : الذكر والأنثى من ولد المعز والضّأن ساعة يولد .

صيحة الجبلى : صوتها حين الولادة ، أراد قرب القتال ، أو نداءها للدفاع .

د - الأسئلة الساخرة والاقتراحات التعجيزية :

ومن أساليبهم الماكرة - في سبيل الملاحقة والمضايقة والتعجيز إلقاؤهم الأسئلة التعجيزية ، واقتراح الآيات الكونية ، ظناً أنهم بذلك يخرجون النبي ﷺ ، ويؤذونه ، ويفتضح أمره بالعجز عن تلبية طلباتهم ، وأسئلتهم فيكونون بذلك قد أقاموا الحجة عليه بعدم صدقه في نبوته

ذكر الإمام الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٣٣٨/٢ ، ما دار بين أشراف قریش وبين النبي ﷺ في هذا الموضوع ، فقال :

روى ابن إسحاق ، وابن جرير ، والبيهقي عن ابن عباس أن أشراف قریش من كل قبيلة اجتمعوا عند غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعذّروا فيه ، فبعثوا إليه ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما يكلمهم بداءً ، وكان حريصاً عليهم ، يحبُّ رُشدَهم ، ويعزُّ عليه عنتُهم ، حتى جلس إليهم فقالوا :

يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً

جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تريد به الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ريثاً تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطبِّ لك حتى نبرئك منه ، أو نُعذَرَ فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بي ما تقولون ، ما جئتُ به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله تعالى بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا: يا محمد إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا لك ، فإنك قد علمت أنه ليس أحد أضيق بلدًا ، ولا أقلّ مالاً ، ولا أشدّ عيشاً منا ، فاسأل لنا ربك أنهاراً كأنهار العراق والشام ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن ممن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عمّا تقول: أحقّ هو ، أم باطل ، فإن صدّقوك ، وصنعت ما سألناك صدّقناك ، وعرفنا منزلتك من الله ، وأنه بعثك إلينا رسولاً كما تقول ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بهذا بعثت لكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا: فإذا لم تفعل فخذ لنفسك ، سل ربك ، يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة ، يغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس الرزق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك إن كنت رسولاً .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي سأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم

به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» .

قالوا: فأسقط علينا كِسْفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعله» .

قالوا: يا محمد ، فما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عنه ، ونطلب إليك ما نطلب ، فيتقدّم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع من ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليَمَامَةِ ، يقال له: الرحمن ، وإننا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك ، يا محمد وإننا والله لا نتركك وما بلغت ممّا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة ، وهي بنات الله .

وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتيا بالله والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك قام عنهم رسول الله ﷺ ، وانصرف إلى أهله حزينا آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه لما رأى من مباحدتهم إياه .

انظر إلى هذا الهزء المرير ، وإلى هذا النفس الطويل في اقتراح الآيات ، وطلب المعجزات ، وما غرضهم معرفة الحق ، ولا البحث عنه ، وإنما غرضهم مزيداً من الكيد ، والأذى والسخرية .

ولكن رسول الله ﷺ بذكائه ، ومهارته ، وتفوقه عليهم بالعقل والقول لزم منهجاً ثابتاً في الحجاج ، وقولاً مختصراً في الردّ فيه الكفاية والبلاغ .

إنه لو كان متقوِّلاً على ربه ، أو طالب جاه أو مال في أرضه ، لما تردّد في قبول ما دعوه إليه ، فإنه غاية ما يطلبه أصحاب الدنيا ، لكنه رسول الله ، جاء داعياً إليه ، لا طالب ملك من عباده ، وعليه فليس أمام الدعاة إلى الله تعالى إن كانوا صادقين إلا سبيل رسول الله ﷺ ، في مغازلة الدنيا ، ومجادلة أصحابها .

لقد قص الله عز وجل في كتابه الكريم طرفاً من هذه المطالب التي تذرّع بها المشركون في رفضهم الإيمان ، وتركهم متابعة النبي ﷺ .

قال الله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَالِئًا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ فَتَقُولُ ۖ أَأَنتَ الْبَرُّ ۖ أَمْ لَكُم مِّنْ آلَافٌ مِّثْلُكُمْ ۚ أَوْ يُصْرَفُ عَنْكَ ۚ ۝٩٢ أَوْ يَكُونُ لَكَ يَوْمَئِذٍ ثَمَرٌ مِّثْلُ شَجَرِ الْأَيْكَةِ ۚ أَوْ تَكُونُ لَكَ أَلْسِنَةٌ أَوْ تَكُونُ لَكَ أَيْدٍ أَوْ تَكُونُ لَكَ سِجِّينٌ ۚ ۝٩٣ ﴾ .

ثم إن الحق تبارك وتعالى علّمه أن يردّ عليهم بوجيز العبارة : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٣] .

وطيب قلبه ، وواساه في نفسه من جهة أخرى ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ [الفرقان : ١٠] .

هـ - سعي قريش إلى أبي طالب :

قال الإمام الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٣٢٦/٢ :

قال الزهري ، وابن إسحاق : فلما بادی رسول الله قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعُد منه قومه ، ولم يردُّوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها .

فلما فعل ذلك أعظموه ، وناكروه ، وأجمعوا لخلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام ، وهم قليل .

وحَدِّب على رسول الله ﷺ أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرًا لأمره ، لا يردُّه عنه شيء .

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعتَبرُهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدِّب عليه ، وقام دونه ، ولم يسلمه لهم مشى رجال من أشرفهم إلى أبي طالب فقالوا :

يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آبائنا ، فإما أن تكفَّه ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن

عليه من خلافه ، فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردّهم ردّاً جميلاً .

فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو إليه ثم شرّى الأمر بينه وبينهم ، حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وأكثرت قریش من ذكر رسول الله ﷺ بينها ، فتذا مروا فيه ، وحض بعضهم بعضاً عليه .

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرّة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً ، وإن لك شرفاً ومنزلةً فينا ، وإنا قد استنهيّناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنه ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ ولا خذلانه ، فأرسل خلفه ، فقال : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي : كذا وكذا - للذي كانوا قالوا له - فأبقي على نفسك وعليّ ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أن عمه قد بدا له فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، والقيام معه ، فقال له رسول الله ﷺ :

« يا عمّ ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ما تركته ، ثم استعبر رسول الله ﷺ .

فلما ولّى ناداه أبو طالب :

اذهب ، يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً ، ثم قال أبو طالب :

والله لن يصلّوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
فامضي لأمرك ما عليك غضاصة	وابشر وقرّ بذاك منك عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي	فلقد صدقت وكنت ثمّ أمينا
لولا الملامة أو حذاري سبّة	لوجدتني سمحاً بذك مينا

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له :

يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش ، وأجمله ، فخذهُ ، فلك عقلُهُ ونصره ، واتَّخذهُ ولداً ، فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك ، هذا الذي قد خالف ديننا ودين آبائك ، وفرَّق جماعة من قومك ، وسفَّه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل واحد .

قال أبو طالب: والله لبئس ما تسوموني ، أتعطوني أبنكم أغذوه لكم ، وأعطيتم ابني تقتلونه ، هذا والله ما لا يكون أبداً .

أرأيتم ناقة تحنُّ إلى غير فصيلها .

فقال المطعم بن عدي بن نوفل : والله ، يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهَّدُوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك .

قال: فحقب الأمر ، وحميت الحرب ، وتناذب القوم ، وبادى بعضهم بعضاً .

إن الناظر في هذه المواقف ليرى ما يفعله الحسد ، والعناد ، والصلف ، وما تمليه العداوة والبغضاء من مواقف مخزية ، وأحوال غريبة ، لا يطيقها عقل المنصف ، ولا تستسيغها نفسه ، مهما حملت من المغريات ، أو انطوت عليه من النذر .

إن البشر إذا خلَّي ونفسه لابد أن تعتريه أحياناً مواقف الضعف ، وتؤثر به الأراجيف ، وتخونه أحياناً الحكمة ، ويجانبه الصواب ، فأبو طالب لان مرة لخصومه ، وخشي بأسهم ، لكن موقف رسول الله ﷺ أملى عليه العود سريعاً إلى أريحيته وشهامته ، لكنه فقد الحكمة عندما قال :

لولا الملامة أو حذاري سبّةً لوجدتني سمحاً بذاك مبينا
لقد خضع للخرافة ، وخاف الملامة ، ولم ينطق بالتوحيد ، رغم كل
ما بذله في سبيل النبي ﷺ ، وما عرفه من صدقه وأمانته .

أما رسول الله ، فلم تلن له قناة ، ولم تزلّ به قدم ، ولم تخنه الحكمة
وما ذلك إلا لتمام عقله ، وثبات نفسه ، وظهور نور الحق في فؤاده ، وتأيد
الله سبحانه وتعالى له .

وهو بهذا مثل أعلى في الصمود ، والسمو فوق الإغراء ، والتهديد لكل داع
صادق إلى الله عز وجل .

و- الأذى والعدوان :

فشلت قریش في تعاملها مع رسول الله ﷺ ، فلم يجدها نفعاً هزؤها
ولا إغرائها ، ولا إنذارها ، ولا طلبها الوساطة ، فكشرت عن أنيابها ،
وأعدت العدة لصراع مرير ، يقوم على الأذى والعدوان ، تطول به رسول الله
ﷺ وتصيبه به ، رغم الطوق الذي فرضه أبو طالب حوله ، والحماية التي تبرع
بها .

روى البخاري (٤٩٥٨) في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ
النبي ﷺ فقال : « لو فعله لأخذته الملائكة » .

وروى البخاري (٤٨١٥) في التفسير عن عروة بن الزبير قال : قلت
لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ
قال : « بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ،
فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل
أبو بكر ، فأخذ بمنكبه ، ودفعه عن رسول الله ﷺ ، وقال : ﴿ أَنْقَتُوا رَجُلًا أَنْ
يَقُولَ رَبِّكَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [غافر : ٢٨] .

وروى البخاري (٢٤٠) في الوضوء ، ومسلم (١٧٩٤) في الجهاد عن

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نُحِرَتْ جُزُورٌ بِالْأَمْسِ ، فقال أبو جهل: أَيُّكُمْ يقوم إلى سلا جَزُور بني فلان ، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم - وهو عقبة بن أبي معيط - فأخذه فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه ، وقال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ ، والنبي ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها ، فجاءت وهي جُورِيَّةٌ ، فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تَشْتُمُهُمْ ، فلما قضى النبي ﷺ صلاته ، رفع صوته ، ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا ثلاثاً ، وإذا سأل سأل ثلاثاً ، ثم قال: «اللهم عليك بقريش ثلاث مرات».

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمّية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط».

وذكر السابع ، فلم أحفظه .

فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذي سمى صرعى يوم بدر ، ثم سحّبوا إلى القليب: قليب بدر .

لقد دعا رسول الله ﷺ هذه المرّة على الملاء من قریش الذين آذوه بهذا الشكل القبيح ، في بيت الله الحرام ، عند الكعبة المشرفة .

وقد استشار بدعائه كوامن قلوبهم ، وما تنطوي عليه من تصديقه والخوف من دعائه ، فتكون الحجة ظاهرة عليهم ، وبرهاناً لغيرهم على صدقه ، وأنهم لا يقاتلونه ، ويعادونه عن جهل بحقيقة أمره ، وإنما عن حسد وعناد .

وبهذا يثبت رسول الله ﷺ مرات ومرات تفوقه على المشركين في السياسة ، والتعامل مع الأحداث وأهلها .

هذا ، ولقد ضرب رسول الله ﷺ بتحملة الأذى ، وصبره عليه المثل الرائع لكل داع ، وصاحب مبدأ ، أن النجاح لا يأتي سهلاً ، وأن ضريرته ليست

رخيصة ، وأن طريقه ليس مفروشاً بالزهور ، فالعبودية لله تعالى ذات مشاق وتكاليف ، لا بدّ من حملها ، والصبر عليها ، حتى تتحقق النتائج المرجوة ، ويكون الظفر المطلوب .

وهكذا سلك رسول الله ﷺ بصبره ومهاراته السبل الوعرة ، لقطف الثمرة الطيبة ، وقد حقق الله تعالى له ذلك .

روى الطبراني وابن إسحاق أن بعضهم عمد إلى قبضة من التراب فنثرها على رأس رسول الله ﷺ وهو يسير في بعض سكك مكة ، وعاد إلى بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب ، وهي تبكي ، ورسول الله يقول لها :

« يا بنية ، لا تبكي ، فإن الله مانع أباك »

بهذه الثقة العالية ، والأمل المشرق ، والتفاؤل البناء كان رسول الله ﷺ يتعامل بمهارة مع هذه المواقف والمشاهد والأحداث ، واثقاً من النصر مؤمناً بسلامة العواقب مهما اشتدت الأحداث وأدلهمت الخطوب .

ز - أذية أصحاب النبي ﷺ :

لقد أودى رسول الله ﷺ ووصل إليه البلاء رغم أنه كان من عليّة قومه ، وفي رعاية عمّه .

وأما أصحابه والمؤمنون به ، وكثير منهم لا عشيرة تحميهم ، ولا مراكز تصونهم ، لذلك تجرّعوا ألواناً من العذاب ، وفنوناً من الأذى ، حتى مات من مات منهم تحت العذاب ، وعمي من عمي .

لكنهم رضي الله عنهم لم يشنهم ذلك عن دينهم ، ولم يفُت ذلك في عزائمهم ، لأنهم اتقنوا الإيمان بدينهم ، ومهروا في معرفتهم تكاليف النصر الذي يسعون إليه ، ويرجون الحصول عليه ، فما خاب ظنهم ، ولا طاشت أحلامهم ، ولا كذبهم ربهم عز وجل .

لقد كان المصطفى ﷺ يصف لهم العقبات ، ويصحح لهم المسار ،

ويجنّبهم العِثار ، كلما ادلهمت من حولهم الخطوب ، واشتدت عليهم المحن .

روى البخاري (٣٦١٢) في المناقب عن خباب بن الارت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ - وهو متوسّدُ بُرْدَةٍ له في ظلّ الكعبة - قلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال : «كان الرجلُ فيمن قبلكم يُخَفَرُ له في الأرض ، فيجعلُ فيه ، فيجاءُ بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيشقُ باثنتين ، وما يصدهُ ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دُونَ لحمه من عظم ، أو عصب ، وما يصدهُ ذلك عن دينه .

والله ليتَمَنَّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون» .

نعم قد يكون مع المستعجل الندم .

هذه حكمة رسول الله في التربية والقيادة ، وإنشاء النخبة المؤسسة والنواة الرائدة .

واستمع إليه وهو يمرُّ على آل ياسر ، وهم يعذبون في الله فيقول : «صبراً آل ياسر ، إن مؤعِدكم الجنة ، اللهم اغفر لآل ياسر ، وقد فعلت» .

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢٩٣/٩ : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح .

لقد كان هؤلاء يعلمون حقَّ العلم ، أن الله عز وجل : ﴿أَشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة : ١١١] .

فرضوا - رضي الله عنهم - بهذه الصفقة ، واطمأنوا بها ، وتعايشوا معها .

فمات ياسر أبو عمار تحت العذاب ، وماتت سمية أيضاً راضية مرضية .

وهذا يفسر لنا حال بلال وهو يجهر في وجوه المشركين بقوله : «أحد ، أحد» .

وهم يعذبونه ، ويسألونه الرجوع عن دينه ، ويطلبون منه الإيمان باللات والعزى .

لقد علم أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة والصبر عليه أيسر من الصبر على عذاب النار .

فكان عاقلاً حيث اختار أخف الضررين ، وأثر أيسر المصيبتين .

قال ابن إسحاق : كان أمية بن خلف يُخرج بلالاً إذا حميت الظهرية فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء : «أحد ، أحد ، أنا كافر باللات والعزى» .

وعن عروة بن الزبير قال : كان بلال من المستضعفين ، وكان يعذب ليرجع عن دينه ، فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون .

وكان إذا اشتد عليه العذاب يقول : أحد ، أحد .

فيقولون له : قل كما نقول : فيقول : «إن لساني لا ينطق به ، ولا يحسنه» .

نعم ، إن قلبه يأبى الكفر ، واللسان ترجمان الجنان ، وإنما يرشح ما فيه الإناء .

وقد قيل : إنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً ، فرضي الله تعالى عنه ، وأرضاه .

قال الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٣٦١/٢ : قال البلاذري كان أبو جهل يقول : ألا تعجبون لهؤلاء ، وأتباعهم محمداً ، فلو كان ما أتى به محمد خيراً وحقاً ما سبقونا إليه .

أفتسبقنا زئيرة إلى رُشدٍ ، وهي من ترون .

وكانت زئيرة قد عُدبت حتى عميت .

فقال لها أبو جهل : إن اللات والعزى فعلتا بك ما ترين .

فقالت وهي لا تبصر : وما تدري اللات والعزى من يعبدهما .

ولكن هذا أمر من السماء ، وربِّي قادر على أن يرُدَّ بصري ، فأصبحت تلك الليلة ، وقد ردَّ الله بصرها .

فقال قريش : هذا من سحر محمد ، فاشتراها أبو بكر واعتقها .

لقد كانت زنيرة حاذقة ، واثقة ، مؤمنة ، ماهرة في تدينها ، ترفض الكفر بشدة ، وتستخف بأهلها ، وهي من هي ضعفاً ، وفقراً ، ورقاً .

لقد نجح محمد ﷺ في تربية تلك النخبة الصفوة من الرجال والنساء حتى استعلوا على المشركين واستخفوا بكل فنون العذاب ، وآثروا حبَّ الله ورسوله على كل شيء في الدنيا ، فجاءتهم الدنيا صاغرة ، وأسلم لهم الكفرة الزمام وهم صاغرون .

لا نريد أن نطيل في ذكر هؤلاء المعذبين ، فتاريخنا حافل ببطولاتهم ، ولو رحنا نعددهم لطلال بنا الطريق ، ونحن نؤثر الاختصار ، وقد قيل :

تكفني اللبيب إشارةً وسواه يُقِرُّ بالعصا

ح - الهجرة الأولى إلى الحبشة :

قال ابن إسحاق : لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم :

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله تعالى لكم فرجاً مما أنتم فيه» .

لقد كانت نفس رسول الله ﷺ تفيض بالرحمة على هؤلاء ، ويغمره الألم لما يصيبهم ، فأشار عليهم بالرأي السديد الذي يتضمن :

أولاً : تبريد الجو حولهم فترة من الزمن ، وتخفيض الضغط المؤذي عنهم ، ليتنفسوا الراحة ، ويستجمعوا القوة .

فالإنسان بشر ، تضايقه الشدائد كيفما كان ، فلا بدَّ له ، ولو قليلاً من دوحة يستظل بها من حرِّ اللمب ، ليتابع المسير بعدها .

وثانياً: اختبار العزائم بمفارقة الأهل والوطن ، فالغربة مرّة ، وقلّ من يطيقها .

وثالثاً: نقل أفكار الدعوة لأول مرّة خارج مكة ، وأرض العرب ، فالأحباش سوف يسمعون عن الإسلام ، وعما جاء به ، فتتهياً نفوس الطيبين للتفكير به ، والإقبال عليه .

كان رسول الله ﷺ موفّقاً في كل هذا ، عارفاً بما يوجه إليه ، ويدعو له .

قال ابن إسحاق: فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله تعالى ، فكانت أوّل هجرة في الإسلام .

وكانوا اثني عشر رجلاً ، وامرأتين ، وقيل عشر رجال وكان أوّل من هاجر منهم عثمان بن عفان ، وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ .

لقد خرجوا متسلّلين سرّاً حتى أتوا الشعيبة ، فوق الله تعالى لهم ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما بنصف دينار ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا ، فلم يدركوا منهم أحداً .

وكانت هذه الهجرة سنة خمس من بعثه النبي ﷺ ، قبل إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٣٦٣/٢: روى الطبراني بسند صحيح عن ليلي بنت أبي حثمة رضي الله عنها ، قالت: كان عمر بن الخطاب من أشدّ الناس علينا في إسلامنا ، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة أتانا عمر بن الخطاب ، وأنا على بعيري ، وأنا أريد أن أتوجّه ، فقال: أين ، يا أم عبد الله ؟ .

فقلت: أديتمونا في ديننا ، فنذهب في أرض الله حيث لا نؤذى ، فقال: صحبكم الله ، ثم ذهب .

فجاء زوجي عامر بن ربيعة ، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر ، فقال:

تُرَجِّينَ أَنْ يَسْلَمَ؟ وَاللَّهِ لَا يَسْلَمُ حَتَّى يَسْلَمَ حِمَارُ الْخَطَابِ .
قالوا رضي الله عنهم : وقدمنا أرض الحبشة ، فجاورنا بها خير جارٍ ، أَمَنَّا
على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لا نُؤْذِي ، ولا نَسْمَعُ شَيْئاً نَكْرَهُه .

لقد مهر هؤلاء الكرام فن التضحية في سبيل الله ، فأدوا واجبهم نحو ربهم
عز وجل ، وقاموا بما أملاه عليهم دينهم ، وكانوا سادة قادة أعلاماً لكل هاد
ومهتد ، ومكافح في سبيل الحق .

ط - رجوع مهاجري الحبشة :

بلغ المهاجرين في أرض الحبشة أن أهل مكة أسلموا ، وتابعوا النبي ﷺ ،
فقالوا : عشائرنَا أَحَبُّ إِلَيْنَا ، فخرجوا راجعين حتى إذا كانوا دون مكة بساعة
عرفوا أن الخبر غير صحيح ، فأتَمَرُوا بِالرَّجُوعِ إِلَى الْحَبَشَةِ ، ثم قالوا : ندخل
فننظر ما فيه قريش ، ويُحَدِّثُ عَهْدًا مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِهِ ، ثم نرجع .

لكنه لم يتمكن من دخول مكة إلا من وجد مجيراً ، أو دخل مستخفياً .
وكان رجوعهم بعد ثلاثة أشهر من هجرتهم ، حيث لم يقيموا طويلاً في
أرض الحبشة هذه المرّة .

فلما قدم أولئك النفر مكة اشتدَّ عليهم قومهم ، وَسَطَّتْ عَلَيْهِمْ عَشَائِرُهُمْ ،
ولقوا منهم أذى شديداً .

ولما رأى عثمان بن مظعون - رضي الله عنه - وكان قد دخل مكة في جوار
الوليد بن المغيرة - ما فيه أصحاب رسول الله من البلاء ، وهو يَغْدُو وَيروح في
أمان الوليد قال : وَاللَّهِ ، إِنْ غَدَوْتُ وَرَوَّاحِي آمِنًا بِجَوَارِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ ،
وَأَصْحَابِي ، وَأَهْلٍ دِينِي يَلْقَوْنَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْأَذَى فِي اللَّهِ مَا لَا يَصِيبُنِي لِنَقْصِ
كَبِيرٍ فِي نَفْسِي .

فمشى إلى الوليد ، فقال : يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ وَفَتْ ذِمَّتِكَ ، وَقَدْ رَدَدْتُ إِلَيْكَ
جَوَارِكَ .

قال : لَمْ ، يَا ابْنَ أَخِي ، لَعَلَّهُ أَذَاكَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي .

قال: لا ، ولكنني أَرْضَى بجوار الله عز وجل ، ولا أريد أن أستجير بغيره .
قال: فانطلق إلى المسجد ، فأرَدُّ عليَّ جوارِي علانية ، كما أجرتك
علانية .

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد:
هذا عثمان قد جاء يردُّ عليَّ جوارِي .

قال: صدق ، قد وجدته ، وفيَّ ، كريم الجوار ، ولكنني قد أحببْتُ أَلَّا
أستجير بغير الله عز وجل ، وقد ردَدْتُ عليه جواره .

ثم انصرف عثمان ، وليد بن ربيعة بن مالك في مجلس من قریش يُنشدُهم
قبل إسلامه ، فجلس عثمان معهم ، فقال لبيد:
ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خلا الله باطلُ
فقال عثمان: صدقت .

فقال لبيد:

وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زائلُ

فقال عثمان: كذبت ، نعيم الجنة لا يزول .

قال لبيد: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، والله ما كان يؤذِي جليسكم ، فمتى حدث هذا
فيكم؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سفیه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ،
فلا تَجِدَنَّ في نفسك من قوله .

فردَّ عليه عثمان ، حتى شَرِيَّ أمرُهما ، فقام ذلك الرجل فلطم عينه ،
فخَصَّرَها ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان ، فقال:

أما والله ، يا ابن أخي ، إن كانت عينُكَ عَمَّا أصابها لَعْنَةُ ، ولقد كنت في
ذِمَّةٍ منيعةٍ .

فقال عثمان: بل والله ، إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها
في الله عز وجل ، وإني لفي جوار من هو أعزُّ وأقدر ، يا أبا عبد شمس .

فقال له الوليد: هلمّ ، يا ابن أخي إن شئت ، إلى جوارك ، فعُد .
فقال: لا .

في قصة عثمان حوار يدور بين الكبار ، فيه المهارة بين الفرقاء ،
والخصماء ، ولكن يبقى موقف المؤمن متميزاً ، تكسوه الثقة بالله ، والعزة
بجنابه القوي المنيع .

إن هؤلاء نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، ورضي الله عنهم تعبوا على
أنفسهم في تربية الإيمان في أعماقها . ومهروا فن التعامل مع من سواهم أيّاً كان
وضعه ، ومذهبه وهم راسخو الأقدام على أرض الحق والحقيقة ، راضون بما
يحمّلهم دينهم من التبعات في سبيل عزته ، ونصرته .

ي - إسلام عمر بن الخطاب :

قال ابن إسحاق : كان إسلام عمر عقب الهجرة الأولى إلى الحبشة .
وقال ابن الجوزي : كان إسلامه سنة خمس من البعثة ، بعد إسلام حمزة
عم النبي ﷺ بثلاثة أيام .

واختلف العلماء في سبب إسلامه ، وحكوا في ذلك قصصاً ، والذي يعيننا
أن إسلامه كان نصراً للمسلمين ، وصدمة للمشركين لما كان يعرف به من الشدة
والشهامة والرجولة .

روى البخاري (٣٨٦٣) في مناقب الأنصار عن عبد الله بن مسعود رضي الله
عنه ، قال : « ما زلنا أعزّة مُنْذُ أُسْلِمَ عُمَرُ » .

والفضل في إسلامه يعود - بعد توفيق الله تعالى له - إلى حكمة رسول الله
ﷺ ، ومهارته في تعامله مع المشركين ، وأسلوبه العظيم في دعوته إلى الله
عز وجل .

فقد هزم النبي ﷺ المشركين نفسياً ، قبل أن يهزمهم مادياً ، وعلا عليهم
فكرياً قبل أن يعلوهم عسكرياً ، سمع عمر القرآن قبل أن يسلم ، فرق له .
ورأى المستضعفين يعذبون ، فيتنفّض لهم رغم قسوته عليهم . ورأى

أخته ، وقد ضربها لإسلامها ، فسال الدم من وجهها فرحمها . ورق لها ، استشعاراً بعظمة ما كانت عليه من الثبات والتضحية ، وبلغه أن النبي ﷺ قال : «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبي جهل ، أو بعمر بن الخطاب» رواه الترمذي (٣٦٨١) والحاكم ٨٣/٣ وصححه .

فكانت الإجابة من نصيب هذا الرجل الشهم ، الذي أعز الله تعالى به الإسلام والمسلمين ، لقد كانت هذه المواقف من الأسباب في تعجيل إسلامه .

كثيرون من رجال قريش المهزومين نفسياً كانوا ينتظرون الفرص ليعبروا عن هزيمتهم ، وقناعتهم بالاستسلام للإسلام ، والخضوع لسلطانه الغالب على عقولهم وأفئدتهم . ولولا الحسد ، والكبرياء ، والتنافس على الزعامة ، لما تأخروا إلى ما تأخروا إليه .

ك - الحصار الاقتصادي والاجتماعي :

قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، في كتابه «فقه السيرة» .

ورد بأسانيد مختلفة عن موسى بن عقبة ، وعن ابن إسحاق ، وعن غيرهما ، أن كفار قريش أجمعوا أمرهم على قتل رسول الله ﷺ ، وكلموا في ذلك بني هاشم وبني المطلب ، ولكنهم أبوا تسليمه ﷺ إليهم .

فلما عجزت قريش عن قتله ﷺ أجمعوا على منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بني هاشم وبني المطلب ، فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم ، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة .

حتى يسلم بنو المطلب رسول الله ﷺ إليهم للقتل ، وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة .

والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات ، بدءاً من المحرم سنة سبع من البعثة إلى السنة العاشرة منها ، وقيل بل استمر ذلك سنتين فقط .

ورواية موسى بن عقبة تدل على أن ذلك كان قبل أمر الرسول أصحابه

بالهجرة إلى الحبشة ، وإنما أمرهم بها أثناء هذا الحصار ، أما رواية ابن إسحاق ، فتدل على أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة أصحابه ﷺ إلى الحبشة وبعد إسلام عمر .

وحاصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين ، ومعهم رسول الله ﷺ ، في شعب بني المطلب ، وإنما مكة شعاب متفرقة ، واجتمع فيه من بني هاشم وبنو المطلب المسلمون والكافرون ، أما المسلمون فتديناً وأما الكافرون فحمية ، إلا ما كان من أبي لهب ، عبد العزى بن عبد المطلب ، فإنه خرج إلى قريش ، فظاهرهم على النبي ﷺ وأصحابه .

فجهد النبي ﷺ والمسلمون جهداً شديداً في هذه الأعوام الثلاثة واشتد عليهم البلاء ، وفي الصحيح أنهم جَهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر ، وذكر السهيلي أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة ، يأتي أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلى السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقتاته لأهله ، فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً ، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يعللهم به .

فلما كان على رأس ثلاث سنين من بدء هذا الحصار ، تلاوم قوم من بني قصي ، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه ، وأرسل الله على صحيفتهم التي كتب فيها نص المعاهدة الأرضة ، فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد ، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التي فيها ذكر الله عز وجل .

وقد أخبر بذلك رسول الله ﷺ عمه أبا طالب ، فقال له أبو طالب : أربك أخبرك بذلك؟ قال : نعم ، فمضى في عصابة من قومه إلى قريش ، فطلب منهم أن يؤتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاءوا بها وهي مطوية ، فقال أبو طالب : إن ابن أخي قد أخبرني ، ولم يكذبني قط ، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التي كتبتم الأرضة فأتت على كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم ، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء

رأيكم ، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا ، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون ، فقالوا: قد رضينا بالذي تقول ، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق عليه السلام ، فقالوا: هذا سحر ابن أخيك! . .

وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.

ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش ، مشوا في نقض الصحيفة ، وإنهاء هذا الحصار ، وهم: هشام بن عمرو بن الحارث ، وزهير بن أمية ، والمطعم بن عدي ، وأبو البختری بن هشام ، وزمعة بن الأسود.

وكان أول من سعى إلى نقضها بصريح الدعوة زهير بن أمية ، أقبل على الناس عند الكعبة فقال: يا أهل مكة ، أناكل الطعام ، ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلکی لا يباعون ولا يبتاع منهم؟ . . . والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

ثم قال بقية الخمسة نحواً من هذا الكلام ، ثم قام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فمزقها ، ثم انطلق هؤلاء الخمسة ، ومعهم جماعة ، إلى بني هاشم وبني المطلب ، ومن معهم من المسلمين فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم.

مما ذكرنا ندرك كم مهر النبي ﷺ وأصحابه فنَّ الصبر والمصابرة والثبات والمقاومة ، كما مهر المشركون فنَّ الأذى والفساد ، لكنَّ الحقَّ أعلى وامضى وأبقى.

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

قال الله تعالى: ﴿ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال:

٨].

إن في ضمير الإنسان خيراً ، لولا ركام الأهواء ، والنزوات ، وتغلب المصالح ، لبرز هذا الخير ، لكن أصحابه طمروه تحت أنقاض الشهوات ، وهو ينتظر فرصة ، لينفض الركام ، ويلوِّح بعصاه في وجوه الشر ، كما فعل هؤلاء النفر الخمسة الذين ضايقتهم تلك القسوة وذلك الظلم ، فقاموا - وهم

على شركهم - فشقوا تلك الصحيفة الجائرة ، ورفعوا عن المظلومين العذاب ،
وأنهوا ذلك الحصار الباغي .

إن أصحاب النبي ﷺ يدركون بتربيتهم الإيمانية ، ومهاراتهم الإنسانية أن
نهاية الحصار لا تعني نهاية المعاناة ، وأن درب الكفاح طويل ، وهم
راضون ، وثابتون .

ب - الهجرة الثانية إلى الحبشة :

قال ابن سعد : قالوا : لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة من الهجرة الأولى
اشتدَّ عليهم قومهم وسطَّت عليهم عشائرهم ولقوا منهم أذىً شديداً ، فأذن لهم
رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت خُرُجَتهم الثانية
أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ونالوهم بالأذى واشتدَّ عليهم
ما بلغهم عن النجاشي من حُسن جواره لهم ، فقال عثمان بن عفان :
يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولستَ معنا؟ فقال رسول الله ﷺ :
«أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإليّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً» .

قال عثمان : فحسبنا يا رسول الله .

قال ابن اسحاق وابن سعد : وكان عِدَّة من خرج في هذه الهجرة من الرجال
ثلاثة وثمانين .

قال ابن سعد : ومن النساء إحدى عشرة امرأة قُرْشِيَّة وسَبْع غرائب .

وقد روى قصتهم الإمامُ أحمد عن ابن مسعود ، وأبو نُعَيْم والبيهقي عن
أبي موسى الأشعري ، وابن إسحاق عن أم سَلَمَة ، والطبراني وابن عساكر عن
جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم قالوا : لما نزلنا أرضَ الحبشة جاوزنا
بها خيرَ جار النجاشي ، أمناً على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نُؤذَى ولا نسمع شيئاً
نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا فينا رجلين جَلْدِين وأن
يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستظرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها
الأدَم فجمعوا له أدماً كثيراً ولم يتركوا من بطارقه بطريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم
بعثوا عُمارة بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما :

ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم أسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

فخرجوا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقتهم بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يدفعا إلى النجاشي هديته ويكلماه وقالوا لكل بطريق منهم : إنه ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجأؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردّهم إليهم ، فإذا كلّمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى وأعلم بما عابوهم فيه ، فقالوا : نعم .

ثم إنهما لما دخلا على النجاشي سجدا له وقدما له هداياه فقبلها ، ثم قالوا له : أيها الملك إن نفرا من بني عمنا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم جاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردّهم عليهم فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بهم بما عابوا عليهم .

ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعُمارة بن الوليد من أن يسمع النجاشي كلام جعفر وأصحابه ، فقالت بطارقتهم : صدقا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم .

قال : فأين هم ؟ قالوا : في أرضك ، فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله إذن لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان من أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهم وأحسن جوارهم ما جاوروني .

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول : والله

ما عَلِمْنَا وما أَمَرْنَا به نبينا ﷺ كان في ذلك ما هو كائن ، فقال جعفر بن أبي طالب : أنا خطيبكم اليوم .

وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ، فدخل جعفر وتبعه المسلمون فسَلَّم فقالوا : مالك لا تسجد للملك ؟ قال جعفر : إنا لا نَسْجُدُ إلا لله عز وجل ، فقال النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من أهل هذه المِلَل .

فقال جعفر : أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونُسيء الجوارَ ويأكل القويُّ الضعيفَ ، فكُنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَاكَ فَدَعَانَا إلى الله لنوحِّده ونَعْبُدَهُ ونُخْلِعه ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فعَدَّدَ عليه أمورَ الإسلام ، ثم قال : وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الجوارِ والكفِّ عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقَذْفِ المحصنات ، فصَدَّقْنَاهُ وآمَنَّا به واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى ، فَعَبَدْنَا الله تعالى وحده ولم نشرك به شيئاً وَحَرَّمْنَا ما حرم الله علينا وَأَحْلَلْنَا ما أَحَلَّ لنا فَعَدَا علينا قومنا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عن ديننا ليرُدُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نُظْلَمَ عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم قال : فاقرأ عليَّ . فقرأ عليه صدرأ من «كهيعص» فبكى والله النجاشي حتى أَخْضَلَ لحيته وبكت أساقفته حتى أَخْضَلُوا مصاحفهم حينَ سمعوا ما يُثْلَى عليهم .

ثم قال له النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج عن مشكاة واحدة .

ثم قال النجاشي لعمره: أعييدُ هم لكم؟ قال: لا. قال: أفلكم عليهم دين؟ قال: لا.

قال: انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا يُكادون.

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتيته عنهم غداً بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عُمارة: لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ.

ثم غداً إلى النجاشي فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً فاسألهم عما يقولون فيه. فأرسل إليهم ليسألهم عنه فاجتمع المسلمون ولم ينزل بهم مثلها. فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ فقالوا: نقول والله ما قال الله تعالى وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن. فقال جعفر: لا يتكلم أحدٌ أنا خطيبكم.

فلما دخلوا عليه فإذا هو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن شماله والقسيسون جلوسٌ سَمَاطِينَ ، فقال لجعفر وأصحابه: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب؟ نقول فيه الذي جاء به نبينا ، نقول هو عبد الله ورسوله ورُوحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فضرب النجاشي بيده الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود ، يا معشر القسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذي فيه . فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال فقال: وإن نخرتم والله .

ثم قال: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل ، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لآتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه ، وأمر لنا بطعام وكسوة ، ثم قال: اذهبوا فأنتم آمنون ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، قالها ثلاثاً. فما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم .

كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي

روى البيهقي عن ابن إسحاق قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحح . سلام عليك فإني أحمدُ إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاته على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفر بن أبي طالب ومعه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى» .

فكتب إليه النجاشي: إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحح بن الأبرج ، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمته وبركاته ، لا إله إلا الذي هداني إلى الإسلام ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى لم يزد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقد مر بنا ابن عمك ، وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداً ، وقد تبعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه الله رب العالمين وقد أرسل با بني أريحا بن أصحح بن أبرج ، فإني لا أملك إلا نفسي ، وإن أمرتني أن أجيء فعلت يا رسول الله فإني أشهد أن ما تقول حق .

انظر: «سبل الهدى والرشاد» ٢/ ٣٣٤ ، و«البداية والنهاية» ٣/ ٨٣ .

إن في حديث الهجرة إلى الحبشة الكثير من المهارات والدلالات .

١- سمو الخطاب الذي تقدم به جعفر بن أبي طالب بحضرة النجاشي وأساقفته ، وجعفر يومئذ شاب غريب في بلد بعيد ، لكنه يظهر في هذا الموقف عزيز النفس ، ثابت الفؤاد عالماً بما يحمل ، وبما يؤمن ماهراً في الأداء ، فصيحاً في الخطاب .

٢- مهارة المشركين أيضاً في مكرهم ، ومحاربتهم للإسلام وأهله ، وإن كانت حجتهم داحضة ، ونفوسهم مهزومة .

٣- مهارة النجاشي في فكره ، وعقيدته ، وحسن استماعه ، وكريم جوابه ورعايته ، ثم في إيمانه ، واتباعه للحق ، وهو على ما هو عليه من الجاه والملك .

قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه : «فقه السيرة» ص : ١٢٦ : نأخذ من حديث هجرة المسلمين إلى الحبشة ثلاث دلالات :

الدلالة الأولى : أن الدين والاستمسك به وإقامة دعائمه . أساسٌ ومصدرٌ لكل قوة . وهو السياج لحفظ كل حق من مال وأرض وحرية وكرامة . ومن أجل هذا كان واجب الدعاة إلى الإسلام والمجاهدين في سبيله أن يجندوا كل إمكانياتهم لحماية الدين ومبادئه ، وأن يجعلوا من الوطن والأرض والمال والحياة وسائل لف حفظ العقيدة وترسيخها ، حتى إذا اقتضى الأمرُ بذلَ ذلك كله في سبيلها وجب بذله .

ذلك أن الدين إذا فقد أو غلب عليه ، لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض .

بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضاً من ورائه ، أما إذا قوي شأنه وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأفئدة عقيدته . فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود . . . يعود أقوى من ذي قبل حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة . . .

ولقد جرت سُنّة الله في الكون على مر التاريخ ان تكون القوى المعنوية هي الحافظة للمكاسب والقوة المادية ، فمهما كانت الأمة غنية في خلقها وعقيدتها السليمة ومبادئها الاجتماعية الصحيحة ، فإن سلطانها المادي يغدو أكثر تماسكاً وأرسخ بقاء وأمنع جانباً ، ومهما كانت فقيرة في خلقها مضطربة في عقيدتها تائهة أو جانحة في نظمها ومبادئها فإن سلطانها المادي يغدو أقرب إلى الاضمحلال ومكتسباتها المادية أسرع إلى الزوال .

وقد تصادف أن تجد أمة تائهة في عقيدتها عن جادة الصواب منحطة في مستواها الخلقي والاجتماعي ، وهي مع ذلك واقفة على قدميها من حيث القوة والسلطان المادي . ولكنها في الحقيقة والواقع تمر بسرعة نحو هاوية سحيقة ، والسبب في أنك لا تحس بحركة هذا المرور وسرعته هو قصر عمر الإنسان أمام طول عمر التاريخ والأحقاب . ومثل هذه الحركة إنما تبصرها عين التاريخ الساهرة لا عين الإنسان الغافل الساهي .

وقد تصادف أن تجد أمة تعرّت عن كل مقوماتها المادية من ثروة ووطن ومال في سبيل الحفاظ على العقيدة الصحيحة ، وفي سبيل بناء النظام الاجتماعي السليم ، ولكن ما هي إلا فترة قصيرة حتى تجد أرباب هذه العقيدة الصحيحة وما يتبعها من الخلق والنظام الاجتماعي السليم قد استحوذوا على وطنهم المسلوب ومالهم المغصوب وعادت إليهم قوتهم مضاعفة معززة .

وأنت لن تجد الصورة الصحيحة عن الكون والإنسان والحياة إلا في عقيدة الإسلام الذي هو دين الله لعباده في الأرض ، ولن تجد من نظام اجتماعي عادل سليم إلا في نظام الإسلام وهديه ، ولذا فقد كان من أسس الدعوة إلى الإسلام التضحية بالمال والوطن والحياة في سبيله ، فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال والوطن والحياة .

ومن أجل هذا شرع مبدأ الهجرة في الإسلام ، فأشار الرسول ﷺ على أصحابه - بعد أن نالهم من أذى المشركين ما خشي عليهم معه الفتنة في الدين - إلى الهجرة والخروج من الوطن .

وأنت خير أن هذه الهجرة نفسها ضرب غير يسير من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين . فهي ليست في الحقيقة هرباً من الأذى والراحة . بل هي تبديل للمحنة ريثما يأتي الفرج والنصر .

وأنت خير أيضاً أن مكة لم تكن إذ ذاك دار إسلام حتى يقال ، فكيف ترك أولئك الصحابة دار الإسلام وفروا ابتغاء سلامة أرواحهم إلى بلاد كافرة ، فمكة والحبشة وغيرهما كانت سواء إذ ذاك ، وأيها كانت أعون للصحابي على

ممارسة دينه والدعوة إليه ، فهي أجدر بالإقامة فيها .

الدلالة الثانية : ونأخذ منها حقيقة العلامة القائمة بين ما جاء به سيدنا محمد وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام ، فقد كان النجاشي على دين عيسى عليه الصلاة والسلام ، وكان مخلصاً وصادقاً في نصرانيته ، ولقد كان من مقتضى إخلاصه هذا أن لا يتحول عنها إلى ما يخالفها وأن لا ينتصر لمن تختلف عقيدتهم عما جاء به الإنجيل وما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام .

أي فلو صحت تقولات أولئك الذين يزعمون انتماءهم إلى عيسى بن مريم وتمسكهم بالإنجيل ، من أن عيسى ابن الله تعالى وأنه ثالث ثلاثة ، لتمسك النجاشي (الذي كان من أخلص الناس لنصرانيته) بذلك ، ولردّ على المسلمين كلامهم وانتصر لرسل قريش فيما جاءوا من أجله .

ولكننا رأينا النجاشي يعلق على ما سمعه من القرآن وترجمته لحياة عيسى بن مريم بقوله ، إن هذا والذي جاء به عيسى بن مريم ليخرج من مشكاة واحدة ، يقول ذلك على مسمع من بطارقة وعلماء الكتاب الذين من حوله .

وهذا يؤكد ما هو بديهي الثبوت من أن الأنبياء كلهم إنما جاؤوا بعقيدة واحدة لم يختلفوا حولها بعضهم عن بعضهم قيد شعرة ، ويؤكد لنا أن اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم ليس إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً من عند أنفسهم كما قال الله تعالى .

الدلالة الثالثة : أنه يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي إذ كان نصرانياً عندئذ ، ولكنه أسلم بعد ذلك ، أم كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة ، وكابي طالب عم رسول الله ﷺ ، وكالمطعم بن عدي الذي دخل الرسول ﷺ مكة في حمايته عندما رجع من الطائف .

وهذا مشروط - بحكم البداهة - بأن لا يستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدعوة الإسلامية ، أو تغييراً لبعض أحكام الدين ، أو سكوتاً على اقتراف

بعض المحرمات . وإلا لم يجز للمسلم الدخول فيها . ودليل ذلك ما كان من موقفه صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما طلب منه أبو طالب أن يبقى على نفسه ولا يحمله ما لا يطيق فلا يتحدث عن آلهة المشركين بسوء ، فقد وطن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمه وأبى أن يسكت عن شيء مما يجب عليه بيانه وإيضاحه .

م - إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي :

وفي إسلام الطفيل رضي الله عنه دليل على حكمة الرسول ﷺ في أسلوب دعوته ، ومعرفته في مقامات الرجال وتنزيلهم في المواقع التي يمكن استجلابهم من خلالها إلى الله تعالى .

روى ابن سعد عن أبي عَوْن الدَّوسِي ، والبيهقي عن ابن إسحاق ، وابن جرير ، وأبو الفرج الأموي عن العباس بن هشام ، عن أبيه أن الطفيل بن عمرو حَدَّثَ أَنَّهُ قَدِمَ مَكَّةَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهَا ، فَمَشَى إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ قَرِيشَ ، وَكَانَ الطِّفِيلُ رَجُلًا شَرِيفًا شَاعِرًا لَبِيبًا فَقَالُوا لَهُ : يَا طِفِيلُ إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ بَنَاءَ وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتْ أَمْرَنَا وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسَّحَرِ يَفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَبِيهِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَأَخِيهِ وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ ، وَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ مَا دَخَلَ عَلَيْنَا فَلَا تَكَلِّمْهُ وَلَا تَسْمَعْ مِنْهُ .

قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلّمه ، وحتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ .

فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة فقممت قريباً منه ، فأبى الله تعالى إلا أن يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ ، فَسَمِعْتُ كَلَامًا حَسَنًا ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنِّي لَرَجُلٍ لَبِيبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَى عَلَيَّ الْحَسَنُ مِنَ الْقَبِيحِ ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبِلْتُ وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُ؟

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ فتعبته فقلت : إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ قَالُوا لِي :

كذا وكذا ، وإني شاعر ، فاسمع ما أقول .

فقال النبي ﷺ هات . فأنشدته فقال رسول الله ﷺ :

وأنا أقول فاسمع ، ثم قرأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾** إلى آخرها و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ إلى آخرها و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى آخرها ، وعرض عليّ الإسلام فلا والله ما سمعتُ قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعَدَل منه ، فأسلمتُ وقلت : يا نبيّ الله إني امرؤ مُطَاع في قومي ، وإني راجع إليهم فداعيتهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم ، فقال : اللهم اجعل له آية .

فخرجت إلى قومي في ليلة مَطِيرَة ظُلُماء حتى إذا كنت بِثَنِيَّةٍ تُطْلِعُنِي على الحاضر وقع نورٌ بين عَيْنِي مثل المصباح . فقلت : اللهم في غير وجهي ، إني أخشي أن يظنوا أنها مُثْلَة وقعت في وجهي ، فتحوّل فوق في رأس سَوَاطِي كالقنديل المعلّق ، وأنا أهبط عليهم من الثنّة حتى جئتهم ، فلما نزلت أتاني أبي فقلت : إليك عني يا أبت فلست مني ولست منك . فقال لِمَ يا بني؟ فقلت : قد أسلمتُ وتابعت دينَ محمد ، قال : أَيُّ بُنَيٍّ فِدِينِي دينُكَ ، فقلت : اذهب فاغتسل وطهّر ثيابك ففعل ثم جاء ، فعرضتُ عليه الإسلام فأسلم ، ثم أتتني صاحبتِي فقلت : إليك عني فلست منك ولست مني قالت : ولم بأبي أنت وأمي؟ قلت : فَرَّقَ بيني وبينك الإسلامُ وتابعتُ دينَ محمد قالت : فدينِي دينُكَ . فقلت : اذهبي فتطهّري ففعلتُ فعرضتُ عليها الإسلامَ فأسلمت ولم تُسلم أُمِّي ، ثم دعوت دَوْساً فَأَبْطَوْا عَلَيَّ ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت : يا نبي الله إنه قد غلبني على دَوْس الزُّنَا فادع الله عليهم ، فقال : اللهم اهدِ دَوْساً وائت بهم ، ارجع إلى قومك وارْفُقْ بهم .

فرجعتُ فلم أَزَلْ بأَرْض قومي أدعوهم حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ومضى بَدْرٌ وَأَحَدٌ والخندق ، فَقَدِمْتُ على رسول الله ﷺ بمن أسلمَ ورسول الله ﷺ بخيبر ، حتى نزلتُ المدينةَ بسبعين أو ثمانين بيتاً من دَوْس ، ثم لحقنا رسول الله ﷺ بخيبر فأسَّهَمَ لنا مع المسلمين .

وقال الطُّفَيْلُ لَمَّا أَسْلَمَ :

أَلَا بَلَّغْ لَدَيْكَ بَنِي لُؤَيٍّ
بِأَنَّ اللَّهَ رَبَّ النَّاسِ فَردُّ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ رَسُولٍ
رَأَيْتُ لَهُ دَلَائِلَ أَنْبِئَنِي
وَأَنَّ اللَّهَ جَلَّلَهُ بِهِاءٍ
وَقَالَتْ لِي قُرَيْشٌ عَدُّ عَنْهُ
فَلَمَّا أَنْ أَمَلْتُ إِلَيْهِ سَمِعِي
وَأَلْهَمَنِي هَدَايَا اللَّهِ عَنْهُ
فَفَزْتُ بِمَا حَبَّاهُ اللَّهُ قَلْبِي

على الشَّنَّانِ والغضبِ المُرَدِّي
تعالى جَدُّهُ عَنْ كُلِّ نِدِّ
دَلِيلُ هُدًى وَمَوْضِعُ كُلِّ رُشْدٍ
بِأَنَّ سَبِيلَهُ يَهْدِي لِقَصْدٍ
وَأَعْلَى جَدَّهُ فِي كُلِّ جَدِّ
فَإِنَّ مَقَالَهُ كَالْغُرِّ يُعْدِي
سَمِعْتُ مَقَالَهُ كَمْشُورٍ شَهْدٍ
وَبَدَّلَ طَالِعِي نَخِصِي بِسَعْدِي
وَفَازَ مُحَمَّدٌ بِصَفَاءٍ وَدِّي

أَعْضَلَ بِنَا: أَيِ اشْتَدَّ أَمْرُهُ ، يُقَالُ أَعْضَلَ الْأَمْرُ إِذَا اشْتَدَّ وَلَمْ يَوْجِدْ لَهُ وَجْهَ .

الْكُرْسَفُ : القطن .

الثَّيَّةُ : الطريق في الجبل .

الحاضر: القومُ النازلون على الماء .

«سبل الهدى والرشاد» ٢/ ٤١٧ .

٩ - أول وفد إلى رسول الله ﷺ :

في غمرة ما كان يلاقيه النبي ﷺ وأصحابه من العذاب والإيذاء وفد إلى رسول الله ﷺ أول وفد من خارج مكة لفهم شيء عن الإسلام .

وكانوا بضعة وثلاثين رجلاً من نصارى الحبشة جاؤوا مع جعفر بن أبي طالب لدى عودته إلى مكة ، فلما جلسوا إلى رسول الله ﷺ وأطلعوا على صفاته وأحواله وسمعوا ما تلي عليهم من القرآن ، آمنوا كلهم ، فلما علم بذلك أبو جهل أقبل إليهم قائلاً :

ما رأيْنَا ركباً أحقَّ منكم! . . أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال . فقالوا :

سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا مانحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً.

فنزّل في حقهم قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَايَنْتَهُمْ اَلْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِءُ يُّؤْمِنُوْنَ ۝٥٢ وَ اِذَا يُنٰثَلُ عَلَيْهِمْ قَالُوْا ءَامَنَّا بِهِ ؕ اِنَّهٗ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّنَا ۚ اِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِيْنَ ۝٥٣ اُولٰٓئِكَ يُؤْتُوْنَ اَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوْا وَيَدْرَءُوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ۚ وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنفِقُوْنَ ۝٥٤ وَاِذَا سَمِعُوا اَلْلَغُوْا اَعْرَضُوْا عَنْهُ وَقَالُوْا لَنَّا اَعْمَلُنَا وَلَكُمْ اَعْمَلُكُمْ سَلٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِيْ اَلْجَنٰهِلِيْنَ ۝٥٥ ﴾ [القصص : ٥٢ - ٥٥].

وفي قدوم هذا الوفد إلى مكة للقاء رسول الله ﷺ والتعرف على الإسلام . في غمرة ما كان المسلمون يعانونه من عذاب وإيذاء ومقاطعة وتضييق ، دلالة باهرة على أن ما قد يلاقيه أرباب الدعوة الإسلامية في طريقهم من الآلام والمصائب لا يعني بحال ما الخيبة أو الإخفاق ، ولا يستلزم الضعف أو التخاذل أو اليأس ، بل العذاب كما قلنا طريق لا بد من سلوكها للوصول إلى النجاح والنصر ، لقد جاء هذا الوفد . وكانوا يزيدون على ثلاثين رجلاً من النصارى ، وقيل بل كانوا يزيدون على أربعين رجلاً ، جاؤوا يمشون عباب البحر إلى رسول الله ﷺ . ليعلنوا الولاء للدعوة الجديدة ، وليعلنوا بلسان الحال أن أعداء الدعوة الإسلامية لن يستطيعوا مهما ضيقوا عليها ومهما عذبوا وآذوا أربابها ومهما قاطعوهم واثتمروا بهم أن يمنعوها من أن تؤتي ثمارها أو أن يحبسوها عن الانتشار في مشارق الأرض ومغاربها .

وكأنما قد علم أبو جهل بهذه الحقيقة فتجلت آثارها على نفسه ولسانه في الكلمات الحاقدة التي واجه بها أفراد ذلك الوفد . ولكن ما عساه أن يصنع ؟ إن كل ما يستطيع هو وأمثاله أن يصنعوه ، إنزال مزيد من التعذيب والإيذاء بالمسلمين ، أما أن لا تبلغ الدعوة مداها وأن لا تؤتي ثمارها . فليس له إلى ذلك من سبيل .

«فقه السيرة» ص ١٣٠ .

وقال في «سبل الهدى والرشاد» ٤٢١ / ٢ :

قال ابن إسحاق: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه فكلّموه وسألوه ، ورجالٌ من قريش في أُنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدّقوه وعرفوا منه ما كان يُوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خيِّبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه بما قال ، ما نعلم ركباً أحقّ منكم ، أو كما قالوا لهم .

فقالوا: سلامٌ عليكم لا نُجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نألُ أنفسنا خيراً .

ويقال إن نفر كانوا من أهل نَجْران ، فالله أعلم أيّ ذلك كان .

فيقال: والله أعلم ، إن فيهم نزلت هذه الآيات: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي القرآن . ﴿ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا بُنِيَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ ﴾ ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ موحّدين . ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ بإيمانهم بالكتابين ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ بصبرهم على العمل بهما ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ أي يدفعون ﴿ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ﴾ منهم ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ يتصدقون ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ الشتم والأذى من الكفار ﴿ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ سلامٌ متاركة أي سلمتم منا من الشتم وغيره ﴿ لَا بَنَيْنَا الْجَنَّةَ لِيَلْزَمَ ﴾ [القصص: ٥٢: ٥٥] لا نصحبهم .

قال ابن إسحاق: وقد سألتُ ابن شهاب الزهري عن هؤلاء الآيات فيمن نزلن؟ فقال لي: ما زلت أسمع من علمائنا أنهم نزلن في النجاشي وأصحابه ، والآيات من سورة المائدة قول الله عز وجل: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا

إِنَّا نَصْرِيَّ ذَلِكَ ﴿ أَي قُرب مودتهم المؤمنين ﴾ ﴿ بِأَنَّ ﴾ أَي بسبب أن ﴿ مِنْهُمْ ﴾ قَتِيلِينَ ﴿ علماء ﴾ ﴿ وَرَهْبَانًا ﴾ عُبَادًا ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن اتباع الحق كما يستكبر اليهود وأهل مكة ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ﴾ من القرآن ﴿ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣].

١٠ - عام الحزن:

وهو العام العاشر من بعثته ﷺ ، فقد توفيت فيه زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وتوفي فيه عمه أبو طالب ، ويقول ابن سعد في طبقاته : كان بين وفاة خديجة وأبي طالب شهر وخمسة أيام .

وقد كانت خديجة رضي الله عنها ، كما قال ابن هشام ، وزير صدق على الإسلام ، يشكو الرسول إليها ويوجد عندها أنسه وسلواه ، أما أبو طالب ، فقد كان عضداً وحرزاً في أمره ، وكان ناصرأله على قومه .

يقول ابن هشام : فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فشر على رأسه تراباً ، ودخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها : لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك .

ولقد أطلق النبي ﷺ على هذا العام اسم (عام الحزن) لشدة ما كابد فيه من الشدائد في سبيل الدعوة .

لقد قضت حكمه الله تعالى أن يفقد رسول الله ﷺ عمه وزوجه ، في عام واحد ، وقد كانا الحاميين والمواسيين له ، وأن تصل إليه أيدي السفهاء أكثر مما كانت تصل إليه في حياتهما ، ليكون أسوة للمعذبين من أصحابه ، والسائرين على دربه من أتباعه ، فهذه سنة الله عز وجل في عباده .

قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢ - ٣] .

وذكر الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٢/ ٤٢٩ . أن أبا طالب لما حضرته

الوفاء جمع وجوه قريش ، فأوصاهم فقال : يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلکم بذلك على الناس الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب وعلى حربكم إلب ، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البينة ، فإن فيها مرضاة للرب وقواماً للمعاش وثباتاً للوطاة ، صلوا أرحامكم ، ولا تقطعوها فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل وزيادة في العدد ، واتركوا البغي والعقوق ففيها هلكت القرون قبلكم ، أجبوا الداعي وأعطوا السائل فإن فيها شرف الحياة والممات ، عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام ، وإني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصدّيق في العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وإيم الله كأنني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البرّ في الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدّقوا كلمته ، وعظّموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناً ودورها خراباً وضعافها أرباباً ، وأعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أخظاهم عنده ، قد محضته العرب ودأداها ، وأصفت له فؤادها ، وأعطته قيادها ، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم كونوا له ولاية ، ولحربه حُماة ، والله لا يسلك أحدٌ منكم سبيله إلا رُشد ، ولا يأخذ أحدٌ بهديه إلا سعد ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكفيت عنه الهزاهز ولدافعت عنه الدواهي .

ثم إن أبا طالب مات بعد ذلك .

وروى الشيخان عن المسيّب بن حزن رضي الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ : يا عم قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد - وفي لفظ : أحاج - لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله .

انظر إلى هذا الكلام من سيد من سادات قريش ، لقد أوصى بخلال وخصال تكاد تكون من وصايا الأنبياء والمرسلين ، وتنبأ بمهارة فائقة ما سيكون عليه سيد المرسلين ، ومع ذلك ظل حريصاً على أن يموت على ملّة آبائه الأولين والله تعالى في خلقه شؤون .

١١ - زواج رسول الله ﷺ من سودة بنت زمعة :

وفي الشهر الذي توفيت فيه خديجة رضي الله تعالى عنها عقد ﷺ على سودة بنت زمعة القرشية العامرية ، فهي أول من تزوجها بعد خديجة رضي الله تعالى عنهما .

وكانت قبله تحت ابن عمها السكران بن عمرو ، وقد كانت آمنت بالله ورسوله ، وخالفت أقاربها وبني عمها ، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة .

وعقب رجوعهما من الحبشة توفي عنها زوجها ، فلم يكن ثمّ أجمل ولا أشرف مما صنعه رسول الله ﷺ بزواج رجل آمن به واتبعه ، وبزوجة تأيمت ، وسط هذا العداء المستمر حول كل مسلم ومسلمة ، فكان زواجه منها ﷺ يعبر عن غاية البر بأصحابه ، والوفاء لهم ، والرحمة بهم .

ولو تركت هذه المرأة المؤمنة الصابرة الصامدة لقومها - مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الإسلام لفتنوها وأذوها .

وكرم نسبها في قومها لربما منعها من التزوج برجل أقلّ منها حسباً ونسباً وشرفاً ، فكان رسول الله ﷺ مثلاً رائعاً في المعروف يعبر عن بصيرة في الأمور ، ومهارة في التعامل ، سوف يكسبه مع الأيام الاحترام والتقدير ، حتى في صفوف ونفوس الذين كانوا يعادونه ، ويصدون عن دينه .

١٢ - عقده ﷺ على عائشة رضي الله تعالى عنها :

وبعد شهر من وفاة خديجة رضي الله تعالى عنها عقد رسول الله ﷺ على عائشة بنت أبي بكر الصديق ، الصديقة بنت الصديق ، وهي يومئذ لم تتجاوز

السابعة من عمرها ، لكنه ﷺ لم يدخل عليها إلا في المدينة بعد الهجرة .

وكان جبريل عليه السلام قد عرض على رسول الله ﷺ صورتها في سرقة ،
حرير في المنام ، لما توفيت خديجة رضي الله عنها .

ذكر ابن الأثير في «أسد الغابة» أن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون
رضي الله تعالى عنهما دخلت على رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة ، فقالت له :
أي رسول الله ، ألا تزوجُ؟

قال : «ومن؟» .

قالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً .

قال : فمن البكر؟» .

قالت : ابنة أحب خلق الله إليك : عائشة بنت أبي بكر ، قال :
ومن الثيب؟

قالت : سودة بنت زَمْعَةَ بن قيس ، آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه .

قال : فاذهبي فاذكريهما عليّ ، فجاءت فدخلت بيت أبي بكر ، فوجدت أم
رومان أم عائشة ، فقالت : أي أم رومان ، ما أدخل الله عليكم من الخير
والبركة ! قالت : وما ذاك؟ قالت : أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ،
قالت : ودَدْتُ ، انتظري أبا بكر ، فإنه آت ، فجاء أبو بكر فقالت : يا أبا بكر ،
ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ! قال : وما ذاك؟ قالت : أرسلني
رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ، قال : وهل تصلح له ، إنما هي بنت أخيه ،
فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : ارجعي وقولي له : «أنت
أخي في الإسلام ، وابنتك تصلح لي» .

فأتت أبا بكر فقال : ادعي لي رسول الله ﷺ ، فجاء فأنكحه وهي يومئذ بنت
ست سنين .

قالت : فخرجتُ فدخلتُ على سودة فقلت : يا سودة ، ما أدخل الله عليكم
من الخير والبركة ! قالت : وما ذاك؟ قالت : أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك

عليه ، قالت : وَدَدْتُ ، ادخلي على أبي فاذكري ذلك له قالت : وهو شيخ كبير قد تخلف عن الحج - فدخلتُ عليه فقلت : إن محمد بن عبد الله أرسلني أخطب عليه سودة ، قال : كُفْءُ كريم ، فماذا تقول صاحبك؟ قالت : تحبُّ ذلك ، قال : ادعيها ، فدعتها فقال : إن محمد بن عبد الله أرسل يخطبك وهو كُفْءُ كريم ، أفتحبين أن أزوجك؟ قالت : نعم ، قال : فادعيه لي ، فدعته فجاء فزوجه ، وجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج فجعل يحثو التراب على رأسه ، وقال بعد أن أسلم ، إني لسفيه يوم أحثو التراب على رأسي أن تزوج رسول الله ﷺ سودة .

هكذا يبدو رسول الله ﷺ ، بحكمته وحنكته - صهراً مكرماً في قبائل العرب ، حتى في رحاب من يعاديه عقيدة ، وفكراً .

إن رسول الله ﷺ بهذا الأدب امتلك نواحي النسب ، وشدَّ نفسه إلى تلك القبائل بسبب فمهد لهم طريق الرجوع إليه ، ولو بعد أمد ، وصبَّ على نيران خصوماتهم ما يخفف اللهب ، ويذهب بكثير من الحسد والغضب ، وهكذا يجب على الدعاة أن يفكروا في إقامة الصلات والعلاقات التي تساعد على بلوغ المآرب الشريفة والغايات ، وتحلُّ كثيراً من العقد ، والتشنجات شريطة أن لا يكون هناك أي مسَّ ببراءة الدعوة ، وشرعية العلاقات .

١٣ - سفر رسول الله ﷺ إلى الطائف :

قال الإمام الشامي في كتابه «سبل الهدى والرشاد» ٤٣٨/٢ .

قال موسى بن عقبة وابن إسحاق وغيرهما : ولما هلك أبو طالب ونالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تنال منه في حياته خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف وحده ماشياً .

وفي حديث جبير بن مطعم عند ابن سعد : أن زيد بن حارثة كان معه ، في ليال من شوال سنة عشر يلمس النصر من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى .

فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف

وأشرفهم وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف ، فجلس إليهم رسول الله ﷺ وكلمهم بما جاء به من نصرته على الإسلام والقيام على من خالفه من قومه .

فقال له أحدهم : هو يَمْرُط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! .

وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يُرسله غيرك .

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف .

وقد قال لهم : إذ فعلتم فاکتموا عليّ . وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه .

فأقام بالطائف عشرة أيام وقيل شهراً لا يدع أحداً من أشرفهم إلا جاء إليه وكلّمه ، فلم يجيبوه وخافوا على أحداثهم منه فقالوا : يا محمد اخرج من بلدنا ، وأغرّوا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس .

قال ابن عقبة : وقفوا له صفّين على طريقه ، فلما مر رسول الله ﷺ بين الصّفين جعل لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدّموا رجله .

زاد سليمان التيمي : أنه ﷺ كان إذا أدلّقته الحجارة يقعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه وقيمونه فإذا مشى رجّموه بالحجارة وهم يضحكون .

قال ابن سعد : وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شجّ في رأسه شجاجاً .

قال ابن عقبة : فخلص منهم ورجلاه تسيلان دماً فعمد إلى حائط من حوائطهم ، فاستظل في ظل حَبْلة منه وهو مكروب مُوجِع ، وإذا في الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، فلما رآهما كره مكانهما لِمَا يعلم من عدواتهما لله ورسوله ﷺ ، فلما اطمأن في ظل الحَبْلة قال ما سيأتي .

وروى الطبراني برجال ثقات عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم أتى ظلَّ شجرة فصلى ركعتين ثم قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصُلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك ، أو تحلّ علي سَخَطك ، لك العُتْبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» .

فلما رآه ابنا ربيعة وما لقي تحركت له رَحِمهما فدعوا غلاماً لهما يقال له عدّاس ، فقالا له : خذ له هذا القُطْف من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال : بسم الله ، ثم أكل ، فنظر عدّاس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : ومن أيّ البلاد أنت يا عدّاس وما دينك؟ قال : نصراني ، وأنا من أهل نينوى . فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى . قال له عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت منها - يعني من أهل نينوى - وما فيها عشرة يعرفون ما يونس بن متى ، فمن أين عرفت أنت يونس بن متى ، وأنت أُمّي وفي أمة أُمّية . قال رسول الله ﷺ : ذاك أخي ، كان نبياً ، وأنا نبي ، فأكبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمّا غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاءهما عدّاس قالوا له : ويلك ! مالك تقبّل رأسَ هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال : يا سيدي مافي الأرض خير من هذا الرجل ، لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي ، قال : ويحك يا عدّاس لا يَصُرْفُكَ عن دينك فإن دينك خير من دينه .

وقال عدّاس لسيديه لما أرادا الخروج إلى بدر وأمرأه بالخروج معهما فقال

لهما: قِتَال ذلك الرجل الذي رأيتُ في حائطكما تريدان؟ فوالله ما تقوم له الجبال ، فقالا: ويحك يا عدّاس قد سَحرك بلسانه .

فانصرف رسول الله ﷺ عنهم وهو مَحْزُون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة .

وقال خالد العدواني: إنه أبصر رسول الله ﷺ في سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول: ﴿وَالسَّاءَ وَالطَّارِقَ﴾ حتى ختمها . قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مُشْرِك ثم قرأتها في الإسلام .

قال: فدعنتني ثقيف قالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم . فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا ، ولو كنا نعلم ما يقوله حقاً لاتبعناه . رواه الإمام أحمد والبخاري في تاريخه .

وقالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ عليك من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيتُ من قومك وكان أشدَّ ما لقيتُم منهم يومُ العقبة ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال: فلم يجبني إلى ما أردت أحدٌ ، فانطلقت على وجهي وأنا مهموم فلم أستفقُ إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّنتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، وقال: إن الله تعالى قد سمع قولَ قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال فتأمره بما شئتَ فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال قد بعثني الله عز وجل لتأمرني بما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل ، ولا يُشْرِك به شيئاً . رواه الإمام البخاري (٣٢٣١) في بدء الخلق ، ومسلم (١٧٩٥) في الجهاد .

وقال عكرمة: قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل فقال يا محمد إن ربك يُقرئك السلام وهذا ملك الجبال قد أرسله وأمره ألا يفعل شيئاً إلا بأمرك ، فقال له ملك الجبال: إن شئت رمهت عليهم الجبال ، وإن شئت خسفتُ بهم الأرضَ

فقال : يا ملك الجبال : فإني آتى بهم لعلهم أن يخرج منهم ذريةٌ يقولون لا إله إلا الله ، فقال ملك الجبال : أنت كما سمّاك ربك رؤوف رحيم .

رواه ابن أبي حاتم مرسلًا .

وذكر الأموي وابن هشام أن رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف ولم يجيئوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونُصرتَه أقام بنخلة أياماً وأراد الرجوع إلى مكة ، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك؟ فقال : يا زيد إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه ، ثم انتهى إلى حرّاء وبعث عبد الله بن أريقط إلى الأخنس بن شريق - وأسلم بعد ذلك فيما يقال - ليجيرَه فقال : أنا حليفٌ والحليف لا يُجير على الصّريح ، فبعث إلى سهيل بن عمرو - وأسلم بعد ذلك - فقال إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدي - ومات كافراً - فأجابه إلى ذلك وقال : نعم قل له فليأت ، فرجع إليه فأخبره فدخل رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة ، فلما أصبح خرج المطعم بن عدي وقد لبسَ سلاحه هو وبنوه ستة أو سبعة ، فقال لرسول الله ﷺ : طُفْ . واحتبّوا بحمائل سيوفهم بالمطاف فأقبل أبو سفيان إلى المطعم بن عديّ فقال : أمّجيز أم تابع؟ قال : بل مُجير . قال : إذن لا تُخَفّر قد أجزّنا من أجزّت ، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه ، فلما انصرف إلى بيته انصرفوا معه ، فذهب أبو سفيان من مجلسه .

فمكث رسول الله ﷺ أياماً ثم أذن له الله عز وجل في الهجرة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ توفي المطعم بن عديّ بعده ، ولأجل هذه السابقة التي سبقت للمطعم قال رسول الله ﷺ : «لو كان المطعم بن عديّ حيّاً ثم كلمني في هؤلاء التّنتى - يعني أسارى بدر لأطلقتهم له» .

قال ابن الجوزي : ربما عرض لملحد قليل الإيمان فقال : ما وجّه احتياج رسول الله ﷺ إلى أن يدخل في خفارة كافر وأن يقول في المواسم : من يؤوئني حتى أبلغ رسالة ربي .

فيقال له : قد ثبت أن الإله القادر لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ، فإذا خفيت

حكمة فُعله علينا وجب علينا التسليم ، وما جرى لرسول الله ﷺ إنما صدرَ عن الحكيم الذي أقام قوانين الكلّيات وأدارَ الأفلاكَ وأجرى المياة والرياح ، كلُّ ذلك بتدبير الحكيم القادر ، فإذا رأينا رسول الله ﷺ يشدُّ الحجرَ من الجوع ويُقهر ويُؤدّي علمنا أن تحت ذلك حكماً إن تَلَمَّحْنَا بعضها لاحَث من خلال سُجف البلاء حكمتان .

إحدهما: اختيار المبتلى لِيَسْكُنَ قلبه إلى الرضا بالبلاء فيؤدّي القلبُ ما كلف من ذلك .

والثانية: أن تُبَثَّ الشبهةُ في خلال الحُجَجِ لِيُثَابَ المجتهدُ في دَفْعِ الشبهة .
يمرط : يمزق .

أذلّفته : وجد مسها وألمها .

الحائط : البستان ، إذا كان عليه جدار .

حَبَلَة : شجرة عنب .

يتجهمني : يلقاني بالغلظة ، والوجه الكريه .

العتبي : الرضا .

ويحك : كلمة يتعجب بها العرب .

قرن الثعالب : ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة منها .

الأخشيبين : الجبلين .

إن النبي ﷺ بسفره هذا إلى الطائف ماشياً يريك مدى استعدادة ، لتحمل المشاق ، وقدرته على مقارعة الشدائد والصعاب ، وتربيته على الرضا بمرّ العذاب ، وتقبله مالم يتوقعه من المكاره والإساءات ، كل ذلك ابتغاء وجه ربه عز وجل ، وحرصاً على نجاحه في تبليغ رسالته ، وتسليحه بخلق العفو والصفح ، مهما بلغت الإساءات ، ورحمته بالناس جميعاً حتى الأعداء .

فصلى الله عليه وسلم من نبي رباه ربه على مكارم الأخلاق ، وجعله قدوة لكل عامل ، وداع ، ومجاهد في سبيل الله ، وهذا لا ينافي شكواه إلى ربه

عز وجل ، فإن الشكوى إليه تعبد ، والضراعة له والتذلل على بابه تَقَرُّبٌ ، وهذا أبعد ما يكون عن التملل والتضجر ، ومع ذلك أيضاً فهو بشر يتألم كما يتألم البشر ، ويتعب كما يتعبون ، ولكنه صابر ، وراض عن ربّه عز وجل .

١٤ - عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل :

لقد كان رسول الله ﷺ مسلّحاً بكلّ الإمكانيات والمهارات - كما قلنا أكثر من مرّة - التي تجعل منه داعية ناجحاً ، يرى النصر يلوح أمامه ، ويقرأ بعيني راسه وقلبه أبعاده ، ويقطف ثماره .

ولذلك لم يترك وسيلة شريفة إلا استغلّها في سبيل مهمته ، مهما كانت باهظة الثمن ، كبيرة التبعات ، ثقيلة التكاليف ، وكذلك لم يترك في سبيل ذلك مناسبة إلا انتهزها ، وسعى إليها ، واستفاد منها بحذق وإبداع .
وكان مع كلّ ما أوتي من إمكانيات يعيش في دائرة هداية الله تعالى وتوفيقه وعونه ، وعصمته .

ومن هذا المنطلق ، وفي هذه الأرضية كان ﷺ يتتبع الناس في منازلهم ومواسمهم ، يعرض عليهم دعوته ، ويبشرهم بعواقب قبولهم ، وانضمامهم إلى ركب قافلته ، وما كان يبالي بعدها صدّؤه ، أو قبلوه ، آذوه ، أو سكتوا عليه .

قال الإمام الشامي في كتابه «سُبُل الهدى والرشاد» ٤٥١ / ٢ :

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : كان رسول الله ﷺ يَعرِض نفسه بالموقف ، فيقول : ألا رجلٌ يحملني إلى قومه فإنّ قريشاً منعوني أن أبْلغَ كلامَ ربِّي . أخرجه الترمذي (٢٩٣٥) وأبو داود (٤٧٣٤) وابن ماجه (٢٠١) .

قال محمد بن عمر الأسلمي : مكث رسول الله ﷺ ثلاث سنين من أول نبوته مُستخفياً ، ثم أعلن في الرابعة فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين ، يوافي الموسم كلّ عام يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذو المجاز يدعوهم إلى أن يمنعه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه حتى إنه سأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول : يا أيها

الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا العرب وتذل لكم العجم ، وإذا آمتم كنتم ملوكاً في الجنة ، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب ، فيردون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون: قومك بك أعلم.

أخرجه أحمد في المسند ٤٩٢/٣ ، ٣٤١/٤ .

وقال ابن إسحاق: ثم قدم رسول الله ﷺ مكة أي من الطائف وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به ، وكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم إذا كانت ، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عز وجل ويخبرهم أنه نبي مُرسَل ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله عز وجل ما بعثه به .

وروى ابن إسحاق والبيهقي والإمام أحمد وابنه عبد الله والطبراني برجال ثقات ، عن ربيعة بن عباد - بكسر العين المهملة وتخفيف الباء الموحدة - قال: إني لَغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ﷺ يقف على القبائل من العرب فيقول: يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدّقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله عز وجل ما بعثني به . والناس مُتَقَصِّفون - مجتمعون - عليه ما رأيت أحداً يقول شيئاً وهو لا يسكت . قال: وخلفه رجل أَحْوَل وضيء له غديرتان عليه حُلَّةٌ عدنية ، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بني فلان إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءهم من الجن وبني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه . فقلت لأبي: يا أبت من هذا الرجل الذي يردُّ عليه ما يقول يتبعه حيث ذهب ورسول الله ﷺ يفرُّ منه؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب .

أخرجه الطبري في التاريخ ٣٤٨/٢ وأحمد في المسند ٤٩٢/٣ .

بهذه الروح الرياضية نهض بدعوته ، وصبر على أداء مهمته ، وبهذه البراعة

كان يلقي الناس ، ويحمل إليهم كلماته ، وينفذ إلى أعماقهم بسحر بيانه ، وثبات قلبه .

والمشركون أيضاً ، وزعماء الشرّ كانوا بارعين بصدّه ، وأساليب ردّه ، وكانوا ماهرين في طريقة حربه ، وتأليب الناس من حوله ، ولكن العاقبة للمتقين .

لقد أحدث الناس مقولات تخالف هدي النبي المصطفى ﷺ وتجافي طريقته في بلاغ دعوته ، وتعليم الناس أحكام شريعته .

فاخترعوا مقولاتهم : «العلم يؤتى ولا يأتي» .

«وصاحب الحاجة أولى أن يسعى إليها» .

«لا تُدَلِّ العلم بعرضه على الناس ، دعهم يطلبونه ، ويسألون عنه» .

فقعد الدعاة ، واعتزل العلماء ، ولم يجدوا ضرورة لزيارة الناس في بيوتهم ، وتتبعهم في نواديهم ، والسعي إليهم في مواسمهم ، وحمل الحق والخير والدين إليهم أينما كانوا ، فانقطعت صلات الناس بالعلماء ، وقلت المعرفة بهم ، والاستفادة منهم ، وهذا كله أضعف الدعوة ، وكسر القطيعة ، وحبب إلى الدعاة والعلماء العزلة ، وطلب الراحة والرغبة في السلامة والتخفف من الأعباء ، والصبر على تكاليف الدعوة .

ونحبتُ أن نختم هذه الفقرة من أساليب عرضه ﷺ دعوته على الناس ، في المواسم وغيرها بهذا الحوار الذي دار بينه ﷺ وبين رجل من بني عامر ، يتجلى فيه حذقُ النبي ﷺ ومهاراته في تبني أهدافه ، وإعلان أغراضه .

كما يتجلى فيه أفانين الناس في مراميهم ، والسعي وراء أغراضهم .

روى ابن إسحاق عن الزهري أن النبي ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل . وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يُقال له : «بيّحرة بن فراس» : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب .

ثم قال للنبي ﷺ: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أكون لنا الأمر من بعدك؟

قال رسول الله ﷺ: «الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء».

قال: فقال له: أفتهدف نحورها للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك. «فقه السيرة» ص ١٥٥ .

١٥ - الإسراء والمعراج:

ويقصد بالإسراء الرحلة التي أكرم الله بها نبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس .

أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج به إلى طبقات السماوات العلا ثم الوصول به إلى حد انقطعت عنده علوم الخلائق من ملائكة وإنس وجن ، كل ذلك في ليلة واحدة .

وقد اختلف في ضبط تاريخ هذه المكرمة الإلهية هل كانت في العام العاشر من بعثته ﷺ أم بعد ذلك ، والذي رواه ابن سعد في طبقاته الكبرى أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً .

وجمهور المسلمين على أن هذه الرحلة كانت بالجسم والروح معاً ، ولذلك فهي من معجزاته الباهرة التي أكرمه الله بها .

أما قصة ذلك فقد رواها البخاري ومسلم بطولها .

وفيها أنه ﷺ أتى بالبراق ، وهو دابة فوق حمار ودون بغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه . . . وفيها أنه ﷺ دخل المسجد الأقصى فصلى فيه ركعتين ، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاختر عليه الصلاة والسلام اللبن ، فقال جبريل: اخترت الفطرة . . . وفيها أنه عرج به ﷺ إلى السماء الأولى ، فالثانية فالثالثة . . . وهكذا حتى ذهب به إلى سدرة المنتهى وأوحى الله إليه عندئذ ما أوحى . . . وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين ، وهي في أصلها خمسون صلاة في اليوم والليلة .

ولما كانت صبيحة اليوم التالي وحَدَّث رسول الله ﷺ الناس بما شاهد ، طفق المشركون يجمع بعضهم بعضاً ليتناقلوا هذا الخبر الطريف ويضحكوا منه ، وتحدهاء بعضهم أن يصف لهم بقايا بيت المقدس ما دام أنه قد ذهب إليه وصلى فيه ، والرسول حينما زاره لم يخطر في باله أن يجيل النظر في أطرافه ، ويحفظ أشكاله وعدد سواريه ، فجلى له الله عز وجل صورته بين عينيه وأخذ يصفه لهم وصفاً تفصيلياً كما يسألون .

روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لما كذبتني قريش قمت في الحجر ، فجلى الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» .

أما أبو بكر رضي الله عنه فقد حدثه بعض المشركين عما يقوله الرسول ، رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه . فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق ، إني لأصدقه على أبعد من ذلك .

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها ، وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحاً ومثليهما مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام .

«فقه السيرة» ص : ١٤٦ .

أ - من عرف الله حق المعرفة ، وقدر الله حق قدره تلقى هذا الخبر بطمأنينة القلب ، وبرد اليقين ، ولم يشعر أثناءه بأي نزعة تحرك فيه مشاعر التساؤل أو الاستغراب ، لأن المسلم الناظر إلى قدرة ربه من وراء مخلوقاته في هذه الأكوان يضع حادثة الإسراء والمعراج في أخريات درجات سلالم الخلائق ، ففي مخلوقات الله عز وجل ما هو أفخم وأضخم من مجرد حمل إنسان من مكان إلى مكان بين هذه العوالم المنتشرة التي لا تقع تحت الحصر ، ولا تدخل في ثنايا قدرات العقل .

ب - ثم إن محمداً ﷺ مؤهل بقدرة ربه عز وجل بإمكانات لم تتوفر لغيره من البشر ، الذين لم يقدر لهم أن يكونوا من حملة الوحي ، وتلقي أعباء الدعوة .

ج - ولرسول الله عز وجل نصيب كبير من حب ربه له ، وتكريمه إياه ، وتزويده بالطاقات البناء كلما حزنه أمر ، أو عرضت له شدة ، ولا يعرف أحد كَم أحدثت هذه الرحلة لرسول الله ﷺ من النشوة والسعادة ، وكم عادت إليه بالطاقات والإمكانات والمهارات ، فمن قوي على ما جرى ، وثبت أمام ما رأى سيكون أصلب عوداً ، وأشدَّ عموداً وأمضى عزماً ، على حمل الأعباء مهما ثقلت .

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم : ١٧ - ١٨] .

قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَالَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل : ٥] .

نعم إنه ثقیل بثقل المسؤولية ، لا يقوى على حملها إلا من كان من أولي العزم ، وزود بكل عناصر القدرة على الحمل .

د - لئن كانت هذه الرحلة فتنه لأقوام ، فقد كانت برداً وسلاماً على آخرين . فأهل الجهل والجهالة تشككوا فيها ، واستغلوها للتشكيك ، ودعاية السوء ، وأهل الإيمان ازدادوا بها إيماناً ، هذا واضح في مواقف المشركين ، وموقف الصديق رضي الله تعالى عنه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] .

هـ - لقد حُمل رسول الله ﷺ في هذه الرحلة الأرضية ، والفضائية في مركبة حَيَّة معدَّة اسمها «البراق» تضعف أيَّة مركبة أخرى عن مجاراته ، وتقف عاجزة عن اللحاق به .

ولا ندري ما هي الأجهزة الواقية التي كان يمتلكها والوسائل الراقية التي كان يندفع بها ، لكننا نعرف القدرة الربانية التي كانت تطير به حيث شاءت .

و - لقد كان محمد ﷺ - باصطلاحنا - أوَّل رائد فضاء ، لم يَحْطَّ على المريخ أو القمر ، لكنه حطَّ عند سدرَةِ المنتهى ، التي عندها جَنَّةُ المأوى ، في أعلى سماء خلقها الله تعالى ، وهناك أوحى الله تعالى إليه ما أوحى .

ز - إن في الاقتران الزمني بين إسرائه - عليه الصلاة والسلام من المسجد

الحرام إلى المسج الأقصى ، والعروج إلى السموات العلى للدلالة واضحة على مدى ما لهذين البيتين من القداسة عند الله تعالى والعلاقة الوثيقة بين ما بعث به الأنبياء من عناصر الخير والهداية .

فعلى المسلمين تقديس هذه الأماكن وحمايتها من مطامع الأعداء ، وتخليصها من عدوان اليهود ، وتطهيرها من رجسهم .

ح - لقد كرم الله تعالى عباده من وراء هذه الرحلة القدسية بأشرف عبادة شرعية ، هي الصلوات الخمس ، التي تصل قلب العبد بربه ، فيستمد منه الهداية والقوة والثبات على مشاق التكليف ، ووظائف العبودية ، وعمارة الحياة .

ط - لقد صَدَّرَ الله تعالى في كتابه الكريم خبر هذا الإسراء بكلمة واحدة ، تنفي كل شك عن ساحة المولى الكريم في سلطانه ، وواسع قدرته على فعل ما يريد ، وهذه الكلمة هي قوله تعالى : ﴿سُبْحَنَ﴾ .

فهى كلمة تنزيه للذات الإلهية عن كل نقیصة ، وتستلزم اتصافه بكل فضيلة .

لقد قال الله تعالى مخبراً عن هذا الإسراء : ﴿سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لِنَلَّا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء : ١] .

وكلمة عبده تشمل روح النبي ﷺ وجسده ، وعلى هذا دلت نصوص السنة ، وأيده جماهير العلماء ، وليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويله .

ي - إن رسول الله انتهب هذا الحدث فسحَّره في طريق دعوته . وشهره في وجه خصومه ، فأحدث فيهم زلزلة ، راحوا من ورائها أسرى هيبة الرسول ﷺ ، وأذلاء بين يدي مسيرته ، رغم ما أبدوه من تكذيبه ، ومعارضته ، والتشكيك في أمره .

قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

١٦ - بدء إسلام الأنصار:

كان من حذق رسول الله ﷺ في دعوته ، وهمته في تبليغها أنه ما كان يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له ، ودعاه إلى الله تعالى ، وعرض عليه ما عنده .

روى ابن إسحاق بسند جيد عن محمود بن لبيد قال :

لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة في فتية من قومه بني عبد الأشهل يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم ، فجلس إليهم ، فقال لهم : «هل لكم في خير مما جئتم له؟» .

فقالوا له : وما ذاك؟

قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد أَدْعُوهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليّ الكتاب .

ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حَدَّثاً : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له .

فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حَفَنَةً من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمري ، لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بُعَاث بين الأوس والخزرج ، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك .

قال محمود بن لبيد ، فأخبرني من حضره من قومي عند موته ، أنهم لم يزالوا يسمعون يهلل الله تعالى ، ويكبره ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً .

لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع . «سبل الهدى والرشاد» ١٨٩ / ٣ .

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة ، وفي موسم الحج لقي النبي ﷺ رهطاً من الخزرج عند العقبة - موضع بين منى ومكة منها ترمى جمرة العقبة - وكانوا ستة ، هم أسعد بن زُرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله ، فسألهم : «من أنتم؟» .

قالوا: نفر من الخزرج .

قال : «أمن موالي يهود؟» .

قالوا: نعم .

قال : «أفلا تجلسون أكلمكم؟» .

قالوا: بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وسألهم أن يعاونوه على تبليغ رسالة ربه عز وجل .

فأشرقت هذه الدعوة الكريمة في نفوسهم ، وسرت كلمات رسول الله ﷺ إلى قلوبهم ، فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : «والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه» .

وكان اليهود إذا وقع بينهم وبين أهل المدينة نفرة ، أو قتال توعدوهم ، وقالوا لهم : إن نبياً سيُبعث ، وقد أطلَّ زمانه ، سنتبعه ، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم .

لقد أراد الله تعالى الخير بهؤلاء النفر ، فأجابوا رسول الله ﷺ إلى ما دعاهم من الإسلام وقالوا له : لقد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا وواعدوه المقاتلة في الموسم المقبل .

لقد كانت هذه الفترة التي اتسمت بهذا اللقاء الكريم بداية ظهور الثمر لذلك الجهد الدؤوب ، والكفاح المستمر في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل .

إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل كانت هي الثمن لبروز هذا الثمر ، وتسويقه إلى خارج مكة ، والنهوض به إلى المدينة المنورة ، ولقد صدق من قال :

أَلَا بِالصَّبْرِ تَبْلُغُ مَا تُرِيدُ وَبِالتَّقْوَى يَلِينُ لَكَ الْحَدِيدُ
لقد كان هؤلاء نفر الستة نواة أصيلة ، وطيبة ، عملت لتوها بمهارة وحذق ، وإخلاص في مجال الدعوة في أرض أرادها الله عز وجل أن تكون الحوض العظيم لاستقرار هذا الدين وانتشاره في كل مكان ، وأثمرت جهود هذه النواة المباركة وآتت أكلها .

١٧ - بيعة العقبة الأولى :

قال ابن إسحاق : فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً : عشرة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، وكان منهم أسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان .
فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب .

أي بايعوه على بيعة مثل بيعة النساء ، التي بايع عليها النساء ثاني يوم فتح مكة على جبل الصفا ، بعدما فرغ من بيعة الرجال وقد ذكر الله تعالى بيعة النساء بقوله الكريم :

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٢] .

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : إني لمن النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ وقال : بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نزني ، ولا نسرق ، ولا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا ننتهب ، ولا نعصي ، فالجنة إن فعلنا ذلك ، فإن غشنا من ذلك شيئاً كان قضاء ذلك إلى الله . رواه البخاري (٣٨٩٣) في مناقب الأنصار ، ومسلم (١٧٠٩) في الحدود .

قال ابن إسحاق: فلما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمّى في المدينة: المقرئ ، والقارئ ، وكان منزله على أسعد بن زرارة .

لقد رجع هذا الوفد المبارك بعد هذا اللقاء الميمون . والبيعة الشريفة إلى المدينة بالتزام أكيد لما يتطلبه هذا الدين من شرائع وأحكام ، والتزامات ، وما يحملهم من تبعات ، رجعوا متضامنين ، ومعهم الداعية والمعلم على الالتزام والعمل ، والسلوك الشريف .

لقد انطلق مصعب بن عمير ومعه أولئك نفر يدعو أهل المدينة بحذق وإخلاص ، وقرأ عليهم القرآن ، وبلغهم أحكام الله عز وجل .

ولقد كان الرجل يدخل عليه ، وفي يده حربة يريد أن يقتله بها ، فما هو إلا أن يتلو عليه شيئاً من كتاب الله تعالى ، ويذكر له بعض أحكام الإسلام ، حتى يلقي حربته ، ويتخذ مجلسه مع من حوله مسلماً موحداً ، يتعلم القرآن وأحكام الإسلام .

قال الخضري في «نور اليقين»: وبينما مصعب في بستان مع أسعد بن زرارة ، إذ قال سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس ، لأسيد بن حضير - ابن عم سعد -:

ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفّهان ضعفاءنا لتزجرهما .

فقام لهما أسيد بحربته ، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومك ، وقد جاءك ، فاصدق الله فيه .

فلما وقف عليهما قال: ما جاء بكما ، تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة .

فقال مصعب: أو تجلس ، فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كفنتنا عنك ما تكره ، فجلس ، وقرأ عليه مصعب القرآن ، فاستحسن دين الإسلام ، وهدهاه الله له فتشهد ، ورجع إلى سعد ، فسأله عما فعل ، فقال:

والله ما رأيت بالرجلين بأساً ، فغضب سعد ، وقام لهما متغيّظاً ، ففعل معه مصعب ، كما فعل مع أسيد ، فهدهاه الله للإسلام ، ورجع إلى بني عبد الأشهل - وهم بطن من الأوس - فقال لهم : ما تعدونني فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا .

قال : كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا . فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه .

وانتشر الإسلام في دور يثرب ، حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام . نعم ، إنهم هم الدعاة المهرة ، علموا أن الدعوة ليست مهمة الرسل وحدهم ، بل هي مهمة كل مؤمن ، فلا مفرّ ، ولا مناص لكل مسلم من القيام بعبئها ، مهما كان شأنه ، فنصحوا للدين ، واستقاموا عليه ، فرضي الله عنهم وأرضاهم .

هذا ويحسن بك أن تعرف من هو مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه . هو أبو عبد الله القرشي العبدري ، ذو الشرف والنسب ، من خيار الصحابة ، والسابقين إلى الإسلام ، والمعذبين في سبيله ، كان أنعم فتى بمكة ، وأجود شبابها حلة وشأناً .

قال الواقدي : كان مصعب بن عمير فتى مكة شاباً وجمالاً ، وكان أبواه يحبانّه ، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب ، وكان أعطر أهل مكة ، وكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول : « ما رأيت بمكة أحسن لمةً ، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير » .

فلما دخل في الإسلام طوى كل تلك الرفاهية ، وذلك النعيم ، وانطلق في سبيل الدعوة من وراء رسول الله ﷺ يتجرّع كل شدّة ، ويستعذب كل عذاب ، هاجر إلى الحبشة ، ورجع إلى مكة ، ثم هاجر إلى المدينة معلماً ومقرئاً ، وداعياً إلى الله عز وجل ، حتى قضى نحبّه شهيداً في غزوة أحد ، وليس له مما يلبسه إلا ثوب واحد ، إذا غطوا به رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطوا رجله

خرج رأسه ، فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ ، فبكى للذي كان فيه من النعمة في صدر حياته ، ثم قال : «ضعوه مما يلي راسه ، واجعلوا على رجله شيئاً من الإذخر» . رواه الترمذي (٣٨٥٣) في المناقب .

هكذا قضى هذا البطل شهيداً ، وهكذا عاش مجاهداً فخر الرجال ، وزينة الدعاة ، ومثل المكافحين الشرفاء غذاه الرسول ﷺ بحكمته ، وصاغ براعته بمهاراته وألف قلبه على الحق بدعوته ، فرضي الله عنه وأرضاه .

١٨ - بيعة العقبة الثانية :

في هذه البيعة المباركة تظهر الكفاءات المتبادلة ، والمهارات المتعاونة على صعيد خدمة الدعوة ، ومدّها بالحيوية الجديدة ، والطاقات المؤثرة .

لقد أثمرت بيعة العقبة الأولى ، وآتت أكلها ظاهرة في هذه البيعة الثانية التي وضعت أطر التعاون والتنسيق بين الفرقاء على صعيد العمل الإيجابي البناء ، واستمع إلى ما صار ، ودار في أروقة هذا التفاوض المكشوفة التي ترعاها عناية السماء ، وتديرها حكمة رسول الله ، وتشدُّ أزرها أريحية الأنصار .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، ثم بعثنا الله تعالى فأتمرنا واجتمعنا ، فقلنا : إلى متى نذر رسول الله ﷺ يطوف في جبال مكة ، ويُخاف ، فرحل إليه منا سبعون رجلاً ، وقال كعب بن مالك : ثلاثة وسبعون وامرأتان فواعدناه شعب العقبة ، ليلة النفر الأول إذا هدأت الرُّجُل ، وأمرنا أن لا ننبه نائماً ، ولا ننتظر غائباً ، فخرجنا من رجل ، ورجلين ، حتى توافينا ، واجتمعنا ننتظر رسول الله ﷺ ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحبُّ أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له .

فلما جلس رسول الله ﷺ ، كان أوَّل من تكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج - وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار أوسهم وخزرجهم الخزرج - إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ،

فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ،
واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن
خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك .

وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن
فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن معرور رضي الله تعالى عنه : لو كان لنا في أنفسنا ما ننطق به
لقلناه ، ولكن نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهجنا دون رسول الله ، فخذ
يا رسول الله لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ،
ثم قال : «أشترط لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسي أن تمنعوني
مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم» .

وفي رواية قال : «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى
النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن
تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم
يثرب ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة» .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، فوالله الذي بعثك بالحق لنمنعنك
مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب ، وأهل
الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر . فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان ، فقال :
يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حباً - يعني اليهود - وإننا قاطعوها ، فهل
عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : «بل الدّم الدّم ، والهدم الهدم» أي ذمتي
ذمتكم ، وحرمتي حرمتكم . «أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ،
وأسالم من سالمتم» .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : فلما قمنا نبايع رسول الله ﷺ أخذ بيده
أسعد بن زرارة ، ثم قال : رويداً يا أهل يثرب ، فإننا لم نضرب إليه أكباد المطي

إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجهم اليوم مُفارقةً للعرب كافةً وقتل خياركم ، وأن تعصّكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على عضّ السيوف إذا مستكم ، وعلى قتل خياركم ، وعلى مفارقة العرب كافةً ، فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفةً ، فذروهم فهو أعذر لكم عند الله تعالى .

فقلنا: ابسط يدك يا أسعد بن زرارة ، فوالله لا نذر هذه البيعة ، ولا نستقيلها ، فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً ، يأخذ علينا شرطه ، ويعطينا على ذلك الجنة .

ثم قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، فلما تخيّرهم قال للنقباء: «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي» .

ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «ارفضوا إلى رحالكم» .

فقال له العباس بن عباد بن نفلة: والذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيا فنا .

فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» .

فرجعنا إلى مضاجعنا ، فمنا عيلها حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جلةٌ قريش ، فقالوا: يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله مامن حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ، ما كان من هذا شيء ، وما علمناه ، وقد صدقوا ، لم يعلموه ، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض .

ونفر الناس من منى ، فتحرّى القوم الخبر ، فوجدوا أن الأمر قد كان ، فخرجوا في طلبنا ، فأدركوا سعد بن عباداً بأذاخر ، والمنذر بن عمرو ، وكلاهما كان نقيباً ، فأما المنذر فأعجز القوم فهرب ، وأما سعد فأخذه ،

فربطوا يديه إلى عنقه ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ، ويجذبونه .

قال سعد : فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني ، إذا أقبل إليَّ رجل ممن كان معهم ، فقال : ويحك ، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ، ولا عهد ؟

قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لكل من جبير بن مطعم ، والحارث بن أمية تُجارهما ، وأمنعهم من أراد ظلمهم ببلادي .

قال : ويحك ، فاهتف باسمهما ، قال : فقلت ، فجاء مطعم بن عدي ، والحارث بن أمية ، فخلصاه من أيديهم .

هذه مواقف في هذه البيعة المباركة تتلج الصدر ، وأحداث ترفع الرأس ، تعبر عن عزائم ماضية ، ونوايا صافية .

سوف ينهض عليها مجتمع الإسلام ، وتقوم عليها دولته ، وترتفع من عليها رايته .

انظر «سبل الهدى والرشاد» ٢٠١/٣ ، و«نور اليقين» ص ٩٢ . و«فقه السيرة» ص ١٦٥ .

١٩ - فضل الأنصار والوصية بهم :

من حذق الرسول ﷺ وحسن خلقه ، وكمال عقله معرفته بصفات الرجال ، وطريقة تأليفهم ، وتسييرهم في ركاب الحق ، وتطبيعهم على ممارسة الخير ، والحماس له ، والتضحية في سبيله ، ومن هنا نجد النبي ﷺ يذكر الأنصار بالخير ، ويشني عليهم ويمجد خصالهم الكريمة ، ويعلن محبتهم والوصية بهم .

وقد قيل «لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل» .

والأنصار نخبة ممتازة ، نصر الله بهم الحق ، وأيد بهم الدين . وكان لهم الدور العظيم في الفداء والتضحية ، وحمل راية الإسلام ولذا قال فيهم رسول الله ﷺ : «أوصيكم بالأنصار فإنهم كُرشي وعَيْبتي ، وقد قضوا الذي

عليهم ، وبقي الذي لهم». رواه البخاري (٣٧٩٩) في مناقب الأنصار ،
ومسلم (٢٥١٠) في الفضائل .

ومعنى كرشى وعييتي: أي جماعتي ، وخاصتي ، الذين أثق بهم ،
واعتمدتهم في أموري .

قال الخطابي: ضرب مثلاً بالكرش ، لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون
به بقاؤه .

والعيبة وعاء معروف يحفظ الإنسان فيه ثيابه وفاخر متاعه ، ضربها مثلاً
لأنهم أهل سرّه ، وخفيّ أحواله .

وقال ﷺ: «اللهم اغفر للأنصار ، ولأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» .
رواه مسلم (٢٥٠٦) في الفضائل .

وقال ﷺ: «الأنصارُ لا يحبُّهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن
أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله» . رواه البخاري (٣٧٨٣) في مناقب
الأنصار .

وقال: «آيةُ الإيمان حبُّ الأنصار ، وآيةُ النفاق بغضُ الأنصار» رواه
البخاري (٣٧٨٤) في مناقب الأنصار .

وقال: «أبُها الناس ، إن الناس يكثرُونَ ، وتقلُّ الأنصارُ ، حتى يكونوا
كالملح في الطعام ، فمن ولي منكم أمراً يضُرُّ فيه أحداً أو ينفعه ، فليقبل من
محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم» رواه البخاري (٣٨٠٠) في مناقب الأنصار .

وقال: «لو أن الأنصار سلكوا وادياً ، أو شعباً لسلكت في وادي الأنصار ،
ولولا الهجرة لكنت امرأةً من الأنصار» رواه البخاري (٣٧٧٩) في مناقب
الأنصار .

وقال: «لم يؤمن بي من لم يعرف حقَّ الأنصار» . رواه البغوي .

وقال: «إن الله أمَدَّنِي بأشدَّ الناس ألسناً وأذرعاً: بابنِي قَيْلَةَ: الأوس
والخزرج» . رواه الطبراني في «الكبير» .

هذا الشاء العطر كان له أثر كبير في نفوس الأنصار ، ودور بليغ في حبهم للنبي ﷺ وحرصهم على اتباعه ، والدفاع عنه ، وتفضيله على كل شيء .
فرضي الله عنهم وأرضاهم ، وألهمنا حبهم واتباعهم .

٢٠ - فضل المدينة المنورة :

وكما كرم النبي ﷺ الأنصار ، وأثنى عليهم ، كرم المدينة المنورة وأثنى عليها باعتبارها دار هجرته ، وبلد أصحابه من الأنصار ، وهذا من كمال حكمته ﷺ ، وحسن أخلاقه ، فالمدينة أفضل بلاد الله عز وجل بعد بلده الحرام ، ومسجدها أفضل المساجد بعد بيت الله الحرام ، والبيان النبوي في فضلها ، وفضل سكانها كثير .

قال رسول الله ﷺ : «إن إبراهيم حَرَّمَ مكة ، ودعا لأهلها ، وإني حرمتُ المدينةَ كما حَرَّمَ إبراهيم مكة ، وإني دعوتُ في صاعها ومدّها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة» . رواه مسلم (١٣٦٠) في الحج .

وقال : «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة» .

رواه البخاري (١٨٨٥) في فضائل المدينة ، ومسلم (١٣٦٩) في الحج وقال : «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة ، أو أشد ، اللهم بارك لنا في صاعنا ، وفي مدنا ، وصححها لنا ، وانقل حُمّاها إلى الجُحفة» .

رواه البخاري (١٨٨٩) في فضائل المدينة ، ومسلم (١٣٧٦) في الحج .

وقال : «إني أحرّم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاها أو يُقتلَ صيدها» .

وقال : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعُها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ، ولا يثبتُ أحد على لأوائها وجَهدُها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة» .

رواه مسلم (١٣٦٣) في الحج .

لابتي المدينة : حرتيها ، والمدينة بين حرتين : شرقية وغربية ، والحرّة الأرض ذات الحجارة السود .

وعضاهاها: شجرها ، الواحد: عِصَاهُ ، وَعِصَاهُ ، وَعِصَةٌ. لأوائها: شدتها ، جهدها: مشقتها.

وقال ﷺ: «على أنقَاب المدينة ملائكة ، لا يدخلها الطَّاعُونَ ، ولا الدَّجَال» رواه البخاري (١٨٨٠) في فضائل المدينة ، ومسلم (١٣٧٩) في الحج.

وقال: «إن الإيمان ليأرُزُ إلى المدينة كما تأرُز الحية إلى حجرها».

رواه البخاري (١٨٧٦) في فضائل المدينة.

يأرُز: ينضم ويجتمع.

وقال: «المدينة حَرَمٌ ، فمن أحدث فيها حدثاً ، أو آوى مُحدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة عدْلٌ ولا صَرْفٌ» رواه مسلم (١٣٧١) في الحج.

الصرف: التوبة ، والعدل: الفدية ، وقيل: الفريضة والنافلة.

وقال: عن المدينة: «إنها طيبةٌ ، وإنها تنفي الخبث ، كما تنفي النار خبث الفضة». رواه البخاري (١٨٨٤) في فضائل المدينة ، ومسلم (١٣٨٤) في الحج.

وقال: «من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح بالماء». رواه البخاري (١٨٧٧) في فضائل المدينة ، ومسلم (١٣٨٧) في الحج.

وقال ﷺ في مسجده المبارك: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام». رواه البخاري (١١٩٠) في فضل الصلاة ، ومسلم (١٣٩٤) في الحج.

وقال في الروضة الشريفة: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة». رواه البخاري (١١٩٥) في فضل الصلاة ، ومسلم (١٣٩٠) في الحج.

٢١ - إذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة:

إن رسول الله ﷺ بما أوتي من الحكمة ، والبصر في الأمور يراعي كل

الظروف . ويخطط لكل المخارج التي تصل به وبأصحابه إلى شاطئ النجاح ،
وبرّ الفلاح .

قال الإمام الشامي في كتابه «سبل الهدى والرشاد» ٣/ ٢٢٤ :

روى ابن سعد عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، وعن عروة عن عائشة
رضي الله عنها ، قال :

لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه ، وقد جعل الله له مَنَعَةً
وقوماً أهل حَرْبٍ وَعُدَّةٍ وَنَجْدَةٍ ، وجعل البلاء يشتدُّ على المسلمين من
المشركين ، فضيَّقوا عليهم ، ونالوا منهم ، فشكا ذلك أصحاب رسول الله
ﷺ ، واستأذنوه في الهجرة ، فقال :

«قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج
إليها ، فجعل القوم يتجهزون ، ويترافقون ، ويتواسون ، ويخرجون ويخفون
ذلك ، فكان أوَّل من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد
الأسد ، ثم قدمها بعده عامر بن ربيعة ، ومعه امرأته ليلي بنت أبي حثمة ،
وهي أوَّل ظعينة قدمت المدينة .

ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً ، فنزلوا على الأنصار في دورهم ،
فأوَّوهم ونصروهم وآسوهم .

وروى ابن السمان عن علي رضي الله عنه قال : ما علمت أن أحداً من
المهاجرين هاجر إلا مُتَخَفِياً إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فإنه لما همَّ
بالهجرة تقلَّد سيفه . وتنكَّب قوسه ، وانتضى في يده أسهُماً ، واختصر عنزته
(عصاه) ومضى قِبَلَ الكعبة ، والملا من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعة
متمكناً ، ثم أتى المقام ، فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلقِ واحدة واحدة .
وقال لهم : شأهت الوجوه ، لا يُرْغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن يُثْكل
أمَّه ، أو يُؤتم ولده ، أو يُزمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي .

قال علي رضي الله عنه : فلم يتبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علَّمهم
ما أرشدهم ، ثم مضى لوجهه .

وهكذا تتابع المهاجرون إلى المدينة حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعلي ، أو معذب محبوس ، أو مريض أضعف عن الخروج .

إن تحمل أصحاب النبي ﷺ هذا العذاب المرّ في سبيل الله ، ثم الرضى بهذه الهجرة ، والصبر على الغربة لأكبر دليل على ما وصلت إليه نفوسهم من تشرب أنوار العقيدة ، وتقبل أعباء الدعوة بحزم وعزم .

وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الذي أخلص لله تعالى دينه ، فلم يبال بمال ولا نسب ، ولا بوالد ولا ولد في سبيل أن يسلم له دينه .

ولتكتمل الصورة ، وتجتمع الكلمة ، ويتوحد الصف أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، وجعل ذلك واجباً على كل قادر عليها ، ومن لم يهاجر بعد القدرة فقد عصى .

إن هذه مهارات تفوّق بها هؤلاء الصحب الكرام ، واتقنوا حقّ الولاء لربهم عز وجل ، وحقّ الفداء في سبيل بيعتهم ودعوتهم ، ورسول الله ﷺ في هذه المهارات والكفاءات قائدهم ومربيهم ومعلمهم ، فهم أمة واحدة كالجسد الواحد يشدّ بعضه بعضاً .

٢٢ - المؤامرة الكبرى :

روى ابن إسحاق وعبد الرزاق والإمام أحمد وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن ابن عباس ، وعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ، والبيهقي عن ابن إسحاق أن قريشاً لما رأت أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا جواراً ومنعة ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر النبي ﷺ حين خافوه .

فاجتمعوا لذلك واتعدوا ، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الرّحمة ، فاعترضهم

إبليس لعنه الله في هيئة شيخ جليل ، فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى ألا تعدموا منه رأياً ولا نصحاً. قالوا: أجل فادخل ، فدخل معهم ، وقد اجتمع فيها أشراف قريش:

فقال بعضهم لبعض: إن الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً. قال فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ، ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهيراً والنابعة ومن مضى من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي - لعنه الله -: لا والله ما هذا لكم برأي ، والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يشبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم:

نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ، ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبّروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلدأ نسيباً وسيطاً ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه

بأجمعهم فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم .

فقال الشيخ النجدي أخزاه الله : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي لا أرى غيره .

وتفرق القوم على ذلك وهم مُجمعون له . فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال : لا تَبِثْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه ، وأخبره بمكر القوم وإذن الله تعالى له بالخروج . فلما كانت العتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : «نم على فراشي وتسجّ بيزدي هذا الحَضْرَمِيّ الأخضر فَنَمَ فيه فإنه لن يَخْلُصَ إليك شيء تكرهه منهم» وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام .

فلما اجتمعوا قال أبو جهل بن هشام : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بُعِثْتُمْ من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن وإن أنتم لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بُعِثْتُمْ من بعد موتكم فجُعِلَتْ لكم نار تحرقون فيها .

قال ابن إسحاق : وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالوثاق والحبس والإثخان بالجرح ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ بسيوفهم ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ - من مكة - ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ - يحتالون في أمرك - ﴿ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ - يجازيهم جزاء مكرهم فسمى الجزاء مكرأ لأنه في مقابلته ، والمعنى أنهم احتالوا في إبطال أمر محمد ﷺ والله تعالى منعه منهم وأظهره وقواه ونصره فضاع فعلهم وظهر فعل الله عز وجل - ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

وروى الحاكم عن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال : إن أول من شَرَى نفسه ابتغاء رضوان الله عليّ ، وقال في ذلك شعراً :

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحَجْرِ
رَسُولُ إِلَهٍ خَافَ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ فَنَجَّاهُ ذُو الطُّوْلِ الْإِلَهَ مِنَ الْمَكْرِ
وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْغَارِ آمِنًا مَوْقَىً وَفِي حِفْظِ الْإِلَهِ وَفِي سِتْرِ
وَبِثُّ أُرَاعِيهِمْ وَمَا يَتَّهَمُونَنِي وَقَدْ وَطَنْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ

إن هذه المؤامرة لتدل بوضوح على ما كان يختزنه المشركون من حقد على الدعوة وأصحابها ، لاسيما رسول الله ﷺ وهكذا أهل الباطل في كل عصر ، ومصر ، لا يدخرون وسعاً في إلحاق الأذى بالإسلام والمسلمين .

وفيها الدليل أيضاً على مدى خبثهم وكيدهم ، ومهارتهم ، وتعاونهم مع الشيطان الرجيم في حبك أي مؤامرة خبيثة للإيقاع بالنبي ﷺ ودعوته وأصحابه .

لكن فيها إلى جانب ذلك الجهل الكبير ، والغباء المقنّع والعمى المطلق عن معرفة مدى سلطان الله عز وجل وقدرته ، ونفاذ إرادته فيما يحب سبحانه وتعالى ، لقد أبطل الله تعالى مكرهم ، وردّ كيدهم في نحورهم ، وكانت دائرة السوء عليهم .

والنبي ﷺ في نفسه أعظم منهم مهارة ورأياً وتديباً فلم تمنعه معرفته بعصمة الله له من مناورتهم بمثل أساليبهم فأنام علياً مكانه في فراشه ، وأوهمهم أنه لا يزال مقيماً فيه ، وخرج ، وهم وقوف على بابه تحوطه عناية الله تعالى ورعايته .

٢٣ - محصلة هذا الدور ونتائجه العظيمة .

لقد صبر رسول الله ﷺ ، وصابر على طول ثلاثة عشر عاماً يكافح بحكمة ، ويدعو بمهارة ورحمة ، ويبلغ دعوة ربه بصبر وأناة ، ويتخطى العوائق والعقبات واحدة بعد أخرى ، حتى خرج منها بحذق ومهارة ، وقد حقق الكثير من الإنجازات ، ورسخ الكثير من المبادئ والمعطيات ، واكتسب الكثير من الأنصار والمؤيدين ، وكسر معنويات الشرك والمشركين ، وهزم ما في نفوس المناهضين والمعاندين ، وبلغ بدعوته أسماع القاصيين والدانين ، وتحدث بدعوته الركبان والمسافرون ، ولم تعد خافية على الغريب والقريب .

لقد كان الوحي ينزل عليه ، وينير الدروب بين يديه ، لكنه ﷺ كان حكيماً ماهراً ، وخبيراً حاذقاً في مخاطبة الناس والتعامل معهم ، ونقل الدعوة إليهم ، والمجادلة لهم ، والظهور عليهم ، فأذعنوا له في نفوسهم ، وإن عادوه في ألسنتهم وعرفوا له المزايا ، وخصال الكمال ، التي قصرُوا دون بلوغها ، أو الدنو منه ، فما لاقوه في حوار ، ولا قابلوه في صراع إلا أيقنوا أنهم المهزومون ، وأنه المنصور عليهم .

وصدق - ﷺ حيث قال : « وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » .

رواه البخاري (٣٣٥) في التيمم ، ومسلم (٥٢١) في المساجد .

لقد حقق ﷺ نجاحات عظيمة في هذا الدور ، وأرسى صيغاً عدّة ، ومبادئ كثيرة ، كانت الركائز الهامة للدور الذي يليه ، والعمل الذي يعقبه ، ونذكر منها ما يلي :

أ - بناء عقيدة التوحيد :

لقد كان العرب يؤمنون بتوحيد الربوبية ، ويعلمون أن الله عز وجل وحده هو الخالق البارئ المصور المدبر ، المحيي المميت ، المعز المذل .

لقد كانوا يؤمنون بمثل قول الله تعالى .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ ﴾ .

وقد سجل الله عز وجل عليهم هذه المعرفة ، وانطقهم بهذا الاعتراف ووبخهم حين تحولوا عن مقتضياته ، فقال :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

لقد أكثر القرآن الحديث بين أيديهم عن مظاهر هذه القدرة ومعاني هذه الوجدانية ، وأوصاف الربوبية ، وأنواع التقدير والتدبير ، والتفرد بالخلق والإيجاد .

وكان ﷺ يناقشهم بفطنته وحكمته ، ويجادلهم بحذقه ومهارته في هذه الموضوعات كلها . ويتنزع منهم الاعترافات الصريحة ، والإقرارات الواضحة بتوحيد الربوبية ، وإفراد الخالق بالعظمة والسلطان .

لقد أشرقت هذه العقيدة النيرة في نفوس المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ ، وملأت عليهم جوانب عقولهم ونفوسهم . بحيث رأوها كالضيء في وسط النهار ، وقاموا بمنتهى الدور الذي تفرضه عليهم هذه العقيدة . من توحيد الألوهية ، والانصياع لله تعالى بالإذعان والطاعة ، والاستسلام للأمر والنهي ، والتقيد الكامل بالمنهجية الدينية ، فبايعوا عليها رسول الله ﷺ ، والتزموها بكل صدق ووفاء .

أما غير المؤمنين ممن كانوا يعرفون توحيد الربوبية ، ويقرون به ، فقد خالفوا مقتضاه من إفراد الله عز وجل بالعبودية ، واستباحوا معه عبادة الأوثان والأصنام ، واعتقدوا - زوراً - أنها تضر وتنفع ، وتشفع وترفع . فناقضوا بسلوكهم هذا أنفسهم ، وخالفوا قناعتهم بأن الله عز وجل وحده هو الخالق المدبر .

فردهم الله عز وجل إلى الحق ، وأقام عليهم الحجة أن الخالق الرازق المقدر المدبر هو الذي ينبغي وحده أن يعبد ، وأن يفرد بالطاعة والامتنال ، ونفى جواز المساواة بين الخالق والمخلوق في استحقاق العبادة ، فقال عز وجل ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

وفي هذه العقيدة كان رسول الله ﷺ يناقشهم بمنهجية وقيم عليهم الحجة بحكمة وروية ، وأن توحيد الربوبية يقتضي توحيد الألوهية فما انتهى هذا الدور

من سيرته الكريمة ، ودعوته الرشيدة حتى استقام التوحيد بنوعيه على أشده ، واستوى على سوقه ، ولم يبق هنا وهناك إلا المعاند الذي لم يعد أمره مبنياً على الجهل ، بقدر ما هو قائم على الصلف والعناد .

ب - إقامة صرح أركان العقيدة الإسلامية وبلورة معالمها من الإيمان بالملائكة ، والكتب والرسول . واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى .

لقد عمل رسول الله ﷺ جاهداً بوحى القرآن الكريم على ترسيخ هذه المبادئ ، وتوضيح معالمها بالمنهجية الحقة ، والواقع الصحيح .

فلفت أنظارهم إلى رحمة الله تعالى بعباده حيث لم يتركهم بغير توجيه ، ولم يحرمهم من أنوار هدايته ، فأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، فأقام الحجة ، وأثار المحجّة ، وترك الناس على البيضاء النقية ليلها كنهارها .

وذكرهم بأن الملائكة الكرام الذين كانوا يذكرونهم ، ويؤمنون بهم ليسوا سوى خلق لله تعالى كرمهم بالطاعة ، واختارهم للعبادة ، وسخرهم لكثير من الوظائف والأعمال ، ونفى عنهم ما كانوا يعتقدونه فيهم من أنهم بنات الله تعالى ، وأنهم يستحقون العبادة ، فوبخهم الله عز وجل على هذا ، وقال : ﴿ وَجَعَلُوا أَمْلًا لِّكَ الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمَنِ إِنَّنَا آسِهُدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّ شُهَدَاؤُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] .

وقال : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَاكَ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ - ٢٩] .

وجادلهم بقوة في وجود الدار الآخرة ، وأنها حق بعد فناء هذه الدنيا . وأنه لا بدّ منها ليستقيم العدل على نصابه ويجازى كل إنسان بما هو أهل له على سلوكياته وأعماله ، وقد أنكروا الآخرة بشدة ، واستبعدوها بقوة ، وسخروا

من دعواها ، وتفننوا في نفيها ، وقالوا : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٣٨] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَكُمْ ﴾ [سبا : ٣] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مُمْرِقٌ لِنَفْسِهِ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبا : ٧] أفترى على الله كذباً أم به حجة ؟

قال الله تعالى راداً عليهم : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ [سبا : ٧ - ٨] .

وكان رسول الله ﷺ بحنكته ، وحذقه ، وصراحته يجاهر الناس بهذه العقائد ، ويقرأ عليهم هذه النصوص ، وما كانت تلين قناته بإنكارهم ، ولا يطيش رأيه بهزئهم ، ولا يكف عن أمره بوعيدهم ، ولا تعتريه هزة بضحكهم .

بل ظل ثابتاً صامداً ، يصرخ بالحق ، ويجهر بالتحدي .

جاء مرة أبي بن خلف ، وفي يده عظم رميم ، وهو يفتنه ويذروه في الهواء ، ويقول : يا محمد ، أترعم أن الله يبعث هذا ؟

قال محمد - ﷺ - : « نعم ، يملكك الله ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . « تفسير البشائر » ١٥٦ / ٣ .

وقد سجل القرآن الكريم هذا الحوار ، وأعلن عن وجه الحق الذي قضاه الرب عز وجل ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ٧٧] وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿ ٧٨ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ ٧٩ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا

فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

لقد سمع العرب والعجم هذه الآيات والنصوص من رسول الله ﷺ ،
فعملت في نفوسهم عمل السحر ، وغيرت معالم ما كان سائداً من الخرافات
والمغالطات ، وتبناها المؤمنون ، وتفاعلت في قلوبهم وأثمرت في
سلوكهم ، وأتوا من وراء القناعة بها بالأعاجيب ، فمن قائل منهم يقول ،
والسيوف تعضه ، وتزهق روحه : «فزت ورب الكعبة» . نعم فاز بالجنة .

ومن قائل وهو يلفظ أنفاسه في سبيل الله يقول : «والله إنني لأجد ريح الجنة
من وراء أحد» .

ويقول آخر : «لقد طلبت الشهادة في أكثر من مكان ، فلم يقدر لي إلا أن
أموت على فراشي ، فلا نامت أعين الجبناء» .

هذه مهارات أتقنها أربابها ، ومواقف حذقها أصحابها .

وكان لرسول الله ﷺ الفضل في غرسها ، ورعايتها ، وتنميتها ، وظل من
أراد الله عمامه ، واتبع هواه سادراً في غيه ، يقاوم الحق ، ويقاتل الدين ، ويقف
في صف أعدائه مهما وضع النهار ، وتجلّى وجه الحق .

وزيادة في التمكين وإضافة في الترسيخ والتثبيت أعلن لهم المصطفى ﷺ أن
كل شيء في هذا الوجود - كان أو سيكون - إنما هو بقضاء وقدر من رب
الأرباب عز وجل ، وقرأ عليهم الآيات التي تحمل هذه العقيدة التي تجعل
المؤمن شجاعاً جريئاً ليس هيباً من شيء ، ولا وجلًا منه .

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١] .

﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا ﴾ [الطلاق: ٣] .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وأضاف رسول الله ﷺ إلى هذه النصوص من كتاب الله تعالى كلاماً بليغاً أغنى هذا الموضوع بالقناعات. وزاده رسوخاً في النفوس ، ووضوحاً في العقول ، فقال: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ ، أَوِ الْكَيْسُ وَالْعَجْزُ» رواه مسلم (٢٦٥٥) في القدر.

وقال: «وإن أصابك شيء ، فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان». رواه مسلم (٢٦٦٤) في القدر.

وقال: «واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف». رواه الترمذي (٢٥١٦) في صفة القيامة.

وقال: «واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك». رواه أحمد (٢٨٠٤).

وقال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» رواه مسلم (٢٦٥٣) في القدر.

وقال: «لن يعجل الله شيئاً قبل حله ، أو يؤخر شيئاً عن حله». رواه مسلم (٢٦٦٣) في القدر.

هذه العقيدة بأبعادها ، من الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته إلى الإيمان بقضائه وقدره ، وما تحمله في ثناياها من تفصيلات ، وتفرعات ، وما تشير

إليه من مقاصد ، وأهداف وغايات ينبغي أن تحلّ منا في المحلّ الأسمى ،
والمكان الأعلى .

وأن نوليها بمتهى الحذق والمهارة كل ما تتطلبه من صدق وإخلاص ،
ووعي وفهم ، وما تستلزمه من جدّ في البلاغ والدعوة ، والنشر ،
والممارسة ، بحيث تتجسد في حياتنا سلوكاً وعملاً ، والتزاماً ، ودعوة ،
وتضحية ، وبذلاً وفداء ، قولاً وعملاً ، ونعلن بصدق وقناعة ما أعلنه
رسول الله ﷺ بصدق وجرأة : «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في
يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى أبلغه ، أو أهلك دونه» .

ج - التربية الإيمانية العميقة : فقد اجتهد النبي ﷺ في رعاية العقيدة في
نفوس أصحابه ، والعمل على تنميتها وذلك بلقائهم الدائم ، وتعهدهم
بالموعظة ، والنصح ، وترغيبهم بالذكر وقراءة القرآن ، والتفكير في رحاب
هذا الكون الواسع وتدبير الله تعالى له ، وسرد القصص التي تحمل العبر ،
وذكر الأخبار التي تنطق بالغطات ، وتشير إلى العواقب والنتائج ، وتدعو إلى
الصبر والثبات .

ولقد أكثر القرآن المكي في هذا الدور من هذا النموذج من التوجيه والتربية .

وكان رسول الله ﷺ يقرأ على أصحابه قصص الأنبياء وأخبار الغابرين ،
ويضع أصابعهم على المهم والمفيد منها ، حتى تترسخ في نفوسهم ، وتنمو
في ضمائرهم مواطن العبر والغطات ، وتشكل فيهم القناعات الراسخة ،
والتطلعات الدافعة .

وقد تم لرسول الله ﷺ ذلك فرأى في أصحابه النماذج الحيّة إيماناً ،
وقناعة ، وتعبداً ، والتزاماً ، لقد صمدوا أمام كل الصعاب ، وتحملوا في
سبيل ذلك كل ألوان الأذى ، وعلموا تماماً أن الآخرة خير من الأولى ، وأن
الصبر هنا أسهل من الصبر هناك ، وأن من طلب الجنة كان عليه أن يدفع
الثلث ، ومن يخطب الحسنة يضرب على البذل .

د- التربية الأخلاقية الرفيعة :

لقد كان رسول الله ﷺ مؤمناً بقيمة الخلق الفاضل ، وأثره في الحياة ، وقيمته في الدعوة ، ومنزلته في الدين ، ولذلك أعلن بقوله الكريم : «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ» . رواه مالك في «الموطأ» (٩) .

وفي رواية : « إِنَّمَا مَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ » .

رواه أحمد ٣٨١ / ٢ .

وكان ﷺ مع إيمانه بقيمة الخلق الفاضل ملتزماً به ، متصفاً بمحاسنه ، متجنباً كل خلق ذميم .

وهو القائل ﷺ : « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » رواه الترمذي (٢٠٠٥) في البر .

والقائل : « ما من شيء أثقلُ في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء » . رواه الترمذي (٢٠٠٣) في البر .

لقد شاهد أصحاب النبي ﷺ نبينهم ، وعانوا فيه هذه الأخلاق الرفيعة ، فأخذوها عنه ، وحاكوه فيها ، وعملت في نفوسهم وسلوكهم كل ما تقتضيه من صدق واستقامة والتزام ، ولم يقصر رسول الله ﷺ في تحديثهم عن كثير من الأخلاق الفاضلة ، وما تفيده في الحياة وبعد الممات ، وكان حاذقاً ماهراً في عرضه هذه القيم الرفيعة على أصحابه ، وتطبيعهم عليها وتأديبهم بها ، واستمع إليه يقول ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وما يزال الرَّجُلُ يَصْدُقُ ، ويتحرى الصِّدْقَ حتى يُكْتَبَ عند الله صديقاً ، وإيّاكم والكذب ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وما يزال الرَّجُلُ يَكْذِبُ ، ويتحرى الكذب ، حتى يُكْتَبَ عند الله كذاباً » . رواه مسلم (٢٦٠٧) في البر ، رقم (١٠٥) .

وحدثهم ﷺ عن كثير من مفردات الأخلاق العظيمة ودعاهم إليها ، وكانوا - عليهم الرضوان - أطوع إليه من بنانه في التزام ما يحدثهم به ، ويدعوهم إليه .

لقد قال لهم: «يَسْرُوا ولا تَعْسَرُوا ، وبشروا ولا تنفروا» رواه البخاري (٦٩) في العلم ، ومسلم (١٧٣٤) في الجهاد.

وقال: «إنما بعثتم مُيسِّرينَ ، ولم تبعثوا مُعسِّرينَ». رواه البخاري (٢٢٠) في الطهارة.

وقال: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه» رواه مسلم (٢٥٩٤) في البر.

وقال: «إن الله رفيق يحبُّ الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه» رواه مسلم (٢٥٩٣) في البر.

وقال لرجل من أصحابه: «إن فيك خصلتين يُحبُّهما الله: الحلمُ والأناة» رواه مسلم (٢٥) في الإيمان.

وقال له بعض أصحابه: أوصني يا رسولَ الله ، فقال له: «لا تَغْضَبْ».

فردَّدها مراراً ، قال: «لا تغضب» رواه البخاري (٦١١٦) في الأدب ، وقال ﷺ: «ليس الشديدُ بالصَّرْعَةِ ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند الغضب». رواه البخاري (٦١١٤) في الأدب ، ومسلم (٢٦٠٩) في البر.

وقال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ». رواه مسلم (٢٥٦٣) في البر.

وقال: «بَحْسَبِ امرئٍ من الشرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاه المسلم ، كُلُّ المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه». رواه مسلم (٢٥٦٤) في البر.

وكان عليه الصلاة والسلام يقرأ على أصحابه من القرآن الذي كان ينزل عليه في مكة ، يذكر محاسن الأخلاق ، ويدعو إلى التمسك بها.

فقرأ عليهم من سورة الإسراء قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَنَّا أَفٍّ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ٢٣ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

وقوله: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَمُوا وَالْمَسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّرَ تَبْدِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّا قَتَلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيرًا﴾ [٣١] وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣١ - ٣٣].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّا الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُولًا﴾ [٣٤] وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [٣٥] وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْهُولًا﴾ [٣٦] وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [٣٧] كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٤ - ٣٨].

وقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ من سورة الفرقان ، وهي سورة مكية قول الله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [٦٧] وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٧ - ٦٨].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقرأ أيضاً من سورة النحل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقرأ من سورة الأعراف قول الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

هذه النماذج الرائعة من الأخلاق عاشها رسول الله ﷺ وعاشها ، وربى أصحابه بمهارة وحذق عليها ، حتى غدت في الحياة الإسلامية قانوناً عاماً ، لا يتجنى عليه أحد من المسلمين ، وأصبح أصحاب محمد بهذه الأخلاق الفاضلة كالشامة بين الناس ، يعرفون بدينهم أينما حلوا ، وأينما ارتحلوا ، وكان من ثمرة هذه الأخلاق أن أحبهم القاصي والداني ، وأشار الناس إليهم بالبنان ، رغم حقد الحاقدين ، وعداوة المارقين .

هذه التربية الأخلاقية الفاضلة هي عنوان الحضارة الراقية ، وشعار الأمة السامية ، ودليل فلاحها ونجاحها ، ودوام عزها ورقبها ، وقد صدق من قال :
إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا
بهذه القيم الفاضلة - التي كانت حصيلة هذا الدور - كَوّن رسول الله ﷺ ، على عين الله عز وجل تلك النخبة الفاضلة ، وأسس الجماعة الأولى ، التي أضحت أهلاً للدور العظيم الذي يتمثل بحمل المسؤولية ، في إقامة المجتمع الفاضل والدولة الراشدة ، والأمة الراقية .

ويظهر في هذا الدور قلّة الأحكام التشريعية ، التي تعالج قضايا الاقتصاد والسياسة ، والاجتماع وغيرها .

* * *

الدور الثالث

مهاراته ﷺ من هجرته إلى فتح مكة :

١ - الهجرة الشريفة :

بعد تلك المؤامرة الدنيئة على شخص رسول الله الكريم ، وذلك الرصد الهائل لحركاته ، والتصميم على قتله جاء الأمر من ربه بضرورة الخروج إلى دار هجرته - المدينة المنورة والالحاق بأصحابه .

ولو تدبرت أحداث ذلك الخروج ، وخطوات تلك الهجرة لرأيت مظاهر الحذق والمهارة ، وفنون التدبير والتخطيط في سبيل الوصول بسلامة إلى المكان المقصود .

فقد كان ﷺ ينطلق في سلوكياته من بشرية ذكية ماهرة ، لا يدع وسيلة مادية ، ولا معنوية تهدد العقل ، وتصونه من الزلل إلا اعتدَّ بها ، واعتمد عليها ، واستغلها على أحسن وجوها ، فكان بذلك الاحتياط ، واتخاذ الوسائل المعلم والمربي ، والمشرع . فإذا انتهى من كل هذه الوسائل عاد قلبه مرتبطاً بربه ، معتمداً في توفيقه وحمايته ورعايته عليه ، حتى يعلم العباد ضرورة الربط بين أسباب النجاح كلها ، فلا يصح التفريط بالوسائل ، ولا الغفلة عن الفاعل الحقيقي ، ألا وهو الله عز وجل ، لذلك أعلن لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وهما مختبئان في الغار ، والخطر يحيط بهما قائلاً : « ما ظنُّكَ باثنين الله ثالثهما؟ » .

وسوف ترى مما نقله لك عن علماء السير تلك المهارات فيما وضعه ، ووظفه ، واتخذ من خطط ، واحتياطات ، وترتيبات للنجاح في هذه الهجرة الرائدة ، والوصول بها إلى برّ الأمان ، وشطآن السلامة .

هذا ، ولا نحب أن نغفل دور الصديق ، وأسرتة في هذا الحدث الجلل ، فقد اشتركوا كلهم بمنتهى الحذق والمهارة في هذه الهجرة ، وقام كل واحد منهم بدوره على أحسن حال ، وأبو بكر رضي الله عنه ، وأسرتة من الأسر الرائدة في الجد والتضحية ، وأداء الأدوار بحذق ومهارة ، وسوف ترى ذلك فيما نقله لك عن علماء السير الثقات رحمهم الله تعالى .

روى البخاري (٣٩٠٥) في المغازي أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار ، بكرة وعشية ، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة ، وهو سيّد القارة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي . قال ابن الدغنة : فإنّ مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، إنّك تكسب المعدوم ، وتصل الرّحم ، وتحمل الكلّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحقّ ، فأنا لك جارّ ، ارجع واعبد ربك ببلدك . فرجع ، وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرّحم ، ويحمل الكلّ ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحقّ . فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مرّ أبا بكر فليعبد ربّه في داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإنّا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربّه في داره ، ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثمّ بدا لأبي بكر ، فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلي فيه ، ويقرأ القرآن ، فينقذ عليه نساء المشركين وأبناؤهم ، وهم

يعجبون منه ويَنظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكَاءً ، لا يملك عينه إذا قرأ القرآن ، وأفرغ ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدَّغْنَةِ فقدم عليهم ، فقالوا: إِنَّا كُنَّا أَجْرْنَا أبا بكرٍ بجوارِك ، على أن يعبد ربَّه في داره ، فقد جاوزَ ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصَّلاة والقراءة فيه ، وإِنَّا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهى ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربَّه في داره فعل ، وإن أبى إلّا أن يعلن بذلك ، فسله أن يرُدَّ إليك ذمَّتكَ ، فإنَّا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرِّين لأبي بكرٍ الاستعلان .

قالت عائشةُ: فاتى ابنُ الدَّغْنَةِ إلى أبي بكرٍ فقال: قد علمتَ الَّذي عاقدتُ لك عليه ، فإنما أن تقتصر على ذلك ، وإنما أن ترجع إليَّ ذمَّتِي ، فإنِّي لا أحبُّ أن تسمع العربُ أنني أخفرتُ في رجلٍ عقدتُ له . فقال أبو بكرٍ: فإنِّي أردُّ إليك جوارك ، وأرضى بجوارِ الله عزَّ وجلَّ ، والنَّبِيُّ ﷺ يومئذٍ بمكة ، فقال النَّبِيُّ ﷺ للمسلمين: (إنِّي أريتُ دار هجرتكم ، ذات نخلٍ بين لابتَيْن) وهما الحِرتان ، فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجعَ عامَّة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهَّز أبو بكرٍ قبل المدينة ، فقال له رسولُ الله ﷺ: (على رسلك ، فإنِّي أرجو أن يؤذَن لي) . فقال أبو بكرٍ: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: (نعم) فحبس أبو بكرٍ نفسه على رسولِ الله ﷺ ليصحبهُ ، وعلفَ راحلتين كانتا عنده ورقَ السَّمُر ، وهو الخَبْطُ ، أربعة أشهرٍ .

قال ابنُ شهاب: قال عروة: قالت عائشةُ: فبينما نحنُ يوماً جُلوسٌ في بيت أبي بكرٍ في نحر الظَّهيرة ، قال قائلٌ لأبي بكرٍ: هذا رسولُ الله ﷺ متقنعا ، في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكرٍ: فداءٌ له أبي وأُمِّي ، والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلّا أمرٌ .

قالت: فجاء رسولُ الله ﷺ فاستأذَن ، فأذِنَ له فدخل ، فقال النَّبِيُّ ﷺ لأبي بكرٍ: «أخرج من عندك» .

فقال أبو بكرٍ: إِنَّمَا هُم أَهْلُكَ ، بأبي أنت يا رسولَ الله ، قال: «فإنِّي قد أذِن لي في الخروج» .

فقال أبو بكر: الصَّحَابَةُ بأبي أنت يا رسول الله؟
قال رسول الله ﷺ: (نعم).

قال أبو بكر: فخذ - بأبي أنت يا رسول الله - إحدى راحلتي هاتين ، قال رسول الله ﷺ: (بالتَّمَن).

قالت عائشة: فجهَّزناهما أحثَّ الجِهَازِ ، وصنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ ، ففَقَطَعْتُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا ، فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سُمِّيَتِ ذَاتُ النِّطَاقِينَ ، قالت ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بَغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ، فَكُنَّا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ، ثِقَفٌ لَقْنٌ ، فَيَدْلُجُ مِنْ عِنْدَهُمَا بِسَحَرٍ ، فَيَصْبِحُ مَعَ قَرِيشٍ بِمَكَّةَ كِبَائِتٍ ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يَكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فَهيرةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مَنحَةً مِنْ غَنَمٍ ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ ، فَيَبِيتَانِ فِي رَسَلٍ ، وَهُوَ لَبَنٌ مَنَحْتُهُمَا وَرَضِيفُهُمَا ، حَتَّى يَنْعَقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فَهيرةَ بَغْلَسٍ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّلِيلِ ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ ، هَادِيًا خَرَّيْتًا ، وَالْخَرَّيْتُ الْمَاهِرُ بِالْهَدَايَةِ ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كَفَّارِ قَرِيشٍ ، فَأَمَنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ ، فَأَتَاهُمَا بِرَاحِلَتَيْهِمَا صَبَحَ ثَلَاثَ ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فَهيرةَ ، وَالِدَّلِيلُ ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَا حِلِّ .

القارة: قبيلة مشهورة ، كانوا حلفاء بني زهرة من قريش . فينقذف عليه : يتدافعون عليه ويزدحمون .

الخبط: ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشجر .

نحر الظهيرة: أول الزوال عند شدة الحر .

متقنعا: مغطياً رأسه .

ثقف : حاذق فطن .

لقن : سريع الفهم .

فیدلج : يخرج وقت السحر منصرفاً إلى مكة .

منحة : عطية من غنم .

فيريحها : يأتي بها .

منحتهما : شاتهما .

رضيفهما : هو اللبن المرضوف أي الذي وضعت فيه الحجارة المحماة لينعقد وتزول وخامته .

قد غمس حلفاً : أي كان حليفاً ، وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيديهم في دم ، أو شيء فيه تلويث فيكون ذلك تأكيداً للحلف .

قالت أسماء : « وخرج أبو بكر بماله خمسة آلاف درهم » قال البلاذري : « وكان مال أبي بكر يوم أسلم أربعين ألف درهم ، فخرج إلى المدينة للهجرة وماله خمسة آلاف أو أربعة ، فبعث ابنه عبد الله فحملها إلى الغار » . قالت : « فدخل علينا جدِّي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال : « والله إنني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه » قالت : « قلت : كلاً يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً » قالت : « فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت ، كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه . فقال : لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك » .

وفي حديث عند البيهقي أن أبا بكر رضي الله عنه لما خرج هو ورسول الله ﷺ إلى الغار ، جعل أبو بكر يمشي مرة أمام النبي ﷺ ، ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله ، فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : « يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لآمن عليك ، فلما انتهينا إلى فم الغار قال أبو بكر : والذي بعثك

بالحق لا تَدْخُلُهُ حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك». فدخله فجعل يلمس بيده ، فجعل كلما دَخَلَ جُحراً قام إلى ثوبه فشَقَّهُ ثم أَلْقَمَهُ الجُحْر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع:

وفي حديث أنس عند أبي نعيم أن رسول الله ﷺ لما أصبح قال لأبي بكر «أين ثوبك؟» فأخبره بالذي صنع فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «اللهم اجعلْ أبا بكر معي في درجتي في الجنة». فأوحى الله إليه: «قد استجاب الله تعالى لك».

وروى ابن سعد وأبو نعيم والبيهقي وابن عساكر عن أبي مصعب المكي قال: بعث الله العنكبوت فنسجت ما بينهما فسترت وجه رسول الله ﷺ ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا في فم الغار ، وأقبل فتیان قریش من كل بطن بعصيتهم وهراويهم وسيوفهم ، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على أربعين ذراعاً ، جعل بعضهم ينظر في الغار فلم يرَ إلا حمامتين وحشيتين بفم الغار ، فرجع إلى أصحابه ، فقالوا له: مالك؟ قال: رأيتُ حمامتين وحشيتين فعرفتُ أنه ليس فيه ويرحم الله الشرف البوصيري حيث قال:

أقسمتُ بالقمر المنشقَّ أنَّ له من قلبه نسبةً مبرورة القسم
وما حوى الغارُ من خيرٍ ومن كرم وكلُّ طرفٍ من الكُفَّار عنه عم
فالصدِّق في الغار والصدِّيق لم يردا وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنُّوا الحمام وظنُّوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدُّروع وعن عالٍ من الأطم

وروى أبو نعيم من طريق إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق قال: «بلغني أن رسول الله ﷺ لما خرج مُهاجراً قال: «الحمد لله الذي خلَقني ولم أكُ شيئاً ، اللهم أعني على هَوَل الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام ، اللهم اصحبني في سفري واخلفني في أهلي وبارك لي فيما رزقتني ، ولك فذلِّلني ، وعلى صالح خلقي فقوِّمني ، وإلى ربِّي فحبِّبني ، وإلى الناس فلا تكلمني ، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربِّي ، أعوذُ بوجهك الكريم الذي

أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فَكَشَفَتْ بِهِ الظُّلُمَاتِ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، أَنْ يَحِلَّ بِي غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ ، لَكَ الْعُتْبَى خَيْرَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» .

وروى الإمام أحمد والشيخان ويعقوب بن سفيان عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن أباه قال لأبي بكر رضي الله عنه : كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ ؟ قال : خرجنا فأدْلَجْنَا فأحيينا يومنا وليلتنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة ، فضربت ببصري هل أرى ظلاً ناوي إليه فإذا أنا بصخرة فأهويتُ إليها فإذا بقيَّة ظلِّها فسويته لرسول الله ﷺ وفرشت له فروة ثم قلت : اضطجع يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك ، ثم خرجت هل أرى أحداً من الطُّلب فإذا براع مقبل بغنمه يريد من الصخرة ما أردنا : فلقيته فقلت له : لمن أنت يا غلام؟ فقال : لرجل من أهل مكة ، فسَمَّاهُ فعرفته فقلت : هل في غنمك من لبن؟ قال : نعم . قلتُ : هل أنت حالبٌ لي؟ قال : نعم . فأمرته فاعتقل شاة منها . فقلت : انفضض الضرع من التراب والقذى ، فحلب لي في قَعْبٍ معه كُثْبَةٌ من لبن ومعي إداوة أرتوي فيها للنبي ﷺ يشرب منها ويتوضأ ، على فمها خِرْقَةٌ ، فأتيتُ النبي ﷺ ، وكرهتُ أن أوقظه من نومه ، فوقفت حتى استيقظ ، فصببتُ على اللبن من الماء حتى بردَ أسفله ، فقلت : يا رسول الله اشرب من هذا اللبن . فشرب حتى رضيت . ثم قال : «ألم يَأْنِ الرحيل؟» قلت : بلى . قال : فارتحلنا بعد ما زالت الشمس .

قال ابن إسحاق : وأعلم رسول الله ﷺ علماً بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته . انظر «سبل الهدى والرشاد ٣ / ٢٤٤» .

قال ابن شهاب : وأخبرني عبدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ المَدَلَجِيُّ ، وهو ابنُ أَخِي سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ بْنِ جَعْشَمٍ : أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ : أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بْنَ جَعْشَمٍ يَقُولُ :

جاءنا رسلُ كُفَّارٍ فُريشٍ ، يجعلون في رسولِ الله ﷺ وأبي بكرٍ ، ديةً كلِّ واحدٍ منهما ، لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالسٌ في مجلسٍ من مجالسِ قومي بني مُدَلَجٍ ، أقبلَ رجلٌ منهم ، حتَّى قام علينا ونحنُ جلوسٌ ، فقال يا سراقَةَ : إني قد رأيتُ آنفاً أسودةً بالسَّاحلِ ، أراها محمّداً وأصحابه ، قال سراقَةُ : فعرفتُ أنّهم هم ، فقلتُ له : إنّهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيتَ فلاناً وفلاناً ، انطلقوا بأعيننا ، ثمَّ لبثتُ في المجلسِ ساعةً ، ثمَّ قمْتُ فدخلتُ ، فأمرتُ جاريتي أن تخرجَ بفرسي وهي من وراء أكمةٍ ، فتحبسها عليّ ، وأخذتُ رمحي ، فخرجتُ به من ظهرِ البيتِ ، فحططتُ بزجّه الأرض ، وخفضتُ عاليه ، حتَّى أتيتُ فرسي فركبتها ، فرفعتها تقربُ بي ، حتَّى دنوتُ منهم ، فعثرتُ بي فرسي ، فخررتُ عنها ، فقمْتُ فأهويتُ يدي إلى كنانتي ، فاستخرجتُ منها الأزام فاستقسمتُ بها : أضُرُّهم أم لا ، فخرج الذي أكره ، فركبتُ فرسي وعصيتُ الأزام ، تقربُ بي حتَّى إذا سمعتُ قراءة رسولِ الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكرٍ يكثر الالتفات ، ساختُ يدا فرسي في الأرض ، حتَّى بلغتا الرُكبتين ، فخررتُ عنها ، ثمَّ زجرتها فنهضت ، فلم تكد تُخرج يديها ، فلمَّا استوت قائمةً ، إذا لأثر يديها عثانٌ ساطعٌ في السماء مثلُ الدُّخان ، فاستقسمتُ بالأزام ، فخرج الذي أكره ، فناديتُهم بالأمان فوقفوا ، فركبتُ فرسي حتَّى جئتهم ، ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبس عنهم ، أن سيظهر أمرُ رسولِ الله ﷺ . فقلتُ له إن قومَكَ قد جعلوا فيكَ الدِّية ، وأخبرتهم أخبار ما يريدُ النَّاسُ بهم ، وعرضتُ عليهم الزَّادَ والمتاع ، فلم يرزاني ولم يسألاني ، إلَّا أن قال : (أخفِ عَنَّا) فسألته أن يكتبَ لي كتابَ أَمْنٍ ، فأمرَ عامرَ بنَ فهيرةَ فكتبَ في رُقعةٍ من أديمٍ ، ثمَّ مضى رسولُ الله ﷺ . رواه البخاري (٣٩٠٦) في مناقب الأنصار .

٢ - قصة أم معبد الخزاعية :

أم معبد اسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية ، كُنت بابتها معبد ، وكان زوجها أكثم بن أبي الجون الخزاعي .

ذكر قصتها ابن الأثير في «أسد الغابة» ٤٥١ / ١ ، عند ذكر أخيها حُبَيْش بن خالد .

وقد مرَّ عليها النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه في طريقهما إلى المدينة وقت الهجرة ، وكان لها معهما شأن يذكر .

وقد وصفت أم معبد رسول الله ﷺ وصفاً دقيقاً رائعاً يدل على مدى ما زوّده الله تعالى به من كمالات الخلق والخلق ، لهذا عرّجنا على هذه القصة ، وأدرجناها في ثانياً بحثنا ، ونحن نتلمس مهارات هذا النبي العظيم في طيات سيرته الشريفة العطرة .

قال الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامي في سيرته : «سبل الهدى والرشاد» ٢٤٤ / ٣ : روى الطبراني والحاكم وصححه ، وأبو نُعيم عن حُبَيْش أخي أم معبد .

وأبو بكر الشافعي عن أبي سُلَيْط بن عمرو الأنصاري وابن سعد ، والبيهقي عن أبي معبد زوج أم معبد ، وابن السكن عن أم معبد . والبخاري أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ، ومولى أبي بكر عامر بن فُهيرة ودليلهم الليثي عبد الله بن الأريقط ، مرّوا على خيمة أم معبد الخزاعية ، وهي لا تعرفه ، وكانت برزة جلدة تحتي بفناء القُبّة ، ثم تسقي وتُطعم فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها ، فلم يُصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وإذا القوم مرملون مستنون . فقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم . فنظر رسول الله ﷺ إلى شاةٍ في كسر الخيمة - وفي لفظ في كفاء البيت - فقال : «ما هذه الشاة يا أم معبد»؟ قالت : شاة خلّفها الجهد عن الغنم . قال : «هل بها من لبن»؟ قالت : هي أجهد من ذلك . قال : «أتأذنين لي أن أحلبها»؟ قالت : بأبي أنت وأمي نعم إن رأيت بها حلباً فأحلبها فوالله ما ضربها فحل قط فشأنك بها . فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وظهرها وسمّى الله عز وجل ودعا لها في شاتها فتفاجّت عليه ودرّت واجترّت ، ودعا بإناء يُرَبّضُ الرَّهْطُ فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء - وفي لفظ الثُّمال - ثم سقاها حتى رويت ، ثم سقى أصحابه

حتى رووا ، ثم شرب ﷺ آخرهم ، وقال : «ساقى القوم آخرهم شرباً» . ثم حَلَبَ فيه ثانيةً بعد بدء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها . فبايعها وارتحلوا عنها .

فَقَلَّ ما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أغزراً حياً عجافاً يتساوكن هزالاً مخهن قليل .

فلما رأى اللبن عجب فقال : من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازب ولا حلوب في البيت؟ قالت : «لا والله إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا» . قال : «صفيه لي يا أم معبد» قالت : «رأيت رجلاً ظاهر الوضأة أبلج الوجه حسن الخلق ، لم تعبهُ ثُجْلة ولم تُزِرْ به صُعْلة ، وسيمٌ قسيم ، في عينيه دعج وفي أشفاره وطف وفي صوته صحل .

وفي عنقه سطع ، وفي لحيته كثافة ، أزجُّ أقرن ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، أجملُ الناس وأبهاء من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حُلُو المنطق ، فصل لا نَزْر ولا هَذْر ، كأن منطقَه خرزات نظم يتحدَّرن ، ربعةٌ لا تشنؤه من طول ، ولا تقتحمه عينٌ من قِصر ، غُصْنٌ بين غُصْنين ، فهو أنْضُرُ الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا ، له رُفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود لا عابس ولا مُفَنَّد» . فقال أبو معبد : «هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكر ، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً» .

برزة : من البروز ، وهو الظهور ، أي تجلس للناس ، ولا تحتجب ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة .

جلدة : قوية .

بفناء القبة : أمام الخيمة .

مُرملون : نفذ زادهم ، كأنهم لصقوا بالرمل .

مستتون : أصابتهم السنة ، وهي القحط ، فهم مجذبون .

ما أعوزناكم : ما أحوجناكم .

كسر الخيمة : جانبها .
 كفء البيت : سترته .
 الجَهْد : الهزال .
 ففاجَّت : فتحت ما بين رجليها للحلب .
 يريض الرهط : يرويههم . والرهط ما دون العشرة من الرجال .
 ثجاً : كثيراً .
 البهاء : بريق رغبة اللبن .
 الشمال : الرغبة .
 حياًلاً : جمع حائل ، وهي التي لم تحمل .
 عجافاً : جمع عجفاء : وهي المهزولة .
 يتساوكن : يتمايلن في مشيهن من الهزال .
 عازب : بعيد المرعى .
 أبلج : مشرق .
 ثجلة : عظم بطن .
 صعلة : دقة ونحول .
 دعج : سواد ، وهذا من محاسن العين .
 أشفاره : جمع شُفْر ، وشَفْر ، وهو طرف جفن العين الذي ينبت عليه الشعر ، والمراد هنا : الشعر النابت .
 وطف : طول .
 صحل : بُحَّة ، أي ليس حادَّ الصوت .
 سطع : طول .
 كثافة : كثافة .

أزج : دقيق الحاجب في طول وتقوس .

أقرن : التقى طرفا حاجبيه .

لا نزر ولا هزر : لا قليل الكلام ولا كثيرة .

لا تشنؤه : لا تبغضه لفرط طوله .

ولا تقتحمه : لا تتجاوز إلى غيره احتقاراً له .

محفود : مخدوم معظم .

محشود : مطاع في قومه يخفون لخدمته .

ولا مفند : ولا مكذب .

٣- وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة وتلقي أهلها له ، وفرحهم بقدومه

كان يوم وصول النبي ﷺ وصحبه إلى المدينة يوماً مشهوداً يشير إلى مدى ما تجمع من الحب والود بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه ، وذلك بما تأهلوا به من الإيمان ، والوعي ، وبما تسلحوا به من الكفاءات والاستعدادات ، وتقبل التضحيات ، وتحمل المسؤوليات .

روى البخاري (٣٩٠٦) في مناقب الأنصار عن عروة بن الزبير قال : لما سمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة .

فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ، فينتظرونه ، حتى يردهم حرُّ الظهيرة . فانقلبوا يوماً بعدما أطلوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطمٍ - حصنٍ - من أطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله وأصحابه مُبَيَّضِينَ يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معاشر العرب هذا جدُّكم الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقاء ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول .

فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يُحيي أبا بكر ، حتى أصابت الشمس

رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلَّ عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى ، وصلي فيه ، ثم ركب راحلته ، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة .

قال البراء بن عازب رضي الله عنه : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ ، حتى جعل الإمام يُقْلَن : قدم رسول الله ﷺ . رواه البخاري (٣٩٢٥) في مناقب الأنصار .

وعند مسلم (٢٠٠٩) في الزهد : فصعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون : يا محمد ، يا رسول الله ، يا محمد ، يا رسول الله .

وقال في «سبل الهدى والرشاد» ٢٧١/٣ : فخرج رسول الله ﷺ من قباء يريد المدينة فتلقيه الناس ، فخرجوا في الطرق ، وعلى الأباغر ، وصار الخدم والصبيان يقولون : الله أكبر ، جاءنا رسول الله ، جاء محمد ، حتى إن العواتق لفوق البيوت يترائنه .

وروى أبو داود (٤٩٢٣) في الأدب عن أنس رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة لقدمه فرحاً بذلك ، لعبوا بحرابهم .

وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلّع البدر علينا من ثيابات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع
زاد رزين :

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أنه قال : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء .

وروى ابن أبي خيثمة رضي الله عنه قال : شهدت يوم دخل رسول الله ﷺ

المدينة ، فلم أريوماً أحسن منه ، ولا أضواً .

قال في «سبل الهدى والرشاد» ٣/ ٣٧٢: فلم يمرّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار إلا قالوا: هلمّ يا رسول الله إلى العزّ والمنعة والثروة ، فيقول لهم رسول الله ﷺ خيراً ويدعو ، ويقول: «إنها مأمورة - يعني ناقته - خلّوا سبيلها» .

فمرّ ببني سالم ، فقام إليه عتبان بن مالك ونوفل بن عبد الله بن مالك العجلان ، وهو أخذ بزمام راحلته ، فقال: يا رسول الله ، انزل فينا ، فإن فينا العدد والعشيرة ، والحلقة ، يا رسول الله ، قد كان الرجل من العرب يدخل إلينا خائفاً ، فيلجأ إلينا ، فنقول له: قَوْلٌ - سِرٌ - حيث شئت .

فجعل رسول الله ﷺ يتبسم ويقول: «خلّوا سبيلها ، فإنها مأمورة» .

وقام إليه عبادة بن الصامت ، وعباس بن عباد بن نضلة بن مالك بن العجلان ، فجعلوا يقولان؟ يا رسول الله؟ إنزل فينا ، فيقول: «بارك الله عليكم ، إنها مأمورة» .

فلما أتى مسجد بني سالم أدركته الجمعة هناك ، فصلاها فيه ، وكانت أوّل جمعة صلاها في المدينة .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام كلما مرّ بملاً من الأنصار اعترضه أشrafهم ، يقولون: يا رسول الله ، لا تتجاوزنا ، فإننا أهل عدد وثروة وحلقة ، فيقول: «بارك الله فيكم ، خلّوا سبيلها ، فإنها مأمورة» .

فسار حتى إذا أتت دار بني عدي بن النجار قامت إليه وجوههم ، ثم مضى حتى انتهى إلى باب المسجد ، فبركت راحلته ، على باب مسجده ، وهو عليها ، فنزل رسول الله عنها ، وقال: «هنا المنزل إن شاء الله» ثم قال: «أيُّ بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله ، منزلي أقرب المنازل إليه ، فأنقل رحلك؟ قال: «نعم» .

فنزل رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب ، وقرّ قراره ، واطمأنت داره .

روى الحاكم أن رسول الله ﷺ لما نزل على أبي أيوب خرج جوار من بني النجار يضربن بالدفوف ويقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار
فقال رسول الله ﷺ: «أُتُحِبُّنِي؟». قلن: نعم ، يا رسول الله ، فقال: «وأنا والله أحبكن» قالها ثلاثاً.

وروى أبو بكر بن أبي شيبة وابن إسحاق والإمام أحمد بن حنبل من طرق متعددة بالفاظ متقاربة أن أبا أيوب رضي الله عنه قال وهو يحدث عن أيام رسول الله ﷺ عنده: لما نزل رسول الله ﷺ في بيتي نزل في أسفل البيت وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له: يا نبي الله ، بابي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فظهر أنت فكن في الأعلى ، ونزل نحن نكون في السفلى . فقال: يا أبا أيوب ، إنه لأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في أسفل البيت .

قال: فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن ، ولقد انكسرت جرة لنا فيها ماء يوماً ، فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ، تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه ، فنزلت إليه ، وأنا مشفق ، فلم أزل أستعطفه حتى انتقل إلى العلو .

قال: وكنا نضع له العشاء ، ثم نبعث به إليه ، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده ، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً وثوماً ، فرده رسول الله ﷺ ولم أر ليده فيه أثراً ، فجئته فزعاً فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيتم أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة . فقال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجى ، فأما أنتم فكلوه . قال: فأكلناه ، ثم لم نضع في طعامه شيئاً من الثوم أو البصل بعد .

قال ابن إسحاق: «وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة

منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، ولما اطمأنت برسول الله ﷺ داره ، وأظهر الله بها دينه ، وسرّه بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته .

قال أبو قيس صِرْمَة بن أبي أنس ، أخو بني عديّ بن النّجّار ، يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام وما خصّهم به من نزول رسول الله ﷺ عليهم :
ثوى في قريش بضع عشرة حجةً يذكر لو يلقى صديقاً مواتياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم يرَ من يؤوي ولم ير داعياً
فلما أتانا أظهر الله دينه فأصبح مسروراً بطيبة راضياً
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى وكان لنا عوناً من الله باديأ
يقصُّ لنا ما قال نوح لقومه وما قال موسى إذ أجاب المُناديا
فأصبح لا يخشى من النَّاس واحداً قريباً ولا يخشى من النَّاس نائياً
بذلنا له الأموال من جلِّ مالنا وأنفسنا عند الوغى والتَّأسيا
ونعلم أنَّ الله لا شيء غيره ونعلم أنَّ الله أفضل هاديأ
نعادي الَّذي عادى من النَّاس كلَّهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيأ
«سبل الهدى والرشاد» ٢٧٦ / ٣ .

ونقول في خاتمة المطاف : إن هذه الصورة الناطقة لاستقبال رسول الله ﷺ تدل أیما دلالة على أثر البناء الإيماني في حياة الأمة ، كما تدل أيضاً أن القوى المعنوية الراسخة القائمة على الدين الحق هي الحامية للمكاسب المادية ، والمحافظة عليها ، ولن تستطيع القوى المادية عارية عن القيم والمبادئ مهما عربت وانتفشت ، أو شمخت وتعالَت أن تصون وحدها تلك المكاسب ، أو تحافظ عليها ، بل إن أمرها آيل إلى الاضمحلال والزوال ، ولو بعد حين ، هذه سنة الله تعالى في عباده .

إن رسول الله ﷺ وتلك النخبة الصالحة من أصحابه قد تفاعلوا حقاً على أرضية تلك التربية ، وفي ضوء ذلك الإيمان ، وعلى صعيد هذه الأخوة ، بحيث أدى كل واحد دوره بمهارة وحذق ، وقام بواجبه بأمانة وصدق ، وهذا هو سبيل النجاح .

٤ - المجتمع الجديد وأسس بنائه :

ما إن حطَّ رسول الله ﷺ رحاله في المدينة المنورة ، واطمأن به مقامه حتى قام يرتب داره خير ترتيب ، ويبني مجتمعه الإسلامي الأول خير بناء ، واضعاً بين عينيه كل الاعتبارات ، والعقبات ، والأخلاق التي قد يتكون منها مجتمعه ، والمناخ الذي يبني فيه مستقبل أيامه ، وأحداثه .

وقد كان عليه الصلاة والسلام حاذقاً ماهراً بصيراً خبيراً ، يعرف كل كبيرة ودقيقة في نسيج خطواته ، وخيوط أعماله ، وكان من هديه دخول البيوت من أبوابها ، ولم يكن من رأيه أن يقفز فوق الحواجز ، أو يتسلق جدرانها .

لذلك وضع الخطط الناجحة ، وأسس الأسس الصالحة لبناء مجتمع عتيد متماسك ، ومتعاون ، يعمل كل فرد فيه بمنتهى طاقاته ، وأقصى مهاراته ، بروح من الحب والأخوة والفداء ، وبذل أقصى الجهد .

وكان من بين هذه الأسس ، وفي طليعتها :

أولاً : بناء المسجد النبوي الشريف :

المسجد ذو أهمية فائقة من وجهة النظر الإسلامية ، فهو المكان الفسيح الذي يتسع صدره لمئات الوافدين والمصلين ، يلتقون على صعيده إخوة لا تفرقهم الاعتبارات ، ولا تحول دون توادهم في رحبته الامتيازات ، ولا تعبت في أفئدتهم داخله الحرف والصناعات والتجارات ، لأنه بيت وضع للعبادة ، والعلم ، ولم الشمل ، وتوطيد دعائم الحب والأخوة ، في أجواء عبادة روحية تصبغ الجميع خمس مرات في كل يوم بروح العبودية لله عز وجل ألا وهي صلاة الجماعة في الفرائض الخمس المؤداة .

والمسجد أيضاً هو المكان المقدس في نظر المسلمين ، لأنه البيت الذي أضافه الربُّ عز وجل إلى نفسه الكريمة تشريفاً له ، وتمييزاً عما سواه من سائر بقاع الدنيا .

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤].

وقد أمر الدين ببناء المساجد ، وتحسينها ، وتنظيفها ، وتطهيرها وجعلها المكان الأطيب للقاء الناس ، وأداء العبادة ، وشعور القاطن فيها بروح الأنس والسعادة والطمأنينة ، فلا هي مُستقدرة تعافها النفس ، وتنفر منها ، ولا هي مزركشه ومزخرفة ، ومحشور فيها كل زين الدنيا وفنونها ، بحيث تشد أصحاب الثراء إلى الركون إليها ، والتفاخر فيها ، وإشباع النهم برؤية زخرفها ، وبحيث تزيد الفقير شعوراً بالأسى ، وهماً بمظاهر الثراء ، لذلك كان ينبغي أن لا يبالغ في تزيين المساجد ، وتفخيمها بل المهم سعتها ونظافتها ، وشغلها بمعالم العبادة والخير .

قال الله عز وجل: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتَیَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة». رواه البخاري (٤٥٠) في الصلاة ومسلم (٥٣٣) في المساجد.

وروى البخاري في الصلاة باب (٦٢) أن عمر رضي الله تعالى عنه أمر ببناء المسجد ، وقال: أكرن الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تُصفر ، فتفتن الناس.

وقال أنس: يتباهون بها ، ثم لا يعمرونها إلا قليلاً .

وقال ابن عباس: لتزخرقنّها كما زخرفت اليهود والنصارى .

من هنا ما إن حلَّ رسول الله ﷺ المدينة حتى توجه بما آتاه الله تعالى من بصيرة إلى بناء مسجده الكريم ، فأسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ،

تكسوه روح البساطة والتواضع ، وعمل فيه بنفسه ، مع أصحابه الكلام .

روى البخاري (٤٢٨) في الصلاة ، ومسلم (٥٢٤) في المساجد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما أراد بناء المسجد حيث بركت به راحلته أرسل إلى ملائ من بني النجار ، فجاؤوا . فقال : «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا» أي بايعوني .

قالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله .

قال أنس : فكان فيه نخل ، وقبورُ المشركين ، وخربٌ ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل فقطع ، وبقور المشركين فنبتت ، وبالخرب فسويت .

قال أنس : فصفوا النخل قبله ، وجعلوا عضادته حجارة قال : فكانوا يرتجزون ، ورسول الله ﷺ معهم ، وهم يقولون :

اللهم إنه لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة
وسقفوه بالجريد ، وجعلت قبلته إلى بيت المقدس ، وجُعلت عُمدته
الجدوع ، وفرشت أرضه بالرمال والحصباء ، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى
مؤخره مئة ذراع ، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه .

وظل هذا المسجد على هذه الحال مدّة حياة رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر رضي الله عنه ، ثم زاد فيه عمر رضي الله عنه ، لكنه بناه على بنائه في عهد النبي ﷺ باللبن والجريد ، وأعاد عُمده خشباً ، ثم غيره عثمان رضي الله عنه ، فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة ، أي الجصّ .

هذا هو مسجد المصطفى ﷺ بتواضعه وبساطته كانت فيه تصاغ عقول العابرة ، وترى فيه ملكات الأبطال وتجهز منه الجيوش ، وتشر فيه العلوم ، ويقام على أرضه صرح الأخلاق والآداب .

ما أجمله وأكمّله ، ورسول الله المعلم فيه ، والمربي ، والقائد الماهر ، والإنسان العظيم ، وأصحابه المهرة الكرام هم طلابه الشرفاء .

ثانياً - المؤاخاة بين المسلمين :

لقد امتدح القرآن الكريم المهاجرين على هجرتهم وإخلاصهم وصدقهم وتضحياتهم ، كما امتدح الأنصار على برهم ووفائهم ، وحسن عشرتهم وإيثارهم ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَنْتَعُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٨ - ٩] .

ومن منطلق هذه الملكات الرائعة ، والأخلاق الفاضلة والروحانية الصافية في المهاجرين والأنصار عقد رسول الله ﷺ بحذقه ومهارته أواصر الأخوة بين أصحابه ، وربط بينهم بروابط الحب ، والتعاون ، وأقام بينهم وشائج التعاطف والتراحم . فأضحوا كالجسد الواحد يشدُّ بعضه بعضاً ، ويألم بعضه بعض ولقد صدق ﷺ بهديه الكريم حيث قال :

«المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيان يشدُّ بعضه بعضاً» ثم شبَّك بين أصابعه . رواه البخاري (٦٠٢٦) في الأدب ، ومسلم (٢٥٨٥) في البر .

وقال «مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسدِ ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى» . رواه البخاري (٦٠١١) في الأدب ، ومسلم (٢٥٨٦) في البر .

وعلى صعيد الساحة العملية آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فجعل جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وجعل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين ، وجعل أبا بكر الصديق وخارجة بن زهير أخوين ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن مالك أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين ، وهكذا .

لقد كانت هذه المؤاخاة على الحقِّ والمواساة ، وكان من آثارها أن يتوارث

هؤلاء بعد الممات دون ذوي أرحامهم ، وظلّ ذلك معمولاً به حتى انتسخ عند نزول قول الله عز وجل .

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

روى البخاري (٤٥٨٠) في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاريّ دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم .

لقد ضرب الأنصار المثل الأعلى لإخوانهم في البر والوفاء ، والتنازل عن الأموال : وغيرها .

روى البخاري (٢٠٤٨) في البيوع عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، قال : لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع ، فقال سعد بن الربيع : إني أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم لك نصف مالي ، وانظر أيّ زوجتيّ هويتَ نزلتُ لك عنها ، فإذا حلت تزوجتها .

فقال عبد الرحمن له : بارك الله لك في أهلك ومالك .

هذا واحد ، وغيره في الأنصار والمهاجرين كثير .

إن المهم أن نعلم أن مبدأ التآخي الذي أقامه رسول الله ﷺ بين أصحابه لم يكن مجرد شعار في كلمة جرت على ألسنتهم ، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع حياتهم ، وتعبّر على مدى مهارتهم وصدقهم في ولائهم .

لقد جعل النبي ﷺ بحذقه من هذه الأخوة مسؤولية حقيقة تشيع بين هؤلاء الإخوة ، وكانت هذه المسؤولية محققة فيما بينهم على خير وجه .

ثالثاً - كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم

قال في : «سبل الهدى والرشاد» ٣/٣٨٢ : قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود ، وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم ولهم ، أي لما امتنعوا عن اتباعه .

وإن هذا الكتاب الذي سوف ننقل فقرات منه ليدل على مدى ما كان يتصف به رسول الله ﷺ من حذق للأمور ، وبصر في العواقب ، ومهارة في القيادة والمعاملة ، وترتيب الأولويات .

إن هذا الأساس يعدُّ من أهم ما قام به النبي ﷺ مما يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة ، فإن هذا الكتاب شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أي دستور ، يُعنى بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام دولة في الداخل والخارج .

إن هذا الكتاب مع حرصه على ضمان حقوق المسلمين ليدل دلالة واضحة على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ لليهود ، ولقد كان بالإمكان أن تؤتي هذه المسألة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين واليهود ، لو لم تتغلب على اليهود طبيعتهم الخبيثة من حبِّ للمكر والغدر والخديعة ، فما هي إلا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعاً بما تضمنته بنود هذه الوثيقة التي التزموا بها ، فخرجوا على الرسول والمسلمين بألوان من الغدر والخيانة التي كان لها ما كان من الشؤم عليهم ، والأذى للمسلمين . وها نحن سنجتزئ من كتاب رسول الله ﷺ ببعض البنود الهامة بنصوصها الواردة في كتابه ﷺ حسب ترتيبها في نص الكتاب كي تقف من ورائها على مدى القيمة الدستورية للمجتمع الإسلامي ، ودولته الناشئة في المدينة المنورة .

كما تقف على مدى دقة رسول الله ﷺ في ترتيب خططه . وصياغة أحكامه .

أ - المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس .

ب - هؤلاء المسلمون جميعاً على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم - أسيرهم - بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

ج - إن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً - مثقلاً بالديون - بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل .

د - إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة - عظيمة -

ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

هـ - لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مسلم .

و - ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدانهم ، والمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس .

ز - لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ، أو أن يؤويه ، وإن من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، لا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

ح - اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا مُحاربين .

ط - يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيته .

ي - إن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

ك - كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده ، فإن مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله .

ل - من خرج من المدينة آمن ، ومن قعد آمن إلا من ظلم وأثم .

م - إن الله على أصدق ما في الصحيفة وأبره ، وإن الله جار لمن برّ واتقى .
«فقه السيرة» ص ٢٠٣ .

رابعاً - تشريع صلاة الجماعة :

من الأسس التي سارع رسول الله ﷺ إلى تأسيسها وتكريسها صلاة الجماعة باعتبارها سباجاً لحماية وحدة الأمة . وبث روح التعارف والتآلف بين المسلمين على طول أيام السنة ، حيث يلتقون في كل يوم خمس مرات في رحاب أفضل بقاع الأرض ، ألا وهي المساجد ، بيوت الله عز وجل على أداء شعيرة هي أفضل أنواع العبادات ألا وهي الصلوات الخمس .

إن رسول الله ﷺ بعد أن أُتيح له فرصة صلاة الجماعة في المسجد ، لم يتركها أبداً ، ولم يرخص لأحد بتركها من غير عذر .

وهذا من إدراكه لمدى فاعلية هذه الشعيرة ، وأثرها في وحدة الأمة ، ورص صفوفها ، وتمتين صلاتها ، وتنمية روحانياتها .

وفي هذا الرحاب يقول ﷺ :

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفَذِّ سَبْعَ وعشرين درجة» . رواه البخاري (٦٤٥) في الأذان ، ومسلم (٦٥٠) في المساجد .

ويقول : «صلاة الرَّجُل في الجماعة تُضَعَّف على صلاته في بيته وسوقه خمساً وعشرين ضعفاً ، وذلك أنَّه إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ، ثم خرج إلى المسجد لا يُخْرِجُهُ إلا الصَّلَاةُ ، لم يَخُطْ خُطْوَةً إلا رُفِعَتْ له بها دَرَجَةٌ ، وَحُطَّ عنه بها خَطِيئَةٌ ، فإذا صَلَّى لم تزل الملائكةُ تَصَلِّي عليه ما دام في مُصَلَّاهُ : اللهم صلِّ عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة» . رواه البخاري (٦٤٧) في الأذان .

ويقول : «والذي نفسي بيده ، لقد هَمَمْتُ أن آمرَ بحطِّ فيحطَبَ» ثم أَمَرَ بالصلاة فيؤدَّن لها ، ثم أَمَرَ رجلاً فيومَّ النَّاسَ ، ثم أخالفَ إلى رجالٍ فأحرقَ عليهم بيوتهم» . رواه البخاري (٦٤٤) في الأذان ، ومسلم (٦٥١) في المساجد .

إن هذه الكلمات الآمرة الزاجرة تعدُّ قمة في البلاغ الرصين الذي يعبر عن مدى الروح التي كان يتحلَّى بها النبي ﷺ في خطابه البلاغي والتشريعي والتوجيهي الذي يصب في مصلحة الجماعة ، وحيَاكة نسيجها القوي المترابط ، في انطلاقها إلى آفاق مستقبلها البعيد العتيد المشرق .

لقد أضاف النبي الكريم إلى هذا البعد في إقامته صرح الجماعة في الصلاة مظهراً آخر له دلالاته العميقة المعبرة عن المراتد الرشيدة في تكوين الجماعة الماهرة الفاضلة ، ألا وهو تسوية الصفوف في الجماعة ، ورصها ، وإغلاق الخلل والفرج بين صفوفها ، خوفاً من أن يؤدي الخلل في الصفوف إلى خلل

في الأفئدة والقلوب ، فتقع المصيبة التي يعز تلافيتها بعد .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أقيموا الصفَّ في الصَّلاة ، فإن إقامة الصفَّ من حسن الصَّلاة» رواه مسلم (٤٣٥) في الصلاة .

وعن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «سَووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة» رواه البخاري (٧٢٣) في الأذان ، ومسلم (٤٣٣) في الصلاة .

وقال ﷺ : «أقيموا صفوفكم وتراصوا ، فإنني أراكم من وراء ظهري» . رواه البخاري (٧١٩) في الأذان ، ومسلم (٤٣٤) في الصلاة .

وعن أنس رضي الله عنه قال : «وكان أحدنا يلزق مَنْكِبَه بِمَنْكَبِ صاحبه ، وقدمه بقدمه» . رواه البخاري (٧٢٥) في الأذان .

وعن النعمان بن بشير قال : كان رسول الله ﷺ يسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح» رواه مسلم (٤٣٦) في الصلاة .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «أقيموا الصُّفُوفَ ، فإنما تصفون بصفوف الملائكة ، وحاذوا بين المناكب ، وسدُّوا الخَلَلَ ، ولينُّوا في أيدي إخوانكم ، ولا تذروا فُرُجَات للشيطان ، ومن وصل صفّاً وصله الله تبارك وتعالى ، ومن قطع صفّاً قطعه الله . رواه الإمام أحمد (٩٨/٢) .

وقال : راصوا الصفوف ، فإن الشياطين تقوم في الخل . رواه أحمد (١٥٤/٣) .

وقال ﷺ : «لَتُسَوَّنَ صفوفكم ، أو ليخالفَنَّ الله بين وجوهكم» . رواه البخاري (١٧١٧) في الأذان ، ومسلم (٤٣٦) في الصلاة .

ولتكتسي هذه الصلاة في الجماعة بثوبها الكامل الشامل ، وتظهر برونقها المعبر ، وتسموا بغاياتها إلى القمة كانت في أدائها على كثرة الواقفين فيها

كأنما تمثل حركة رجل واحد ، لالتزام الجماعة فيها بمنهج واحد ، وتبعيتها لرجل واحد ألا وهو الإمام .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : «إنما جعل الإمام ليؤتمّ به ، فلا تختلفوا عليه ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا ركع فاركعوا ، وإذا قال : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا لك الحمد ، وإذا سجد فاسجدوا ، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعون» . رواه البخاري (٧٢٢) في الأذان ، ومسلم (٤١٤) في الصلاة .

ولتكتمل الصورة الروحية ، والمادية في نسيج المجتمع الفاضل عن طريق الجماعة في الصلاة أذن النبي ﷺ للمرأة أن تشارك في هذه الصلاة ، ليكون لها نصيب من فضلها فالمرأة شقيقة الرجل ، وعلى جهدهما يكتمل البناء .

قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ» رواه الترمذي (١١٣) في الطهارة ، وأبو داود (٢٣٦) في الطهارة .

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» . رواه البخاري (٩٠٠) في الجمعة ، ومسلم (٤٤٢) في الصلاة .

وقال : «ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد» رواه البخاري (٨٩٩) في الجمعة . ومسلم (٤٤٢) في الصلاة .

وقال : «لا تمنعوا النساء حظوظهنّ من المساجد» رواه مسلم (٤٤٢) في الصلاة .

هذا وقد جعل النبي ﷺ الجماعة فريضة في صلاة الجمعة ، فلا تصح فرادى ، ولا تؤدى إلا جماعة ، على نطاق أوسع ، فقد أوجب النبي ﷺ أن تؤدى الجمعة في مسجد واحد ، إذا اتسع للمصلين ، ليلتقي أكبر عدد من المسلمين مرة كل جمعة ، فيتم التعارف ، والتآلف ، وتجتمع القلوب على موعظة من إمام المسلمين في يوم مشهود ، وقد كان من هديه ﷺ أنه لم يصل الجمعة إلا في مسجد واحد ، وكانت المساجد كلها تغلق أبوابها في المدينة

يوم الجمعة عند صلاة الجمعة ، وكان ذلك لغرض مقصود ، وهذا ينافي ما عليه المسلمون اليوم ، من تعدد الجمع من غير حاجة .

حتى إنه ﷺ كان يخرج في الأعياد إلى ما هو أوسع من المسجد ، وأرحب ، كان يخرج إلى الصحراء فيقيم صلاة العيد في المصلى ، فيجتمع إليه الرجال والنساء من تصلي ، ومن لا تصلي ، يلتقون جميعاً على ذكر الله وسماع الخير من رسول الله ﷺ .

خامساً: تشريع الأذان للإعلام بوقت الصلاة:

وما أن شرعت الجماعة في الصلاة إلا راح رسول الله ﷺ يفكر ويشاور في وسيلة يدعو بها الناس إلى صلاة الجماعة ، ويعلمهم بدخول وقتها ، ليهبوا إليها ، ويلتقوا جميعاً على أدائها .

روى أبو داود (٥٠٦) في الصلاة عن ابن أبي ليلي ، قال: حدثنا أصحابنا أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أعجبني أن تكون صلاة المسلمين ، أو قال المؤمنين واحدة ، حتى لقد هممت أن أبتّ رجالاً في الدور ينادون الناس بحين الصلاة ، وحتى هممت أن آمر رجالاً يقومون على الآطام - الحصون والمرتفعات - ينادون المسلمين بحين الصلاة» .

وروى البخاري (٦٠٤) في الأذان ، ومسلم (٣٧٧) في الصلاة عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون ، فيتحيّنون الصلوات ، وليس ينادي بها أحد ، فتكلموا يوماً في ذلك ، فقال بعضهم:

اتَّخَذُوا نَاقُوساً مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى .

وقال بعضهم: قَرَأْنَا مِثْلَ قُرْآنِ الْيَهُودِ .

فقال عمر: أَوْ لَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يَنَادِي بِالصَّلَاةِ؟

قال رسول الله ﷺ: «يَا بِلَال ، قم فنادِ بالصَّلَاةِ» .

قال القاضي عياض : ظاهره أنه إعلام ليس على صفة الأذان الشرعي ، بل إخبار بحضور وقتها .

قال النووي : وهذا متعين .

أي أنه كان المرحلة الأولى من تشريع الإعلام بدخول وقت الصلاة .

وروى أبو داود (٤٩٨) في الصلاة عن أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال : اهتم النبي ﷺ للصلاة ، كيف يجمع الناس لها ، فقليل له : انصب راية عند حضور الصلاة ، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً ، فلم يعجبه ذلك .

قال : فذكر له القنُعُ : يعني الشُّبُور - وهو بوق اليهود ، فلم يعجبه ذلك ، وقال :

«هو من أمر اليهود» .

قال : فذكر له الناقوس ، فقال : «هو من أمر النصارى» .

فانصرف عبد الله بن زيد ، وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ ، فأري الأذان في منامه .

قال : فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال له : يا رسول الله ، إني لبين نائم ويقظان ، إذا أتاني آت ، فأراني الأذان .

قال : وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد رآه قبل ذلك ، فكتبه عشرين يوماً .

قال : ثم أخبر النبي ﷺ ، فقال له : «ما منعك أن تخبرني؟» .

فقال : سبقني عبد الله بن زيد ، فاستحييت ، فقال رسول الله ﷺ :

«يا بلال ، قم ، فانظر ما يأمرُك به عبد الله بن زيد ، فافعله» . وكان الأذان الذي رآه عبد الله بن زيد هو : «الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً

رسول الله ، حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح ، حيَّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

لقد قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن زيد في رؤياه . «إنها لرؤيا حق إن شاء الله . رواه أبو داود (٤٩٩) في الصلاة . وإنما أمر بلالاً بالأذان ، لأنه كان أندى صوتاً من عبد الله بن زيد ، وللصوت الحسن أثره في الأسماع .

لقد كان من حكمة النبي ﷺ ، ومهارته ، أن يفتح الباب واسعاً ، ويترك الوقت رحباً ليشارك إخوانه بأرائهم ، ويدلوا بخبراتهم ، فيكون القرار بما طابت به نفوسهم .

لقد رفض رسول الله ﷺ شعارات اليهود والنصارى في إعلامهم بأوقات صلواتهم . لأنها لا تنم عن معنى ذي بال وارتضى ما رآه عبد الله بن زيد ، واختاره شعاراً للصلاة لأنه ذو معنى عظيم .

فليس هناك ما هو أجمل من أن يقرع أسماع المسلمين كل يوم خمس مرات هذا الأذان ، الذي يصدق به المؤذن بتكبير الله وتوحيده ، والشهادة لرسول بالنبوة والرسالة ، والدعوة الصادقة إلى الصلاة والفلاح في الدنيا والآخرة .

أي كلام أجمل من هذا يثير الأسماع والألباب ، وينساب مع النفس إلى القلوب والأرواح ، فينمي العقيدة ، ويشير الحماس إلى العمل والمتابعة ، فأنعم بهذا الأذان رسولاً بين يدي الصلاة ، وشعاراً للإقبال عليها .

وقد أمر النبي ﷺ المسلمين إذا ما اجتمعوا في المساجد للصلاة ، أن لا ينهضوا إليها ، حتى ينادي مؤذنهم بالإقامة لها ، فيعيد ذكرى التوحيد مرة أخرى بين يدي إقبالهم بين يدي ربهم على صلواتهم .

والإقامة كالأذان ، إلا إنه يقال بعد الحيعلتين : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة .

ويرى جمهور العلماء أن ألفاظ الإقامة فرادى ، أما الأذان فألفاظه مثنى مثنى .

٥ - نزاع كاد يعصف بالمسلمين تداركه رسول الله بحكمته

ما رضي اليهود في المدينة أن يعيشوا بأمان وسلام ، جنباً إلى جنب مع المسلمين ، ولكنهم آثروا الفتنة ، وغلب عليهم الحنق والضغينة ، وكان أول سُمّ نفثوه ، وأظهروا به حقدهم وخيانتهم ما كان من شأس بن قيس اليهودي أراد إيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج وقد كاد أن يتم له ما أراد لولا مهارة رسول الله ﷺ وحكمته في رعاية أصحابه ، ورقابته لهم ، وغيرته عليهم ، فأسرع إليهم وأطفأ ما أوقده ذلك اليهودي الخبيث .

قال الإمام الشامي في كتابه «سبل الهدى والرشاد» ٣/ ٣٩٨ :

روى ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن زيد بن أسلم مُطَوَّلًا ، والفريابي وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس مُختَصَرًا ، وابن المنذر عن عكرمة ، وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشَّدِّي كذلك واللفظ للأول ، قال : كان شأس بن قيس شيخاً قد عسا ، عظيم الكفر ، شديد الضُّغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، فمَرَّ على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من أُلَفَّتْهُمْ وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية . فلما أن جاء الإسلام اصطَلَحُوا وألَّفَ الله بين قلوبهم . فقال : «لقد اجتمع ملأُ بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا جتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمرَ فتى شاباً من يهود كان معه فقال : «اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بُعث وما كان قبله وأنشدكم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار . ففعل ، فأنشدكم بعض ما قاله أحد الحَيِّين في حربهم ، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء ، فقال الحي الآخرون : قد قال شاعرنا في يوم كذا : كذا وكذا ، فقال الآخرون : وقد قال شاعرنا في يوم كذا : كذا وكذا . فتكَلَّمَ القومُ عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تَواثبَ رجلان من الحَيِّين : أوس بن قيطي أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس ، وجَبَّار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : «إن شئتم ردناها الآن جذعة» .

فغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : « قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة - والظاهرة الحرة - السلاح السلاح » . فخرجوا إليها ، فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين : الله الله ، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم : عدو الله شأس بن قيس .

وأنزل الله في أوس بن قَيْظي ، وجَبَّار بن صَخْر ، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية : ﴿ يَتَأَيَّمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُُّسْتَقِيمٍ [آل عمران : ١٠٠ ، ١٠١] .

عسا : كبر ، واسن .

قيلة : اسم أم الأوس والخزرج .

جذعة : أعدناها حرباً جديدة كما كانت .

٦ - بدء الصراع المسلح والإذن بالقتال :

تمهيد : لقد مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة ، وصدرأ من عهده في المدينة ، وهو يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، يداري الناس ، ويحتال إليهم بوسائله المفيدة ، وأساليبه الحكيمة ، ومهاراته المتنوعة باللطف واللين رغبة منه صادقة في أن ينقلهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام بغير عنف ولا خصام .

ولكن الجاهلية أبت إلا الظلم ، والردّ والصدّ والعدوان ، وكان طبيعياً بعد نحو من أربع عشرة سنة من الصبر والمصابرة أن يردّ على الظالمين ، ويرفع وطأة الفتنة عن المؤمنين ، ويزيل عروش الطواغيت عن وسط الطريق ، فكان أن أذن بالقتال ، وشرع الجهاد ، ولكن ذلك مرّ عبر مراحل من التخطيط ، والتنسيق .

أولاً: الأذن بالقتال بسبب الظلم والمعاناة ، ونزل في ذلك قول الله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ [الحج : ٣٩ - ٤٠] .

أي أذن لهم بالقتال بسبب ظلم الكافرين إياهم .

ثانياً: الحرب الدفاعية ، وذلك برّد العدوان ، وقاتل من يقاتل المسلمين ، ونزل في ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

أي الذين يقاتلون من لا يقاتلونهم .

ثالثاً - الحرب الهجومية ، وقاتل المشركين والكافرين كافة ، ونزل في ذلك قول الله تعالى .

﴿ وَقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ [التوبة : ٣٦] .

وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وعلى هذا استمر الأمر ، واستقام ، وأصبح الجهاد شريعة ماضية إلى يوم القيامة .

والجهاد بكل أشكاله ، وكل أدواره لم يكن يوماً ما غاية في نفسه ، وإنما هو وسيلة ضرورية لابتدائها ، ما دام هناك باطل يرتع ويتربع ، وما دام هناك طواغيت تصدّ وتردّ ، وتزرع في الأرض الفساد . وما دام هناك ظلم وعدوان ، وفتنة للناس .

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وعليه جاءت الأدلة الآمرة بالجهاد ، والمرغبة فيه في كتاب الله عز وجل ، وعلى لسان رسول الله ﷺ. ليكون العصا الغليظة التي تؤمن للدعوة حريتها ، وللناس كرامتهم ، تحول دون غطرسة المتغطرسين وعدوانهم .

قال رسول الله ﷺ: «لغدوة في سبيل الله ، أو روحه خير من الدنيا وما فيها». رواه البخاري (٢٧٩٢) في الجهاد ، ومسلم (١٨٨٠) في الإمارة .

وقال: «ما من مكلم يكلم في سبيل الله ، إلا جاء يوم القيامة ، وكلمته يذمى ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك». رواه البخاري (٥٥٣٣) في الذبائح ، ومسلم (١٨٧٦) في الإمارة .

وقال: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» رواه البخاري (٢٧٩٠) في الجهاد .

وبناء على هذه الحكمة النبوية في الحث على الجهاد ، والترغيب فيه انطلقت جحافل المسلمين تجوب الأرض وتدعو الناس إلى عبادة الله تعالى ، ونبذ عبادة ما سواه ، لا يحدوهم إلى ذلك حب في مغنم ، ولا رغبة في جاه ، وإنما كان غرضهم إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور الحق ، والإيمان ، وتأمين حرية العبادة للناس جميعاً .

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٧- سرية حمزة بن عبد المطلب :

كان أشد الناس خصومة للنبي ﷺ أهل مكة ، فهم الذين تصدوا لعدائه ، وتأليب الناس عليه ، وتنفيرهم من حوله ، وهم في النهاية الذين تأمروا عليه ،

فأخرجوه من مكة مهاجراً إلى المدينة ، فكان من الحكمة - بعد أن جاء الإذن بالقتال - أن يتعرض الرسول لهم بقصد إضعاف عداوتهم ، وإبلاغهم بأنه قد أصبح للمسلمين قوة قادرة على ردّ الأذى ، ودفع العدوان ، وأن لديهم المهارة والحدق في التصدي والتعقب لفلول الكفرة والمشرّكين .

من هذا المنطلق أرسل النبي ﷺ عمه الحمزة في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ، ليعترض عيراً لقريش آية من الشام ، فيها أبو جهل ، وثلاث مئة من أصحابه المشركين ، وعقد رسول الله لهذه السرية لواء أبيض حملة أبو مرثد حليف حمزة ، وسارت السرية حتى وصلت ساحل البحر ، فصادت العير هناك ، واصطف الفريقان للقتال وكادت الحرب أن تقع ، لولا أن مجدي بن عمرو الجهني حجز بين الفريقين ، فأطاعوه جميعاً ، وانصرفوا عن بعضهم .

وقد شكر رسول الله ﷺ مجدياً على صنيعه ، لما كان من قلة عدد المسلمين في هذه السرية ، وكثرة عدوّهم ، ورجعوا إلى المدينة سالمين بعد أن حققت هذه السرية غرضها من هذا التعرض لطرق المشركين من قريش في تحركاتهم .

وهكذا ينبغي أن تكون القيادة دائماً قادرة على الحركة ماهرة في وضع الخطط ، والتنبؤ بعواقبها .

وكانت سرية الحمزة في رمضان من السنة الأولى من هجرته عليه الصلاة والسلام .

٨ - سرية عبدة بن الحارث

وفي شوال من السنة الأولى للهجرة أرسل رسول الله ﷺ عبدة بن الحارث في ثمانين راكباً من المهاجرين لنفس الغرض الذي أرسل إليه سرية عمه الحمزة رضي الله عنه : أي ليعترض عيراً لقريش ، فيها مئتا رجل ، وعقد له لواء أبيض ، حملة مسطح بن أثانة ، فساروا ، ووافوا العير ببطن رابغ ، فكان بين الفريقين الرمي بالنبل .

ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين ، فانهزموا ، ولم يتبعهم

المسلمون ، واكتفوا بما ألحقوه بهم من الذعر ، والهزيمة .

لكنه فرَّ من صفوف المشركين إلى المسلمين رجلاً ، هما المقداد بن الأسود ، وعتبة بن غزوان ، وكانا قد أسلما ، وخرجا ليلحقا بالمسلمين .

هذه البدايات من التحركات ، واللقاءات كانت ضرورية وكافية لتحمل رسالة واضحة لقلعة الخصام والتصدي ، في قريش ، وكانت تحمل نذر النهايات القريبة لدور المشركين في مكة ، لكنها في الوقت نفسه ، لفتت أنظار المشركين إلى ضرورة الحذر ، وأخذ الحيلة في تحركاتهم وأسفارهم ، وفي هذا أيضاً ما فيه ، من دخول روح القلق ، والترقب إلى نفوس المشركين ، والإحساس بما بلغه رسول الله ﷺ بمهارته الفائقة من القوة ، والقدرة على المناورة ، واغتنام الفرص المناسبة لكسر شوكة أشد أعدائه من العرب .

٩ - غزوة ودّان وهي غزوة الأبواء :

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة لكنه لم يلق فيها كيداً . وكان خروجه إليها في صفر من السنة الثانية للهجرة الشريفة . وكان الغرض منها نفس الغرض الذي خرجت له سريتا الحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهما ، وهو أن يعترض عيراً لقريش . وكان يحمل لوائه في هذه الغزوة عمه الحمزة ، وقد استعمل على المدينة فترة غيابه - وكانت خمس عشرة ليلة - سعد بن عباد رضي الله عنه .

فلما بلغ ودّان - وهي قرية بين مكة والمدينة - وجد أن العير قد سبقته . ولكنه قد أصاب كسباً جديداً كان له وقعه في هزّ مشاعر قريش ، وهذا المكسب هو أنه وادع بني ضمرة بن عبد مناف بن كنانة ، وعقد ذلك مع سيدهم عمارة بن محشيّ على أن لا يغزو بني ضمرة ، ولا يغزوه ، ولا يكثروا عليه جمعاً ، ولا يعينوا عليه عدواً ، وكتب بينه وبينهم كتاباً ، هذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم الثُّنْرة على من رامهم ، إلا أن يحاربوا في دين الله ما بلَّ بَحْرٌ صُوفَةٌ ، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه ،

عليهم بذلك ذمّة الله ، وذمّة رسوله ، ولهم النصر على من برّ منهم واتقى ،
هكذا كانت قيادة رسول الله ﷺ تحقق كل يوم كسباً جديداً ، وتتخطى عقبة
غليظة ، وبهذا تتبدى مهارة القائد ، وتظهر عبقرية قيادته وريادته .

١٠ - غزوة بواط :

بواط جبل من جبال جُهيّنة بينه وبين المدينة أربعة بُردٍ ، وكان خروج
رسول الله ﷺ في هذه الغزوة في ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من
هجرته الشريفة ، وخرج معه مئتان من المهاجرين ، وحمل لواءه الأبيض
سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، واستعمل على المدينة سعد بن معاذ رضي
الله عنه .

وكان خروجه ﷺ لاعتراض عير لقريش آية من الشام ، كان فيها ألفان
 وخمس مئة بعير يقودها أمية بن خلف في مئة رجل من قريش ، فبلغ بواطاً ،
 فوجد أن العير قد فاتته ، فرجع ولم يلتق كيداً .

لقد كان لهذه الغزوة ، ومثيلاتها أثر كبير في زلزلة وزعزعة نفوس قريش
 وإدخال الخوف والوجل إلى نفوسها ، وهي بوادر لابدّ منها بين يدي تقويض
 القوى المعادية نفسياً وشعورياً ، قبل تقويضها عسكرياً .

١١ - غزوة العُشيرة :

والعُشيرة موضع ببطن ينبع ، خرج إليها رسول الله ﷺ في مئة وخمسين من
 المهاجرين ، وذلك في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من هجرته
 الشريفة ، وكان حامل لوائه في هذه الغزوة عمه الحمزة رضي الله عنه ، وقد
 استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد .

وكان غرضه في هذه الغزوة اعتراض عير لقريش ، كانت ذاهبة من مكة إلى
 الشام ، وقد جمعت قريش في تلك العير أموالها ، حتى لم يبق بمكة قرشي ،
 أو قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث بها في تلك العير .

وكان يرأس تلك العير أبو سفيان ، ومعه بضعة وعشرون رجلاً .

فسار رسول الله ﷺ بأصحابه حتى بلغ العُشيرة ، فوجد العير قد مضت قبل ذلك ذلك بأيام ، لكنه في خروجه هذا حالف بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة فأمّنهم ، ورجع إلى المدينة ينتظر هذه العير حتى ترجع من الشام ، وكانت هذه العير هي السبب في غزوة بدر الكبرى .

أراد رسول الله ﷺ بهذه التحركات ، خلخلة القوة الاقتصادية لأعدائه ، وزلزلة طمأنيتهم على أموالهم ، مما يسبب لهم حرجاً كبيراً في تجارتهم وأسفارهم ، ومعلوم أن جل دخول أموال مكة كانت من التجارة نحو الشام ، ونحو اليمن ، فكانوا تجار الصيف والشتاء ، ولقد من الله عليهم أن وفر لهم الأمن ، ويسر لهم سبل الضرب في الأرض ، فما شكروه على هذه النعم ، ولا عبدوه على هذا الفضل ، بل نصبوا من أنفسهم عدة لحرب دينه ورسوله والمسلمين .

فكان لزاماً عمل أي شيء لكسر شوكتهم ، ودرء خطرهم .

قال الله تعالى : ﴿ لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۚ إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ ﴾ .

أي ليعبدوا رب هذا البيت على هذه النعم .

١٢ - غزوة سفوان وهي بدر الأولى :

وسفوان واد معروف من ناحية بدر .

وكان سبب هذه الغزوة أن كُرِّز بن جابر الفهري أغار على سرح المدينة - وهي الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة - وهرب ، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه - وذلك بعد رجوعه من غزوة العُشيرة بليال قلائل لم تبلغ العشرة ، فسار حتى بلغ سفوان وفاته كرز ، فرجع ولم يلق حرباً ، وتسمى هذه الغزوة بدر الأولى .

يدرك القارئ من خلال ما ذكرنا أن رسول الله ﷺ كان همه بعد هجرته شغل نفوس أعدائه الخطرين عليه وهم أهل مكة ، لأنهم العقبة القاسية في

وجه دعوته وراحة أصحابه ، فكان في مناوراته وتحركاته نحوهم يرغب أن يصيب لئهم بالأرق ، ونفوسهم بالقلق ، ليري من حولهم من العرب والأعراب ، أنهم أصبحوا في مهب رياح الدعوة ، فلا يشكلون كبير خطر على غيرهم من الناس ، فينفسح المجال أمام الناس ليعيدوا النظر في رؤيتهم لهذا الإسلام بحرية وأمان .

١٣ - سرية عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة

بطن نخلة : واد على ليلة من مكة ، وهذه السرية كانت سرية استطلاع ، ورصد لحركات قريش ، وتنقلاتها ، وأراد رسول الله ﷺ أن يحوط هذه السرية بالكتمان والسرية ، محافظة على أفرادها لقلتهم فإنها كانت من ثمانية أفراد من المهاجرين ، يقودهم عبد الله بن جحش .

وقد زود رسول الله ﷺ هذه السرية بكتاب ، وأمرهم أن لا ينظروا فيه إلا بعد يومين من سيرهم نحو مكة ، فلما فتحوا الكتاب بعد ذلك وجدوا فيه : «إذا نظرت في كتابي هذا ، فامض حتى تنزل نخلة ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم» .

ومن هذا تعلم أن رسول الله ﷺ كان يعير قريشاً اهتماماً بالغاً ، ويحتاط لها بكل أسباب الحذر والحيلة ، لأنها العدو الأول ، والأشد في وجه الدعوة .

وسارت هذه السرية المتواضعة في عددها نحو هدفها تكلؤها رعاية الله عز وجل ، وفي أثناء السير تخلف سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان رضي الله عنهما ، لأنهما قد أضلا بغيراً لهما كانا يعتقبانه ، وسار الباقيون حتى وصلوا «نخلة» فمرت بهم غير لقريش تريد مكة ، فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان ، فتشاور المسلمون ، ثم أجمعوا أمرهم على مهاجمة القافلة ، وأخذ ما فيها ، فحملوا عليهم ، وكان ذلك في آخر يوم من رجب من السنة الثانية من الهجرة الشريفة ، فقتلوا عمرو بن الحضرمي ، وأسروا عثمان ، والحكم ، وهرب نوفل ،

واستاقوا العير ، ثم رجعوا إلى المدينة ، ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم .

قال ابن هشام : كان عمرو بن الحضرمي أولَ مشرك قتله المسلمون ، وكان عثمانُ والحكمُ أولَ أسيرين أسروهما ، وكانت هذه العيرُ أولَ غنيمة غنموها .

لكن المشركين واليهود اصطادوا هذه المناسبة ليعيبوا بها المسلمين ، بأنهم استحلوا حرمة الأشهر الحرم ، وقتلوا فيها ، مما حمل بعض المسلمين على تعنيف هذه السرية ، سيما وأن رسول الله ﷺ لم يأمرهم بالقتال ، وإنما كلّفهم بالاستطلاع ، ورصد أخبار قريش . حتى شعر أفراد هذه السرية بشيء من الحرج .

لكن الله عز وجل فرج عنهم ، وتولى الدفاع عن مواقفهم ، وأنزل فيهم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

فسرّي بذلك عن المسلمين ، واطمأنت قلوبهم .

وقد طلب المشركون فداء أسيريهما ، فرفض رسول الله ﷺ واحتاط لصاحبيه ، وهذا من برّه ووفائه . وقال للمشركين ، لا نفاذي أسيريكم حتى يرجع سعد ، وعتبة - وقد كانا - كما ذكرنا - قد تخلفا عن السرية - فلما رجعا سالمين ، قبل ﷺ الفدية من الأسيرين ، وأطلقهما .

فأما الحكم فأسلم وحسن إسلامه ، وأما عثمان فلحق بمكة كافراً .

هذا ونحب أن نلفت النظر إلى أن النبي ﷺ لم يشرك في هذه الغزوات والسرايا أحداً من الأنصار ، وإنما كان عدتها المهاجرين وحدهم ، حتى كانت غزوة بدر الكبرى فاشتركوا فيها .

وهذا منه ﷺ وفاء لهم ، وتمسك بظاهر عهدهم وصريح بيعتهم ، فقد شرطوا له أن يمنعوه في دارهم إذا هاجر إليهم ، وقد وقف الأنصار في هذه

الفترة على مدى ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحنكة والمهارة ، والإخلاص وحسن الرعاية لأصحابه ، والقيادة لهم ، والكفاح بهم ، فازدادوا يقيناً ، وله فداء ، ولدينه تضحية ، وسنستمع إلى قائلتهم التي أعلنوها له في بدر حين خصّهم بالخطاب ، وقال لهم : «أشيروا عليّ أيها الناس» .

١٤ - تشريعات سياسية ودينية واقتصادية :

أ - تشريعات سياسية : موضوع القبلة :

كان رسول الله ﷺ في إدارته ، وسياسته ، وقيادته يتحرك على كل الصُّعد ، ويُنسّق بين كل المواقف ، ويرعى كل الشؤون التي تعنيه ، وتعني أمته ، ودعوته ، يداري من يداري لحكمة ، ويسالم من يسالم لمصلحة ، ويسعى لتأليف القلوب ، وتقريب الناس إلى الدين بما يراه مفيداً ، ومن هنا رأى ﷺ - بعد أن هاجر ، وجاهرت قريش بعداوته وأصرت عليها ، وبعد أن وادع اليهود ، وفتح لهم أبواب النظر إلى محاسن دعوته - أن يتخذ من السياسة ما يضابق قريشاً ، التي كانت تزعم أنها سادنة البيت ، وأهل الكعبة ، وذلك بتحويل أنظار الناس عن بيتهم ، ولفت أنظارهم إلى سوء صنيعهم ، كما اتخذ من السياسة أيضاً ما يراود به اليهود ويغريهم بحب الإسلام ، والدخول فيه ، فتوجه ﷺ في صلاته إلى بيت المقدس ، الذي يعظمه أهل الكتاب ، وأمر أصحابه بالتوجه إليه أينما كانوا في صلاتهم وظل على ذلك ستة عشر شهراً ، ﷺ .

ولكن خبث اليهود ، ومكرهم ، وعدم جدوى المراودة لهم ، جعل رسول الله ﷺ يعيد النظر في علاقته بهم ، فتاقت نفسه ، وتطلعت أن يعود في صلاته إلى الكعبة متوجهاً إليها ، وقد جاءه الإذن من الله عز وجل والأمر بالتوجه إليها بعد تلك المدة التي كان من شأنها أن تفتح مغاليق قلوب اليهود ، لو كان فيها أثارة من خير ، أو بقية من معروف .

قال الله عز وجل : ﴿ قَدْ زَرَى نَفْلُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَلِّسَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴿١٤٥﴾ [البقرة: ١٤٤ - ١٤٥] أي
بعد الآن .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ إلى بيت
المقدس ستة عشر شهراً ، حتى نزلت الآية التي في البقرة: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ رواه مسلم (٥٢٥) في المساجد .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينما الناس في صلاة الصبح
بقباء إذ جاءهم آت ، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة ، وقد أمر أن
يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى
الكعبة . رواه البخاري (٤٤٩٠) في التفسير ، ومسلم (٥٢٦) في المساجد .

لقد رجع رسول الله ﷺ إلى الكعبة ، ووضع اليهود في مأزق ، يثير الريب
في ولائهم وصفائهم ، ويرفع درجة التوتر ضدهم ، والعزلة لهم ، ويفتح
بصيصاً من الأمل نحو تليين غطرسة قريش ، ووجوب تراخيها عن حدتها
المعروفة نحو المسلمين .

إن القوى المعادية للإسلام تستغل دائماً أي تحركات أو تغيرات لتوظيفها
في الإساءة إلى الإسلام ، فلم تتأخر فلول اليهود والمنافقين ، والمشركين عن
إثارة الهزء والطعن في قضية تحويل القبلة ، فقال اليهود: اشتاق محمد إلى بلد
أبيه ، وهو يريد أن يرضي قومه ، ولو ثبت على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النبي
الذي كنا ننتظر أن يأتي . «عيون الأثر» ٣٦٧/١ .

وقالوا: لقد خالف محمد قبلة الأنبياء ، ولو كان نبياً لما خالف . «الفتح»
٢١/٨ .

وقال أهل النفاق: لو كان محمد أولاً على الحق فالذي انتقل إليه باطل ،
وكذلك العكس . «الفتح» ٢١/٨ .

وقال المشركون: رجع محمد إلى قبلتنا ، وسيرجع إلى ديننا ، فإنه علم أنا
على الحق . «الفتح» ٢١/٨ .

وقال بعضهم تحيّر على محمد دينه ، فاستقبل قبلكم ، وعلم أنكم أهدى منه ، ويوشك أن يدخل في دينكم . «عيون الأثر» ٣٦٧/١ . هزء لاذع ، ومكر خبيث ، يمكن أن يجعل المسلمين في مهبط عاصفة لولا صدق الإيمان في قلوبهم ، وحنكة الرسول ﷺ في رعايتهم ، ولولا عناية الله تعالى التي كانت ترعاهم ، وتقف من ورائهم ، فأنزل الله عز وجل قوله الفصل ، وكلمه الحكيم في أولئك الحمقى ، والمهرجين ، ووصفهم بما هم أهل له ، فقال عز من قائل :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ١٤٢] .

لقد سماهم جميعاً سفهاء ، والسفهاء جمع سفيه ، وهو خفيف العقل ، قليل الفهم ، وهم كذلك ، بل هم دون ذلك .

والذي يقرأ ذلك ، ويقف عليه يدرك مدى الصراعات التي كانت تتعاكس داخل المجتمع وخارجه ، ويدرك ما يجب أن تكون عليه القيادة من الحكمة ، ونفاذ البصيرة لتسخر كل ذلك في ركاب مصالحها ، وقد أوتي رسول الله ﷺ من المهارة والحدق ما جعله يستغلها كلها لصالح صحبه ، ودعوته ، ويخلف الأعداء وراءه في سفاهة وخسارة ، وخيبة آمال .

ب - تشريعات دينية - صيام رمضان وصلاة العيد :

إن أول عبادة فرضت بعد الصلاة ، صيام شهر رمضان ، لتشد مع الصلاة أزر العقيدة التي يجب أن ترسخ ، وتتحصن باستمرار ، لأنها المعين المتدفق الذي يمد المسلم على الدوام بالطاقات الروحية والعملية التي تحفظه مستقيماً على الدرب الطويل .

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : فرض صوم شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر ، في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ «عيون الأثر» ٣٧٣/١ .

وقد نزل قول الله عز وجل : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى

لِّلنَّاسِ وَيَبَيِّنَ لِّلْمُهْدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴿١٨٥﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقد أكد رسول الله ﷺ على المسلمين ، صومه وأمرهم أن يستغلوه على أحسن وجوهه ، وأن يتربوا فيه على خير وجوه التربية ، وأبان لهم ما في صيامه من المثوبة . وما في قيامه من الأجر فقال :

«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» . رواه البخاري (٣٨) في الإيمان ، ومسلم (٧٦٠) في صلاة المسافرين .

وقال : «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه مسلم (٧٥٩) في صلاة المسافرين .

وأكرم الله عز وجل المسلمين في هذا الشهر المبارك بليلة القدر التي تفوق العبادة فيها عبادة ألف شهر .

قال رسول الله ﷺ : «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه البخاري (٢٠١٤) في فضل ليلة القدر ، ومسلم (٧٦٠) في صلاة المسافرين .

وقال ﷺ : «تحمروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» رواه البخاري (٢٠١٧) في فضل ليلة القدر .

وفي هذا السبيل كان رسول الله ﷺ يعتكف في المسجد العشر الأخير من رمضان ، وحاكاه في ذلك أزواجه وأصحابه .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده . رواه البخاري (٢٠٢٦) في الاعتكاف ومسلم (١١٧٢) في الاعتكاف .

وفي هذه السنة سنَّ المصطفى ﷺ صلاة العيدين ، وكان أوَّل صلاة صلاها صلاة عيد الفطر .

وكان يخرج بأصحابه إلى الفضاء الواسع ، والمكان الرحب خارج

المسجد ، فيصللي بأصحابه صلاة العيد ، ويخطبهم بعدها ، ويأمر أصحابه ، حتى النساء للخروج إلى المصلى وشهود الخير في هذا اليوم المبارك .

عن أم عطية رضي الله عنها قالت : «كُنَّا نؤمر أن نخرج يوم العيد ، حتى نخرج البكر من خدرها ، حَتَّى نُخْرِجَ الْحَيْضَ ، فَيَكُنَّ خَلْفَ النَّاسِ ، فَيَكْبُرْنَ بتكبيرهم ، ويدعون بدعائهم ، يَرْجُونَ بركة ذلك اليوم وطهرته» . رواه البخاري (٩٧١) في العيدين ، ومسلم (٨٩٠) في العيدين .

ج - تشريعات اقتصادية : الزكاة ، والأضحية :

أخى رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وعدَّهم كالجسد الواحد ، وكالبنیان المتين يشد بعضه بعضاً ، وقال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه . رواه البخاري (٦٠٢٦) في الأدب ، ومسلم (٢٥٨٥) في البر .

وقال : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» . رواه البخاري (٦٠١١) في الأدب ، ومسلم (٢٥٨٦) في البر .

وبناء عليه أمرهم رسول الله ﷺ بالتعاون ، ونهاهم عن التجافي والتخاذل ، والتخلي عن حمل المسؤولية ، فقال : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يُسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كُرْبَةً فرَّج الله عنه بها كُرْبَةً من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» رواه البخاري (٢٤٤٢) في المظالم ، ومسلم (٢٥٨٠) في البر .

وقال : «المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضُه وماله ودمه ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» . رواه الترمذي (١٩٢٧) في البر .

وقال : «لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه» . رواه البخاري (١٣) في الإيمان ، ومسلم (٤٥) في الإيمان .

وقال : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا

عباد الله إخواناً». رواه مسلم (٢٥٦٤) في البر .

وقال : «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ : إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمْدُ اللَّهِ فَشِمْتُهُ ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدُّهُ ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ» . رواه مسلم (٢١٦٢) في السلام .

في هذه المواقف الهادية الهادفة الرائدة التي تعبر عن فن القيادة ، ومهارة التأليف ، والبناء ، كان رسول الله ﷺ ينطلق من مثل هدي الله عز وجل في محكم كتابه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

هذا البناء الرصين المتين ، المتمثل في أخوة المؤمنين وحب بعضهم لبعض لا بد له من نظام تعاوني تكافلي يحميه القانون ، وتمده عاطفة الإيمان ، والمودة ، فكان أن أوجب رسول الله ﷺ فريضة الزكاة في العام الثاني بعد هجرته :

ففرض زكاة الفطر ، بعد رمضان .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر على الناس : صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ، على كل حرّ أو عبد ، ذكر أو أنثى من المسلمين . رواه البخاري (١٥٠٤) في الزكاة ، ومسلم (٩٨٤) في الزكاة .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين ، من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات . رواه أبو داود (١٦٠٩) في الزكاة .

لقد كانت هذه الزكاة فريضة التواصي يوم عيد الفطر بين المسلمين ، وكانت تشكل بعض القوة الاقتصادية في أيدي شريحة من المسلمين ، تمكنهم من شراء حاجاتهم في ذلك الموسم المبارك ، واليوم العظيم .

وتلي زكاة الفطر في الترتيب زكاة الأموال ، فقد أوجبها النبي ﷺ على

المسلمين في أموالهم بعد زكاة الفطر ، من السنة الثانية من هجرته الشريفة ، وفتح بها أبواباً أوسع من أبواب التعاون والتكافل بين المسلمين بحيث تنحسر مادة الحاجة ، وتوصد أبواب العوز ، ويعيش الناس في كفاية ووثام ، لقد أوجب الزكاة في النقود ، والمتاجر ، والأنعام ، والثمار ، والزروع بشروط ونسب معلومة ، وهي بهيكلها وفروعها تغطي مصالح اقتصادية لطوائف كثيرة من المسلمين ليس هنا مجال تفصيلها .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الطوائف المنتفعة من هذه الشعيرة الاقتصادية التعبدية .

فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما أرسله إلى اليمن : « فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فتردُّ إلى فقرائهم » . رواه البخاري (١٤٥٨) في الزكاة ، ومسلم (١٩) في الإيمان . وحتى تكتسب هذه الزكاة قوة الإلزام ، والالتزام قال رسول الله ﷺ :

« من أعطى زكاة ماله مؤتجراً فله أجرها ، ومن منعها ، فإننا آخذوها وشطرن ماله ، عزيمة من عزمات ربنا عز وجل ، ليس لآل محمد منها شيء » . رواه أحمد ٢/٥ ، وأبو داود (١٥٧٥) في الزكاة .

ورغب ﷺ في الأضحية ، وجعلها صدقة أيام عيد الأضحى يوسع بها المسلم على أهله ، وجيرانه ، وإخوانه من المسلمين ، ويشاركهم أفراحهم بالتمتع والتنعم بما خلق الله عز وجل من الطيبات .

وإذا أنعم الله تعالى على عبد بولد ذكر أو أنثى ، فقد سنَّ له النبي ﷺ أن ينسك عنه بشاة شكراً لله عز وجل ، وتطيباً لقلوب الناس بإشراكهم بالأكل من هذه النسكة أو العقيقة التي من شأنها أن تؤلف القلوب ، وتهيء بعض السعة على المعوزين .

قال رسول الله ﷺ: «يا أيُّها الناس ضُحُّوا ، واحتسبوا بدمائها ، فإن الدم وإن وقع في الأرض ، فإنه يقع في حِرْزِ الله عز وجل» ذكره المنذري في الترغيب ٢/٢٧٨ ، وقال: رواه الطبرني في «الأوسط».

وقال: «من ضَحَّى طيبةً نفسه مُحتسباً لأضحيته كانت له حجاباً من النار». ذكره المنذري في «الترغيب» ٢/٢٧٨ ، وقال رواه الطبراني في «الكبير».

وقال ﷺ في العقيقة: «من ولد له ولدٌ فأحب أن ينسك عنه فليُنسك ، عن الغلام شاتان متكافئتان ، وعن الجارية شاة». رواه أبو داود (٢٨٤٢) في الأضاحي.

وقال: «مع الغلام عقيقته ، فأهريقوا عنه دماً ، وأميطوا عنه الأذى». رواه البخاري (٥٤٧٢) في العقيقة.

هذه التشريعات المبكرة بعد الهجرة الشريفة كان لها دورها الإنساني والاجتماعي ، والتعبدية ، وهي من شأنها أن تريك مدى حذق النبي ﷺ في ترتيب مجتمعه ، وتنظيم أحواله ، ورعاية شؤونه ، والسير به نحو الفضل والكمال يوماً بعد يوم ، وفي سيرته الكريمة هذه دروس وعبر لكل الدعاة والمصلحين.

١٥ - غزوة بدر الكبرى:

هذه الغزوة التي كانت صبيحة يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان لستين خلتا من الهجرة الشريفة ، كانت الأولى من نوعها بين الإسلام وأعدائه. وقد تجلّى في هذه الغزوة مهارات رائدة للقائد العظيم سيدنا محمد ﷺ ، وأصحابه الكرام كما تجلت فيها آيات بينات من تأييد الله تعالى لجنده المؤمنين ، ودينه القويم ، ويمكن أن تلمح بين هذه المهارات ما يلي.

أ - تصميم النبي ﷺ على مضايقة قريش ، والتحرش بهم وإرباك اقتصادياتهم ، باعتبارهم بما يملكون من أموال ومكانة الخطر الأكبر على الإسلام والمسلمين ، وأنهم البادؤون بالعدوان ، والدائبون عليه ، وقد

وصفهم الله تعالى بقوله الكريم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقْدِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧].

لذلك كان من العدل والإنصاف أن يتعرض لهم رسول الله ﷺ دفاعاً عن النفس ، وتأميناً لحرية الدعوة إلى الله تعالى . وقد أرسل السرايا نحو قريش لهذا الغرض ، وخرج بنفسه في غزوة ودّان ، والبواط ، والعُشيرة ليتعرض لقريش في تجارتها .

ولقد كان بعد غزوة العُشيرة يترصد قافلة قريش التي فاتته إلى الشام ، كان يترصد رجوعها إلى مكة ، وها هي الآن تعود ، فلا بدّ من قطع الطريق عليها .

ب - إذا أراد الله تعالى شيئاً هياً أسبابه ، فقد أفلتت العير من القبضة ، وكان لا بدّ من لقاء النفير ، وفي هذا ما فيه من العزّة والمصلحة التي يعلمها رب العزة لعباده المؤمنين ، فقد ذكر الربّ عز وجل أن الغرض من الخروج كان القافلة ، ولكن الله تعالى أراد العزة الخالدة ، فقال: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [٧] لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٧ - ٨].

ج - لما علم رسول الله ﷺ أن قريشاً خرجت بخيلها وخيلائها تحارب الله ورسوله ، وتدافع عن ثرائها ، لم ينفرد برأيه ، ولم يُغفل مواهب أصحابه ، بل وضعهم أمام مسؤولياتهم وعرض القضية برمتها عليهم ، وهذا من مهارات القائد العظيم ، فإنه مهما سمت به المواهب ، وتعددت في شخصه الفضائل فلن يهمل ما عند الآخرين ، وإنما يريد أن يؤصّل الدوافع الذاتية في تطلعاتهم ، ويجعلهم شركاءه في كفاحهم .

والصحابة الكرام كانوا على المستوى العظيم إيماناً ، وحذقاً واستجابة وتضحية ، وثقة بحكمة قائدهم ومهاراته ، فلم يخيبوا له فيهم ظناً ، ولم يكتموا رأياً .

د- وكان من حكمته وحذقه ﷺ إدراكه مدى ما يمكن أن يتقدم إليه أصحابه من نصائح الحرب ، وخطط الكرّ والفرّ ، فيشجعهم عليها ، ويعمل بها ، ويستجيب إليها .

هـ- ومن حكمته أنه كان ﷺ لا يغفل وسيلة مادية أو معنوية يمكن أن تشد أزر أصحابه إلا استعملها بحذق وإتقان ، فكان يبشر بالنصر ، ويشير إلى مصارع القوم وعواقب المعركة ، ويضع خطط اللقاء ، ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء ، ويلح عليه بالنصر ، ويستعمل الوسائل المادية ، والخارقة أحياناً لتأييد الحق ، واكتساب النصر .

وسترى فيما نقله عن علماء السيرة في هذه الغزوة بعض تلك المعالم الهادية .

قالوا في هذه الغزوة المباركة :

إن سببها أن النبي ﷺ سمع بغير تجارية لقريش قادمة من الشام بإشراف أبي سفيان بن حرب ، فندب المسلمين إليها ، ليأخذوها لقاء ما تركوا من أموالهم في مكة ، فخف بعضهم لذلك وتناقل آخرون ، إذ لم يكونوا يتصورون قتالاً في ذلك .

وتحسّس أبو سفيان الأمر وهو في طريقه إلى مكة ، فبلغه عزم المسلمين على خروجهم لأخذ العير ، فأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة ليخبر قريشاً بالخبر ويستنفرهم للخروج محافظة على أموالهم .

فبلغ الخبر قريشاً ، فتجهزوا سراعاً ، وخرجوا كلهم قاصدين الغزو ، حتى إنه لم يتخلف من أشراف قريش أحد ، وكانوا قريباً من ألف مقاتل .

وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان مع أصحابه وكانوا ، فيما رواه ابن إسحاق ، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً ، وكانت إبلهم سبعين ، يتعاقب على الواحدة منها اثنان أو ثلاثة من الصحابة ، وهم لا يعلمون من أمر قريش وخروجهم شيئاً ، أما أبو سفيان فقد أتيح له أن يحرز عيره ، إذ سلك

طريق الساحل إلى مكة وجعل ماء بدر عن يساره ، وأخذ يسرع حتى أنجى غيره وتجارته من الخطر .

ثم إن النبي ﷺ أتاه خبر مسير قريش إلى المسلمين ، فاستشار من معه من أصحابه ، فتكلم المهاجرون كلاماً حسناً ، وكان منهم المقداد بن عمرو ، فقد قال : يا رسول الله ! إمض لما أمرك الله فنحن معك . . . ولكن النبي ﷺ ظل ينظر إلى القوم ويقول لهم : أشيروا علي أيها الناس . فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل . فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ؟

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين . . . والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

ثم إن النبي ﷺ أخذ يتحسس أخبار قريش وعددهم عن طريق العيون التي بثها حتى علم المسلمون أنهم ما بين التسعمائة والألف ، وأن فيهم عامة زعماء المشركين .

وقد كان أرسل أبو سفيان إليهم أن يرجعوا إلى مكة ، إذ إنه قد أحرز العير ، ولكن أبا جهل أصر على المضي ، وكان مما قال : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا .

ثم إنهم مضوا حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي ، ونزل رسول الله ﷺ عند أدنى ماء من مياه بدر . فقال الحباب بن المنذر : يا رسول الله : رأيت هذا المنزل ، أمزلاً انزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب المكيدة ؟ قال : بل هو الحرب والرأي والمكيدة ، فقال : فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فنهض رسول الله ﷺ وتحول إلى المكان والرأي اللذين أشار بهما الحباب رضي الله عنه .

واقترح سعد بن معاذ أن يُبنى عريش للنبي ﷺ يكون بمأمن فيه رجاء أن يعود سالماً إلى من تخلف من المسلمين في المدينة وأن لا ينكبوا بفقدته ، فوافق عليه الصلاة والسلام على ذلك . ثم أخذ يطمئن أصحابه بتأييد الله ونصره . حتى إنه كان يقول : هذا مصرع فلان ، ومصرع فلان (أي من المشركين) وهو يضع يده على الأرض ههنا وههنا فما ترحزح أحدهم في مقتله عن موضع يده .

وراح رسول الله ﷺ يجأر إلى الله تعالى بالدعاء مساء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان ويقول : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم الغداة . وظل يناشد الله متضرعاً وخاشعاً وهو ييسط كفيه إلى السماء حتى أشفق عليه أبو بكر رضي الله عنه ، فالتزمه من ورائه وقال له : يا رسول الله ! أبشر فوالذي نفسي بيده لينجزن الله لك ما وعدك . وأقبل المسلمون أيضاً يستنصرون الله ويستغيثونه ويخلصون له في الضراعة .

وفي صبيحة يوم الجمعة لستين خلتما من الهجرة بدأ القتال بين المشركين والمسلمين ، وأخذ النبي ﷺ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً وقال : شأهت الوجوه ، ثم نفحهم بها فلم يبق فيهم رجل إلا امتلأت عيناه منها ، وأيد الله المسلمين بالملائكة يقاتلون إلى جانبهم ، وانحسر القتال عن نصر كبير للمسلمين ، وقتل في تلك الموقعة سبعون من صناديد المشركين ، وأسر سبعون ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً .

وألقيت جثث المشركين الذين صُرِعوا في هذه الغزوة - وفيهم عامة صناديدهم - في قليب بدر وقام رسول الله ﷺ على ضفة البئر فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان ويا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.

واستشار النبي ﷺ أصحابه في أمر الأسرى ، فأشار عليه أبو بكر رضي الله عنه أن يأخذ منهم فدية من المال تكون قوة للمسلمين ويتركهم عسى الله أن يهديهم ، وأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتلهم لأنهم أئمة الكفر وصناديده ، ولكن النبي ﷺ مال إلى ما رآه أبو بكر من الرحمة بهم وافتدائهم بالمال ، وحكم فيهم بذلك . غير أن آيات من القرآن نزلت عتاباً لرسول الله ﷺ في ذلك ، وتأيداً للرأي الذي رآه عمر من قتلهم ، وهي قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتُخِذَ فِي الْأَرْضِ نَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧٧ ﴾ ﴿ لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧٨ ﴾ ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَنفِقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩] .

«فقه السيرة» ص: ٢١٤ - ٢١٧ .

وقد نزل من القرآن الكريم ما يشير إلى بعض تلك الآيات التي كانت في بدر ، وأكرم الله تعالى بها نبيه ﷺ والمسلمين .

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ٩ ﴾ ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠ ﴾ ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ١١ ﴾ ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاؤُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١٣ ﴾ ﴿ ذَلِكَمُ فَدُوهُهُ وَأَنَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ ﴾ [الأنفال: ٩ - ١٤] .

الوصية بالأسرى:

ومن برّه ﷺ ، ورحمته ، وكمال إنسانية ، وحسن نظره في العواقب أنه

أوصى بالأسرى خيراً ، فإنه ربما أسلم بعض هؤلاء الأسرى ، فيكون لحسن معاملتهم أثر في نفوسهم .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ رهن إشارة نبيهم لا يأمرهم بأمر إلا كانوا أطوع إليه من بنانه .

فلما أمرهم بالإحسان إلى الأسرى تباروا في إكرامهم طاعة لرسول الله ﷺ وبراً به .

ذكر الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٦٦/٤ أن أبا عزيز أخا مصعب بن عمير وكان في الأسرى ، قال : كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قَدَّموا غذاءهم وعشاءهم خَصُّوني بالخبز ، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفخني بها ، فأستحيي فأردها على أحدهم فيردها عليّ ما يمسيها .

وقد أثنى الله عز وجل على طوائف من هذا القبيل بقوله الكريم : ﴿ وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِنَاتِهِمْ وَيَتِيمَاتِهِمْ وَأَسِيرَاتِهِمْ ﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿
[الإنسان : ٨ - ٩] .

١٦ - غزوة بني سليم :

كان رسول الله ﷺ - بحكمته ومهارته - خفيف الحركة بعيد النظر ، شديد الملاحظة لتحركات أعدائه ، لا يمنحهم فرصة مباغتته ، والنيل منه ، فما إن يُحسُّ بريية في ناحية من النواحي . أو جماعة من الناس إلا طار إليهم على جناح السرعة قبل أن يتمكنوا من تبييت غدر ، أو القيام بمفاجأة ، فيبيتهم هو ، ويكتفي شرهم ويستفيد بما يستفيد من غنائمهم ، لتكون عوناً له ، وكسراً لشوكة المشركين ، وهم حريصون على أذاه ، وشلّ حركته ، وهزيمة أصحابه .

فما دام العدو يمكر بنا ويستحل أموالنا فمن العدل أن نعامله بالمثل والله عز وجل يقول : ﴿ فَمَنْ أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ فَأَعَدَّوْا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

ومن هذا المنطلق - لما سمع رسول الله ﷺ ، أن جمعاً من سُليم و غطفان قد عسكروا وتجمّعوا عند بعض مياههم بمكان يقال له : الكُدْر خرج إليهم بمنتهى السرعة بمئتين من أصحابه ، بعد أن استخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطَة الغفاري ، وحمل لواءه الأبيض علي بن أبي طالب ، وسار حتى بلغ مياههم ، فوجدهم قد تفرقوا ، فأرسل ﷺ نفرأ من أصحابه في أعلى الوادي ، واستقبلهم رسول الله ﷺ في بطن الوادي ، فوجدوا رعاء القوم في أنعامهم ، فاستاقوها ورجعوا ، وفي الطريق على ثلاثة أميال من المدينة ، قسم رسول الله ﷺ غنائمهم وكانت خمس مئة بعير ، فأخذ خمسها ، وقسم أربعة أخماسها بين أصحابه ، فأصاب كل رجل منهم بكَرَانٍ ، فأغاظ رسول الله ﷺ العدو ، وأدخل على قلوبهم الرعب ، وشكر الله على ما أنعم به من النصر والغنيمة .

١٧ - غزوة غطفان :

وهذه - كسابقتها : غزوة بني سُليم - كان سببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن جمعاً من بني ثعلبة وبني محارب من غطفان تجمعوا برئاسة كبيرهم : دُعْثُور بن الحارث بن محارب ، يريدون الغارة على المدينة ، فأراد رسول الله ﷺ أن يغلّ أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء ، فخرج إليهم في أربع مئة وخمسين رجلاً من أصحابه ، بعد أن استخلف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلما سمعوا بسير رسول الله ﷺ هربوا إلى رؤوس الجبال ، ولم يزل رسول الله ﷺ والمسلمون معه سائرين حتى وصلوا إلى ماء يسمى «ذا أمر» فعسكروا به ، وهنا أصاب رسول الله ﷺ وأصحابه مطر شديد ، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة ، ونشر ثيابه لتجفّ ، واضطجع ، والمسلمون متفرقون ، فأبصره دُعْثُور ، فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه ، وقال : من يمنعك مني يا محمد؟ فقال : «الله» . فأدركت الرجل هيبَةٌ ورُعْبٌ أسقطا السيف من يده ، وقيل : إن جبريل دفع في صدره ، فوقع السيف من يده . فتناول رسول الله ﷺ السيف ، وقال لدُعْثُور : «من يمنعك مني؟» قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً .

فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه ، وعفا عنه ، فرجع إلى قومه يدعوهم للإسلام ، وقد حول الله قلبه من عداوة رسول الله ، وجمع الناس لحربه ، إلى محبته ودعوة الناس إلى الإيمان به .

هذا ما يولده بعدُ النظر ، والبصرُ في الأمور ، وحسنُ المعاملة حتى للأعداء ، فلقد كان رسول الله ﷺ كما وصفه ربّه عز وجل : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] .

لقد عاد رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة بعد هذه الغزوة التي أدخلوا بها الرعب في قلوب المشركين ، ولم يلقوا كيداً ، ولا أضربوا بأحد .

١٨ - غزوة بني قينقاع :

بنو قينقاع إحدى طوائف اليهود الذي كانوا يسكنون المسلمين في المدينة قريظة ، والنضير ، وبنو قينقاع .

ومعلوم أن اليهود كلهم وادعوا النبي ﷺ حين قدم المدينة ، وكتب بينه وبينهم كتاباً ، وجعل بينه وبينهم أماناً ، وشرط عليهم شروطاً ، منها ألا يظاهروا عليه عدوّاً ، فلما كان يوم بدر ، وكان للمسلمين النصر ، شرق الأخبار بريقهم ، وكان يهود بني قينقاع أوّل يهود نقضوا العهد ، وأظهروا البغي والحسد ، فلم يمهّلهم رسول الله ﷺ حتى جمعهم بسوق بني قينقاع ، وقال قولته المشهورة التي تنمُّ عن حذقه ، وسياسته ، ومعالجته الأمور في حينها .

«يا معشر يهود أسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أنني رسول الله ، يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، فأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنني مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، وعهد الله إليكم» .

فأجابوا بصلف وغرور ، وتبجح ، وقالوا: يا محمد ، إنك ترى أنا مثل قومك؟ لا يغرّئك أنّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، ولنا والله لئن حاربتنا لتعلمنّ أنا نحن الناس .

فأظهروا العداوة ، وتبجحوا بالقوة ، وأصروا على الكيد والخيانة ،
وصدق الله عز وجل حيث قال فيهم : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران : ١١٨] .

لقد كانوا على استعداد أن يعبروا عن مكنون ضمائرهم بكل ما يستطيعون
من الكيد والأذى ، غير مباليين لسخفهم ، وعمى قلوبهم بما يمكن أن تجره
عليهم سخافاتهم وأضغاثهم ، وغير ملتفتين إلى ما يتمتع به النبي ﷺ وأصحابه
من اليقظة والجد ، والحذر ، والقدرة على رد الكيد ، واجتثاث شأفة الخطر .

روى ابن هشام أن امرأة من العرب قدمت بجلب - بضاعة - لها ، فباعته
بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف
وجهها ، فأبت رضي الله عنها لعلمها بمكان العفة في الدين ، والستر في
الإسلام .

فعمد الصائغ - بخبثه - إلى طرف ثوبها من ورائها ، فعقده إلى ظهرها ،
وهي لا تشعر ، فلما قامت انكشفت عورتها ، فضحكوا منها ، فصاحت ،
فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدّت اليهود على المسلم
فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ،
ووقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع ، فكان هؤلاء أوّل يهود نقضوا العهد ،
وتمالؤوا على الغدر ، واستخفوا بالعواقب ، والاستهانة بالحرّمات .

أما رسول الله ﷺ فلم يكن غائباً عن الأحداث ولا متشاغلاً عنها ،
ولا مهملاً لها ، بل كان على يقظة وحذق بما ينبغي أن يكون عليه أسلوب
العلاج ، وطريقة مكافحة الداء ، فخرج إليهم ﷺ ، وحاصرهم مدّة وألقى
إليهم بعهودهم ، وأوقفهم على غدرهم وخيانتهم ، وطلب إليهم أن ينزلوا على
حكمه ، فلم يكن لهم بدٌّ من طاعته ، والرضوخ له .

وأمام هذا الموقف قام المنافق الكبير عبد الله بن أبي بن سلول بدوره
الديني المعبر عن نفاقه ، وعمّا يكنه للإسلام والمسلمين من حسد وبغضاء ،
فقال : يا رسول الله ، أحسن في موالي .

فلم يلتفت إليه رسول الله ﷺ .

فكرر قوله ثانية ، فلم يلتفت إليه رسول الله ﷺ .

فأدخل يده في جَيْبِ دِرْع رسول الله ﷺ من خلفه .

فقال له رسول الله ﷺ : «ويحك ، أرسلني» .

وغضب رسول الله ﷺ ، حتى رأوا لوجهه ظُللاً - تغيراً - ثم قال له :
«ويحك أرسلني» .

قال : لا والله ، لا أرسلك ، حتى تُحسن في مواليّ : أربع مئة حاسر ،
وثلاث مئة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ،
إني والله امرئ أخشى الدوائر .

فقال له رسول الله ﷺ : «هم لك ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ،
ولا يجاوروه بها ، فخرجوا نحو أذرعات الشام ، بما يستطيعون حملة من
متاعهم ، وأراح الله تعالى المسلمين من جوارهم .

لكن يمكن لك أن تتساءل لم لأن رسول الله ﷺ لضغوط ذلك المنافق ، فلم
يعاقبه على نفاقه ، وأرخص يده عن أولئك المجرمين ، فتركهم يسيجون في
الأرض ، وأرض الله تعالى واسعة .

ونجيب بأن ابن سلول كان محسوباً في الظاهر على المسلمين ، وهو من
كبار القوم ووجهائهم ، وكان لخبثه يداور ويناور ، ويحاول أن لا يظهر بمظهر
الكفر ، وكان رسول الله ﷺ بحذقه ومهارته يسعى للمّ الشمل ، وتوحيد الصف
وعدم السماح للفتن بالتسلل ، فكان يغضي عن تصرفات هذا المنافق ، ويترك
للأحداث الفرصة لإظهار خبيثته ، وتنفير الناس من حوله ، وتوبيخ المجتمع
له ، وحكمهم عليه بالازدراء .

وأما موقفه ﷺ من اليهود ، فإنه يقوم على عدم حرصه ﷺ على سفك
الدماء ، وترك الفرص أمام الناس ليؤوبوا إلى رشدهم ، ويعودوا إلى عقولهم .

وما كان ﷺ يستعمل الشدة البالغة إلا حينما لا يغني غيرها ، ولم يعد منها بدُّ أبداً .

ويمكنك أن تقرأ موقف عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وكان من حلفاء بني قينقاع قبل الإسلام مثل عبد الله بن أبي ، لكن صدق الدين ، وحق الولاء لله ورسوله ، ناقض بين موقف الرجلين ، وأظهر الأمر جلياً بين الاتجاهين ، فإنه مشى إلى رسول الله ﷺ عند محنة هؤلاء اليهود ، وقال له : «يا رسول الله ، إنني أتولّى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .

لقد غنم المسلمون أموال هؤلاء الفجرة ، وكان بوسعهم أن يعيشوا آمنين منعمين ، لكنهم قوم كما وصفهم الله تعالى ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وفي أحداث بني قينقاع وغيرها تبدى حكمة القائد ، ومهارته في سياسته ، وحذقه في معالجة الأمور ، والسير بالأحداث ، وتسخيرها لمصلحة الأمة ، التي تقود خطاه من نُجح إلى نجاح ، ومن تقدم إلى تقدم .

١٩ - تزويج النبي ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها :

فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ ، سيدة من أعظم سيدات المسلمين ، أمها خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها المرأة الفاضلة الشريفة .

وفاطمة أصغر بنات النبي ﷺ ، وكانت من أحب الناس إلى قلب النبي ﷺ ، وهي سيدة رقيقة تقية ، برة بأسرتها .

خطبها من أبيها أبو بكر ، وعمر رضي الله تعالى عنهما ، فلم يزوجهما ، فقال عمر لعلي رضي الله عنه : أنت لها يا علي .

قال علي رضي الله عنه : قالت لي مولاة لي : هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله ﷺ ؟

قلت : لا .

قالت: فقد خُطبت ، فما يمنعك أن تأتي رسول الله ، فيزوجك .

فقلت: وعندي شيء أتزوَّج به؟

فقالت: إنك إن جئت رسول الله زوجك .

فوالله ما زالت تُرَجِّيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ ، وكانت لرسول الله ﷺ جلالة وهيبة ، فلما قعدت بين يديه أفضحتُ ، فوالله ما أستطيع أن أتكلم .

فقال: «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» .

فسكتُ .

فقال: «لعلك جئت تخطبُ فاطمة؟» .

قلت: نعم .

قال: «وهل عندك من شيء تستحلُّها به؟» .

فقلت: لا ، والله ، يا رسول الله .

فقال: «ما فعلت بالدُّرع التي سلَّختكها؟» .

فقلت: عندي ، والذي نفس علي بيده ، إنها ما ثمنها أربع مئة درهم .

قال: «قد زوجتك ، فابعث بها» .

فإن كانت لصدّاق فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فلما بلغ ذلك فاطمة رضي الله عنها بكت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ ، فقال: «مالك تبكين ، يا فاطمة؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً ، وأولهم سلماً» .

فعلي هو ابن عم رسول الله ، تربَّى في حجر النبي ﷺ ، فاستفاد منه علماً وحلماً ، وزهداً ، وإسلاماً ، فهو حرٌّ أن يخصه بأحب الناس إليه .

عن جُميع بن عمير التميمي قال: سألت عائشة: أي الناس كان أحبَّ إلى رسول الله؟

قالت: فاطمة .

قيل: ومن الرجال؟

قالت: زوجها ، إن كان ، ما علمت صواماً قواماً .
وعن علي قال: سألت رسول الله ﷺ: أئنا أحب إليك ، أنا ، أو فاطمة؟
قال: «فاطمة أحب إلي منك ، وأنت أعز علي منها» .
وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر قبل ابنته فاطمة رضي الله عنها .

وقال لها مرّة: «أما يسرّك أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة؟» .
روى البيهقي عن علي رضي الله تعالى عنه قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة في
خميل - ثوب - وقزبة ، ووسادة آدم - جلد - حشوها إزخر ، نوع من النبات .
«دلائل النبوة» ١٦١/٣ .
هذا جهاز فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وبنت سيد العالمين ، وذاك مهرها ،
درع ثمنه (٤٠٠ درهم) .

وكان سنّها رضي الله عنها يوم تزوجت خمس عشرة سنة ، وخمسة أشهر ،
وكان عمر علي يومها إحدى وعشرين سنة . وقد ولدت لعلي رضي الله عنهما
البنين والبنات ، وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا منها .
توفيت رضي الله عنها لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة ،
بعد وفاة النبي ﷺ بستة أشهر ، وكان عمرها إذ ذاك تسعاً وعشرين سنة ، غسلها
علي ، وأسماء بنت عميس ، وصلى عليها علي ، ونزل في قبرها علي ،
والعباس ، والفضل بن العباس رضي الله عنهم . ودفنت في البقيع ، مقبرة أهل
المدينة .

فرضي الله عنها ، وأرضاها ، وألهم نساء المسلمين ، أن يتخذن من سيرتها
مثالاً يحتذى ، في الزهد ، والدين ، والرضى . انظر «أسد الغابة» ٦/٢٢٠ .

٢٠ - قتل كعب بن الأشرف اليهودي

لقد وادع النبي ﷺ اليهود ، وما وادعوه ، وأمنّهم ، وخانوه ، وداراهم
ولم يداروه ، وهادنهم ، وحاربوه ولم يتركوا وسيلة لأذاه إلا حرصوا عليها .

وكان من أشدهم عليه ، وأكثرهم له بغضاً ، وأكثرهم عليه تأليفاً كعب بن الأشرف اليهودي ، فكان لا بد من الخلاص منه .

وقانون الحرب يبيح التخلص من العدو المحارب بأي الوسائل لأن العدو يستحل من عدوه الذي يحاربه كل شيء ، فلا بد من معاملته بالمثل ، وكان رسول الله ﷺ حكيماً رحيماً إذا استطاع أن يأخذ برأس الأفعى اكتفى به عن بناتها ، لعله أن يخرج منهن واحدة فيها خير ، قال الشيخ الخضري في «نور اليقين» ص ١٤٧ :

ولما انتصر المسلمون في بدر ، ورأى كعب بن الأشرف الأسرى يساقون خرج إلى قريش يبكي قتلاهم ، ويحرضهم على حرب المسلمين ، فقال عليه السلام: من لكعب بن الأشرف ، فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي: أتحب أن أقتله؟ قال: نعم ، قال: أنا لك به ، وأذن لي أن أقول شيئاً أتمكن به ، فأذن له ، ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً ، فقال له: إن هذا الرجل (يريد رسول الله) قد سألنا صدقة ، وإنه قد عتانا ، وإني قد أتيتك أستسلفك ، قال: وأيضاً والله لتملئنه ، قال: إنا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين ، قال: نعم. ولكن ارهنوني ، قالوا: أي شيء تريد؟ قال: اراهنوني نساءكم ، قالوا: كيف نرهنك نساءنا ، وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم ، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا ، فيسب أحدهم ، فيقال: رهن بوسق أو وسق ، هذا عار علينا ، ولكن نرهنك اللأمة (يعني السلاح) فرضي ، فواعده ليلاً أن يأتيه ، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع ، وعباد بن بشر ، والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن جبر ، وكلهم أوسيون ، فناداه محمد بن مسلمة فأراد أن ينزل ، فقالت له امرأته: أين تخرج الساعة ، وإنك امرؤ تحارب؟ فقال إنما هو ابن أخي محمد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة. إن الكريم لو دعي إلى طعنة لبلى لأجاب. ثم قال محمد لمن معه: إذا جاءني فإني آخذ بشعره فأشمه ، فإذا رأيتموني استمكنت من

رأسه فاضربوه ، فنزل إليهم كعب متوشحاً سيفه ، وهو ينفخ منه ريح المسك ، فقال محمد: ما رأيت كالיום ريحاً أطيب ، أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم ، فشمه ، فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه ، ففعلوا وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدهم بها ، ثم أتوا النبي فأخبروه ، وكان قتل هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام ، وكان عليه السلام إذا رأى من رئيس غدراً ومقاصد سوء ومحبة لإثارة الحرب أرسل له من يريحه من شره . وقد فعل كذلك مع أبي عفك اليهودي ، وكان مثل كعب في الشر .

٢١- غزوة أحد:

أحد: جبل مشهور في الشمال الشرقي من المدينة ، قال رسول الله ﷺ فيه «هذا جبل يُحبنا ونحبه» . رواه البخاري (٤٠٨٣) في المغازي .

وفي هذه الغزوة ظهرت أحقاد المشركين ، في الإعداد ، والتحريض ، والخروج لها .

كما ظهر فيها عزيمة الرسول ، ومهارته ، ومشورته ، وشجاعته ، وتنظيمه لجيشه ، وعظته لهم ، وإلهاب حماستهم .

كما ظهر دور المنافقين الخبيث في الغدر والتثبيط ، والانسحاب من الجيش .

وفي هذه الغزوة وقعت أخطاء من بعض الجنود كان لها آثار خطيرة وكان من ورائها دروس وعبر استفاد منها المسلمون فيما يأتي من أيامهم .

والرسول ﷺ بشر ، قد يصيبه ما يصيب البشر ، ولكنه كان في طليعتهم فهماً ، وحقاً وشجاعة ، وحكمة . وإليك أحداث هذه الغزوة ننقلها من كتاب «نور اليقين» للشيخ محمد الخضري رحمه الله تعالى .

أ- سبب هذه الغزوة ودور المشركين فيها:

لما أصاب قريشاً ما أصابها ببدر ، وأغلقت في وجوههم طرق التجارة اجتمع من بقي من أشrafهم إلى أبي سفيان رئيس تلك العير التي جلبت عليهم

المصائب - وكانت موقوفةً بدار الندوة ولم تكن سلمت لأصحابها بعد - فقالوا: إنَّ محمداً قد وترنا ، وقتل خيارنا ، وإنا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعداداً لحرب محمدٍ وأصحابه ، وقد رضي بذلك كل من له منها نصيب ، وكان ربحها نحواً من خمسين ألف دينار ، فجمعوا لذلك الرجال ، فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم الأحابيش ، وهم حلفاؤهم ، من بني المصطلق ، وبني الهون بن خزيمة ، ومعهم أبو عامر الراهب الأوسي ، وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله ﷺ ، ومعهم عدد ممن هم على شاكلته ، وخرج معهم جماعات من أعراب: كنانة وتهامة ، وقال صفوان بن أمية لأبي عزة الشاعر الذي أسر يوم بدر ، فمنَّ عليه رسولُ الله ﷺ وأطلقه من غير فداء: إنك رجل شاعر ، فأعنا بلسانك ، فقال إني عاهدت محمداً ألا أعين عليه ، وأخاف إن وقعت في يده مرة ثانية ألا أنجو ، فلم يزل به صفوان حتى أطاعه ، وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين ، ودعا جبير بن مطعم غلاماً حبشياً له اسمه وحشي ، وكان رامياً قلماً يخطيء ، فقال له: أخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بعمي طعيمة ، فأنت حر. ثم خرج الجيش ، ومعهم القيان ، والدفوف ، والمعازف ، والخمور ، وأصطحب الأشراف منهم نساءهم ، كيلا ينهزما ، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مُقابل المدينة بذي الحُلَيْفة .

ب - سماع رسول الله ﷺ خبر خروج قريش لحربه .

أما رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه عمُّه العباسُ بنُ عبدِ المطلبِ الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر . ولما وصلت الأخبارُ باقتراب المشركين جمع عليه السلام أصحابه ، وأخبرهم الخبر ، وقال: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن هم أقاموا أقاموا بشرِّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم ، فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار ، ورأى ذلك أيضاً عبد الله بن أبي ، أما الأحداث وخصوصاً من لم يشهد بدرأ منهم ، فأشاروا عليه بالخروج ، وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب ، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم ، لأنهم الأكثرون عدداً ، والأقوون جلدأ ، فصلى

الجمعة بالناس في يومها لعشر خلون من شوال ، وحضهم في خطبتها على الثبات والصبر ، وقال لهم : «لكم النصر ما صبرتم» ثم دخل حجرته ، ولبس عُدّته ، فظاهر بين درعين ، وتقلد السيف ، وألقى الترس وراء ظهره .

ولما رأى ذوو الرأي من الأنصار أن الأحداث استكروها الرسول على الخروج لاموهم وقالوا: ردّوا الأمر لرسول الله ، فما أمر ائتمرنا ، فلما خرج عليه السلام قالوا: يا رسول الله ، نتبع رأيك ، فقال: ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . ثم عقد الألوية ، فأعطى لواء المهاجرين لمصعب ابن عمير ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأُسَيد بن الحضير ، وخرج من المدينة بالف رجل ، فلما وصلوا رأس الثبّة نظر عليه السلام كتيبة كبيرة ، فسأل عنها ، فقليل هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبيّ من اليهود ، فقال إنا لا نستعين بكافر على مشرك ، وأمر بردهم ، لأنه لا يأمن جانبهم من حيث أنّ لهم اليد الطولى في الخيانة ، ثم استعرض الجيش ، فرد من استصغر ، وكان فيمن ردّ رافع بن خديج وسمرة بن جندب ، ثم أجاز رافعاً لما قيل له: إنه رام ، فبكى سُمرة وقال لزوج أمّه: أجاز رسول الله رافعاً ، وردّني مع أني أصرعه ، فبلغ رسول الله الخبر ، فأمرهما بالمصارعة ، فكان الغالب سمرة ، فأجازه ، ثم بات عليه السلام محله ليلة السبت ، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة ، وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس .

ويظهر لك هنا من مواقف رسول الله ﷺ الفريدة العظيمة ما كان يتمتع به من مهارات القيادة والتنظيم والعزيمة والحزم في الأمور ، واستخدام كل الوسائل المادية والمعنوية .

فلقد أسرع إلى أصحابه وشاورهم في الأمر ، ولبّى حماستهم فيما يحبونه ، ما دام ذلك يصبّ في مصلحة المسلمين ، وأخذ عدته وأهبطه ، واستعرض جيشه ، واحتاط فردّ اليهود على أعقابهم .

ج - دور المنافقين في كيد المسلمين :

وفي السحر سار الجيش ، حتى إذا كان بالشوط ، وهو بستان بين أحد والمدينة . رجع عبد الله بن أبيّ بثلاث مئة من أصحابه وقال : عصاني وأطاع الولدان ، فعلام نقتل أنفسنا ، فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر وقال : يا قوم ، أذكركم الله أن لا تدخلوا قومكم ونيكم : قالوا لو نعلم قتالاً لا تَبْعناكم فقال له : أبعدك الله ، فيسغني الله عنكم نبيه . ولما فعل ذلك عبد الله بن أبيّ همت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا : بنو حارثة من الخزرج ، وبنو سلمة من الأوس ، فعصمهما الله ، وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخلين : فقوم يقولون : نقاتلهم ، وقوم يقولون : نتركهم ، فأنزل الله قوله الكريم : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أْتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٨٨] .

د - نزول الجيش وتنظيمه :

ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أحد وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة ، أما المشركون فنزلوا ببطن الوادي من قبل أحد ، وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، فجعل عليه السلام الزبير بن العوّام بإزاء خالد ، وجعل آخرين أمام الباقيين ، واستحضر الرماة ، وكانوا خمسين رجلاً يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري ، فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل ، وقال : لا تبرحوا : إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تبرحوا .

انظر «صحيح البخاري (٤٠٤٣) في المغازي .

ثم عدّل عليه السلام الصفوف ، وخطب المسلمين ، وكان فيما قال : «ألقي في قلبي الروح المين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها ، لا ينقص منه شيء ، وإن أبطأ عنها . فاتقوا ربكم وأجملوا في طلب الرزق ، لا يحملنكم

استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى له سائر حسده .

هـ - بدء القتال :

ثم ابتدأ القتال بالمبارزة ، فخرج رجل من صفوف المشركين ، فبرز له الزبير فقتله ، ثم حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة ، فقتله علي ، فحمل اللواء أخوه عثمان ، فقتله حمزة ، فحملة أخ لهما اسمه أبو سعيد ، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم قضى عليه ، فتناوب اللواء بعده أربعة من أولاد طلحة بن أبي طلحة وكلهم يقتلون ، وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر يطلب البراز ، فأراد أبوه أن يبرز له . فقال عليه السلام : «متعنا بنفسك يا أبا بكر» .

ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات ، وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون ، ولما التقت الصفوف ، وحميت الحرب ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف ، وينشدن الأشعار تهيجاً لعواطف الرجال ، وكان عليه السلام كلما سمع نشيد النساء يقول : «اللهم بك أجولُ وبك أصولُ وفيك أقاتلُ ، حسبي الله ونعم الوكيل» . وفي هذه المعركة قُتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله سيد الشهداء ، غافله وحشيّ وهو يجول في الصفوف ، وضربه بحربة لم تخطيء ثنايا بطنه . انظر «صحيح البخاري (٤٠٧٢) في المغازي» .

هذا ؛ ولما قتل حملة اللواء من المشركين ، ولم يقدر أحد على الدنو منه ، ولوا الأدبار ، ونسأؤهم يبيكين ، ويولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب .

و - الخطأ وآثاره الخطيرة

فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل ، قالوا : ما لنا في الوقوف من حاجة ، ونسوا أمر السيد الحكيم صلى الله عليه وآله وسلم ، فذكرهم رئيسهم به ، فلم يلتفتوا ، وانطلقوا يتتهبون . أما رئيسهم فثبت ،

وثبت معه قليل منهم. فلما رأى خالد بن الوليد أحد رؤساء المشركين خلّو الجبل من الرماة انطلق ببعض الجيش ، فقتل من ثبت من الرماة ، وأتى المسلمين من ورائهم ، وهم مشتغلون بديناهم ؛ فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا ، وتركوا ما بأيديهم ، وانتقضت صفوفهم ، واختلطوا من غير شعور ، حتى صار يضرب بعضهم بعضاً. انظر «صحيح البخاري (٤٠٤٣) في المغازي ، ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء ، فاجتمعوا حوله ، وكان من المشركين رجل يقال له ابن قمئة قتل مصعب بن عمير صاحب اللواء ، وأشاع أن محمداً قد قتل ، فدخل الفشل في المسلمين ، حتى قال بعضهم : علام نقاتل إذا كان محمد قد قتل ؟ فارجعوا إلى قومكم يؤمنوكم ؛ وقال جماعة : إذا كان محمد قتل فقاتلوا عن دينكم ، وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعة من المسلمين من بينهم الوليد بن عقبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن المعلى ؛ وعثمان بن عفان ، وتوجهوا إلى المدينة ، ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث .

ز - مواقف رائعة من البطولة والتضحية

وثبت رسول الله ﷺ ، ومعه جماعة منهم : أبو طلحة الأنصاري استمر بين يديه يمنع عنه بجحفته ، وكان رامياً شديداً الرمي ، فنثر كنانته بين يدي رسول الله وصار يقول : وجهي لوجهك فداء ، وكل من كان يمرّ ومعه كنانة يقول له عليه السلام : «انثرها لأبي طلحة» ، وكان ينظر إلى القوم ليرى ماذا يفعلون ، فيقول له أبو طلحة : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم ! نحري دون نحرك . وممن ثبت سعد بن أبي وقاص ، فكان عليه السلام يقول له : «ارم سعد ! فداك أبي وأمي» ومنهم سهل بن حنيف ، وكان من مشاهير الرماة نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس .

ومنهم أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري تترس على رسول الله ، فصار النبل يقع على ظهره ، وهو منحني حتى كثر فيه .

وكان يقاتل عن الرسول زيادة بن الحارث حتى أصابت الجراح مقاتله ، فأمر به فأدنى منه ، ووسده قدمه حتى مات ، وقد أصابه عليه السلام شدائد

عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات ، فقد أقبل أبي بن خلف يريد قتله ، فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه ، وقال : خلوا طريقه . فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه وهو راجع ، ولم يقتل رسول الله غيره لا في هذه الغزوة ، ولا في غيرها .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حفراً ، وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقع الرسول في حفرة منها فأغمي عليه ، وخذشت ركبته ، فأخذ علي بيده ، ورفع طلحة بن عبيد الله ، وهما ممن ثبت حتى استوى قائماً ، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته ، فتبعه حاطب بن أبي بلتعة فقتله ، وشج وجهه عليه السلام عبد الله بن شهاب الزهري ، وجرحته وجنتاه بسبب دخول حلقتي المغفر فيهما من ضربة ضربه بها ابن قمئة ، غضب الله عليه ، فجاء أبو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما فكسرت في ذلك ثنيته ، وقال حينئذ عليه السلام : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ؟ فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

وكان أول من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة كعب بن مالك الأنصاري ، فنادى : يا معشر المسلمين أبشروا ، فأشار إليه الرسول أن أصمت . ثم سار بين سعد بن أبي وقاص وسعد بن عباد ، يريد الشعب ، ومعه جمع : أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمة ، وأقبل عليه إذ ذاك عثمان بن عبد الله بن المغيرة يقول : أين محمد؟ لا نجوت إن نجا ، فعثر به فرسه ووقع في حفرة فمشى إليه الحارث بن الصمة وقتله .

ولما وصل الشعب جاءت فاطمة فغسلت عنه الدم ، وكان علي يسكب الماء ، ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح ، فاستمسك الدم . ثم أراد عليه السلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه ، فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده ، فنظر إلى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال : لا ينبغي لهم أن يعلونا ، « اللهم لا قوة لنا إلا بك » ثم أرسل إليهم عمر بن الخطاب في جماعة فأنزلوهم .

وقد أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير من الجراحات ، لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً أن يصل للرسول ، فوجد بطلحة نيف وسبعون جراحة ، وشلت يده ، وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة . أما القتلى فكانوا ثيِّفاً وسبعين منهم ستة من المهاجرين ، والباقون من الأنصار .

ومن المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير . ومن الأنصار حنظلة بن أبي عامر ، وعمرو بن الجموح ، وابنه خلاد بن عمرو ، وأخو زوجه والد جابر بن عبد الله ، فأتت زوج عمرو هند بنت حرام وحملتهم : زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة ، فنهى عليه السلام عن الدفن خارج أحد ، فرجعوا .

وقتل سعد بن الربيع ، وأرسل عليه السلام من يأتيه بخبره ، فوجده بين القتلى وبه رمق ، فقليل له : إن رسول الله يسأل عنك ، فقال لمبلغه : قل لقومي : يقول لكم سعد بن الربيع : الله الله وما عاهدتهم عليه رسوله ليلة العقبة ، فوالله ما لكم عندي عذر .

وقتل أنس بن النضر ، عم أنس بن مالك ، فإنه لما سمع بقتل رسول الله قال : يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده؟ موتوا على ما مات عليه إخوانكم ، فلم يزل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه .

ومثلت قريش بقتلى أحد ، حتى إن هنداً زوج أبي سفيان بقرت بطن حمزة ، وأخذت كبده لتأكلها فلاكتها ثم أرسلتها ، وفعلوا قريباً من ذلك بإخوانه الشهداء .

ح - تبجح المشركين بما أصابوه :

ثم إن أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فعّال ، إنّ الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، وموعدكم بدر العام المقبل . ثم قال : إنكم ستجدون في قتلاكم مثله لم آمر بها ، ولم تسؤني . ثم إنّ المشركين رجعوا إلى مكة ، ولم يُعرجوا على المدينة ، وهذا مما يدل على أنّ المسلمين لم ينهزموا في ذلك اليوم ، وإلا لم يكن بدّ من تعقب المشركين لهم ، حتى يُغيروا على مدينتهم .

ط - تفقد رسول الله ﷺ القتلى

ثم تفقد عليه السلام القتلى ، وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً ، ودفن الشهداء كلهم بأحد ، كلّ شهيد بثوبه الذي قتل فيه ، وكان يدفن الرجلين والثلاثة في لحد واحد ، لما كان عليه المسلمون من التعب ، فكان يشق عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة .

ي - شماتة المنافقين واليهود

ولما رجع المسلمون إلى المدينة سخر منهم اليهود والمنافقون ، وأظهروا ما في قلوبهم من البغضاء ، وقالوا لإخوانهم: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا .

وقال اليهود: ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا نبي قط .

واستاء المسلمون لمقالة هؤلاء اليهود والمنافقين ، حتى مشى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ واستأذنه في قتل كل من سمع ذلك منه ، من اليهود والمنافقين ، لكن رسول الله ﷺ قال له: «يا عمر ، إن الله مظهر دينه ، ومُعزّ نبيّه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم .

قال عمر: فهؤلاء المنافقون؟ قال: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ، وأناي رسول الله؟» .

قال: بلى ، يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف ، فقد بان لنا أمرهم ، وأبدى الله تعالى أضغانهم عند هذه النكبة ، فقال رسول الله ﷺ: «إني نهيت عن قتل من قال: لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، يا ابن الخطاب ، إن قریشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم ، حتى نستلم الركن» . «سبل الهدى والرشاد» ٢٣١ / ٤ .

إن هذا الذي ابتلي به المسلمون في أحد ، لم يفتّ في عضدهم ، ولم يضعف من عزيمتهم ، وإنما كان درساً علموا من ورائه الشيء الكثير ، وأدركوا:

أولاً: أن سبب العزة والنصر كامن في طاعة رسول الله ﷺ وأن المخالفة والعصيان لأمره سبب كل فشل .

ثانياً: أن حبّ الدنيا ، والتكالب عليها كثيراً ما يكون سبباً في المصائب العظيمة . فلولا انشغال البعض في غنائم الدنيا لما وقعت هذه المفاجأة ، ولا نزلت هذه المصيبة .

ولقد ذكرهم الله تعالى بفضله لما أخلصوا له النية ، وبما كان لما شغلت بعضهم الدنيا ، فقال عز وجل :

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

وأجمل ما في هذا الأمر وأفضله ذلك العفو الكريم عن هذه الزلة ، لأنه ثمرة لتلك الأوبة والتوبة والندامة واليقظة التي تمثل بها أصحاب النبي ﷺ بعد الذي كان من بعضهم .

ك - تعزية رسول الله ﷺ أصحابه :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه رضي الله عنهم ركب فرسه ، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة ، فلقيته حمنة بنت جحش رضي الله عنها ، فقال لها رسول الله ﷺ : «يا حمنة ، احتسبي» .

قالت : من يا رسول الله؟

قال : «خالك حمزة بن عبد المطلب» .

قالت : إنا لله ، وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هينئاً له الشهادة ، ثم قال لها : «احتسبي» .

قالت : من يا رسول الله؟

قال : «أخوك عبد الله بن جحش» .

قالت: إنا لله ، وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئاً له الشهادة ، ثم قال لها: «احتسبي».

قالت: من يا رسول الله؟

قال: «زوجك مصعب بن عمير».

قالت: واحزنناه.

فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لمكان».

ثم قال لها: «لم قلت هذا؟».

قالت: يا رسول الله ، ذكرت يتم بنيه ، فراعني.

فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف وجاءت أم سعد بن معاذ ، وهي كبشة بنت رافع تعدو نحو رسول الله ﷺ ، وقد وقف على فرسه ، وسعد بن معاذ أخذ بعنان فرسه ، فقال سعد: يا رسول الله أُمي.

فقال: «مرحباً بها».

فدنت ، حتى تأملت رسول الله ﷺ ، وقالت: أما إذا رأيتك سالماً ، فقد أشوت المصيبة ، أي صغرت وهانت.

فعرزاها رسول الله ﷺ بابنها عمرو بن معاذ ، ثم قال: «يا أم سعد ، أبشري وبشري أهليهم أن قتلهم ترافقوا في الجنة جميعاً ، وقد شفّعوا في أهليهم».

قالت: رضينا ، يا رسول الله ، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟

ثم قالت: يا رسول الله ، ادعُ لمن خُلفوا.

فقال: «اللهم أذهب حُزن قلوبهم ، واجبر مُصيباتهم ، وأحسن الخلف على من خُلفوا». «سبل الهدى والرشاد» ٢٢٧/٤ - ٢٢٩.

هذه كفاءات ، ومهارات ، ومواقف رائعة كان يتحلّى بها القائد ، وجنده من الرجال والنساء: تعاطف ، ومواساة ، ورضى وعزائم أمضى من الآمال

والمصائب ، وإعداد واستفادة من كل ما حدث ، ويحدث ، فرسول الله ﷺ قريب من صفوف وقلوب ، وعواطف أصحابه ، وهو واحد منهم ، يسعى لرضاهم ، ويحمل آلامهم وآلامهم ويسوس رجالهم ونساءهم ، ويتعاطف مع كبيرهم وصغيرهم ، وهذا أكسبه حبهم واحترامهم وتفديته بمهجهم وأرواحهم .
إن واجب المسلمين قادة وأفراداً أن يستفيدوا من أحداث سيرته الكريمة ﷺ ويضعوا أصابعهم على مواطن العبر فيها ، ويتلمسوا أماكن الدروس المستفادة منها ، ففيها الجديد لكل جديد ، وفيها الرؤى النافعة لكل راء ومستبصر ، مهما بعد عهده عن زمان النبي ﷺ ، فقد أقامه الرب عز وجل القدوة الحسنة لكل عباده المؤمنين .

٢٢ - غزوة حمراء الأسد :

حمراء الأسد : مكان على عشرة أميال من المدينة ، وكان من شأنها أن النبي ﷺ كان حذراً من المشركين بعد انسحابهم من أحد أن يرجعوا إلى المدينة ، وقد ملأ الحقد قلوبهم ، والزهو بالنصر نفوسهم ، وقد تحدثوا فيما بينهم بما كان رسول الله ﷺ حذرهم ، فقد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتن ، بثسما صنعتن ، ارجعوا .

وقد أخبر عبد الله بن عمرو بن عوف المزني رسول الله ﷺ أنه سمعهم يقولون : ما صنعتن شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدهم ، ثم تركتموهم ولم تبيدوهم ، فقد بقي فيهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا نستأصل من بقي منهم .

ولهذا لما رجع رسول الله ﷺ من أحد يوم السبت باتت وجوه الأوس والخزرج على بابه خوفاً من كثر العدو فللمشركين حق ، وحذق ، ومهارة في فنون الشر ، وتدبير أساليب المكر .

لكن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا أعظم حذقاً ومهارة في سبيل الله عز وجل ، وأكثر إصراراً وحرصاً على تبليغ دعوة الحق والدفاع عنها .

لذلك ما إن أصبح صبح يوم الأحد حتى خرج بلال رضي الله عنه ينادي بأمر

رسول الله: «أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس .

وهنا ثارت همم المجروحين . والمقرّحين الذين لم يداوا جراحهم بعد ، وأجابوا لبيك رسول الله .

وإنك لترى هنا العجائب - والعجائب جمّة - في صنيع هؤلاء الشباب ، ومواقفهم التي تنم عن مهارات إيمانية فريدة ، وشجاعات نادرة .

فهذا أسيد بن حضير رضي الله عنه - وبه تسع جراحات ، وهو يريد أن يُداويها ، لما سمع النداء يقول: سمعاً وطاعة لله ورسوله ، ولم يعرج على دواء جروحه .

وهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنه يأتي رسول الله ﷺ ، ويقول: يا رسول الله ، إن مناديك نادى: أن لا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنت حريضاً على الحضور ، ولكن أبي منعني ، وخلفني على أخوات تسع ، وقال لي: يا بني ، لا ينبغي لي ، ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ، ولا رجل معهن ، ولستُ بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي ، تخلفُ على أخواتك ، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ ، لعل الله تعالى يرزقني الشهادة ، فتخلفُ عليهنّ ، فاستأثر عليّ بالشهاد ، فأذن لي يا رسول الله أن أسير معك هذه المرّة ، فأذن له رسول الله ﷺ .

قال جابر رضي الله عنه: فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيري .

ثم دعا رسول الله ﷺ بلوائه ، وهو لا يزال معقوداً لم يحلّ ، فدفعه إلى علي رضي الله عنه ، وخرج القوم ، وهم كما ذكرنا ما بين مجروح ، ومشجوج ، وموهون ، حتى عسكروا بحمراء الأسد ، وأقاموا بها ثلاثة أيام وأمرهم رسول الله ﷺ أن يوقدوا نيراناً كثيرة توهم العدو بكثرة أصحابها .

وكان أن لقي رسولُ الله ﷺ معبد بن أبي معبد الخزاعي - وكان يؤمّئذ مشركاً إلا أن خزاعة كانت - مسلمهم وكافرهم - نصيحةً لرسول الله ﷺ ، فقال: يا محمد ، والله لقد عزّ علينا ما أصابك في نفسك ، وما أصابك في

أصحابك ، ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك ، وأن المصيبة كانت بغيرك ، وكان لمعبد دور فعال في تخويف المشركين وتغيير وجهتهم عن المدينة ، فلما مرّ عليهم ، قال: أبو سفيان: هذا معبد ، وعنده الخبر .

ما وراءك ، يا معبد؟

قال: تركت محمداً وأصحابه قد خرج يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرّقون عليكم تحرقاً ، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا أن لا يرجعوا حتى يلحقوكم ، فيثأروا منكم ، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ، وندموا على ما فعلوا ، وفيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان: ويلك ، ما تقول؟

قال: والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل .

قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم .

قال: فإني أنهاك عن ذلك ، ولقد حملني على ما رأيت أن قلت فيهم أبياتاً من الشعر .

قال: وما قلت؟

قال: قلت:

كادَتْ تُهْدُ من الأصواتِ راحلتي	إذ سالتِ الأرضَ بالجرّدِ الأبائِلِ
تردّي بأسدٍ كرامٍ لا تنابِلِ	عند اللقاء ولا ميلٍ معازيلِ
فظلْتُ عَدُوّاً أظنُّ الأرضَ مائلَةً	لما سمّوا برئيسٍ غيرِ مَخْذولِ
فقلتُ: ويْلُ ابنِ حَرْبٍ من لقائِكُم	إذا تَفَطَّمَتِ البطحاءُ بالجيلِ
إني نذير لأهلِ البسلِ ضاحيةٌ	لكلّ ذي إزبةٍ منهم ومَعْقُولِ
من جيشٍ أحمد لا وخشٍ تنابِلِ	وليس يوصف ما أُنْذِرْتُ بالقليلِ
ففَتَ هذا القولُ أكبادَ المشركين ، فانصرفوا سراعاً خائفين من الطلب .	

تُهدُّ: تسقط لهول ما رأت .

الجُرد: جمع أجرد ، وهو من الآدمي من لا شعر له ، ومن الخيل ما رُقَّ شعره وقصر ، وهو المراد هنا .

الأبائيل : الجماعات ، واحدة : إبييل .

تُردي : تُسرِع .

لا تنابلة : لا قصار .

ميل : جمع أميل ، وهو الذي لا رمح معه .

معاذيل : لا سلاح معهم .

عَدَوْا : سريع المشي .

سَمَوْا : عَلَوْا وارتفعوا .

ابن حرب : أبا سفيان .

تفطمطت : اهتزت وارتجفت .

البطحاء : السهل من الأرض .

بالجيل : الصنف من الناس .

البَسْل : الحرم .

ضاحية : بارزة للشمس .

إربة : عقل .

وُخْش : أراذل .

تنابلة : قصار .

وقد قامت قريش بدورها أيضاً ، فأرسلت من يرجف بالمسلمين لكن كان الموقف مختلفاً .

فالمشركون انخلعت فلوبهم بالأراجيف ، والمؤمنون زادتهم إيماناً ، لقد مرَّ ركبٌ من عبد القيس بأبي سفيان ، فقال :

أين تريدون؟

قالوا: نريد المدينة.

قال: ولم؟

قالوا: نريد الميرة: أي الطعام.

قال: فهل أنتم مبلّغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأوقرُ لكم أبا عركم زيباً غداً بعكاظ إذا وافيتموها؟
قالوا: نعم.

قال: إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه ، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، وأنا في آثاركم.

فانطلق أبو سفيان ، وقدم الركب برسول الله ﷺ بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه ، فقال رسول الله ﷺ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». «سبل الهدى والرشاد» ٤/ ٣١١.

وظفر النبي ﷺ ، وهو في حمراء الأسد بأبي غزّة الشاعر ، الذي كان له دور بارز في تجميع المشركين ، على النبي ﷺ ، وكان النبي قد منّ عليه ببدر ، وأطلق سراحه بغير فداء ، بعد أن تعهد أن لا يكون على المسلمين ، فأمر ﷺ بقتله.

فقال: يا محمد ، أقلني ، وامن عليّ ، ودعني لبناتي ، وأعطيك عهداً أن لا أعود لمثل ما فعلت.

فقال رسول الله ﷺ: «لا والله ، لا تمسحُ عارضيكَ بمكة ، وتقول: خدعت محمداً مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين. اضرب عنقه ، يا زبير ، فضرب عنقه. هذا جزاء الغدر ، وهذا دواء من لا يفهم إلا السيف ، وهذا موقف الحزم من مثل هذا الخائن الغادر.

لقد أنزل الله عز وجل قرآناً يتلى في تخليد دور هؤلاء الشرفاء من أصحاب النبي ﷺ في هذه الغزوة الظافرة الطاهر ، قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ

وَالرَّسُولُ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ فَأَتَى الْفِيلَ أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ فَفُصِّلَ لَمْ يَمَسَّ سَمُومًا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

٢٣ - تزويج رسول الله ﷺ ابنته أم كلثوم رضي الله عنها:

لم تكن أعباء الحياة ، ونشاطات الدعوة ، ومعالم الجهاد لتشغل رسول الله ﷺ عن رعاية أسرته ، والاهتمام بأمر بناته رضي الله تعالى عنهن ، فقد كان ينظر إليهن بخير النظر ، ويختار لهن خير الرجال . ويضفي عليهن من حنان الأبوة ، وعواطف الصلة ما يجعلهن في غبطة السعادة والرضى قبل البعثة وبعدها .

لقد كان رسول الله ﷺ زوج ابنته رقية من عتبة بن عمه أبي لهب ، وزوج أختها أم كلثوم عتيبة بن أبي لهب ، فلما نزلت سورة (تبت) قال لهما أبوهما وأمهما: فارقا ابنتي محمد ، ففارقاهما قبل أن يدخل بهما .

فتزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه رقية بمكة ، وهاجرت معه إلى الحبشة .

وكان رسول الله ﷺ دائم السؤال عنها بعد هجرتها ، وقد خرج مرة يسأل عن أخبارها وأخبار زوجها ، فجاءته امرأة فأخبرته أنها رأتهما ، فقال النبي ﷺ: «صحبهما الله ، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط». «أسد الغابة» ولما سار رسول الله ﷺ إلى بدر كانت ابنته رقية رضي الله عنها مريضة ، فأمر رسول الله ﷺ عثمان بالتخلف عليها ، والملازمة لها ، ولكنها توفيت قبل رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة من بدر .

وفي ربيع الأول من سنة ثلاث للهجرة تزوج عثمان رضي الله عنه أم كلثوم بنت النبي ﷺ بعد وفاة رقية ، ودخل بها في جمادى الآخرة من السنة نفسها ، وهي أصغر سنًا من رقية .

روى سعيد بن المسيب أن النبي ﷺ رأى عثمان بن عفان بعد وفاة رقية

مهموماً لهفان ، فقال له : «مالي أراك مهموماً؟» .

فقال : يا رسول الله ، وهل دخل على أحد ما دخل عليّ؟ ماتت ابنة رسول الله ﷺ التي كانت عندي ، وانقطع ظهري ، وانقطع الصهر بيني وبينك .
فبينما هو يحاوره ، إذ قال النبي ﷺ : «يا عثمان ، هذا جبريل عليه السلام يأمرني عن الله عز وجل أن أزوجك أختها أمّ كلثوم على مثل صداقها ، وعلى مثل عشرتها» فزوجه إياها .

لكنها هي الأخرى توفيت في حياة النبي ﷺ سنة تسع من الهجرة ، فجعل في أكفانها إزاره ، وصلى عليها ، ودفنت في البقيع مقبرة أهل المدينة .

أما زينب بنت رسول الله ﷺ من خديجة ، وهي أكبر بناته فقد زوجها رسول الله ﷺ من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع وأمه هالة بنت خويلد أخت خديجة وكان رجلاً برّاً بها ، أبى أن يطلقها لما أمره المشركون بذلك ، وكان هو لا يزال مشركاً ، وأسلم قبل فتح مكة بقليل .

وأسر في بدر ، وأطلقه رسول الله ﷺ ، وشرط عليه أن يرسل زينب إلى المدينة ، فعاد إلى مكة ، وأرسلها إلى النبي ﷺ بالمدينة ، فشكر له رسول الله ، وأثنى عليه ، وقال : «حدثني فصدقني ، ووعدني فوفى لي» .
«أسد الغابة» ١٨٥/٥ ولما أسلم أبو العاص ردّ عليه رسول الله زينب بعقد جديد ، وقيل : بالعقد الأول .

وتوفيت زينب رضي الله عنها في حياة النبي ﷺ في السنة الثامنة من الهجرة ، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها ، وهو مهموم محزون ، فلما خرج سري عنه ، وقال : «كنت ذكرت زينب وضعفها ، فسألت الله تعالى أن يخفف عنها ضيق القبر ، وغمه ، ففعل ، وهون عليها» .

وهكذا كان حبّ رسول الله ﷺ لبناته ، وعطفه عليهن ، ورعايته لهن في الحياة وبعد الممات ، وقد أصيب ﷺ بموت أولاده كلهم في حال حياته ، ما عدا فاطمة رضي الله تعالى عنها التي كانت قد توفيت بعده بستة أشهر ، فصبر واحتسب ، وكان قدوة المصابين في أولادهم في صبره واحتسابه .

٢٤- زواج رسول الله ﷺ من حفصة بنت عمر وزينب بنت خزيمة :

لقد كان رسول الله ﷺ حاذقاً وحكيماً ، ورحيماً ، وعطوفاً وشاكراً في اختيار زوجاته ، وعقد صلاته ، وأداء واجبات الشكر والعرفان لأصحابه ، والمهاجرين معه ، والمهاجرات ، فما إن توفي زوج حفصة بت عمر رضي الله تعالى عنهما : خُنِيس بن حذافة السَّهْمِي إثر جراحة أصابته في غزوة بدر حتى أسرع رسول الله ﷺ إلى عمر وخطب حفصة منه ، فكان لها خير زوج ، ولأبيها أفضل شاكر ، وكان ذلك في السنة الثالثة من هجرته ﷺ ، وقال جبريل للنبي ﷺ عن حفصة : «إنها صوامة قوامة ، وإنها زوجتك في الجنة» . «أسد الغابة» ٦/٦٥ .

وفي هذه السنة قتل في غزوة أحد عبد الله بن جحش عن زوجته زينب بنت خزيمة الهلالية ، فخفف رسول الله ﷺ إلى نجدتها ، وضمها إلى بيوته ، فخطبها بعد انتهاء عدتها ، وتزوجها وجعلها في عداد أمهات المؤمنين ، فكان لها هذا الشرف وكان في منتهى الوفاء لزوجها الراحل الذي قضى في معارك الدفاع عن الحق ، والدعوة إلى الإسلام .

وكانت زينب من خيرة النساء ، وكانت تسمى أم المساكين لكثرة إطعامهم والصدقة عليهم ، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً - شهرين أو ثلاثة - حتى توفيت رضي الله تعالى عنها .

٢٥- تحريم الخمر :

وفي هذه السنة - الثالثة - من هجرته ﷺ اجتثت شأفة «أم الخبائب» وحرمت إلى الأبد ، وقد كانت الشراب المفضل ، الذي تقام عليه النوادي ، ويسمر عندها الخلان ، ويعتقها الصنائع ، ويدخرها الهواة ، وتقال في تعظيمها الأشعار ، وتجتمع عليها المغنيات .

عالجها الدين برويه ، وسار النبي ﷺ في اقتلاعها بحكمة ، فهبط بها من شرفة التقدير ، إلى مستنقع أم الخبائب . لقد ظل مسكوتاً عن تحريم الخمر فترة من الزمن منذ البعثة ، وكانت الإشارات ترى بذكر ما فيها من الأذى ، حتى

حان حين التحريم القاطع ونزل قول الحق تعالى في وجوب اجتنابها ، والتبصر في أضرارها :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٩٠] إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿ [المائدة : ٩٠ - ٩١] .

قال الصحابة رضوان الله عليهم : انتهينا ، يا رب ، فتركوها ، ولم يعودوا إليها .

والخمر : كل شراب مسكر ، سمي خمراً ، لأنه يخامر العقل ويغطيه .
والميسر : القمار .

والأنصاب : الحجارة التي كانوا ينصبونها للعبادة ، ويذبحون عندها لآلهتهم .

والأزلام : القداح التي كانوا يستقسمون بها .

رجس : خبث مستقذر .

ولمزيد البعد عن هذا المستخبث تفنن النبي ﷺ في ذكرها بالسوء ، وعرض مخاطرها على الدين والنفس والمجمع .

قال رسول الله ﷺ : «كُلُّ شرابٍ أسكر فهو حرام» . رواه البخاري (٥٥٨٦) في الأشربة ، ومسلم (٢٠٠١) في الأشربة .

وقال : «ما أسكر كثيره فقليله حرام» . رواه الترمذي (١٨٦٦) في الأشربة ، وأبو داود (٣٦٨١) في الشربة .

وقال : «اجتنبوا الخمرَ ، فإنها مفتاحُ كل شرٍ» . رواه الحاكم ٤ / ١٤٥ .

وقال عثمان رضي الله عنه : «اجتنبوا الخمر ، فإنها أمُ الخبائث» رواه النسائي ٨ / ٣١٥ .

وقال رسول الله ﷺ : «إن على الله عز وجل عهداً لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال» .

قالوا: يا رسول الله ، وما طينة الخبال؟» .

قال: «عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار» رواه مسلم (٢٠٠٢) في الأشربة .

وقال في الخمر: «إنها داء ، وليست بشفاء» . رواه أحمد ٤/٥٠٣١١/٢٩٣ .

وقال: «إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرّم عليكم» . رواه البخاري تعليقاً عن ابن مسعود في الأشربة .

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ، ومفتر» . رواه أحمد ٦/٣٠٩ .

والمفتر: هو المخدرات بأنواعها .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصرها ، ومقتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقها ، وبائعها ، وأكل ثمنها ، والمشتري له ، والمشتراة له . رواه الترمذي (١٣١٨) في البيوع .

ولخبثها ، وضررها على العقل والصحة والمجتمع جعل الدين على شربها الحدّ ، وهو جلد أربعين ، ويجوز الزيادة إلى الثمانين .

وتظهر المهارة في مكافحة المسكرات والمخدرات بربط هذا التحريم بأمر العقيدة والتدين ، فطاعة المؤمن لربه أعظم من طاعته لهواه وشهواته .

وحبه للجنة ونعيمها فوق حبه للخمر والمخدرات وشرابها . ولذلك سهل على المؤمن أمام هذا الربط بين الإيمان وترك الخمر ترك هذه الآفات .

ولما ضعف وازع الدين ، أو تجرد النهي عن هذا الوازع لم يفلح في مكافحة هذا الداء ، بل لا يزال في اشتداد وازدياد رغم كل الصيحات المتعالية في التخويف منه ، والتحذير من أخطاره .

ولقد حاول الغرب مرّة أن حرم الخمر بدون هذا الوازع الديني ، فلم يفلح في حمل الناس على تركه ، أما الدين فقد أفلح في حربه ، والقضاء عليه ، فإن

الصحابة عندما سمعوا النهي عن الخمر قالوا: انتهينا ، فأراقوه ، ولم يعودوا إليها .

وهكذا نجد كل قانون لا يُربط بوازع ديني لا يحترمه الناس وقل من يلتزمه إلا بدافع الرهبة والخوف من البطش .

٢٦ - سرية عاصم بن ثابت إلى الرجيع :

والرَّجِيعُ: اسم موضع من بلاد هذيل كانت الواقعة بقرب منه ، فسميت به ، وقد ترجم لها البخاري (٤٣٧/٧) بغزوة الرجيع . وهذه السرية كانت عبارة عن عشرة أشخاص من أصحاب النبي ﷺ ، كان أميرهم فيها عاصم بن ثابت الأنصاري الأوسي ، رضي الله عنه وعن أصحابه .

وهؤلاء العشرة خرجوا من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأمره ، سرية تدعو إلى الله عز وجل ، وعيناً ترصد تحركات قريش ، وتستطلع أخبارهم راضين بما يمكن أن يصيبهم ، أو يصادفهم من متاعب وأخطار ، فإنهم يعلمون أن هذا الدين لا يقوم إلا على سواعد الجُهد والتضحية ، والجنة لا تنال إلا بتقديم النفس والنفس ، والنصر مطلب تتجمع بين يديه كل العقاب ، وتكتنفه أكداس من المشقات والصعوبات . لكنه ممكن المنال إذا صدقت النوايا ، وقدمت التضحيات وتتابعت قوافل الشهداء ، والمجاهدين .

والمؤمن يعلم الثمن لهذا المطلب ، ويمضي راضياً بما يصيبه في سبيله ، وقديماً قيل :

ومن يخطب الحسنة يصبر على البذل .

وقال رسول الله ﷺ : «ألا إن سِلعة الله غالية ، ألا إن سِلعة الله الجنة» . رواه الترمذي (٢٤٥٠) في كتاب صفة القيامة ، وحسنه .

وقال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة : ١١١] .

لقد رضي رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام بهذا التحدي ، واغبتوا بهذه التبعات ، وأدوا ذلك بألوان من المهارة ، وفنون من الحذق والإبداع ، حتى بلغوا الغاية ، وجنوا الثمار .

وعند دراستنا لهذه السرية سوف نرى المواقف المشرفة ، والأقوال المعبرة ، والمهارات المتفوقة ، والآيات الناطقة ، كما نرى على الطرف الآخر ألواناً من الغدر ، وضروباً من الحقد وأشكالاً من المهارة في قتال الدعوة وأصحابها .

في شهر صفر من السنة الثالثة للهجرة أرسل رسول الله ﷺ عشرة رجال عيوناً على قريش مع رهط من قبائل عَصَل والقارة الذين ذكروا أن أخبار الإسلام قد وصلتهم ، وأنهم بحاجة إلى من يعلمهم أحكام هذا الدين ، وهم في أنفسهم كانوا يبيتون الغدر بهؤلاء الصحب الكرام ، ويتآمرون على قتلهم .

وكان من الممكن أن يكشف الوحي خُبث هذه النوايا الآثمة الغادرة ، ولكنه جرياً على سَنَةِ الابتلاء والاختبار ، وتأسيساً لمبدأ التضحية في سبيل الحق ترك الأمر يجري على سننه ، ويخط هؤلاء القوم سنة التضحية والفداء بدمائهم ، مثلاً أعلى للسالكين إلى الله عز وجل .

لقد خرجت هذه السرية ، يسيرون الليل ، ويكمنون النهار حتى إذا كانوا بالرجيع غدر بهم أولئك الرهط ، ودلوا عليهم هذيلًا ، فنفروا إليهم ، واقتفوا آثارهم .

روى البخاري (٤٠٨٦) في المغازي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعث النبي ﷺ سرية عَيْنًا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، فانطلقوا ، حتى إذا كانوا بين عُسْفان ومَكَّة ذُكروا لحِي من هُذيل ، يقال لهم : بنو لحِيان فتبعوهم بقريب من مئة رام حتى لحقوهم ، فأحاطوا بهم ، وكان عاصم وأصحابه قد لجؤوا إلى فَذَفِدٍ - مُرْتَفَعٍ - من الأرض .

فقالوا لهم : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً .

هكذا قالوا بالسنتهم ، وقلوبهم مقيمة على الغدر والكذب ، فهم كما قال

الرب عز وجل فيهم وفي أمثالهم: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وقال: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وهنا اجتهد أصحاب هذه السرية في عرض هؤلاء القوم ، فقال عاصم رضي الله عنه قوله التي تمثل عزة المؤمن: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، اللهم أخبرنا نبيك ، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل ، وبقي خبيب بن عدي ، وزيد بن الدثنة ، ورجل آخر ، قيل: هو عبد الله بن طارق ، فأعطوهم العهد والميثاق .

فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم ، فلما استمكنوا منهم حلّوا أوتار قسيهم - جمع قوس ، وهو ما يرمى عنه بالنبل - فربطوهم بها .

هذه هي عهود الكفار: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ .

﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦] .

فلما رأى عبد الله بن طارق ما فعل هؤلاء الكفرة بهم ، قال: هذا أول الغدر ، فأبى أن يصحبهم ، فجزّوه ، وعالجوه ، على أن يصحبهم . فلم يفعل ، فقتلوه ، فكان الضحية الثامنة في هذه السرية المؤمنة .

ولكن كيف رضي خبيب وصاحباؤه ونزلوا على عهد هؤلاء المشركين ، مع احتمال نقضهم للعهد؟

ونقول: هناك الاجتهاد ، واستعمال الرأي في مثل هذه المواقف ، فإذا كانت الحال تدور بين الرخصة والعزيمة ، فلكل أن يأخذ بما يراه محققاً للمصلحة ، فمن أبى أن يمكّن العدو منه ، ورأى أن يتعالى عليه ، آخذاً بعزيمة الصبر والمصابرة كان له ذلك ، ومن رأى أن يأخذ بالرخصة ، ويستأسر للعدو أملاً بالخلاص ، وترقباً لفرص النجاة كان له ذلك أيضاً .

وهذا من مهارات الدين ومحاسنه حيث أبقى الباب مفتوحاً أمام تقدير

الاحتمالات ، ومراعاة بعض الاعتبارات ، ولم يضيق على الناس أوجه النظر ، وإعمال الفكر في تخير الإمكانيات ، ما دام ذلك في رحاب خدمة الدين ، ورفع لوائه .

وهنا تتجلى أيضاً حكمة النبي ﷺ ، ومهاراته القيادية في تقرير أصحابه . وحمده لمواقفهم ، ومعطيائهم الفكرية والسلوكية .

ثم إن أولئك الأعداء انطلقوا بخبيب وزيد إلى مكة فباعوهما فيها . فاشترى خبيبا بنو الحارث ليقتلوه بأبيهم الذي قتله خبيب يوم بدر . وأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية ليقبله بأبيه .

ثم إن خبيبا - كما ذكر البخاري (٤٣٨/٧) مكث عند بني الحارث أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحبها - ليحلق بها عانته - فأعارته ، قالت : فغفلت عن صبي لي ، فدرج إليه حتى أتاه ، فوضعه على فخذه ، فلما رأيته فزعته فزعة عرف ذلك مني ، وفي يده موسى ، فقال : أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله . نعم ، ما كان ليفعل ذلك بطفل بريء لا ذنب له .

وكان بوسعه أن يثأر منه ، أو يساوم عليه ، كما يحلو لحسابات أهل الدنيا إن يصوره طريقاً للخلاص ، أو مقابلة للغدر بالغدر .

لكن تربية الإسلام التي أقامت في نفوس المسلمين موازين أخرى للاعتبارات أبت على خباب أن ينزل إلى مثوى الغدر ، أو التملق ، ورأى في الشهادة أعظم مطلب يفتح بها للأشراف أبواب الطرق النظيفة العادلة .

لذا كانت تقول بنت الحارث : ما رأيت أسيراً قط خيراً من خباب ، لقد رأيته يأكل من قِطْف عنب ، وما بمكة يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق بالحديد ، وما كان إلا رزق رزقه الله . رواه البخاري (٤٠٨٦) في المغازي .

ثم إنهم خرجوا به من الحرم ليقتلوه ، فقال لهم : دعوني أصلي ركعتين ، ثم انصرف إليهم فقال : لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت .

فكان أوَّل من سنَّ الركعتين قبل القتل .

ثم قال: اللهم ، أَحْصِهِمْ عِدْداً ، واقتلهم بَدْداً ، ولا تبق منهم أحداً . رواه البخاري (٣٩٨٩ و ٤٠٨٦) في المغازي .

دعا عليهم في ذلك الموقف الرهيب ، لأنه علم بمهارته المستنيرة أن دعاءه هذا سوف يكون له وقع السهام في صدورهم .

قال الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٦/ ٤٤: قال معاوية بن أبي سفيان : لقد حضرت مع أبي سفيان ، فلقد رأيتني ، وإن أبا سفيان ليضجعني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب .

وقال حُوَيْطِب بن عبد العزى : لقد رأيتني أدخلت أصابعي في أذنيّ ، وغدوت هارباً فرقاً أن أسمع دعاءه .

فلما صلّى ركعتين جعلوه على الخشبة ، ثم وجهوه إلى المدينة ، وأوثقوه ربطاً ، ثم قالوا له : ارجع عن الإسلام نُحْل سبيلك .

قال : لا ، والله ، ما أحبُّ أني رجعت عن الإسلام ، وأن لي ما في الأرض جميعاً .

قالوا : أما واللات والعزى ، لئن لم تفعل لنقتلنَّكَ ، فقال : إن قتلي في الله لقليل . ثم قال :

اللهم إني لا أرى إلّا وجه عدوّ ، اللهم إنه ليس هنا أحد يبلغ رسولك عني السلام ، فبلّغه أنت عني السلام . ثم أنشد يقول :

لقد جمّع الأحزاب حَوْلِي وألَّبُوا	قبائلهم واستَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعٍ
وكلُّهُمْ مُبْدَى العداوة جَاهِدُ	عليّ لأنّي في وِثاقٍ مُضَيِّعٍ
وقد جمّعُوا أبناءهم ونساءهم	وقُرِّبْتُ من جِدْعٍ طویلٍ مُنَمِّعٍ
وقد خيَّرُونِي الكُفْرَ والموتُ دونه	وقد هملت عَيْناي من غَيْرِ مَجْزَعٍ
وما بي حِذارُ الموت إني لميْتُ	ولكنْ حِذارِي حرُّ نارٍ تَلْفَعُ
إلى الله أشكو غُرْبتي ثم كُرْبتي	وما أرصد الأحزاب لي عند مَضْرعي

فذا العرشِ صَبَّرَنِي عَلَى مَا يُرَاد بِي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
لعمرك ما آسى إذا مِتُّ مسلماً
فلستُ بمُبْدٍ للعدوِّ تخشُّعاً
ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقلته .

بَضَّعُوا : قطعوا .

ياس : يش .

مطمعي : أملني .

أوصال : أعضاء .

شلو : جسد .

ممزع : مقطع .

آسى : أحزن .

لقد قدم هذا الشهيد البطل نموذجاً حياً من الفداء والإيمان وإيثار جانب الحق والدين على كل متعة في الحياة ، وهذه براعة ومهارة دينه يقينية ، لا يصلح شيء إلا بمثلها ، ولا يدوم خير إلا على أساسها .

روى الإمام أحمد (١٣٩/٤) عن عمرو بن أمية الضمري عن أبيه أن رسول الله ﷺ بعثه وحده عِيناً إلى قريش ، قال : جئت إلى خشبة خُبيب ، وأنا أتخوِّف العيون ، فرقيت فيها ، فحللتُ خُبيباً فوقع إلى الأرض ، فانتبذت غير بعيد ، ثم التفت فلم أرَ خُبيباً ، ولكأنما ابتلعت الأرض ، فلم يُرَ لخبيب أثر حتى الساعة . هذه مكرمة تُرصد لهذا الصحابي الجليل إلى جنب كرامته وهو في سجنه يأتيه رزق الله تعالى في غير أوانه .

وقد قالوا : ما صح معجزة لنبيٍّ صحَّ كرامة لوليٍّ .

وأما زيد بن الدثينة الذي ابتاعه صفوان بن أمية ليقبله بأبيه ، فإنهم لما خرجوا به من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان : أنشدك بالله ، يا زيد ، أتحب

أن محمداً الآن عندنا مكانك ، نضرب عنقه ، وأنت في أهلك؟
 قال: والله ، ما أحبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيّبه شوكة
 تؤذيه ، وأني جالس في أهلي .
 فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحب أصحاب محمد
 محمداً .

نعم بهذا الحب استمروا كل عذاب ، وكل فداء ، وكل تضحية وما كان
 حبهم حباً لشخصٍ خلّد لهم أمجاد الدنيا ، أو ساق إليهم متعتها ، ولكن حبهم له
 كان حباً لما يحملُه من قيم رفيعة ، ومبادئ سامية ، ورحمة بالأصحاب ،
 وحنان على الأتباع ، ومهارة في القيادة وفن الاجتماع ، هذه مهارات إنسانية
 خلّدها هؤلاء في رحاب سلوكهم مع هذا القائد الفذ العظيم سيد الخلق ، وإمام
 المرسلين .

وأما عاصم بن ثابت أمير هذه السرية ، فقد كان له شأن يذكر في هذا
 المضمار ، فإنه لما أبى أن ينزل على عهد المشركين ، وقال قولته: أما أنا ،
 فلا أنزل في ذمّة كافر ، قال: اللهم إني أحمي لك اليوم دينك فاحم لحمي ،
 اللهم أخبر عنا رسولك . فاستجاب الله له ، وحمى لحمه من أيدي المشركين ،
 قال ابن إسحاق: لما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبعوه من سُلالة بنت
 سعد ، وكان عاصم قد قتل ابنها يوم أحد ، وكانت قد نذرت: لئن قُدرت على
 رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه ، وجعلت لمن جاء به مئة ناقة ، فمنعته
 الدّبر ، أي الزنابير والنحل ، فلم يقدروا عليه .

وروى البخاري (٣٠٤٥) في الجهاد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
 فاستجاب الله تعالى لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه
 خبرهم ، وما أصيبوا .

وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حُدُّوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه
 يُعرف ، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر ، فبعث على عاصم مثلُ
 الظِّلّة من الدّبر فحمته من رسولهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً .

قال الإمام الشامي في «سبل الهدى والرشاد» (٤١/٦): فلما حالت الدبر بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يُمسي ، فذهب عنه فناخذه ، فبعث الله تبارك وتعالى الوادي فاحتمله ، فذهب به ، وكان عاصم رضي الله تعالى عنه قد أعطى الله عهداً ألاّ يمسّ مشركاً ، ولا يمسّه مشرك ، فبرّ الله عز وجل قسمه ، فلم يروه ، ولا وصلوا منه إلى شيء .

وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول حين بلغه خبره: «يحفظ الله تبارك وتعالى العبد المؤمن بعد وفاته ، كما يحفظه في حياته .

وصدق رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرٍ مَذْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ» . رواه مسلم (٢٦٢٢) في البر .

٢٧ - سرية المنذر بن عمرو الساعدي إلى بئر معونة :

وكانت تسمى : سرية القراء .

قال الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٥٧/٦ : كان من الإنصار سبعون رجلاً شَبَبَةً يُسَمُّونَ الْقُرَاءَ ، كانوا إذا أُمِّسُوا أتوا ناحية من المدينة إلى معلّم لهم ، فتدارسوا القرآن ، وصلّوا ، حتى إذا كان وجهُ الصبح استعذبوا من الماء ، وحطّبوأ من الحطب فجاؤوا به إلى حُجر أزواج رسول الله ﷺ .

وفي رواية كانوا يحتطبون ، فيبيعونه ، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء .

وقد يكون منهم هذا ، وذاك رضي الله عنهم .

هؤلاء هم شباب المجتمع المسلم ، وهؤلاء وأمثالهم هم جند الإسلام وتلامذة رسول الله ﷺ رباهم بحذق ، ومهارة ، حتى ضربوا المثل في طلب العلم ، والجود ، والعبادة ، والجهاد ، والشهادة في سبيل الحق ، والدين .

قال ابن إسحاق: قدم عامر بن مالك ، أبو براء العامري ، وكان يعرف بملاعب الأُسنة على رسول الله ﷺ ، فأهدى إليه فرسين ، وراحتين .

فقال رسول الله ﷺ: « لا أقبل هديّة من مشرك » وفي رواية أبي داود

(٣٠٥٧) والترمذي (١٥٧٧) إني نُهييت عن زُبْدِ المشركين».

وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، فلم يُسلم ، ولم يتَّعُد ، وقال :
يا محمد ، إني أرى أمرك هذا حسناً وشرifاً ، وقومي خلفي ، فلو أنك
بعثت معي نفراً من أصحابك لرجوتُ أن يتَّبَعُوا أمرك ، فإنهم إن اتَّبَعُوكَ ، فما
أعزَّ أمرك.

فقال رسول الله ﷺ : «إني أخاف عليهم أهل نجد» .

فقال عامر : لا تخف إني لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد .

فبعث رسول الله ﷺ أولئك السبعين ، وأمر عليهم المنذر بن عمرو
الساعدي ، وبعث معهم كتاباً إلى عامر بن الطفيل ، وهو ابن أخي أبي براء ،
ملاعب الأُسنة ، فخرجوا حتى إذا كانوا على بئر معونة - موضع في بلاد هُذيل
بين مكة وعُسفان - عسكروا بها ، وسرحوا ظهرهم مع عمرو بن أمية
الضُمري ، والحرث بن الصمة .

ثم بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل ، فلما
أتاه لم ينظر في كتابه ، بل عدا عليه فقتله .

روى البخاري (٤٠٩٢) في المغازي عن أنس رضي الله عنه : لما طعن
حرام بن ملحان يوم بئر معونة ، قال بالذم : هكذا ، فنضحه على وجهه
ورأسه ، ثم قال : فُرْتُ وربَّ الكعبة» .

نعم ، فاز بالشهادة ، وهي أعز مطلب للمسلم المجاهد ، القانع ، يقول
الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧٠] .

هذه هي المهارة الإنسانية التي تُعدُّ السلاح الأمضى في ركاب الحق ،
والخير .

عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «ما من أحدٍ يدْخُلُ الجنةَ يُحِبُّ
أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع

إلى الدنيا فيقتل عَشْرَ مرّاتٍ ، لما يرى من الكرامة». رواه البخاري (٢٨١٧) في
الجهاد ، ومسلم (١٨٧٧) في الإمامة .

بمثل هذه المهارة التربوية الإيمانية ربّى محمد ﷺ أصحابه على الفداء
وحب التضحية في سبيل نصره الحق والدين ، فَاتَتْ هذه التربية أكلها بإذن
ربها .

روى جابر رضي الله عنه قال : قال رجل : أين أنا ، يا رسول الله ، إن
قُتِلْتُ؟ قال : «في الجنة» .

فألقي تمرات كُنَّ في يده ، ثم قاتل حتى قُتل . رواه مسلم (١٨٩٩) في
الإمامة .

ثم إن عامر بن الطفيل استصرخ على أولئك الدعاة القراء بني عامر فأبوا أن
يجيبوه إلى ما دعاهم ، وقالوا : لن نُخفر جوار أبي براء ، وقد عقد لهم عقداً
وجواراً .

فاستصرخ عليهم قبائل من سُليم : عُصَيَّة ، وَرِغْل ، وَذَكْوَان ، فأجابوه
وانطلقوا ، حتى أحاطوا بالقوم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ،
وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم . إلا ما كان من عمرو بن أمية الضمري ، فإنه
أفلت منهم .

روى البخاري (٤٠٩١) في المغازي وغيره أن أولئك الشهداء قالوا : اللهم
بلغ عنا نبيّنا ، وفي لفظ : إخواننا ، أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا .

فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بذلك ، فقام ، فحمد الله ، وأثنى عليه فقال :
«إن إخوانكم قد لقوا المشركين ، واقتطعواهم ، فلم يبق منهم أحد وإنهم قالوا :
ربّنا بلغ قومنا أنا قد رضينا ورُضي عنا ، وأنا رسولهم إليكم ، أنهم قد رضوا ،
ورضي عنهم» . «سبل الهدى والرشاد» ٦ / ٦٠ .

وتأثر النبي ﷺ لمقتل هؤلاء الدعاة الصالحين من أصحابه وبقي شهراً يقنت
في صلاة الصبح يدعو على قبائل سليم : رِغْل ، وَذَكْوَان ، وَعُصَيَّة .

روى البخاري (٤٠٩٥) في المغازي عن أنس قال: دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً.

قال ابن حجر في «الفتح» إن غزوة الرجيع كانت في أواخر سنة ثلاث ، وبئر معونة كانت في أوائل سنة أربع .

وقال الشيخ الخضري في «نور اليقين»: كان وصول خبر سرية بئر معونة وسرية الرجيع إلى النبي ﷺ في يوم واحد ، فحزن حزناً شديداً ، وقام يدعو على الغادرين بهم شهراً في الصلاة .

هذا ، ومن الموافقات أو المفارقات التي كانت في أعقاب سرية بئر معونة أن عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه ، وهو الوحيد الذي نجا من أفراد هذه السرية لقي في طريقه إلى المدينة رجلين من المشركين ، ظنهما من بني عامر ، وكان معهما عقد من رسول الله ﷺ ، وجوار ، لم يعلم به عمرو ، فنزلا معه في ظل هو فيه ، فأمهلها حتى ناما ، وعدا عليهما فقتلها ، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة من بني عامر .

فلما قدم على رسول الله ﷺ أخبره الخبر ، فقال رسول الله ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأدينهما» .

نعم سعى رسول الله ﷺ في دية هذين القتيلين ، لأنهما وإن كانا مشركين ، وكانا من قبيلة الغادر عامر بن الطفيل ، إلا أنهما بعقد رسول الله ﷺ أحرزا مالهما وصانا دمهما ، وفي عرف الإسلام لا يؤخذ أحد بجريرة غيره ﴿ وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

فكان رسول الله ﷺ بهذه المهارة ، وهذه المعاملة السَّابِق لتقدير وتقرير مبدأ حصر المسؤولية بأصحابها وحدهم ، وعدم تشريك البراء من أهلهم وأقربائهم بالمؤاخذه والعقاب .

٢٨ - غزوة بني النضير

بنو النضير طائفة من اليهود ، كانت منازلهم ، ومزارعهم بناحية المدينة ،

وهم كغيرهم من اليهود ، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمّة ، يبس عودهم على الغدر ، وانحرفت طواياهم إلى الإثم ، وراحوا يتحينون الفرص للإساءة لمن سالمهم ، وأحسن إليهم . ولقد كان من شأنهم أن خرج إليهم رسول الله ﷺ يوم السبت من شهر ربيع الأول ، من السنة الرابعة للهجرة الشريفة ، في نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فصلّى الصبح في مسجد قباء ، ثم أتاهم فكلمهم أن يُعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلها عمرو بن أميّة الضمري ، وكان بين بني النضير ، وبين بني عامر عقد وحلف ، فأظهروا لهذا الطلب بشرهم ، ورضاهم ، وقالوا: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت .

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران :

١٦٧].

وقالوا: قد آن لك يا رسول الله أن تزورنا ، وأن تأتينا ، إجلس حتى تطعم ، ونقوم فتشاور ، فجلس رسول الله ﷺ ، مستنداً إلى بيت من بيوتهم . فقام الأخباث ، وخلا بعضهم إلى بعض ، وتناجوا بما يبيتون من الشرّ والمكر .

فقال حيي بن أخطب : يا معشر يهود ، قد جاءكم محمد في نفر من أصحابه لا يبلغون عشرة ، فاطرحوا عليه خجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحته ، فاقتلوه ، ولن تجدوه أخلّى منه السّاعة ، فإنه إن قُتل تفرّق عنه أصحابه ، وقال عمرو بن جحّاش النّضري : أنا أظهر على البيت ، فأطرح عليه صخرة ، وهياً عمرو هذا الخبيث الصخرة ليرسلها على رسول الله ﷺ .

وَيْلَهُمْ ، ما أشدّ غدرهم ، وما أعظم مكرهم ، وما أروع غباءهم ، لقد سؤل لهم الحقد كلّ شر ، وأعمامهم عن كل نظر إلا السوء .

لقد نصّحهم بعض أهل النظر من الحاقدين أمثالهم ، وقال لهم ، سلام بن مشكلم : يا قوم أطيعوني هذه المرأة ، وخالفوني الدّهر ، والله لئن فعلتم ليُخبرنّ بأنا قد غدرنا ، وإن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه فلا تفعلوا ، ولكن أنى للأعمى أن يبصر ، وللأصم أن يسمع .

فجاء رسول الله ﷺ الخبر - كما توقع سلام بن مشكم اليهودي - بما همُّوا به ، فنهض سريعاً ، كأنه يريد حاجة ، وتوجه إلى المدينة ، وجلس أصحابه يتحدثون ، وهم يظنون أنه قام يقضي حاجةً .

فلما أبطأ عليهم ، قاموا ولحقوا به ، فقالوا : قمت ولم نشعر بما تريد .
قال : « همّت يهود بالغدر » .

ثم أرسل إليهم بقوله الحازم الذي زلزل أركانهم ، وقض مضاجعهم ، وكان عليهم أن يتوقعوا منه مثله :

« اخرجوا من بلدي ، فقد هممت بما هممت به من الغدر ، وقد أجلتكم عشراً ، فمن رُوي بعد ذلك ضربت عنقه » .

لقد كانوا أولى بضرب العنق سلفاً ، لكنها رحمة القائد ، وحكمته ، يريد أن تظلّ أفياء الرحمة منتشرة ، ومعالم الهداية والخير سارية ليعلم الناس أن محمداً رحمة ، وليس سفاحاً ، وأنه ما خير بين أمرين إلا اختار أحسنهما إلى الناس ، وأيسرهما بهم ، فما دام هناك ولو بعض الأمل أن يستيقظ النائم ، ويتنبه الغافل فلتكن الفرصة سانحة ، والتدارك ممكناً .

اكتفى منهم أن يخرجوا سالمين بما يمكن أن يحملوه من أموالهم . فلما همُّوا بالخروج وعزموا عليه ، جاءتهم نصائح المنافق الكبير : عبد الله بن أبي بن سلول : لا تخرجوا من دياركم ، وأقيموا في حصونكم ، فإن معي ألفين من قومي يقاتلون عنكم .

صيحة ماكر ، لعلها تلحق شراً بالمسلمين ، وليس هو على كل حال بخاسر كيفما كانت العواقب على هؤلاء اليهود .

فركبهم العمى مرّة أخرى ، وعادوا عما عزموا عليه من الخروج ، وتحصنوا في حصونهم .

وأمام هذا الموقف المتعنت ، المتحدي أمر القائد ﷺ بإعداد العدة لحربهم ، والسير إليهم ، غير مبال ولا مكترث بعود المنافقين ، وتآمرهم .

ثم سار إليهم ، وحاصروهم ، فتحصنوا بحصونهم ، وتسלحوا بما لديهم من النبل والحجارة ، وراحوا ينتظرون النجدة من حلفائهم المنافقين ، ولكن المنافقين لما رأوا عزيمة الرشد من القائد ، وأبصروا جيش الحق يزحف نحو ديار الغادرين أسقط في أيديهم ، وخذلوا أصحابهم ، وقعدوا عن نصرتهم ، ووقع اليهود في حَيْصَ بَيْصَ ، أي في ضيق وشدة .

ولإرغامهم على الإسلام بأقل الضحايا في الدماء أمر ﷺ بقطع بعض نخيلهم وتحريقه ، فلما رأوا ذلك الإصرار على حربهم عرضوا عليه أن يخرجوا من المدينة كما أراد ، ولكنه ﷺ قال : « لا أقبل اليوم أن تخرجوا إلا بدمائكم فقط ، وليس لكم من أموالكم إلا ما حملته الإبل عدا الحلقة : أي السلاح » فنزلوا على ذلك ، واحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، وتفرقوا ما بين خيبر ، والشام ، وأراح الله المسلمين من كيدهم وشرورهم .

إن رسول الله ﷺ ، لم يعرف أنه نقض عهداً ، ولا أخفر ذمة ، ولا أحب يوماً المبالغة في إراقة الدماء ، ولكنه كان ماهراً في تعامله مع الأحداث ، وأهلها ، حاذقاً في الوصول إلى الهدف من أقرب سُبُلِه ، لا يدّخر وسعاً أن تكون الخسائر محصورة في أقل قدر ممكن سواء كانت في صفوفه أو صفوف أعدائه .

وقد كان ﷺ هو وأصحابه أهلاً أن يوصفوا بقول القائل :

« ما رأينا فاتحاً أرحم من العرب » يريد المسلمين .

لقد غنم النبي ﷺ أموال بني النضير ، فكانت له عليه الصلاة والسلام ينفق منها على نفسه وأهل بيوته ، وما فضل كان يضعه في مصالح المسلمين .

ولقد أعطى رسول الله ﷺ المهاجرين من أموال بني النضير ، ولم يعط من الأنصار إلا من كان فقيراً ، وبذلك حصلت الكفاية للمهاجرين ، واستغنوا عن نفقات إخوانهم من الأنصار ، وتحقق بهذا إقامة التوازن بين طبقات المجتمع ، وساد جو من العدالة الاقتصادية في توزيع الثروات بين فئات المجتمع .

ونزل قول الله عز وجل مؤيداً خطوات رسول الله ﷺ ومؤسساً لمبدأ التعامل

في أموال الفيء . والفيء : هو ما غنم من أموال الكفار بغير قتال ، وبغير كَرٍّ وفَرٍّ .
﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ
رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا
ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٧) لِلْفُقَرَاءِ
الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر : ٦ - ٨] .

ولقد ذكر الله تعالى بعدها الأنصار بما هو أعظم وأبقى وأدوم في رحاب
الفضل من أموال الدنيا وزخارفها ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .
دولة : ملكاً متداولاً .

تبؤوا الدار : توطنوا المدينة وسكنوها وهم الأنصار .

خصاصة : حاجة ماسة .

شح نفسه : بخلها ولؤمها .

ونزل في بني النضير من قول الحق ما يحمل العبرة لكل معتبر .

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ
يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يَبُوتُهم بِأَيِّدِهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَى الْأَبْصَرُ ﴾ [الحشر :
٢] .

نعم يجب أن يعتبر كل معتبر ليسلم مما أصاب المتهورين ، وينجو من
عواقب الجهل وسوء التقدير ، ويظفر بمزيد من الأجر والسلامة .

ونزل في المنافقين :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ

أَخْرَجْتُمْ لَخَرْجَتُمْ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ [الحشر: ١١ - ١٢].

ونذكر بهذه المناسبة قصيدة كعب بن مالك الأنصاري الخزرجي ، شاعر النبي ﷺ في جلاء بني النضير ، وما حلَّ بهم بغدرهم الآثم .

لَقَدْ خَزَيْتُ بِغَدْرَتِهَا الْحُبُورُ كَذَاكَ الدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ يَدُورُ
وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرَبِّ عَزِيزٍ أَمْرُهُ أَمْرٌ كَبِيرُ
وَقَدْ أَوْتُوا مَعًا فَهَمًّا وَعِلْمًا وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ النَّذِيرُ
نَذِيرٌ صَادِقٌ أَدَّى كِتَابًا وَآيَاتٍ مُبَيَّنَّةً تُبَيِّرُ
فَقَالُوا مَا أَتَيْتَ بِأَمْرِ صِدْقٍ وَأَنْتَ بِمَنْكَرٍ مِّنَّا جَدِيرُ
فَقَالَ بَلَى لَقَدْ أَدَيْتُ حَقًّا يَصْدُقْنِي بِهِ الْفَهْمُ الْخَبِيرُ
فَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَهْدَ لِكُلِّ رُشْدٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يُجْزِ الْكُفُورُ
فَلَمَّا أَشْرَبُوا غَدْرًا وَكُفْرًا وَجَدَّ بِهِمْ عَنِ الْحَقِّ الثُّقُورُ
أَرَى اللَّهَ النَّبِيَّ بِرَأْيٍ صِدْقٍ وَكَانَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا يُجُورُ
فَأَيَّدَهُ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ نَصِيرُهُ نِعَمَ النَّصِيرُ
فَتِلْكَ بَنُو النَّضِيرِ بِدَارِ سَوْءٍ أَبَارَهُمْ بِمَا اجْتَرَمُوا الْمَبِيرُ
غَدَاةَ أَتَاهُمْ فِي الزَّحْفِ رَهْوًا رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ بِهِمْ بَصِيرُ
وَقَالَ السَّلَامُ وَيَحْكُمُ فَصَدُّوا وَحَالَفَ أَمْرَهُمْ كَذِبٌ وَزُورُ
فَذَاقُوا غَبَّ أَمْرِهِمْ وَبِالْأَ لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرُ
وَأَجْلُوا عَامِدِينَ لَقَيْنُفَاعٍ وَغَوَدَ مِنْهُمْ نَخْلٌ وَدُورُ
خَزَيْتُ: ذَلَّتْ

الْحُبُورُ: جمع حَبْر ، وهو العالم ، والمراد هنا علماء يهود المدينة .

صَرْفٌ: تَغْيِيرٌ .

يدور: يتحول وينتقل .

جدير: حقيق وخليق .

وجدَّ بهم : مال بهم .

أبارهم : أهلكهم .

اجترموا : اكتسبوا .

رَهْوَاً : مَشِياً بسكُون .

السَّلْم : الصلح .

غَبَّ : عاقبة .

وبالآ : شدة عليهم وسوء .

٢٩ - غزوة ذات الرِّفَاع :

قلنا أكثر من مرّة : إن رسول الله ﷺ كان بمهارته وحذقه دائم اليقظة لما يدور حوله من حركات وتحركات ، وما يجري خلفه من همسات ، ولمزات . وما يُبَيِّتُ له من مكور ومؤامرات ، وكان يقابل كل ذلك بما تقتضيه الحنكة ، والسرعة ، ودقة القيادة ، والإعداد بما تستوجبه الأحوال والظروف .

ومن هذا أنه سمع أن بعض القبائل من نجد تُعدُّ لعزوه ، فلم يمهل عدوّه حتى ينال منه ، بل باغتهم قبل أن يتحركوا بشيء من نواياهم .

قال الشيخ محمد الخضري في كتابه «نور اليقين» :

وفي ربيع الآخر - من السنة الرابعة - بلغه عليه الصلاة والسلام أن قبائل من نجد يتهيؤون لحربه ، وهم بنو محارب ؛ وبنو ثعلبة ، فتجهز لهم - ﷺ - في سبع مئة مقاتل ، وولّى على المدينة عثمان بن عفان ، ولم يزلوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم ، فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة فأخذوهنّ ، فبلغ الخبر رجالهم فخافوا وتفرّقوا في رؤوس الجبال .

وقال الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ١٧٥ / ٥ : فسار رسول الله ﷺ في أصحابه حتى أتى نخلاً ، وأتى مجالسهم ، فلم يجد فيها أحداً إلا نسوة فأخذهنّ ، وقد هربت الأعراب في رؤوس الجبال ، وهم مُطلّون على المسلمين .

ولما حانت الصلاة صَلَّى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الخوف .

روى البخاري (٤١٢٩) في المغازي عمن شهد مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف : أن طائفة صَفَّتْ معه ، وطائفة وجَّاهَ العدوُّ ، فصلَّى بالتي معه ركعةً ، ثم ثبت قائماً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثم انصرفوا وجَّاهَ العدوُّ ، وجاءت الطائفة الأخرى ، فصلَّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثم سلَّم بهم .

وروى البخاري (٤١٢٨) في المغازي عن أبي موسى رضي الله عنه قال : خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفرٍ بيننا بغير نعتقه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاري ، فكنا نلفُ على أرجلنا الخِرْقَ ، فسميت غزوة ذات الرِّقاع ، لما كُنَّا نعصِب من الخرق على أرجلنا . وقد جعل البخاري هذه الغزوة بعد غزوة خيبر ، وخالفه أهل السير .

ثم رجع رسول الله ﷺ بأصحابه إلى المدينة سالمين ، ولم يلقوا كيداً ، وكان غيابه عن المدينة خمسة عشر يوماً .

وقد كان في هذه الغزوة آيات بينات ، ومشاهد تستأهل النظر ، وتثير العجب ، لهذا قال الإمام الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ١٧٥ / ٥ : روى البزار ، والطبراني في «الأوسط» عنه قال : غزوة ذات الرقاع تسمَّى غزوة الأعاجيب .

ونحن سنذكر بعضاً منها في مجال العبرة والعظة ، وإبراز مكان البراعة والمهارة في سلوكيات النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم .

أولاً : روى البخاري (٤١٣٥) في المغازي ، ومسلم (١٣) في الفضائل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه ، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاء - الشجر - فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس في العضاء يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرَةٍ ، فعلقَ بها سيفه ، قال جابر : فمنا نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا ، فجئناه ، فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال

رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي ، وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً ، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله ، فهذا هو ذا جالس» .

ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ .

نعم ، لم يعاقبه ، وكاد لولا عصمة الله تعالى له ، أن يقضي عليه ، إنه خلق القائد ، ومهارته في تحبيب الناس بالإسلام ، وعفوه عند المقدرة عن الخاطئين من الأنام .

وصدق الله عز وجل حيث قال فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقال : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ثانياً: قال الإمام الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ١٧٩/٥ : روى ابن إسحاق عن جابر ، ومحمد بن عمر عن شيوخه أن رسول الله ﷺ أصاب في نخل المشركين في هذه الغزوة امرأة وكان زوجها غائباً ، فلما أتى أخبر الخبر ، وقفل رسول الله ﷺ ، فحلف زوجها لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد ﷺ دماً ، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ منزلاً ليلة ذات ريح في شعبٍ استقبله ، فقال : «مَنْ رَجُلٌ يَكْلُونَا؟» .

فقام عبَّادُ بنُ بشرٍ ، وعمارُ بنُ ياسر رضي الله عنهما ، فقالا : نحن يا رسول الله نكلؤك ، وجعلت الريح لا تسكن ، وجلس الرجلان على فم الشعب .

فقال أحدهما لصاحبه : أيُّ الليل أحبُّ إليك : أوَّلُه ، أم آخِرُه ؟

قال : اكفني أوَّلُه ، فنام عمار بن ياسر ، وقام عبَّادُ يصلي ، فأقبل زوج المرأة يطلب غِرَّةً ، وقد سكنت الريحُ ، فلما رأى سواد عباد من قريب قال : يعلم الله أن هذا ريثة القوم - عينهم - ففوق - سدَّد - سهماً ، فوضعه فيه ، فانتزعه عباد ، فرماه بأخر فوضعه فيه ، فانتزعه ، فرماه بآخر ، فانتزعه ، فلما غلبه الدم ركع وسجد ، ثم قال لصاحبه : اجلس ، فقد أثبتُّ ، فجلس عمار ، فلما رأى الأعرابي عماراً قد قام علم أنه قد نذرا به ، فهرب ، فقال عمار : أي

أخي ، ما منعك أن توقظني في أول سهم رمى به؟ قال: كنت في سورة أقرؤها ، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها ، ولولا أنني خشيت أن أضيع ثغراً أمرني به رسول الله ﷺ ، ما انصرفت ، ولو أتني على نفسي» .

يا سبحان الله ، أين إحساسه بالألم ، والسهام تتوالى عليه ، والدم ينزف منه ، أكان في غيبوبة المناجاة مع رب الأرباب ، حتى شغلته عن آلامه ، لكنه رضي الله عنه مع استغراقه في صلاته وقراءته لم يكن غائباً عن مهمته ، القتالية ، وحراسته لثغر من ثغور المسلمين ، هذا هو الجندي بهذه البراعة والمهارة والصلاح الذي يشدُّ به ظهر الأمة ، وتحفظ به بلادها وحدودها .

فلتربَّ على هذا ، ولنربِّ عليه أنفسنا وشبابنا وجنودنا .

ثالثاً: عن جابر رضي الله عنه قال : خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع على جمل لي ضعيف ، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي ، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال : «مالك ، يا جابر؟» .

قلت : يا رسول الله ، أبطأ بي جملي ، قال : «أنخه» .

فأنخته ، وأناخ رسول الله ﷺ ، ثم قال : «أعطني هذه العصا من يدك» .

ففعلت ، فأخذها ، فنخسَهُ بها نَخَسَاتٍ ، ثم قال : «اركب» .

فركبت فخرج - والذي بعثه بالحق - يواحق - يسابق ناقته مُواهقة .

قال : وتحدثت مع رسول الله ﷺ ، فقال لي : أتبيعني جملك هذا ، يا جابر؟» .

قلت : يا رسول الله ، بل أهبه لك . قال : «لا ، ولكن بعنيه» .

قلت : فسُئِنِيهِ ، يا رسول الله . قال : «آخذه بدرهم» .

قلت : لا ، إذنُ تغبِنِي ، يا رسول الله قال : «فبدرهمين؟» .

قلت : لا ، فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه حتى بلغ الأوقية ، وهي أربعون درهماً .

فقلت : أفقدُ رضيتَ ، يا رسولَ الله؟ قال : «نعم» .

قلت: فهو لك. قال: «قد أخذته».

ثم قال: «يا جابر، هل تزوجت بعد؟».

قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «أثيباً أم بكرًا؟».

قلت: لا، بل ثيباً. قال: «أفلا جارية تُلَاعِبُها وتُلَاعِبُكَ؟».

قلت: يا رسول الله، إن أبي أصيب يوم أحد وترك له بنات سبعاً، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن، قال:

«أصبت إن شاء الله، أما إنا لو قد جئنا صراراً - اسم مكان في ضاحية المدينة - أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا، فنفضت نمارقها» - وسائدها -.

فقلت: والله، يا رسول الله، ما لنا من نمارق، قال: «إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كَيْسًا».

قال جابر: فلما جئنا صراراً أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحر، وأقمنا عليها ذلك اليوم.

فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل، ودخلنا المدينة.

قال جابر: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ، ثم جلست في المسجد قريباً منه.

فخرج رسول الله ﷺ، فرأى الجمل، فقال: «ما هذا؟».

قالوا: يا رسول الله، هذا جمل جابر. قال: «فأين جابر؟».

فدُعيتُ له، فقال: «يا ابن أخي، خذ برأس جملك، فهو لك».

ودعا بلالاً، فقال له: «اذهب بجابر، فأعطه أوقية».

فذهبتُ معه، فأعطاني أوقية، وزادني شيئاً يسيراً، فو الله، ما زال ينمو

عندي، ويرى مكانه من بيتنا. «فقه السيرة» ص: ٢٦٧ - ٢٦٨.

هذه حنكة القائد في السفر والحضر، وهذه رحمته، بأصحابه، ومداعبته

لهم ، وسؤاله عنهم وعن أحوالهم ، ومد يد العون لهم .
هذه هي القيادة الرشيدة التي تجعل من الجنود أسوداً في الوغي لا يقصرون
عن بذل ، ولا يترددون في تلبية واجب ، أو تطبيق حكم .

رابعاً: في تسمية هذه الغزوة: بذات الرقاع دلالة واضحة على ما كان
يتحمله أصحاب رسول الله ﷺ في ذات الله تعالى ، وفي تبليغ دعوته ، فقد
كانوا لا يملكون المال ، ولا يجدون الظهر ، وكان يتعاقب على الدابة الواحدة
السته والسبعة من الناس ، حتى تنتقب أرجلهم وتسقط أظفارهم ، وهم راضون
مغتبطون ، وقد أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالنصر ، وأغناهم من فقر ، لأنهم
كانوا أهلاً لذلك وصدق الله تعالى حيث قال فيهم :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

خامساً: وفي صلاة الخوف التي صلاها النبي ﷺ في غزوة ذات الرقاع على
الكيفية التي ذكرت ما يدل على مدى الحرص على الصلاة جماعة في وقتها ،
وعلى الحيطة والحذر تجاه تحركات العدو ، واحتمال قيامه بالمباغيات .

وقد اكتسب الصحابة رضوان الله عليهم مثل هذه المهارات الفائقة من
صحبتهم وعشرتهم لرسول الله ﷺ ، وعلى المسلمين أن يتأسوا بسيرة نبيهم ،
وسيرة أصحابه الكرام .

سادساً: وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: إنا لمع رسول الله ﷺ إذ جاء
رجل من أصحابه بفرخ طائر ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، فأقبل أبواه ، أو
أحدهما حتى طرح نفسه في يدي الذي أخذ فرخه ، فرأيت الناس يعجبون من
ذلك ، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا الطَّائِرِ ، أَخَذْتُمْ فَرَخَهُ ، فطرح
نفسه رحمة بفرخه ، والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه» . «سبل الهدى
والرشاد» ١٧٩/٥ .

فيا قوم ، تعرّضوا لنفحات رحمة الله ، فهي خير لكم مما تجمعون .

قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨].

وقال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦]. وقال نبينا المصطفى ﷺ: «من لا يَرْحَمَ لا يُرْحَم». رواه البخاري (٥٩٩٧) في الأدب ، ومسلم (٢٣١٨) في الفضائل .

٣٠- غزوة بدر الموعود :

وهي غزوة بدر الآخرة: وكانت في مطلع شعبان سنة أربع من الهجرة الشريفة .

وسبب هذه الغزوة أن أبا سفيان بن حرب لما أراد أن ينصرف يوم أحدٍ نادى: موعدٌ ما بيننا وبينكم بذُرِّ العام المقبل ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب قل: «نعم إن شاء الله» .

وكانت بدرٌ مجمعاً للعرب ، وسوقاً تقام لهلال شعبان كل عام إلى ثمان ليال خلون منه ، فإذا مضت تفرق الناس إلى بلادهم .

فرجعت قريش من أحد ، وطُيِّرَت في العرب أخبار موعدها مع المسلمين ، وأنها عازمة على حربهم العام المقبل .

ولما اقترب الأجل ، وأوشك الموعود ، لم تكن الظروف مواتية لأهل مكة ، فقد كانت سنة جذب ، وقحط ، فكرهوا الخروج ، وخافوا مغبة خلف الوعد .

فأراد أبو سفيان أن يتظاهر بالقوة ، والاستعداد للحرب وأنه يُحبُّ أن يغزو في جيش كثيف ، فتسير أصداء ذلك في العرب ، ويخافه المسلمون .

ولهذا الكيد ، والتظاهر بالقوة استأجر أبو سفيان نعيم بن مسعود الأشجعي ليذهب إلى المدينة ، ويرجف بالمسلمين . ويخبرهم أن أبا سفيان قادم إليهم بجيش كثيف ، ووعدته عشرين ناقة إن هو فعل ذلك .

وقدم نعيم المدينة ، وطاف في أحيائها ، وقام بما يقدر عليه من بثِّ الأراجيف ، حتى نشر أجواء من المخاوف . واستبشر المنافقون واليهود ،

وقالوا: محمد لا يُفْلَتُ من هذا الجمع .

وجاء أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ، وقد سمعا ما سمعا وقالوا :
يا رسول الله ، إن الله تعالى مُظْهِرُ دِينِهِ ، ومَعَزُّ نَبِيِّهِ ، وقد وَعَدْنَا الْقَوْمَ مَوْعِدًا
لَا نُحِبُّ أَنْ نَتَخَلَّفَ عَنْهُ ، فيرون أن هذا جُبْنٌ ، فسيرَ لموعدهم ، فوالله ! إن في
ذلك لخيرة ، فسرَّ رسولُ الله ﷺ بذلك ، وقال قولته المشهورة :

«والذي نفسي بيده لأُخرجَنَّ ، وإن لم يخرج معي أحدٌ» وخرج رسول الله
ﷺ في مستهلِّ شعبان بألف وخمس مئة من أصحابه ، وخلف على المدينة
عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول ، فوافى بدرًا ، فلم يجد فيها أحدًا ، فإن
أبا سفيان أشار على قريش بالخروج وفي نيته الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين ،
ظانًا أن أراجيف نُعيم ستؤدِّي غرضها ، فسار حتى أتى مجنَّة ، وهي سوق
معروفة ، فقال لقومه : إن هذا عام جذب ، ولا يصلح لنا إلا عام عُشْبٍ ،
فارجعوا .

أما النبي ﷺ ، وأصحابه ، فأقاموا ببدر ، وانفردوا بسوقها وحدهم ، لم
يشاركهم في تجارتها أحد ، فربحوا ربحاً كثيراً .

وقال عثمان رضي الله عنه : ربحت للدينار ديناراً ، فرجعوا إلى المدينة
سالمين غانمين ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَانْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ
يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٤] .

ولما سمع المشركون بما منَّ الله تعالى به على المسلمين ، قال صفوان بن
أمية لأبي سفيان : قد ، والله نهيتُك أن تعدَّ القومَ ، قد اجترؤوا علينا ، ورأوا أنا
أخلفناهم .

قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ يذكر خلف أبي سفيان
وقومه عن مواعدهم :

وَعَدْنَا أَبَا سُفْيَانَ بَدْرًا فَلَمْ نَجِدْ	لميعاده صِدْقًا وما كان وافيًا
فَأَقْسِمُ لَوْ وَافَيْتَنَا فَلَقَيْنَا	لَأَبْتَ دَمِيمًا وَافْتَقَدْتَ المَوَالِيَا
تَرْكُنَا بِهِ أَوْصَالَ عُتْبَةَ وَابْنِهِ	وَعَمْرًا أَبَا جَهْلٍ تَرْكُنَاهُ ثَاوِيَا

عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ أَفْ لِدِينِكُمْ وَأَمْرُكُمُ السَّيِّءِ الَّذِي كَانَ غَاوِيَا
فَأِنِّي وَإِنْ عَنَقْتُمُونِي لَقَائِلٌ فَدَى لِرَسُولِ اللَّهِ أَهْلِي وَمَالِيَا
أَطْعَنَاهُ لَمْ نَعْدْ لَهُ فِينَا بَغَيْرِهِ شِهَابًا لَنَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا
إِنْ النَّازِرُ فِي أَحْدَاثِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ ، وَأَبْعَادَهَا ، وَأَثَارَهَا لَا يَعْبُزُ أَنْ يَرَى
وَجْهَ الْبِرَاعَةِ ، وَالْمَهَارَةِ ، وَالصَّدَقِ ، وَالْحَذَقِ ، وَالتَّوْفِيقِ فِي تَصَرُّفَاتِ النَّبِيِّ
ﷺ ، وَتَصَرُّفَاتِ أَصْحَابِهِ .

فَلَقَدْ سَمِعْتُ مَوْقِفَ الْجُرَّاءِ ، وَالْعَزِيمَةِ ، وَالتَّصْمِيمِ يَتَدَفَّقُ مِنْ قَوْلِهِ الْكَرِيمِ :
«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أُخْرِجَنَّ ، وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِيَ أَحَدٌ» . وَلَا يَفُوتَنَّكَ قَوْلُ
الصَّاحِبِينَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
وكَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَغْمُضَ الْعَيْنَ عَنْ خُرُوجِ جَيْشِ الصَّحَابَةِ مُسْرِعِينَ تَلْبِيَةً
لِرَغْبَةِ الْقَائِدِ ﷺ .

هَذِهِ هِيَ التَّرْبِيَةُ الرَّشِيدَةُ الْفَرِيدَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُؤْتِيَ أَكْلَهَا فِي كُلِّ حِينٍ .
وَفَقْنَا اللَّهَ لِمِثْلِهَا أَجْمَعِينَ .

٣١ - حَوَادِثُ :

فِي هَذَا الْعَامِ الرَّابِعِ مِنْ هِجْرَتِهِ ﷺ حَدَّثَتْ أَحْدَاثُ إِبَانِ مَسِيرَاتِهِ الظَّافِرَةِ ،
كَانَ لَهَا مَوَاقِعُهَا ، مِنْ نَفْسِهِ ﷺ ، وَتَصَرُّفَاتِهِ ، مِنْهَا :

١ - وَلَادَةُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ مِنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وَلَمَّا وَلَدَ
أَذَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أُذُنِهِ ، وَسَمَاهُ حُسَيْنًا . وَعَقَّ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ ، وَحَلَقَتْ
فَاطِمَةُ شَعْرَهُ ، وَتَصَدَّقَتْ بِوِزْنِهِ فَضَّةً .

وَكَانَتْ وَلَادَتُهُ فِي لَيَالِ خُلُونِ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ .

وَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، وَلَدَ قَبْلَ الْحُسَيْنِ بِنَحْوِ عَامٍ تَقْرِيبًا .

وَكَانَ ﷺ يَقُولُ : «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رِيحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ
(٣٧٥٣) فِي الْفَضَائِلِ .

وقال: «الحسنُ والحسينُ سيِّدا شبابِ أهلِ الجنَّةِ». رواه الترمذي (٤٠٣٨) في المناقب.

وقال: «اللهم إني أحُبُّهما ، فأحِبَّهُما» رواه البخاري (٣٧٤٧) في الفضائل بهذه البراعة كان ﷺ يؤسس حبَّ الآخرين في نفوس الناس.

٢ - وفاة زَيْنَب بنتِ خُرَيْمَةَ أمِّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

وكانت تعرف رضي الله تعالى عنها بأُم المساكين ، لكثرة إطعامها لهم ، وصدقته عليها.

وكانت تحت عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه ، فقتل عنها يوم أحد ، فخففَ رسول الله ﷺ لنجدتها فخطبها وتزوجها سنة ثلاث للهجرة ، فكان لها خير معيل ، وكان لها الشرف الرفيع حيث دخلت في عداد أمهات المؤمنين.

لكنها رضي الله تعالى عنها ، لم تطل حياتها في صحبة النبي الكريم ﷺ بل توفيت بعد زواجها منه بثمانية أشهر أو أقل ، ودفنت بالبقيع ، وهي بنت ثلاثين سنة.

فما أروع وفاءه ﷺ لأصحابه أحياء وميتين ، وما أشدَّ عطفه على أسرهم وأراملهم ، وهذا من كمال إنسانيته ، وعظيم رحمته ، وشفقته ﷺ.

٣ - وفاة أبي سلمة رضي الله عنه ابن عمه رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة ، وأول من هاجر إلى الحبشة مع زوجته رضي الله تعالى عنهما ، جرح في أحد ، جرحاً مات منه رضي الله عنه ، وله في حديث هجرته إلى المدينة مع زوجته أم سلمة حديث يذكر ، لما فيه من صنوف التضحية ، وإيثار الدين على كل شيء.

وسياتي عند ذكر زواج النبي بأُم سلمة.

٤ - زواج النبي ﷺ من أم سلمة رضي الله تعالى عنها وهي هند بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية. وهي زوجة أبي سلمة بن عبد الأسد

المخزومي الذي توفي متأثراً بجراحه يوم أحد ، ولها منه أربعة أولاد: سلمة ، وعمرو ، ودرة ، وزينب .

فلما توفي أبو سلمة حزنت عليه ، وذكرت حديثاً سمعته من زوجها أبي سلمة قالت : أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً ، فسررت به . قال : « لا تُصِيبُ أحداً من المسلمين مُصِيبَةً ، فَيَسْتَرْجِعُ عند مُصِيبَتِهِ - أي يقول : «إنا لله وإنا إليه راجعون» - ثم يقول : اللَّهُمَّ اجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي ، وأخلف لي خيراً منها إلا فعل ذلك به » .

قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفي أبو سلمة استرجعتُ وقلت : اللهم اجرني في مُصِيبَتِي وأخلفني خيراً منه ، ثم رجعتُ إلى نفسي ، قلت : من أين لي خير من أبي سلمة .

فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله ﷺ ، وأنا أدبُع إهاباً - جلدأ - لي ، فغسلت يديّ من القرظ ، وأذنت له ، فوضعت له وسادة من آدم ، حَشَوها ليفً فقعد عليها ، فخطبني إلى نفسي ، فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول الله ، ما بي أن لا تكون بك الرَغْبَةُ فيّ ، ولكني امرأة فيّ غَيْرَةُ شديدة ، وأنا امرأة قد دخلت في السنّ ، وأنا ذات عيال ، فقال : «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل ، وأما ما ذكرت من السنّ ، فقد أصابني مثلُ الذي أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال ، فإنما عيالك عيالي» .

قالت : فقد سلمت لرسول الله ﷺ ، فتزوجها رسولُ الله ﷺ ، فقالت : قد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه : رسول الله ﷺ . رواه الإمام أحمد بن حنبل . ٢٧/٤ - ٢٨ .

هذه امرأة شريفة تقية ، عابدة راعية ، مجاهدة أصيبت بزوجها ، فكانت حرّية أن يخفَّ إليها أشرف البشر ، ليرعاها ، ويعيل أولادها ، ويدخلها في رحاب بيوته ، وشرف أمومتها للمؤمنين .

فهل ترى وفاء أعظم من هذا لرعاية أسر الشهداء وحفظ بيوتهم ، وكفالة ذويهم .

هذا هو القائد المربي ، والمثل الأعلى للحكام والقادة والمربين .

ونحب في خاتمه المطاف أن نذكر حديث هجرة هذه المرأة المناضلة المهاجرة المجاهدة لتكون ببراعتها الإنسانية ومهارتها الدينية مثلاً لكل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر .

ذكر ابن الأثير في «أسد الغابة» ٦ / ٣٤١ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت :

لما أجمع أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة رحَّلَ بعيراً له وحملني ، وحمل معي ابني سلمة ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رآه رجال بني المغيرة قاموا إليه ، فقالوا : هذه نفْسُك غلبتنا عليها ، أرايتِ صاحبتنا هذه ، علام تُتركُ تسيرُ بها في البلاد ، ونزعُوا خطامَ البعير من يده ، وأخذوني ، وغَضِبْتُ عند ذلك بنو عبد الأسد ، وأهْوُوا إلى سلمة ، وقالوا : والله ، لا نترك ابنتنا عندها ، إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة .

ففرَّق بيني وبين زوجي وبين ابني .

قالت : فكنت أخرج كُلَّ غَدَاةٍ فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها ، حتى مرَّ بي رجل من بني عمِّي من بني المغيرة ، فرأى ما بي فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تَخْرُجون من هذه المسكينة ، فرَّقتم بينها وبين زوجها ، وبين ابنها ، فقالوا لي : الحقِّي بزوجك إن شئت ، وردَّ عليَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابني ، فرَحَلْتُ بعيري ، ووضعت ابني في حجرِي ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله ، فقلت : أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار ، فقال : أين يا بنت أبي أمية ؟ قلت : أريد زوجي بالمدينة ، فقال : هل معك أحد ؟

فقلت : لا والله ، إلا الله ، وابني هذا .

فقال : والله ، مالك من مَثْرَك .

فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يقودني .

فو الله ، ما صحبت رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه .

كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الروحاح قام إلى بعيري فقدمه ، فرحله ، ثم استأخر عني ، وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه ، فقادني حتى نزل ، فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي إلى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء قال : زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة نازلاً بها - فادخلها على بركة الله تعالى ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة ، وكانت تقول : ما أعلم أهل بيت أصابهم في الإسلام ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً كان أكرم من عثمان بن طلحة .

هذا حديث أم سلمة عن هجرتها ، وهجرة زوجها ، دَعُهُ من غير تعليق يعبر بنفسه عن نفسه ، فهو أغنى وأصرح من التعليق .

٣٢ - غزوة دُومة الجندل :

دُومة الجندل بلدة بينها وبين دمشق خمس ليال ، وهي من المدينة على خمس عشرة ليلة .

وسببها أن رسول الله ﷺ كان يرغب بتحركه أن يدنو من أقرب البلاد إلى الشام ، ليهيأ أجواءً إيجابية تنتشر أصداؤها خارج حدود الجزيرة العربية .

ف قيل له : إن دُومة الجندل طرف من أفواه الشام ، فلو دنوت منها لكان ذلك مما يُفزع قيصر .

وذكر له - ﷺ - أن بدُومة الجندل جمعاً كثيراً ، وأنهم يظلمون من مرّ بهم ، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة ، وبسرعة القائد وحنكته ندب عليه الصلاة والسلام أصحابه للخروج إليهم ، فخرج إليهم بألف من أصحابه بعد أن استخلف على المدينة سباع بن عُزْطَةَ الغفاري .

فكان عليه الصلاة والسلام يسير الليل ، ويكمن النهار ، وكان معه في غزوته دليل ماهر من بني عُذرة ، يقال له مذكور .

ومن حكمته ﷺ أنه سلك غير الطريق المعروفة للقوم ، فلما دنا من دومة الجندل قال له الدليل : يا رسول الله ، إن سوائهم ترعى عندك ، فأقم لي حتى أطلع لك ، فقال له رسول الله ﷺ : «نعم» واستحسن ذلك منه .

فخرج العُذريُّ طليعة وحده ، حتى وجد آثار النعم والشاء ، وهم مُغرَّبون ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، وقد عرف مواضعهم ، وهكذا يفعل القائد ، يستطلع الأمر ، ويكتشف المواقع ، ويرصد العدو ، ثم يتحرك ، فسار بعدئذ رسول الله ﷺ حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم ، فأصاب منها ، وفرَّ باقيهم ، فتفرَّق أهل دومة الجندل ، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحداً ، فأقام بها أياماً ، وبثَّ السرايا ، فعادت كل سرية بإبلٍ ، ولم تلق أحداً إلا أن محمد بن مسلمة أخذ رجلاً منهم ، فأتى به النبي ﷺ ، فسأله عن أصحابه ، فقال : هربوا أمس لما سمعوا أنك أخذت نعمهم ، فعرض عليه الإسلام أياماً فأسلم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة في العشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس من الهجرة الشريفة ، وقد بلغ الغرض الذي أراد .

وفي طريق عودته وادع عيينة بن حصن الفزاري ، وكان عيينة هذا من الأعراب الجفاة ، وكان رسول الله ﷺ يسميه الأحمق المطاع ، لأنه كان يتبعه ألف قناة . قيل : إنه دخل مرّة على النبي ﷺ من غير إذن فقال له : «أين الإذن؟» .

فقال : ما استأذنت أحداً من مضر . «أسد الغابة» ٣١ / ٤ .

وتأليفاً لقلبه أقطعه رسول الله أرضاً يرعى فيها أنعامه على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة ، لأن أرضه كانت قد أجذبت ، أسلم عيينة بعد فتح مكة ، ثم ارتدَّ في عام الردّة ، وتبع طليحة الأسيدي ، وقاتل معه ، فأسر ، وحمل إلى أبي بكر ، فأسلم ، فأطلقه أبو بكر رضي الله عنه .

٣٣- غزوة بني المصطلق: وهي غزوة المُريسيع:

والمصطلق: لقبُ جُذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة ، بطن من بني خُزاعة .

والمريسيع: ماء لبني خزاعة كانت الغزوة عنده . وذلك في شهر شعبان من العام الخامس للهجرة .

وسببها أن الحارث بن أبي ضرار ، سيد بني المصطلق جمع لحرب رسول الله ﷺ جموعاً من قومه ، ومن العرب ، ولبني المصطلق سابقة سوء مع المسلمين ، فإنهم ساعدوا قريشاً في غزوة أحد ضد المسلمين .

فبلغ خبرهم رسول الله ﷺ ، فانتدب - ﷺ - بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب الأسلمي يأتيه بأخبارهم .

فاستأذن بُرَيْدَةَ رسول الله ﷺ أن يقول ما يراه ولو كان غير صحيح ، فأذن له ، لأن الحرب خُدعة .

فسار بريدة حتى ورد عليهم ماءهم ، فوجد قوماً مغرورين قد تألبوا: وجمعوا الجموع .

فقالوا: من الرجل؟

قال: رجل منكم ، قدمت لِمَّا بلغني عن جمعكم لهذا الرجل ، فأسير في قومي ومن أطاعني ، فنكون يداً واحدة حتى نستأصله .

قال الحارث بن أبي ضرار: فنحن على ذلك فعجل علينا .

فقال بُرَيْدَةَ: أركب الآن ، فأتيكم بجمع كثيف من قومي . فسرُّوا بذلك منه ، وصدق هنا ، فقد رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم . فندب رسول الله ﷺ الناس . وأخبرهم خبر عدوهم ، فأسرع الناس ، وخرجوا بجيش كثيف ، كما قال بُرَيْدَةَ لبني المصطلق .

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه .

وخرج مع رسول الله ﷺ من نسائه عائشة وأم سلمة رضي الله تعالى عنهما .

وخرج مع المسلمين في هذه الغزوة عدد كبير من المنافقين كان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة طمعاً في الغنيمة ، لما رأوا من اطراد النصر للمسلمين .

وسار رسول الله ﷺ وفي أثناء مسيره أتي برجل من عبد القيس ، فسلم على النبي ﷺ ، فقال له : «أَيْنَ أَهْلُكَ؟» .

قال : بالرَّوْحاءِ .

فقال : «أَيْنَ تريد؟» .

قال : إياك جئت لأومن بك ، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأقاتل معك عدوك .

فقال رسول الله ﷺ : «الحمدُ لله الذي هداك إلى الإسلام» .

وأصاب رسول الله ﷺ في طريقه عَيْناً لبني المصطلق ، فسأله عنهم ، فلم يذكر من شأنهم شيئاً ، وأصر على كتمان أخبارهم ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، وأصر على الكفر والغدر ، فأمر به فقتل . وانتهى رسول الله ﷺ إلى المُرَيْسِع ، وقد بلغ القوم سير رسول الله ﷺ وقتله عينهم ، فخافوا ، وتفرَّق عن الحارث كثير ممن كان قد اجتمع عليه من قبائلهم .

ونتهياً الحارث للحرب ، وصفت أصحابه ، وصفت أيضاً رسول الله ﷺ ، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر ، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادَة .

وأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب أن ينادي في الناس : قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ، ففعل عمر ذلك ، فأبوا ، وأصرُّوا على الكفر والحرب ، وبدأت المعركة فتراموا أولاً ساعة بالنبل ، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يحملوا عليهم ، فحملوا حملة رجل واحد ، فما أفلت من المشركين إنسان ، وقتل عشرة منهم ، وأسر سائرهم ، وسبا رسول الله ﷺ النساء والذرية ، واستاقوا الإبل والشاء ، وكانت الإبل ألفي بعير ، والشاء

خمسة آلاف ، واستعمل رسول الله ﷺ على ضبطها مولاه شُقران ، وعلى الأسرى بُريدة بن الحُصيب .

وكان في السبي من نساء المشركين جويرية بنت الحارث زعيم القوم .
وقسم رسول الله الغنائم على المقاتلين بعد أن حجز الخمس منه ، فأعطى للراجل سهماً ، وللفراس سهمين ، وبقي الخمس موزعاً كما قال الله عز وجل : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِنِ السَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١] .

كما وزع السبي على المقاتلين ، وكانت جويرة بنت الحارث من نصيب قيس بن شماس رضي الله تعالى عنه .

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً بعد غيبة دامت شهراً إلا ليلتين .

وعلى خفة هذه الغزوة ، وعزّة النصر فيها ، وكثرة الغنائم ، والحنكة السياسية والعسكرية للقائد والقيادة ، وقلة الخسائر المادية والبشرية ، فإنه لم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، قتل خطأ على يد بعض المسلمين ، وأدى رسول الله ﷺ ديته .

وعلى الرغم من كل ذلك حدث في هذه الغزوة بعض المفاجآت الخيرة ، والشريرة ، كان للأول وقعه الكريم ، وكان فيه الخير والبركة على المنصورين والمهزومين ، وكان للثاني أثره السيء على النبي ﷺ ، وعلى أصحابه الكرام ، وسنذكر كلاّ منهما باختصار :

الأول :

أ - سرعة النصر : فلم تدم المعركة طويلاً ، ولم ينبج من المشركين أحد من القتل ، أو الأسر ، على كثرة عددهم وما ذلك إلا بسبب هزيمة العدو النفسية ، فإن سياسة رسول الله ﷺ في حروبه ، وسرعة حركته في التصدي لعدوه نشرت في صفوف العدو أجواء من الخوف . كان يسبق وصول رسول الله ﷺ إليه .

وقد صدق رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ» رواه أحمد ٣٠٤/٣.

وقد رأينا أن كثيرين من جيش الحارث بن أبي ضرار قد تفرقوا عنه ، وانسحبوا منه قبل وصول النبي ﷺ إليهم ، وذلك جزعاً وهلعاً.

ب - زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث ، سيد بني المصطلق ، وكان اسمها قبل الزواج برة ، فعَيَّر رسول الله ﷺ اسمها ، وسماها جُوَيْرِيَّة ، وكان في هذا الزواج أعظم البركة عليها ، وعلى قومها عامة.

قال الشامي في سبل الهدى والرشاد ٣٤٦/٤: روى محمد بن إسحاق والإمام أحمد ، وأبو داود ومحمد بن عمر ، عن عائشة رضي الله عنها قالت :

كانت جويرية امرأة حُلوةٌ مَلَّاحَةً ، لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فبينما النبي ﷺ عندي ، ونحن على الماء إذ دخلت عليه جويرية تسأله في كتابتها ، فوالله ، ما هو إلا أن رأيته فكرهت دخولها على النبي ﷺ ، وعرفت أنه سيري منها مثل الذي رأيته .

فقلت : يا رسول الله ، إني امرأة مسلمة أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، وأنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه ، أصابنا من الأمر ما قد علمت ، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبني على ما لا طاقة لي به ، فجئتُك أسألك ، فأعني في مكاتبتني ، فقال رسول الله ﷺ : «فَهَلْ لَكَ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ؟» .

فقلت : وما هو يا رسول الله؟ قال : «أُوَدِّي عَنْكَ كِتَابَتَكَ وَأَتَزَوَّجُكَ» .

قالت : نعم يا رسول الله ، قد فعلت .

فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس ، فطلبها منه ، فقال ثابت : هي لك يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي .

فأدَّى رسول الله ﷺ ما كان عليها من كتابتها ، وأعتقها وتزوجها .

وخرج الخبر إلى الناس ، ورجال بني المصطلق قد اقتسموا ، ومُلِكُوا ،

ووطئت نساؤهم ، فقال المسلمون : أصهار رسول الله ﷺ ، فأعتقوا ما بأيديهم من السبي .

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قوما منها ، أعتق في سببها مئة أهل بيت من بني المصطلق .

وتسبب عن هذا الزواج الميمون ، والمعاملة الكريمة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم ، وصاروا عوناً للمسلمين بعد أن كانوا عليهم .

الثاني : وكان من شروره :

أ - تحريض عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين على الفتنة :

وذلك أن غلاماً لعمر بن الخطاب اسمه جهجاه بن سعيد الغفاري ، تنازع مع سنان بن وبر الجهني ، وهما مع جمع عند ماء المريسيع أثناء مقام النبي ﷺ هناك ، فضرب جهجاه سناناً ، فاستصرخ بقومه الخزرج ، واستصرخ جهجاه بالمهاجرين ، فأقبل الذعر بين الفريقين ، وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله ﷺ بحكمته وقوله الرشيد : « ما بال دعوى الجاهلية ، دعوا هذه الكلمة فإنها مُنتنة » .

ثم كَلَّم المضروب حتى أسقط حقه ، وبذلك سكنت الفتنة ، فلما بلغ عبد الله بن أبي هذا الخصام غضب ، وكان عنده رهط من الخزرج ، فقال الخبيث بغرض الفتنة ، والكيد : ما رأيت كالיום مدلةً ، أو قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا في ديارنا ، والله ، ما نحن والمهاجرين إلا كما قال الأول : سَمْنٌ كُلُّكَ يَا كُلُّكَ ، أما والله ، لئن رجَعْنَا إِلَى المدينة لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .

ثم التفت إلى من معه من قومه ، وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله ، لو أمسكْتُمْ عَنْهُمْ ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد ، فأيتمتم أولادكم ، وقللْتُمْ وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده .

وكان في مجلسه شاب حديث السن ، قوي الإسلام ، اسمه زيد بن أرقم ،
فمشى إلى رسول الله ﷺ ، وأخبره خبر ما سمع ، فتغير وجه رسول الله ﷺ ،
وقال : « يا غلام ، لعلك غَضِبْتَ عليه ، فقلتَ ما قلتَ ؟ » .

فقال : يا رسول الله ، والله لقد سمعته يقول ما قال .

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، مُرْ عبادَ بنِ بشر فليقتله .

فقال له رسول الله ﷺ : « كَيْفَ يا عمرُ إذا تحدّث النَّاسُ أنَّ محمداً يَقْتُلُ
أَصْحَابَهُ ، ولكن أَدُنْ بالرحيل » .

وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها لشدة الحرّ ، يقصد بذلك أن يشغل
الناس عن التكلم في هذا الموضوع ، درءاً للفتنة .

وجاءه أسيد بن حُضَيْر رضي الله عنه ، وسأله عن سبب ارتحاله في هذا
الوقت ، فقال : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ زعم أنّه إن رجع إلى المدينة
لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » .

قال : أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل ، وأنت
العزير .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس ، وسار بهم سيراً جديداً يومهم ذلك حتى
أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل
بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّاً الأرض حتى وقعوا نياماً .

وكلم رجال من الأنصار عبد الله بن أبي في أن يعتذر لرسول الله ﷺ ،
ويطلب منه الاستغفار ، فأبى ولوّى رأسه واستكبر ، وحلف بالله العظيم أنه
ما قال من ذلك شيئاً .

وهنا نزلت سورة المنافقين ، ففضحت نواياهم ، وكشفت خفاياهم ،
وهتكت أستارهم ، ووضعتهم في الموقف الحرج الذي لا يحسدون عليه ،
وصدّقتْ خبر زيد بن أرقم ، وحديثه في ذلك الخبيث ، وإخوانه .

قال الله عز وجل : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُتَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَوْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُتَفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِمَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضَ مِنْهَا الْأَدْلَ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلَكِنَّ الْمُتَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿المنافقون: ١ - ٨﴾.

وانتشر خبر هذا القرآن في الناس ، وأسقط بيد الخبيث وأعوانه ، وراحوا يتلمسون المعاذير ، فلم يصدقهم أحد ، وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي - وقد سمع الناس يطلبون قتل أبيه - فقال يا رسول الله ، إن كنت تريد قتل أبي فيما بلغك عنه ، فمُرني به ، فو الله لأحملنَّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا .

والله لقد علمت الخَزَرَجُ ما كان فيها رَجُلٌ أَبَرُّ بوالديه مني ، وما أكل طعاماً منذ كذا وكذا من الدهر ، ولا شرب شراباً إلا بيدي ، وإني لأخشى ، يا رسول الله أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأدخل النار ، وعَفْوُكَ أعظمُ ، ومنك أفضل .

هذا والله من هذا الرجل العظيم صدقٌ في الإيمان ، وبراعة في الولاء ، ومهارة في الوفاء ، ولكن الرسول ﷺ كان أشدَّ منه براعة ، وأعظم منه براً ووفاءً ، فقال له جواباً على قوله الرائع :

«يا عبد الله ، ما أردت قتله ، ولا أمرت به ، ولنُحَسِّنَ له صُحْبته ما كان بينَ أظهرنا» .

قال الإمام الشامي : ٣٥٢/٤ : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى وادي العقيق

- وهو من أودية المدينة - تقدم عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، فجعل يتصفّح الركاب ، حتى مرَّ أبوه ، فأناخ به ، ثم وطىء على يدِ راحلته ، فقال أبوه : ما تُريد ، يا لُكعُ ؟

قال : والله لا تدخل حتى يأذن لك رسولُ الله ، لتعلم أتيهما الأعزُّ من الأذلّ ، أنت أم رسول الله ، حتى مرَّ به رسول الله ﷺ فسأل عنه ، فقيل : عبد الله بن عبد الله بن أبيّ يأبى أن يأذن لأبيه حتى تأذن له .

فمرَّ رسولُ الله ﷺ ، وعبد الله واطىء على يدِ راحلة أبيه ، وابن أبيّ يقول :
لأنا أذلُّ من الصبيان ، لأنا أذلُّ من النساء .

فقال رسول الله ﷺ : «خَلَّ عن أبيك» . فخلّى عنه .

موقف آخر لهذا الصحابي المؤمن الصادق من الولاء ، والفداء ، وموقف آخر لرسول الله ﷺ من المهارة والوفاء .

لقد كان من نتيجة هذه الحكمة من القائد الأمين أن انحسر عن عبد الله بن أبي قومهم ، فكانوا هم الذين يوبخونه ويعنفونه ، ويفضحون أمره إذا ما أراد أن يُحدث شيئاً .

وهنا قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه شأن قوم ابن أبي :
«كيف ترى يا عمر ، إني والله لو قتلته يوم قلت لي : اقتله لأزعدت له أنفٌ ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» .

قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري .

ب - حديث الإفك :

وهو : اتهام السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها بالفاحشة ، صانها الله تعالى من ذلك ، وحماها ، وهي الصديقة بنت الصديق ، زوج النبي المصطفى ﷺ وهذا الحديث الخبيث الذي لأكه المنافقون ، وتولى كبره رأسهم الشرير عبد الله بن أبيّ بن سلول ، أصاب موضع العزّة والطهر من بيت النبوة .

لقد ظنوا أنهم أصابوا بيت النبوة في المقتل ، وفاتهم أنه رسول الله ﷺ

الذي حماه الله عز وجل من أن تمرّ على نضاعة حياة بيته هذه السحابة الداكنة من غير أن تلتطخ سمعتهم بالعار والشنار ، وتبرىء بيت النبوة من هذا البهتان الآثم .

لقد فاتهم أن حديثهم هذا سوف يكون اللؤلؤة المضيئة في جبين بيت النبوة ويكون السبّة الدامغة لهم إلى يوم القيامة .

والمؤمنون في كل زمان - والنبي ﷺ سيدهم - عرضة للأذى - ومكان للابتلاء ، ولكن العاقبة للمتقوى والمتقين .

لقد كان حديث الإفك في منصرف رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق ، وفي طريقه إلى المدينة ، وقد استوعبت كتب السنة هذا الحدث ، وأحاطت بكل تفاصيله ، ومن بينها صحيح البخاري ومسلم وستنقله كاملاً منهما :

روى البخاري (٤١٤١) في المغازي ، ومسلم (٢٧٧٠) في التوبة ، واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها قالت :

كان النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج سَفَرًا أفرع بين نساؤه ، فأَيَّهِنَّ خرج سَهْمُها خرج بها رسول الله ﷺ معه .

قالت : فأفرع بيننا في غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمي ، فخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي ، وأنزل فيه مَسيرنا ، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوة ، وقفل ، ودنونا من المدينة أَدْنَى لَيْلَةٍ بالرحيل ، فمَشَيْتُ حتى جاوزتُ الجيشَ ، فلَمَّا قَضَيْتُ من شأني أَقْبَلْتُ إلى الرَّحْلِ ، فلمَسْتُ صَدْرِي فإذا عِقْدِي من جَزَعِ ظَفَارٍ قد انقطع ، فرجعتُ فالتَمَسْتُ عِقْدِي ، فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يَزْحَلُونَ لي ، فحملوا هودجي ، فرَحَلُوهُ على بعيري الذي كُنْتُ أركب ، وهم يَحْسِبُونَ أَني فيه .

قالت : وكانت النساءُ إذ ذاك خفافاً لم يُهَبَّلْنَ ، ولم يَغْشَهُنَّ اللحمُ ، إنما يَأْكُلْنَ العُلُقَةَ من الطعام ، فلم يَسْتَنكِر القومُ ثِقَلَ الهودج حين رَحَلُوهُ ورفعوه ، وكنتُ جارية حَدِيثَةِ السِّنِّ ، فبعثوا الجملَ وساروا .

ووجدت عقدي بعد ما استمرَّ الجيشُ ، فجتُّ منازلهم وليس بها داعٍ ولا مُجيبٌ .

فَتَيَّمْتُ منزلي الذي كنتُ فيه ، وظننتُ أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليَّ .
فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمتُ .

وكان صفوانُ بنُ المعطلِ السلميُّ ثم الزَّكوانيُّ قد عَرَسَ من وراء الجيش ، فأدْلج ، فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسانٍ نائم ، فأتاني فعرفني حين رأيته ، وقد كان يراني قبل أن يُضرب الحجابُ عليَّ ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني ، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي .

ووالله ، ما يُكَلِّمني كلمةٌ ، ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها ، فركبتها ، فانطلق يَقودُ بي الرَّاحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مُوغرين في نحرِ الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولَّى كِبَرُهُ عبدُ الله بن أبي بن سلول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيْتُ حين قدمنا المدينة شهراً ، والنَّاسُ يُفِيضُونَ في قولِ أهلِ الإفكِ ، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلك ، وهو يُريني في وجعٍ لي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللَّطْفَ الذي كُنْتُ أرى منه حين اشتكي ، إنَّما يدخلُ رسول الله ﷺ ، ثم يقول : « كَيْفَ تَيْكُم ؟ » .

فذاك يُريني ، ولا أشعرُ بالشرِّ حتى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ ، وخرجتُ معي أُمُّ مِسْطَحَ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ ، وهو متبرِّزنا ، ولا نخرج إلاَّ لَيْلاً إلى لَيْلٍ ، وذلك قبل أن نَتَّخِذَ الْكُنْفَ قَرِيباً من بيوتنا ، وأمرنا أُمُّ الْعَرَبِ الْأَوَّلُ فِي التَّنْزُّهِ .

وَكُنَّا نَتَأَذَى بِالْكُنْفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بَيوتنا .

فانطلقتُ أنا وأُمُّ مِسْطَحَ ، وهي بنتُ أَبِي رُهمِ بْنِ الْمَطْلَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وأُمُّهَا ابنة صَخْرِ بْنِ عَامِرِ خَالَةِ أَبِي بَكْرِ الصُّدِيقِ ، وابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أَثَاةَ بْنِ عُبَادِ بْنِ الْمَطْلَبِ .

فأقبلتُ أنا وبنْتُ أبي رُهمَ قَبْلَ بَيْتِي حينَ فرغنا من شأننا ، فعثرتُ أمَّ مُسطحٍ في مِرطَها ، فقالت : تَعَسَ مُسطح .

فقلتُ لها : بنس ما قُلْتَ ، أتبئين رجلاً قد شهد بدرًا؟ .

قالت : أي هَنتاهُ ، أو لم تَسمعي ما قال؟

قلتُ : وما الذي قال؟

قالت : فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضي .

فلما رجعت إلى بَيْتِي ، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ ، فسَلَّمَ ثم قال : «كَيْفَ تَيْكُم؟» .

قلت : أتأذن لي أن آتي أبوي؟

قالت : وأنا حيثنذ أريد أن أتيقنَ الخبر من قبلهما .

فأذن لي رسول الله ﷺ فجئتُ أبوي .

فقلت : لأمي : يا أمتاهُ ، ما يتحدثُ النَّاسُ؟

قالت : يا بُنيَّةُ ، هوَنِي عليك ، فوالله لقلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئةً عند رجلٍ يحِبُّها ، ولها ضرائرُ إلا كثرَنَ عليها .

قالت : قلت : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وقد تحدَّثَ النَّاسُ بهذا؟ .

قالت : فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ ، لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحتُ أبكي .

ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد حين استلبتُ الوحيَ يَسْتَشِيرهما في فراق أهله .

قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار علي رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودِّ ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ، ولا نعلم إلا خيراً .

وأما عليُّ بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدُقكَ .

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بَريرةَ ، فقال: «أَيُّ بَريرةَ ، هل رأيتِ من شيء يريبُك من عائشة؟» .

قالت له بَريرةُ ، والذي بعثك بالحق ، إن رأيت عليها أمراً قطُ أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الدَّاجنُ فتأكله .

قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «يا معشر المسلمين ، من يعذُرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي؟ فو الله ، ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ، ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي؟» .

فقام سعدُ بن مُعاذٍ الأنصاري ، فقال: أنا أعذرك منه ، يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

قالت: فقام سعدُ بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ، ولكن أجهلته الحميَّةُ ، فقال لسعد بن معاذ: كذبت ، لعمرُ الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله .

فقام أسيدُ بن حُضير ، وهو ابن عمِّ سعد بن معاذ ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت ، لعمر الله لتقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيان الأوس والخزرج حتى همُّوا أن يقتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا ، وسكت .

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبواي يَطْنَانِ أن البكاء فالتق كبدي .

فبينما هما جالسان عندي ، وأنا أبكي استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي .

قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ، ثم جلس .

قالت: ولم يجلس عندي مُنذ قيل لي ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء .

قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال: «أما بعد ، يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كُنْتَ بريئة فسيروك الله ، وإن كُنْتَ أَلَمْتِ بذنبٍ فاستغفري الله ، وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ، ثم تاب تاب الله عليه» .

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي حتى ما أحسُّ منه قَطْرَةً ، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ ، فيما قال .

فقال: والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت لأُمِّي: أجيب عني رسول الله ﷺ .

فقالت: والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت ، وأنا جارية حديثة السن ، لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله ، لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقرَّ في نفوسكم ، وصدقتم به .

فإن قلت لكم: إني بريئة ، والله يعلم أني بريئة لا تصدَّقوني بذلك .

ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أني بريئة لتصدقوني ، وإني والله ، ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] .

قالت: ثم تحولتُ ، فاضطجعت على فراشي .

قالت: وأنا والله حيثُذا أعلم أني بريئة ، وأن الله مُبرِّئي ببراءتي ، ولكن ، والله ما كنت أظنُّ أن يُنزل في شأني وحْيٌ يُتلى ، ولشأني كان أَحَقَّ في نفسي من أن يتكلَّم الله عزَّ وجلَّ فيَّ بأمرٍ يُتلى ، ولكني كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرِّئني الله بها .

قالت: فو الله ، ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت

أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى إنه ليتحدّر منه مثلُ الجُمان من العرق في اليوم الشّت من ثقل القول الذي أنزل عليه .

قالت : فلَمَّا سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ ، وهو يَضْحَكُ ، فكان أوّل كلمة تكلم بها أن قال : «أُبشري ، يا عائشة ، أمّا الله فقد برّأك» .

فقالت لي أُمي : قومي إليه .

فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمدُ إلا الله ، هو الذي أنزل براءتي .

قالت : فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآلِافِكَ عُصْبَةٌ مِّنْكَ ﴾ [النور : ١١] عشر آيات ، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات في براءتي .

قالت : فقال أبو بكر ، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره :

والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٢] .

قال حَبَّانُ بن موسى : قال عبد الله بن المبارك ، هذه أَرْجَى آية في كتاب الله .

فقال أبو بكر : والله إني أحبُّ أن يغفر الله لي .

فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يُنفق عليه ، وقال : لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري : «ما علمتِ ، أو ما رأيتِ ؟» .

فقالت : يا رسول الله ، أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيراً .

قالت عائشة : وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ ، فعصمها الله بالورع .

وظفقت أختها حمنة بنت جحش تُحارب لها ، فهلكت فيمن هلك .

ثم إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن في ذلك .

ثم أمر بمسطح بن أثانة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، وكانوا ممن أفصح بالقذف ، فضربهم حدّ القذف رواه أبو داود (٤٤٧٥) في الحدود ، وابن ماجه (٢٥٦٧) في الحدود .

أما ذلك الخبيث ابن سلول ، فكان لخبثه لا يصريح بالقذف ، فدرأ بذلك الحدّ عن نفسه .

قال ابن القيم في «زاد المعاد ٣/ ٢٦٣ :

إنه - أي ابن سلول - كان يَسْتَوْشِي الحديث من الإفك ، ويجمعه ويحكيه ، ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه .

وهذه براعة منه في المكر ، ومهارة في نشر حالة السوء من غير أن تنسب إليه صراحة ، وللمنافقين فنون بارعة في الكيد ، لولا أن رسول الله ﷺ كان أكثر براعة منهم ، وأشدّ مهارة لكان لهم شأن آخر .

ويتجلى في هذا الحدث الغريب الفريد كثير من الألفاف الإلهية ، والحكم الربانية التي تجعل من رسول الله ﷺ وآل بيته الأطهار مكان العناية والرعاية وتجعل سمعة الأشرار في الحضيض .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «زاد المعاد» ٣/ ٢٦١ .

فإن قيل : فما بال رسول الله ﷺ تَوَقَّفَ في أمرها ، وسأَلَ عنها ، وبحثَ ، واستشَارَ ، وهو أعرفُ بالله ، وبمنزلته عنده ، وبما يليقُ به ، وهَلَّا قال : سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عظيم ، كما قاله فضلاء الصحابة ؟

فالجوابُ أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها ، وامتحاناً وابتلاءً لرسوله ﷺ ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة ، ليرفع بهذه القصة أقواماً ، ويضع بها آخرين ، ويزيد الله الذين اهتدوا هُدىً وإيماناً ،

ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حُسِنَ عن رسول الله ﷺ الوحي شهراً في شأنها ، لا يُوحى إليه في ذلك شيء لتتم حكمته التي قدرها وقضاها ، وتظهر على أكمل الوجوه ، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق ، وحُسن الظن بالله ورسوله ، وأهل بيته ، والصدّقين من عباده ، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً ، ويُظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم ، ولتتم العبودية المرادة من الصّدّيقة وأبويها ، وتتم نعمة الله عليهم ، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها ، والافتقار إلى الله والذلُّ له ، وحُسن الظن به ، والرجاء له ، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين ، وتيأس من حصول النُصرة والفرج على يد أحد من الخلق ، ولهذا وقت هذا المقام حقّه ، لما قال لها أبواها: قومي إليه ، وقد أنزل الله عليه براءتها ، فقالت: والله لا أقومُ إليه ، ولا أحمَدُ إلا الله ؛ هو الذي أنزلَ براءتي .

وأيضاً فكان من حكمة حَسِنَ الوحي شهراً ، أن القضية مُخَصَّتْ وتمخّضت ، واشتدّت قلوب المؤمنين أعظم استشرافٍ إلى ما يُوحى الله إلى رسوله فيها ، وتطلّعت إلى ذلك غاية التطلع ، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسولُ الله ﷺ ، وأهل بيته ، والصدّيق وأهله ، وأصحابه والمؤمنون ، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه ، فوقع منهم أعظم موقع والطفه ، وسُرّوا به أتم السُرور ، وحصل لهم به غاية الهناء ، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أوّل وهلة ، وأنزل الوحي على الفور بذلك ، لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها .

وأيضاً فإن الله سبحانه أحبّ أن يُظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده ، وكرامتهم عليه ، وأن يُخرج رسوله عن هذه القضية ، ويتولّى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه ، والردّ على أعدائه ، وذمهم وعييبهم بأمر لا يكون له فيه عمل ، ولا يُنسب إليه ، بل يكون هو وحده المتولي لذلك ، النائر لرسوله وأهل بيته .

وأيضاً فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى ، والتي رَمِيت زوجته ، فلم يكن يليقُ به أن يشهد ببراءتها مع علمه ، أو ظنه الظنّ المقارب للعلم

ببراءتها ، ولم يظنَّ بها سوءاً قطُّ ، وحاشاه ، وحاشاها ، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك ، قال : «مَنْ يَعْذِرُنِي فِي رَجُلٍ بَلَّغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي» ، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصَّديقة أكثر مما عند المؤمنين ، ولكن لِكَمال صبره وثباته ، ورفقه ، وحُسن ظنه بربه ، وثقته به ، وقى مقام الصبر والثبات ، وحسن الظن بالله حقّه ، حتى جاءه الوحي بما أقرَّ عينه ، وسرَّ قلبه ، وعظَّم قدره ، وظهر لأُمته احتفالُ ربه به ، واعتناؤه بشأنه .

وقال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «فقه السيرة» ص ٢٨٥ :

وأما قصة الإفك فإنها حلقة فريدة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين . ولقد كانت هذه الأذية أشد في وقعها على نفسه ﷺ من كل تلك المحن السابقة . وتلك هي طبيعة الشر الذي يصدر من المنافقين فهو دائماً يكون أقسى من غيره وأبلغ في المكيدة والضرر ، إذ تكون الفرص والأسباب خاضعة لهم أكثر من غيرهم . وخبر الإفك صورة فريدة للأذى الذي تفرد به المنافقون .

وإنما كانت هذه القصة أبلغ من غيرها في إيذاء النبي ﷺ . لأن كل ما كان قد كابده قبل ذلك من المحن التي تحدثنا عن طرف منها ، أمور كان يتوقعها ، وقد وطن نفسه لقبولها وتحملها ، وليس التقاؤه بها عن طريق الدعوة مفاجأة له ، أما هذه فقد فوجيء بها لأنها ليس مما قد اعتاده ، أو توقعه ، إنها اليوم شيء آخر . . . إنها شائعة ، لو صحت لكانت طعنة نجلاء في أخص ما يعتز به إنسان . أخص ما يتصف به الشرف والكرامة ، وما الذي أدراه إنها شائعة صحيحة أو باطلة؟! من هنا كانت هذه الأذية أبلغ في تأثيرها من كل ما عداها ، لأنها جاءت لتلقي بشعوره النفساني في اضطراب مثير لا مناص منه . ومع ذلك فلو أن الوحي سارع إلى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين لكان في ذلك مخلص من هذا الاضطراب والشكوك المثيرة ، ولكن الوحي تلبث أكثر من

شهر لا يعلّق على ذلك . فكان ذلك مصدراً للقلق والشكوك .

ومع ذلك فإن محنة الإفك هذه ، جاءت منظوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها ، إن معنى النبوة في حياته ﷺ كان من المحتمل أن يبقى مشوباً في وهم بعض المؤمنين به ، والكافرين ، على السواء ، لو لم تأت حادثة الإفك هذه لتهمز شخصية النبي ﷺ هزاً قوياً يفصل إنسانيته العادية عن معنى النبوة الصافية فيه ، ثم لتجلي معنى النبوة والوحي تجلية تامة أمام الأنظار والأفكار ، حتى لا يبقى أي مجال التباس بينه وبين أي معنى من المعاني النفسية أو الشعورية الأخرى .

لقد فاجأت هذه الشائعة سمع النبي ﷺ وهو في طور من إنسانيته العادية يتصرف ويتأمل ويفكر كأبي أحد من الناس ضمن حدود العصمة المعروفة للأنبياء والمرسلين ، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أي بشر من الناس ، ليس له اطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول ، ولا على قصد ملفق كاذب . فاضطرب كما يضطربون ، وشك كما يشكون ، وأخذ يقلب الرأي على وجوهه ، ويستنجد في ذلك بمشورة أولي الرأي من أصحابه .

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية في إبراز هذا الجانب الإنساني المجرد فيه ﷺ أن يتأخر الوحي كل هذه الفترة التي تأخرها ، كي تتجلى للناس حقيقتان ، كل منهما على غاية من الأهمية .

أما الحقيقة الأولى . فهي أن النبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشراً من الناس . فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية . فينسب إليه من الأمور أو التأثير في الأشياء ما لا يجوز نسبته إلا لله وحده .

وأما الحقيقة الثانية فهي أن الوحي الإلهي ليس شعوراً نفسياً ينبثق من كيان النبي ﷺ ، كما أنه ليس شيئاً خاضعاً لإرادته أو تطلعه وأمنيته . إذ لو كان كذلك . لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة من يوم ميلادها ويربح نفسه من ذيولها ونتائجها ، ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة في أهله قرآناً

يطمئن به أصحابه المؤمنين ، ويسكت الآخرين من أصحاب الفضول . ولكنه لم يفعل ، لأنه لا يملك ذلك .

ولننقل لك ما يقوله في بيان هذه الحقيقة الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «النبا العظيم» يقول: (ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجته عائشة رضي الله عنها ، وأبطأ الوحي وطال الأمر والناس يخوضون ، حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس «إني لا أعلم عنها إلا خيراً» ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب ومضى شهر بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء ، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله . وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله .

هذا كلامه بوحي ضميره ، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب ، وكلام الصديق المثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم ، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ومصدراً للحكم المبرم بشرفها وطهارتها .

فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي . لتقطع السنة المتخربين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ .

ولقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها أول من تجلّت لها هاتان الحقيقتان ، حتى ذهبت في توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهباً أنساها ما سواه ومن سواه ، فلذلك أجابت أمها حينما طلبت إليها أن تقوم فتشكر النبي ﷺ قائلة: لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله . هو الذي أنزل براءتي .

إن هذا الكلام من السيدة عائشة قد يبدو وكأن فيه شيئاً من عدم اللباقة تجاه النبي ﷺ ، غير أن الظرف والحالة ، هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام ، فهي

إنما انساقت بوحى الحالة التي كونتها الحكمة الإلهية تثبيتاً لعقيدة المؤمنين ،
وقطعاً لإفك المنافقين والملحدين ، وإظهاراً لمعنى التوحيد والعبودية الشاملة
لله وحده .

وهكذا فقد انطوت قصة الإفك على حكمة إلهية باهرة استهدفت تثبيت
العقيدة الإسلامية ، وردّ ما قد يعرض من شبه عليها ، وتلك هي الخيرية التي
عبر الله عنها بقوله : لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم .

هذا ، ولنختم الحديث عن قصة الإفك بذكر الآيات العشر التي نزلت ببراءة
الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها . قال الله عز وجل :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا
أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأْنَفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا
بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا
سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّرُ
اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ [النور : ١١ - ٢٠] .

تفسير بعض الألفاظ في حديث عائشة عن الإفك :

أقرع : ضرب القرعة .

هودجى : مركبي الذي أكون فيه .

جزع ظفار : خرزيماني ، وظفار : قرية في اليمن .

لم يهْبَلْن : لم يَغْشَهُنَّ اللحم .

العُلقة : القليل .

فتيممت : قصدت .

عرّس : نزل آخر الليل لنوم ونحوه .

فادّلعج : سار آخر الليل .

موغرين في نحر الظهيرة أي في شدة الحر والموغر : النازل في وقت
الوُغُر ، وهو شدة الحر .

يفيضون : يخوضون .

كبره : معظمه .

الإفك : الكذب .

يربيني : يشككني في حاله .

نقّهت : شفّيت .

متبرزنا : مكان قضاء الحاجة .

الْكُفُّ : جمع كنيف وهو مكان قضاء الحاجة .

أي هتاه : يا هذه .

لا يرقأ : لا ينقطع .

يريبك : يحملك على الشك والريبة بها .

الداجن : الشاة .

يعذرني : يقبل عذري إن عاقبته .

الحمية : النصره .

قلص : انقطع وارتفع .

البرحاء : الشدة . لا يأتل : لا يحلف . تساميني : تفاخرني .

٣٤ - غزوة الخندق :

وسميت غزوة الخندق لحفر النبي ﷺ والمؤمنين الخندق بينهم وبين معسكر المشركين .

والخندق - كما قال الإمام الشامي - حفير حول المدينة ، وهي في شامي المدينة من طرف الحرّة الشرقية إلى طرف الحرّة الغربية .

وتسمى هذه الغزوة أيضاً غزوة الأحزاب ، لتألب فئات كثيرة من المشركين ، واجتماعهم على حرب المسلمين .

قال الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٤ / ٣٦٣ :

وهي الغزوة التي ابتلى الله تعالى فيها عباده المؤمنين ، وبعث الإيمان في قلوب أوليائه المتقين ، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق ، ففضحهم وفزّعهم ، ثم أنزل الله تبارك وتعالى نصره ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأعزّ جنده ، وردّ الكفرة بغیظهم ، ووقى المؤمنين شرّ كيدهم ، وحرّم عليهم شرعاً وقدراً أن يغزوا المؤمنين بعدها ، بل جعلهم المغلوبين ، وجعل حزبه هم الغالبين .

وكان في هذه الغزوة مواهب ، ومهارات ، ومواقف رائعة تجلّت في سلوكيات النبي ﷺ وأصحابه الكرام ، كما كان فيها آيات باهرات ، ودروس وغطات ، تكرم بها رب العباد على أوليائه ، وعبادة المؤمنين .

وكانت هذه الغزوة في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة الشريفة .

أ - وسببها إنما يصب في بؤرة كيد اليهود ، وينطلق من دوافع خبثهم ، وتتجمع مهاراته الشريرة في عُقد قلوبهم الممتلئة بالحسد والضغينة ، وهم أشدّ الناس سعيّاً في الفساد ، وأكثر الناس حقداً على المؤمنين وبغضاً لهم .

لقد خرج حُيي بن أخطب ، وكنانة بن أبي الحُقَيْق ، وهُوَذَة بن قيس ، وأبو عامر الفاسق من وجوه يهود بني النضير إلى مكة فدعوا قريشاً وأتباعها إلى حرب النبي ﷺ وأصحابه ، وقالوا لهم : نحن معكم حتى نستأصل محمداً ، جئنا لنحالفكم على عداوته وقتاله .

وسعدت قريش بذلك ، وتنشطت له ، وتذكرت أحقادها ببدر ، فقال أبو سفيان : مَرَحِباً وَأَهْلاً ، أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا مِنْ أَعَانِنَا عَلَى عداوة محمد .

قال أبو سفيان لهؤلاء النفر من اليهود : يا معشر يهود ، أنتم أهل الكتاب الأول ، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أديننا خير أم دينه ؟

فنحن عُمَارُ الْبَيْتِ ، ننحر البُذُنَ ، ونسقى الحجيح ، ونعبد الأصنام .

ف قالت يهود : اللهم ، أنتم أولى بالحق منه ، إنكم لتعظمون هذا البيت ، وتقومون على السقاية ، وتَنَحِرُونَ البُذُنَ وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم ، فأنتم أولى بالحق منه .

كلام ملؤه الخبث والكذب ، والتجني على الحق والحقيقة .

لقد أعماهم كيدهم وحقدهم عن إدراك ما عسى أن ينكشف من خبثهم عن طريق الوحي الذي لا ينطق عن الهوى ، ولا يخفى عليه ، ما يسرون وما يعلنون .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجِدْ لَهُ نَصِيرًا ۚ ﴾ [النساء : ٥١ - ٥٢] .

والجبت والطاغوت : صنمان لأهل مكة .

سمعت قريش هذا الإطراء والثناء ، فتنشطوا للحرب ، وتواعدوا للمعركة .

ثم خرج اليهود إلى غطفان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وجعلوا لهم ثمر خير سنة ، إن هم نصرههم .

ثم خروا إلى بني سليم ، فوعدهم المسير معهم إذا خرجت قريش .

ثم إن قريشاً تجهزت ، وسيرت الوفود تدعو العرب إلى نصرها ، وألبوا أحابيشهم ، ومن تبعهم ، وخرجوا في أربعة آلاف مقاتل ، وعقدوا اللواء في دار الندوة ، وحمله عثمان بن طلحة .

ولاقتهم بنو سُليم بمَرِّ الظهران في سبع مئة يقودهم سُفيان بن عبد شمس .
وخرجت بنو أسد بن خزيمة ، وقائدها طلحة بن خويلد الأسدي ،
وخرجت بنو فزارة ، وهم ألف يقودهم عُينة بن حصن ، وخرجت أشجع ،
وقائدها مسعود بن رُحَيْلة .

وخرجت بنو مَرَّة يقودهم الحارث بن عوف المُري .
قال الإمام الشامي : وكان القوم الذين وافوا الخندق من قريش ، وسُليم ،
وأسد ، وغطفان عشرة آلاف .
والتقت هذه القيادات على اختيار أبي سفيان قائداً عاماً لهذه الجيوش
المتحيزة ضد المسلمين .

ب- سماع رسول الخبر ، واستشارته الصحابة :
وسمع رسول الله ﷺ خبر خروج هذه الجيوش بأعدادها الكثيفة ، ونواياها
الخبئية ، وخططها الماكرة التي عملت يهود على حبك خيوطها ، فأسرع
بمهارته كعادته إلى أصحابه ، ووضع القضية بين أيديهم ، فأدلى كل بما يرى .
ج- رأي سلمان حفر الخندق

وجاء سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فأشار على النبي ﷺ بحفر الخندق ،
وقال :

يا رسول الله ، إنا كُنَّا بأرض فارس إذا تَخَوَّفْنَا الخيل حَنَدَقْنَا علينا .
فأعجبت الفكرة النبي ﷺ ، وأصحابه ، فهَبُّوا لها بالجد ، ولم تكن العرب
تخندق عليها .

وركب رسول الله ﷺ فرساً ، ومعه عَدَدٌ من المهاجرين والأنصار ، فارتاد
موضعاً ينزله ، فكان أعجب المنازل إليهم أن يجعل جبل سَلْع خلف ظهورهم ،
ويخندق ما بين الحرتين ، وهذه هي الجهة التي كانت مكشوفة من المدينة .
ثم رجع وندب الناس ، وخبرهم بدنوِّ عدوهم ، وأمرهم بضرورة

الاستعجال ، ومسابقة قدوم العدو واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحي ، ومكاتل للحفر .

وكل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً يحفرون ، فكان المهاجرون يحفرون من ناحية ، والأنصار من ناحية أخرى ، وقطع لكل عشرة من أصحابه أربعين ذراعاً .

قال الإمام الشامي : وتنافس المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي ، وكان سلمان رجلاً قوياً يعمل عمل عشرة من الناس .

فقال المهاجرون : سلمان منا .

وقال الأنصار : سلمان منا .

فقال رسول الله ﷺ : «سلمان منا أهل البيت» وبدأ العمل في الخندق بجِدٍّ ونشاط شارك فيه رسول الله ﷺ ، وصاحبه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما .

قال الإمام الشامي : كان أبو بكر وعمر ينقلان التراب في ثيابهما إذ لم يجدا مكاتل من العجلة ، وكانا لا يفترقان في عمل ، ولا مسير ، ولا منزل .

عن البراء رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنُهُ ، أَوْ أَغْبَرَ بَطْنُهُ ، يقول :

وَاللّٰهُ لَوْلَا اللّٰهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَيْنَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقْتُنَا
إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا

ويرفع بها صوته : أَيْنَا ، أَيْنَا . رواه البخاري (٤١٠٤) في المغازي .

وعن أنس رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال : «اللَّهُمَّ إِنِّ الْعَيْشَ عَيْشَ الْآخِرَةِ ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً
رواه البخاري (٤٠٩٩) في المغازي .

هكذا تفاعلت عواطف الجند والقائد ، وتضافرت على حب العمل في سبيل
الله ، والتعاون على ما يرضيه بكل الوسائل المتاحة ، والطرق الممكنة ، ولا بدَّ
من هذه المهارات لكسب النصر ، وإحراز التفوق والتقدم بأسرع الأوقات ،
هذه المهارات جعلت هؤلاء القوم أهلاً لكل نصر وتأييد من الله عز وجل .

د - دعوة النبي لطعام في بيت جابر

ومن هذه المواقف والعواطف المتبادلة التي حصلت عند حفر الخندق ،
وكان لها مالها من الدلالات ، وفيها ما فيها من العبر ما رواه البخاري
(٤١٠١ - ٤١٠٢) في المغازي ، ومسلم (٢٠٣٩) في الأشربة عن جابر رضي
الله عنه ، قال : إنَّ يومَ الخَنْدِقِ نَحْفَرٌ ، فعرضتْ كُذْيَةٌ شديدة - قطعة صلبة من
الأرض - فجاءوا النبي ﷺ ، فقالوا : هذه كُذْيَةٌ عَرَضَتْ في الخندق ، فقال :
«أنا نازلٌ» .

ثم قام ، وبطنه مَغْضُوبٌ بِحَجَرٍ ، ولَبِثْنَا ثلاثة أيام لا نَذُوقُ ذَوْاقاً ، فأخذ
النبي ﷺ المِغْوَلَ فضرب في الكُذْيَةِ ، فعاد كَثِيباً أَهْيَلًا ، أو أَهْمًا ، أي صار
رملاً يسيل ولا يتماسك .

فقلت : يا رسول الله ، ائذنْ لي إلى البيت ، فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي
ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صَبْرٌ ، فَعِنْدَكَ شيءٌ ؟

قالت : عندي شعير ، وَعِنَاقٌ .

فَذَبَحْتُ العِنَاقَ ، وَطَحَنْتِ الشَّعِيرَ ، حتى جعلنا اللحم في البُرْزَةِ - أي
القدر - ثم جئتُ النبي ﷺ والعَجِينُ قد انكسر والبُرْزَةُ بين الأثافي - جمع أَثْفِيَّةٌ ،
وهي الحجارة التي تنصب وتوضع عليها القدر - قد كادت تَنْضَجُ ، فقلت :
طَعِيمٌ لي ، فَقُمْتُ أنت يا رسول الله ورجُلٌ أو رجلان . قال : «كَمْ هو؟» .
فذكرت له ، قال : «كثيرٌ طَيِّبٌ» .

قال: قُلْ لها: لا تَنْزِعُ البُرْمةَ ، ولا الخبز من التَّنُورِ حتى آتي» .

فقال: «قوموا» .

وفي رواية قال: «يا أهل الخندق ، إن جابراً قد صنع سوراً - طعاماً - فحيّ هلا بكم» .

فقام المهاجرون والأنصار .

فلما دخل على امرأته قال: وَيَحْكُ جاء النبيُّ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم .

قالت: هل سألك؟

قلت: نعم . فقال: «ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغُطُوا» .

فجعل يكسر الخبز ، ويجعل عليه اللحم ، وَيُخَمِّرُ البُرْمةَ والتَّنُورَ إذا أخذ منه ، وَيُقَرِّبُ إلى أصحابه ، ثم يَنْزِعُ ، فلم يَزَلْ يكسر الخبز ، وَيَعْرِفُ ، حتى شَبِعُوا ، وبقي بَقِيَّةٌ ، قال: «كُلِّي هذا ، وأهدي ، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ» .

وفي رواية قال: فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن بُرْمتنا لتغطُّ كما هي ، وإن عجبتنا ليخبز كما هو .

معجزة لرسول الله ﷺ وكرامة لأصحابه ، وتفريج لما بهم ، وتنفيس عما هم فيه ، وبشارة بقرب الفرج ، وإيدان بدنو النصر ، وهذا كله يملأ الصدور بالسكينة ، والنفوس بالأمل ، فيحمل على الجد بالجهاد والعمل .

لكن المنافقين كانوا في منأى عن هذه الأجواء ، بل راحوا يتصيدون في الماء العكر ، وينشرون الأراجيف ، ويسعون في التخويف ، وتثبيط الهمم ، ويقولون - ما حكى الله عنهم: ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢] .

وراحوا يتسللون لوأذا متذرعين بما حكى الله عز وجل عنهم ﴿ يَقُولُونَ إِنَّا بِنُورِنَا عُورَةٌ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنَّا بِنُورٍ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣] .

وقال: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَى

عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْحَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاتَّعَبَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَسَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ [الأحزاب ١٩ - ٢٠].

هـ تهيو رسول الله ﷺ لحرب المشركين :

قال الإمام الشامي : ولما فرغ رسول الله ﷺ من عمل الخندق ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، ونزل أمام سلع ، فجعله خلف ظهره ، والخندق أمامه ، وكان عسكره فيما هنالك ، وضربت له قبة من آدم ، كانت عند المسجد الأعلى الذي بأصل الجبل ، وكان المسلمون فيما قالوا : ثلاثة آلاف .

وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار مع سعد بن عباد ، وجعل النساء والذراري بين الآطام ، أي البيوت المرتفعة ، وكان حسان بن ثابت معهم .

وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، فهي كالحصن .

لقد عمل رسول الله ﷺ بكل الواجب ، وأخذ بكل الأسباب ، ولم يترك فرجة يتسلل منها المحذور ضمن طاقة البشر ومقدورهم ، وهذا واجب الأمة قيادة وشعباً في كل المهمات والملمات .

و - وصول المشركين إلى المدينة

ووصل المشركون بقضهم وقضيضهم إلى المدينة ، فوجدوا الخندق مضروباً بينهم وبين المسلمين ، فدهشوا لذلك ، لأنهم لم يكونوا يعرفون هذا النوع من الأساليب الدفاعية والوقائية في الحروب .

وكان في عرضه قد بلغ قدراً يعسر القفز فوقه ، إلا ما كان من بعض جهاته الضيقة .

وقد أقام رسول الله ﷺ الحرس على جانب الخندق وكان ﷺ يحرس بنفسه ناحية منه .

فنزلت قريش ومن معها من بني كنانة ، وأهل تهامة مجتمع الأسيال قريباً من الخندق ، ونزلت غطفان ومن تبعهم جهة أحد ، وبدأ القتال تراشقاً بالنبل ، وقد أصيب جراء ذلك سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم قطع أكُحله ، وهو شريان الذراع .

ويمّم بعض الفرسان جهة من الخندق فيها بعض الضيق ، فأكروها أفراسهم على اقتحامها ، كان من بينهم عمرو بن عبدود العامري ، وكان من أشجعهم وأكبرهم سناً ، فخرج إليه علي بن أبي طالب ، فقتله ، وفرّ أصحابه وهوى في الخندق نوفل بن عبد الله ، فاندقت عنقه .

قال الإمام الشامي : قال ابن إسحاق : وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفة عمرو بن عبدود بعشرة آلاف درهم ، فقال رسول الله ﷺ : «هو لكم لا نأكل ثمن الموتى» .

وروى الإمام أحمد والترمذي والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قتل المسلمون يوم الخندق رجلاً من المشركين ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا بجسده ، ونعطيكم اثني عشر ألفاً ، فقال رسول الله ﷺ : «لا خير في جيفته ، ولا في ثمنه ، ادفعوه إليهم ، فإنه خبيث الجيفة ، خبيث الدية» .

فلم يقبل منهم شيئاً .

ولما قتل عمرو بن عبدود ، اتفق المشركون جميعاً أن يحاصروا الخندق ، بحيث لا يتخلف منهم أحد ، ثم وافوا رسول الله ﷺ بالخندق قبل طلوع الشمس .

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه ، وجمعهم على القتال ووعدهم النصر إن ثبتوا ، فأحرق المشركون بكل وجهة من الخندق ، ووجهوا نحو خيمة رسول الله ﷺ كتية غليظة ، وأصبح المسلمون في مثل الحصن من كتائبهم ، فلم يقدر رسول الله ﷺ ، ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من مواضعهم ولا قدر رسول الله ﷺ ولا أصحابه على صلاة ظهر ، ولا عصر ، ولا مغرب ،

ولا عشاء ، فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله ، ما صليتنا ، فيقول: «والله ما صليت» .

حتى كشفهم الله ، فرجعوا متفرقين ، كل فريق إلى منزله .

عن علي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق: «ملاً الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً ، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى ، حتى غابت الشمس» رواه البخاري (٤١١١) في المغازي .

وروى الإمام أحمد ١ / ٣٧٥ أن المشركين شغلوا النبي ﷺ يوم الخندق عن أربع صلوات ، حتى ذهب من الليل ما شاء الله ، فأمر بلالاً ، فأذن ، ثم أقام فصلّى الظهر ، ثم أقام فصلّى العصر ، ثم أقام فصلّى المغرب ، ثم أقام فصلّى العشاء .

ز - نقض بني قريظة عهدهم مع النبي ﷺ:

وفي هذا الظرف الشديد ، والحالة القاسية على المسلمين نقض بنو قريظة عهدهم ، وانضموا إلى الأحزاب ، فشكّلوا بذلك أعظم الخطر على المسلمين ، وعلى نساءهم وذرائعهم .

وذلك أن الأمر اشتدّ على أولئك النفر من وجوه يهود بني النضير ، الذين أغروا قريشاً وغيرهم بالخروج لقتال المسلمين ، وخافوا أن يفلت الأمر من أيديهم ، ويفوتهم ما وعدوا به من استئصال شأفة المسلمين .

ورأوا أن الخندق يشكل عقبة أمام جيوشهم ، ولا بدّ لحسم الأمر من فتح جبهة أخرى تشغل المسلمين عن الخندق ، وتفتح عليهم باباً آخر من الخطر ، فكان لا بدّ من حمل بني قريظة على نقض العهد ، وضمهم إلى الأحزاب ، وبنو قريظة كانوا بديارهم وآطامهم يشكلون حماية للمدينة من جهتهم ، فإذا نقضوا العهد ، فقد انكشفت المدينة من تلقائهم ، وأمكن دخول الجيوش من جهتهم .

لذلك خرج عدو الله حبي بن أخطب النضري ، حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة ، وصاحب عقدهم وعهدهم مع النبي ﷺ .

فلما سمع كعب بقدوم حبي أغلق دونه باب حصنه ، وأبى أن يأذن له بالدخول عليه .

فناداه حبي : ويحك يا كعب افتح .

فقال كعب : ويحك يا حبي ، إنك رجل مشؤوم ، وإني قد عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا صدقاً ووفاء .

قال حبي : ويحك افتح لي أكلّمك .

قال : والله ، ما أنا بفاعل .

قال حبي له : والله ما أغلقت بابك دوني إلا خوفاً على طعامك أن أكل معك منه .

وعندها استشاط الرجل ، وثارَت حفيظته ، فنزل من حصنه وفتح له .

فقال له حبي : ويحك يا كعب ، جئتكَ بعزّ الدهر ، جئتكَ ببحر طام ، جئتكَ بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال ، وجئتكَ بغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أحدٍ ، وقد عاهدوني ، وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ، ومن معه .

قال له كعب : ويحك يا حبي ، لقد جئتني والله بذل الدهر ، وبجَهامٍ - سحاب - قد أهرق ماؤه ، فهو يزْعُد ويَبْرُق ، وليس فيه شيء .

ويحك يا حبي ، خلّني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً .

فلم يزل حبي به حتى استجاب له ، على أن يعطيه عهداً وميثاقاً أن يدخل معه حصنه ، فيصيبه ما أصابه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً ، ففعل الخبيث ونقض كعب عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ .

وبلغ الخبر عمر بن الخطاب ، فأعلم به رسول الله ﷺ ، فبعث سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، وخوَات بن جُبَيْر ، وقال : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، أم لا ، فإن كان

حقاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه ، ولا تفثوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

فخرجوا إليهم حتى أتوهم ، فوجدوهم قد نقضوا العهد ، فناشدوهم الله ، والعهد الذي كان منهم ، فقال كعب متنكراً ، ومتكبراً : مَنْ رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبينه ، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ ، فقال سعد بن عباد : عَصَل والقارة .

يعني أن قريظة غدرت كغدر عَصَل والقارة بأصحاب الرجيع .

قال الإمام الشامي : ولما رأى رسول الله ﷺ ما بالمسلمين من الكرب ، قال : «أبشروا يا معشر المؤمنين بنصر الله تعالى وعونه ، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق ، وأخذ المفتاح ، وليهلكن كسرى وقيصر ، ولتنفقن أموالهم في سبيل الله» .

هذا كلام القائد المؤمن الواصل بربه عز وجل .

وانتهى خبر قريظة إلى المسلمين ، فاشتد الأمر فعلاً عليهم ، وخيف على الذراري والنساء ، ومما زاد في الطين بلّة وفي الطنبور نغمة ما قام به المنافقون من بعث الأراجيف ، ونشر الشائعات ، حتى قال بعضهم : يعدنا محمد أن يأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

وقد وصف الله عز وجل ما آل إليه حال المسلمين أمام هذا الحصار والغدر ، والتكالب ، فقال : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَيَغْتَالِقُلُوبُ الْحَنَاجِرِ وَتَنْظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿[الأحزاب : ١٠ - ١٢] .

ح - تفكير رسول الله بمصالحة غطفان على أن يرجعوا عن المدينة

وتحت هذا الضغط فكر رسول الله ﷺ بوسيلة يخفف بها هذا العبء عن المسلمين ، فأرسل إلى عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف . وهما قائداً

غطفان ، وقال لهما: «أرأيتما إن جعلت لكما ثلث تمر المدينة أترجعان بمن معكما ، وتخذلان بين الأعراب.».

وفي رواية عند البزار والطبراني أنه جاء الحارث بن عوف إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا محمد ، ناصفنا تمر المدينة ، وإلا ملأتها عليك خيلاً ورجالاً ، فقال: «حتى استأمر السُّعُودُ: سعد بن عباد ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن الربيع ، وسعد بن خيثمة ، وسعد بن مسعود ، فكلّمهم رسول الله ﷺ في ذلك ، فقالوا: لا والله ، ما أعطينا الدّنية في أنفسنا في الجاهلية ، فكيف وقد جاءنا الله تعالى بالإسلام.

وفي رواية أنهم قالوا: يا رسول الله إن كان الأمر من السماء فامض له ، وإن كان أمراً لم تؤمر به ، ولك فيه هوى فامض له سمعاً وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأي ، فمالهم عندنا إلا السيف ، فقال رسول الله ﷺ: «إني رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة ، وكالبوكم من كلّ جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما» فقال له سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله ، قد كُنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله تعالى ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرئ ، أو بيعاً.

أفحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟

ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال رسول الله ﷺ: «أنت وذاك».

هذا موقف من المهارة والعزّة يسجل بماء الذهب ، ويبقى درساً للقادة والشعوب المؤمنة ، عن مثله ينطلقون ، وبمثله يتعاملون ، لا استبداد في القيادة ، ولا تسبب في الأمة ، بل تشاور ، وتعاون واتفاق.

من هذا المستوى في الأمة يأتي النصر ، وبهذا المنطلق تنفتح أبواب الفرج ، وتنزاح جيوش الكروب والخطوب.

ط - هزيمة المشركين :

علم الله عز وجل صدق المسلمين في هذه الغزوة قيادة وشعباً وحسن ولائهم لربهم جهاداً وإعداداً وعملاً فكتب الله لهم النصر ، وأورثهم العزة بدون تدخل كبير منهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ي - دعاء رسول الله ﷺ :

قال الإمام الشامي ٣٨٣/٤ روى الإمام أحمد ، وابن سعد عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أتى مسجد الأحزاب يوم الاثنين ، ويوم الثلاثاء ، ويوم الأربعاء بين الصلاتين : الظهر والعصر ، فوضع رداءه ، وقام ، ورفع يديه يدعو عليهم .

قال جابر : فعرفنا البشر في وجهه .

وروى البخاري وابن سعد ، وأبو نعيم عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : دعا رسول الله على الأحزاب .

زاد أبو نعيم : انتظر حتى زالت الشمس ، ثم قام في الناس ، فقال : «يا أيُّها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتم العدو فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحْتَ ظلال السيوف» .

ثم قال : «اللَّهُم مُنْزِلِ الْكِتَابِ ، سَرِيعِ الْحِسَابِ ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ ، وَاَنْصِرْنَا عَلَيْهِمْ .

وروى ابن سعد عن سعيد بن المسيب قال : حُصِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِضَعِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ حَتَّى خَلَصَ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ الْكَرْبُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ :
«اللَّهُمَّ أَنْشُدْكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ تَشَاءُ لَا تَعْبُدْ» .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قلنا : يا رسول الله ، هل من شيء نقوله ، فقد بلغتِ القلوبُ الحناجر؟ قال : «نعم ، قولوا : اللهم اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا ، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا» .

قال : فصرف الله تعالى ذلك .

ك - إسلام رجل من المشركين :

هو نعيم بن مسعود ، أتى رسول الله ﷺ مسلماً ، وعرض عليه القيام بأي أمر يحبه ، فقال له النبي ﷺ : إنما أنت رجل واحد فينا ، ولكن خذْنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم من عند رسول الله ﷺ ، فأتى بني قريظة ، فلما رأوه أكرموه لصدافته معهم ، فقال لهم :

يا بني قريظة ، تعرفون ودي لكم ، وخوفي عليكم ، وإني محدثكم حديثاً فاكموه عني .

قالوا : نعم .

قال : لقد رأيتم ما وقع ببني قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم ، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها ، وإلا انصرفوا لبلادهم .

وأما أنتم فتساكنون الرجل - يريد رسول الله - ولا طاقة لكم بحربه وحدكم . فأرى ألا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ، ويذهبوا إلى بلادهم .

قالوا : وكيف ؟

قال : تأخذون منهم رهائن من أشrafهم تحبسونهم عندهم .

فقالوا : نعم ، إنه للرأي ، ولن نتورط معهم حتى نأخذ الرهائن .

ثم قام من عندهم ، وأتى قريشاً ، فاجتمع برؤوسهم ، وقال : أنتم تعرفون ودي لكم ، ومحبتي إياكم ، وإني محدثكم حديثاً فاكموه عني .

قالوا : نفعل .

قال : إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا ، وخافوا منكم أن ترجعوا

وتركهم ، فقالوا لمحمد: أيرضيك أن نأخذ جمعاً منهم ونعطيهم لك ،
وهاهم مرسلون إليكم فاحذروهم .

ثم أتى غطفان ، فقال لهم مثلما قال لقريش .

فأرسل أبو سفيان إلى قريظة يدعوهم للقتال غداً .

فأجابوا: إنا لا يمكننا أن نقاتل في السبت ، ولم يصبنا ما أصابنا إلا من
التعدي فيه ، ومع ذلك ، فإننا لا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم ، فأبوا أن
يعطوهم ، وتحققوا قول نعيم ، وأبت قريظة أن تقاتل من دون رهائن خوفاً من
قريش أن يتركوهم ، فتفرقت القلوب ، وثارَت بينهم ثائرة الشكوك ، وخاف
بعضهم بعضاً ، وكانت حيلة نعيم كعصى موسى عليه السلام . كسرت شرهم ،
وفرت جمعهم .

ل - هبوب ريح هوجاء زادت الأحزاب هلعاً :

وفي هذه الأجواء العاصفة بالشكوك والمخاوف ، وفقدان الثقة أرسل الله
عز وجل على المشركين ريحاً مخيفة هوجاء في ليلة باردة مظلمة ، فقلبت
قدورهم ، واقتلعت خيامهم ، وأطفأت نيرانهم ، وتركتهم في حيص بيص ،
وهرج ومرج ، لا يجدون مخرجاً إلا الرحيل ، بعد ذلك الحصار الطويل .

ولما سمع رسول الله ﷺ الضوضاء في جيش العدو ، قال لأصحابه: «ألا
رجُل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟» .

فسكت القوم ، ولم يجبه أحد ، ثم قال: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله
الله معي يوم القيامة؟» .

فسكت القوم ، ولم يجبه أحد .

فقال: «قم يا حذيفة ، فأتنا بخبر القوم» .

فقال حذيفة: فلم أجد بداً إذا دعاني باسمي أن أقوم .

قال: «اذهب فأتني بخبر القوم ولا تدعهم عليّ» أي لا تحركهم عليّ .

فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمّام حتى أتيتهم ، فرأيت

أبا سفيان يَصْلِي - يُدْفِئ - ظهره بالنار ، فوضعت سهماً في كبد القوس ، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله ﷺ : «ولا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ» .

ولو رميته لأصبتة .

فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمَّام ، فلما أتيت ، فأخبرته بخبر القوم ، وفرغْتُ قُرْزْتُ - بردت - فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كانت عليه ، يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحت ، فلما أصبحت قال : «قُمْ ، يا نَوْمانُ» . رواه مسلم (١٧٨٨) في الجهاد .

وروى ابن إسحاق عن حذيفة أنه قال : فدخلت في القوم ، والريح وجند الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقرُّ لهم قدراً ، ولا ناراً ولا بناءً ، فقام أبو سفيان ، فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جلسه ؟» .

قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، فقلت له : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان .

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخفُّ ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، فارتحلوا ، فإني مرتحل .

فما طلع الصباح إلا والمشركون قد ولَّوْا الأدبار ، فأزاح الله تعالى الغمة عن المسلمين ، وعادوا إلى المدينة بفضل الله ولطفه سالمين ، وأنزل الله عز وجل يأمرهم بذكر نعمته عليهم ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب : ٩] .

نعم لقد تمت نعمة الله على عبادة المؤمنين ، لكن بعد أن قدَّموا كل ما لديهم من مهارات ، وأدَّوا كل ما عليهم من توضحيات ، وتسربلوا بكل ما يمكنهم من عبادات وتضرعات ، وارتماءات في أعتاب حضرة ربهم عز وجل .

فخرجوا للجهاد عن بكرة أبيهم ، وعملوا في الدفاع عن المدينة وفي مقدمتهم نبيهم ، فتعبوا ، وبردوا ، وجاعوا ، وصبروا وصابروا ، والتزموا قول الله عز وجل .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
[آل عمران : ٢٠٠] .

لقد أفلحوا ، وفازوا بعزة الدنيا ، ونعيم العقبى .
وأمتنا لابدَّ إن أرادت الفوز من أن تتحقق بكل تلك المهارات ، والتفسيات ، والتضحيات ، والتضرعات ، والالتزامات ، وقد وعدهم الله النصر إن فعلوا ذلك ، والله لا يخلف الميعاد .

قال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّنَصِّرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد : ٧] .

روى البخاري (٤١٠٩) في المغازي عن سليمان بن صُرد رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ يوم الأحزاب .
«نغزوهم ولا يغزوننا» .

وفي رواية أنه قال حين أجلى الأحزاب عنه : «الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم» رواه البخاي (٤١١٠) في المغازي ، وهذه براعة في البشارة ، ومهارة في كسر أواصر الخوف والنفاق .

وكان رسول الله ﷺ يقول ذاكراً بفضل ربه عز وجل : لا إله إلا الله وحده ، أعزُّ جُنْدُهُ ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده» . رواه أحمد ٣٠٧/٢ .

قال كعب بن مالك رضي الله عنه يذكر غزوة الأحزاب :
وسائلٍ تُسأل ما لقينا ولو شهدت رأينا صابرينا
صبرنا لا نرى الله عدلاً على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبي وزير صدق به نعلوا البرية أجمعينا

نُقَاتِلُ مَعْشَرًا ظَلَمُوا وَعَقُّوا وَكَانُوا بِالْعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَ
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا بِضَرْبٍ يُعْجِلُ الْمُسْتَسْرِعِينَ
بِيَابِ الْخَنْدَقِينَ كَأَن أُسْدًا شَوَابِكُهُنَّ يَحْمِيْنَ الْعَرِينَا
وَيَعْلَمُ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا وَأَحْزَابٌ أَتَوْا مَتَحَزِّبِنَا
لَنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللَّهِ حَتَّى نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُّخْلِصِينَ
بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ
كَمَا قَدْ رَدَّكُمْ فَلَا شَرِيدًا بَغَيْظِكُمْ خَزَايَا خَائِبِينَ
خَزَايَا لَمْ تَنَالُوا ثَمَّ خَيْرًا وَكَذُتُمْ أَن تَكُونُوا دَامِرِينَ
بَرِيحٍ عَاصِفٍ هَبَّتْ عَلَيْكُمْ وَكُنتُمْ تَحْتَهَا مُتَكَمِّهِينَ
عَدْلًا: مِثْلًا.

شوابكهن: التي تتشبث بما تأخذه فلا يفلت منها.

العرينا: مأوى الأسد.

فلا: قوماً منهزمين.

دامرينا: هالكين.

مُتَكَمِّهينا: عُمِيَا ، والمتكَّمه الذي يولد أعمى ، مثل الأكمه.

٣٥- غزوة بني قريظة:

بنو قريظة من قبائل اليهود الذين كانوا يقيمون بجوار المدينة ، وكان بينهم وبين المسلمين عهد ، وموادة . فنقضوها وانضموا إلى بقية الأحزاب الذين كانوا يحاصرون المدينة ، فشكلوا بذلك أعظم الخطر على المسلمين ، وضيقوا عليهم الخناق ، وأوقعوهم في أبشع صورة من الشدة ، فكان لابد بعد زوال الشدة ، وذهاب الأحزاب من الخروج إليهم واستعمال مثل تلك الشدة التي أحدثوها ، فخرج إليهم ﷺ تَوَّ رجوعه من غزوة الخندق . في ثلاثة آلاف من أصحابه الأشاوس لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمس من الهجرة .

قال ابن هشام: فلما كانت الظهر ، أتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ ، فقال: أوقد وضعتَ السِّلَاحَ ، يا رسول الله؟

قال: «نعم» .

قال جبريل: فما وضعت الملائكةُ السلاحَ بعدُ ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم .

إن الله عز وجل يأمرُك بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم ، فمزلزلٌ بهم .

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً ، فأذن بالناس .

«من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّينَ العصرَ إلا ببني قُريظة» .

وقدَّمَ رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة ، وتلاحق الناس ، وحاصروهم رسول الله ﷺ بأصحابه خمساً وعشرين ليلة ، حتى أجهدهم الحصار ، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب .

قال في «شرح المواهب»: فلما أيقنوا بالهلكة أنزلوا شأس بن قيس ، فكلم رسول الله ﷺ: أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من ترك الأموال والحلقة ، والخروج بالنساء وبالذَّراري ، وما حملت الإبل ، فأبى رسول الله ﷺ .

فقال: تحقن دماءنا ، ونخرج بالنساء والذرية ، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل .

فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه . فعاد شأس إليهم بذلك .

قال ابن هشام: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابْعَثْ إلينا أبا لُبابة بن عبد المنذر لنستشيره في أمرنا ، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم .

فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان ليكون ، فرق لهم .

وقالوا: يا أبا لُبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقة : أي إن حكمه فيكم الذبح .
قال في شرح «المواهب» : كأن أبا لبابة فهم ذلك من عدم إجابة الرسول ﷺ
لهم بحقن دمائهم ، وعرف أنه سيذبحهم إن هم نزلوا على حكمه .
قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنني قد خُنتُ
الله ورسوله .

ثم انطلق على وجهه ، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى
عمود من عُمده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت ،
وعاهد الله تعالى أن لا أطأ بني قريظة أبداً ، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله
فيه أبداً .

ولما بلغ رسول الله ﷺ خبره ، قال : «أما لو جاءني لاستغفرتُ له ، أما إذ
فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

قال ابن هشام : أقام أبو لبابة مربوطاً بالجذع ست ليالٍ ، تأتية امرأته في
وقت كل صلاة ، فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع .

عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «تيب على أبي لبابة» .

قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟ قال : «بلى إن شئت» .

فقامت على باب حجرتها ، فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر ، فقد تاب الله
عليك .

فثار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله ، حتى يكون رسول الله ﷺ هو
الذي يطلقني بيده .

فلما مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

أنظر - يا من له لب ونظر - إلى هذا الموقف المهيب ، والمشهد المثير ،
موقف رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أحسَّ بخطئه ، فلم ينتظر من أحد أن
يلومه ، أو يعتب عليه ، بل بادر ليعاقب نفسه بنفسه ، وأقسم لسوف يظلُّ
يعاقبها ويعذبها حتى يقبل الله توبته ، ويعفو عن زلته .

ما هذا ، يا أخي ، وما هو الدافع لكل هذا؟
هل تجد له مُبرراً إلا خشية الله تعالى ، والخجل من حضرته؟
هل تجد له مُبرراً إلا تلك الحساسية الدينية ، والشعور بالمسؤولية؟
أو ما سمعت أن النبي ﷺ قال : «أما لو جاءني لاستغفرت له» ولانتهى كل شيء .

إن إيمانه أبي عليه أن تمرَّ هذه الزلَّة هكذا ، ويكون مصيرها مجرد معذرة عابرة ، أو إغضاء حانية من رسول الله ﷺ .

أسألك بربك ، يا أخي ماذا ينقص المسلمين اليوم؟
هل ينقصهم كمال الأجسام ، وقوة الأبدان ، وقلة العلم والعرفان ، وكثرة العدد والعتاد؟ أم إن الذي ينقصهم ويحتاجون إليه هو شيء آخر؟
إنه ينقصهم شيء آخر غير ما ذكرنا ، إنه ينقصهم إيمان كإيمان أبي لبابة ، وخشية كخشية أبي لبابة ، وحساسية كحساسية أبي لبابة ، وشعور بالمسؤولية كشعور أبي لبابة .

إن هذا لو توافر لهم لكفاهم ، ولفاق في قوة تأثيره كل الأسباب المادية ، والوسائل القتالية .

ومع هذا فإن الدين يأمرهم بإعداد القوة ، وحشد السلاح ، وتجهيز الجيوش .

لكنها جيوش تملك وسائل النصر الحقيقية ، وهي تلك العبودية الخالصة لله تعالى ، والإذعان الكامل له ، والاعتماد التام عليه ، والتضحية من أجله ، وبيع النفس والنفيس في سبيله . هذه هي المهارة المطلوبة ، والإبداع اللازم ، وعلى هذا كان رسول الله ﷺ بحذقه يربي أصحابه .

قال ابن هشام : ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ .
وكانت بنو قريظة حلفاء للأوس ، فأحبَّ رسول الله ﷺ ببراعته أن يكل الحكم عليهم إلى واحد من حلفائهم ، فحكَّم فيهم سعد بن معاذ الأوسي

الأنصاري سيد الأوس ، رضي الله عنه .

فلما حكمه فيهم أتاه بعض قومه ، وقالوا له : أحسن في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولّك ذلك لتحسن فيهم .

فقال سعد رضي الله عنه لقومه من الأوس : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم .

ثم قال سعد رضي الله عنه لقومه من الأوس : عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم .

قال : وعلى من ها هنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ ، وهو معرض عنه إجلالاً له .

فقال رسول الله ﷺ : «نعم» .

قال سعد : فإني أحكم فيهم : أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتُسبي الذراري والنساء .

قال رسول الله ﷺ : «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» .
الله أكبر :

لقد أصاب سعد رضي الله تعالى عنه بنورانية قلبه . وصفاء نفسه حكم الله تعالى المقضي في عالي سمائه .

لقد أقسم سعد - وهو صادق - أن ينسى كل وشيجة لاتمتُّ إلى رضا الله تعالى بصلة ، وأن يقول الحق لا يداري ، ولا يماري ، ولا يبالي بلوم لائم ، ولا عتب عاتب .

هكذا يجب أن يكون المسلم بعقريته الدينية ، الله عز وجل عنده فوق كل أمر ، وفوق كل صلة ، وفوق كل نسب ، فوق كل مصلحة ، ورغبة ، وشهوة .
ثم استنزل بنو قريظة من حصونهم ، وحبسوا ، ثم حفر لهم خندق ، ثم

قدموا ، وضربت أعناقهم ، وكفى الله تعالى المؤمنين شرّ اليهود ، وتطهرت المدينة من رجسهم .

ولعل قائلاً أن يقول : أما كان هذا الحكم في بني قريظة شديداً ، ومخالفاً لمعاني الإنسانية ، وحقوق الإنسان؟

والجواب الحق : أن هذا الحكم هو الحكم الحكيم ، الذي لا يصح سواه . والناس اليوم وقبله ، وبعده يفعلون بأعدائهم ما هو أشدّ من هذا ، وأنكى ، يقتلون ، ويخربون ، ولا يرحمون ضعيفاً ولا عجوزاً ، ولا امرأة ، ولا طفلاً ، وها هم اليهود يفعلون ما يندى له الجبين ، وفي الشيشان ، وأفغان ما هو أسوأ وأبشع ، وفي البوسنا فعل الصرب ما لا ينسى سوؤه على الدهر .

لقد غدر بنو قينقاع من اليهود ، ونقضوا عهودهم مع المسلمين .

فتركهم النبي ﷺ يذهبون حيث شاؤوا .

وخان بنو النضير من اليهود ، وهمّوا بقتل النبي ﷺ ، فعفا عن دمائهم ، وترك لهم أرض الله واسعة يسبحون فيها .

وغدرت بعض قبائل العرب وقتلوا صفوةً من أصحاب رسول الله ﷺ يوم الرجيع ، وفي بئر معونة .

ونقض بنو قريظة عهودهم مع المسلمين في أشدّ ساعة مرّت عليهم ، وخانوهم في أحلك مرحلة من مراحل صراعهم مع المشركين ، وكان من الممكن جداً - لو أن رسول الله ﷺ أطلق سراح بني قريظة ، وتركهم يسبّرون في أرض الله الواسعة كغيرهم - أن تتكرر هذه المحاولات من الغدر بالمسلمين من كل مكان ، وأن يحاول كل حاقد أن يلقي بسهمه في جملة سهام الحاقدين ، ويجرب حظه في محاولة للقضاء على المسلمين ، فإن أفلح فذاك ، وإلا فأرض الله واسعة ، ولا تكلفه المشكلة إلا كلمات معسولة يستمطر بها عفو رسول الله ﷺ ، ويستدر بها رحمته ، وتنتهي الجريمة ، وينجو المجرم .

لكن رسول الله ﷺ بمهارته الصادقة ، وسياسته الحكيمة أراد هذه المرّة ، وبهذه القسوة على المجرمين القرظيين أن يقطع دابر كلّ محاولة للغدر

بالمسلمين ، والتطاول عليهم ، وأن يضع حداً لكل تجربة حاكمة من فئة موتورة ، فحكم في بني قريظة الحكم الصحيح الذي لا يصح غيره ، وعاملهم بما هم أهل له .

وصدق من قال :

ووضع الندى في موضع السيف في العلى

مضرك وضع السيف في موضع الندى

ولقد سجل الواقع والتاريخ أن أحداً له شأن بعد هذا لم يغز المدينة ، ولم يجرؤوا على الدنو منها ، والغدر بأهلها .

وأنزل الله عز وجل في هؤلاء المجرمين قوله الكريم : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۚ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ ﴾ [الأحزاب : ٢٦ - ٢٧] .

ظاهروهم : عاونوا المشركين يوم الخندق ، وهم بنو قريظة .

صياصيمهم : حصونهم .

فريقاً تقتلون : أي الرجال .

وتأسرون فريقاً : هم النساء والذرية .

أرضهم : العقار والنخل .

ديارهم : المنازل والحصون .

وأموالهم : الحلي ، والأثاث ، والمواشي ، والسلاح والدراهم والدنانير .

وأرضاً لم تطؤوها : هي خيبر ، ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها ، فوعدهم الله بها .

٣٦ - غزوة بني لحيان :

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت وإخوانه يوم الرجيع ، فظلل رسول الله ﷺ حزيناً عليهم ، مُتَشَوِّفًا للقصاص من عدوهم حتى ربيع الآخر من

سنة ست من الهجرة الشريفة ، فأراد أن يبعثهم ، وهم غارئون ، فأمر أصحابه بالتَّجهز ، فخرج بهم ، وهم مثنان ، ولم يظهر لهم مقصده ، ولا جَلَّى لهم عدوُّهم ، ولم يزل سائراً حتى وصل إلى المكان الذي قتل فيه أصحاب الرجيع ، فترحم عليهم ، ودعا لهم .

فلما سمع به بنو لُخيان تفرَّقوا في الجبال ، فأقام ﷺ بديارهم يومين يبعث البعوث ، ويرسل السرايا ، فلا يجدون أحداً .

ثم أرسل بعضاً من أصحابه ليأتوا عُسفان - موضع قرب مكة - حتى يعلم بهم أهل مكة ، فيدخلهم الرعب ، فذهبوا إلى كُراع الغميم - جبل جنوب عُسفان .

ثم رجع عليه الصلاة والسلام بمن معه إلى المدينة ، وهو يقول : « آيئون تائبون ، لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعشاء السَّفر وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال .

٣٧ - غزوة الغابة :

والغابة : موضع على بريد من المدينة جهة عَطَفان ، كان هنالك عشرون لَقْحة - ناقة ذات لبن - للنبي ﷺ ترعى في ذلك المكان ، فأغار عليها عُيَيْنَةُ بن حصن في أربعين راكباً ، واستلبها من راعيها ، وهو غلام لعبد الرحمن بن عوف ، فعلم بذلك سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، فصرخ ثلاث صرخات : يا صباحاه ، فاسمع ما بين لابتي المدينة ، ثم اندفع في أثر القوم يشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون ، وكان سلمة عداءً يسابق الخيل ، فجعل يرميهم ، ويعرقل تحركهم ، فإذا وجهت الخيل نحوه رجع هارباً ، فلا يلحق ، فإذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل ، فرمى عليهم الحجارة ، ورشقهم بالنبل ، حتى ألقوا الكثير مما بأيديهم من الرماح والسيوف والتمتع ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش ، ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق الجيش بقيادة رسول الله ﷺ ، فأدركوا أواخر العدو ، فحصلت بينهم مناوشات قتل من جرَّاءها مسلم ، ومشركان ، واستنقذ النبي ﷺ غالب اللِّقاح ، وفرَّ أوائل القوم بالبقية ، فطلب سلمة بن الأكوع رضي الله عنه من النبي ﷺ أن يرسله مع جماعة

في أثر القوم ليأخذهم على غرة ، وهم نازلون على أحد مياههم ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام قولته المشهورة: «ملكيت فأسجج» أي قدرت ، فأحسن . وهذا من كريم أخلاقه ، وحسن شمائله عليه الصلاة والسلام ، ثم رجع إلى المدينة بعد خمس ليالٍ .

انظر البخاري الحديث (٤١٩٤) ومسلم (١٨٠٦) .

هكذا كان النبي ﷺ بأصحابه سريع الحركة ، لا يكلفه جمعهم والخروجُ بهم إلا سُوَيْعَات ، فإذا به يركب ظهر عدوه ، ويعالجه باللسان ، والسنان ، حتى يصل منه إلى مبتغاه .

لقد تجمعت له بهذه المهارة ، والكفاءة الهيبةُ في نفوس القاصي والداني ، وخافه العدوُّ من مسيرة شهر ، فيا ليت المسلمين يتعلمون منه ، ويقتدون به ، إذا لأضحوا سادة .

٣٨- سرايا وحوادث في مسيرة دعوة النبي ﷺ :

كان رسول الله ﷺ بمهارته الفائقة شديد الحساسية لما يدور حوله ، ولما يمكن أن ينوبه وينوب دعوته وأصحابه ، فلذا كان يرصد دائماً تحركات أعدائه ، ويرسل بعيونه للوقوف على أخبارهم ، فإذا ما سمع هَيْعَةً طار إليها ، وإذا ما شعر بحركة مريبة انقض عليها ، وأخذ بتلابيب أصحابها ، يباغت من تهيأ له ، ويفاجيء ، من جمع له ، ليس ذلك حباً في القتل ، ولكن درءاً له ، وتقليلاً منه ، وتأميناً لنشر الدعوة ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بأقل الخسائر .

وبعد أن هُزمت الأحزاب ، وهلكت قريظة ، عظمت شوكة المسلمين ، وأصبحوا أسرع إلى الحركة ، وأقدر عليها ، فتتابعت السرايا ، وتلاحقت هزائم المتربصين من العرب والأعراب ، وقطع دابر التفكير لديهم بغزو المسلمين ، أو إلحاق الأذى بهم .

ولقد وقعت أحداث في مسيرة الدعوة ، وشرعت أحكام كان لها مكانتها في القيادة والسياسة ، وتنامي التشريع .

أولاً: السرايا:

والسَّرايا جمع: سَرِيَّة ، وهي قطعة من الجيش ما بين خمسة أنفس إلى ثلثمائة .

لكن اضطلع على أنها القطعة من الجيش التي لا يكون رسول الله ﷺ فيها .

أ- سَرِيَّة محمد بن مسلمة

وكانت لعشر ليال خلون من شهر محرم سنة ست من الهجرة ، أرسله ﷺ في ثلاثين راكباً إلى بني بكر بن كلاب ، وأمرهم أن يكمنوا النهار ، ويسيروا في الليل فلما التقوا القوم قاتلوهم ، وقتلوا منهم عشرة ، وهرب الباقون ، فاستاقوا النعم والشاء وعادوا راجعين إلى المدينة ، فخمس رسول الله ﷺ الغنيمة ، وأعطى السَرِيَّة أربعة أخماسها .

وأسرت هذه السرية في طريق عودتها ثمانية بن أثال الحنفي ، وهم لا يعرفونه ، حتى أتوا به رسول الله ﷺ ، فقال: «أتدرون من أخذتم؟» هذا ثمانية بن أثال الحنفي ، أحسنوا إسارة .

وكان لثمانية ماض موحش مع رسول الله ﷺ فقد كان رسول مسيلمة الكذاب إلى النبي ، وأراد اغتيال رسول الله ، لكن الله تعالى سلّم ، ومع ذلك كان رسول الله ﷺ يجمع ما عند أهله من طعام يرسل به إليه ، واستمع إلى ما كان من وراء هذه المعاملة الكريمة :

روى البخاري (٤٣٧٢) في المغازي ، ومسلم (١٧٦٤) في الجهاد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قَبْلَ نَجْدِ فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثُمَامَةُ بنُ أَثَالٍ ، سيدُ أهل اليمامة ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه رسول الله ﷺ ، فقال: «ماذا عندك يا ثُمَامَةُ؟» .

فقال: عندي يا محمد خيرٌ ، إِنَّ تَقْتُلُ تَقْتُلُ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ تُنْعِمُ تُنْعِمُ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تريد المال ، فَسَلْ تُعْطَ منه ما شِئْتَ .

فتركه رسول الله ﷺ حتى كان الغدُ ، فقال: «ما عندك يا ثُمَامَةُ؟» .

قال: ما قلت لك ، إِنَّ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا تَشَاءُ .

فتركه حتى كان بعد الغد ، فقال : «ما عندك يا ثُمَامَةُ؟» .

فقال : عندي ما قلت لك : إِنَّ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ الْمَالَ ، فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ ، فقال رسول الله ﷺ : «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» .

فانطلق إلى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَاعْتَسَلَ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، يَا مُحَمَّدُ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ .

وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ .

وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ .

وَإِنْ خِيلَكَ أَخَذْتَنِي ، وَأَنَا أُرِيدُ الْعِمْرَةَ ، فَمَاذَا تَرَى ؟

فبشّره رسول الله ﷺ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ .

فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ : صَبَّوْتُ . فَقَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْإِمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ .

هَذِهِ هِيَ الْبِرَاعَةُ النَّبَوِيَّةُ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ ، وَلَوْ كَانُوا مُشْرِكِينَ . وَهَذِهِ مَهَارَتُهُ فِي أَسْلُوبِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَأَيْضًا ، هَذِهِ مَهَارَةُ رَجُلٍ أَدْرَكَ الْحَقَّ ، وَشَعَرَ بِطَيْبِ الْمُعَامَلَةِ ، فَأَسْلَمَ ، وَتَكَلَّمَ بِمَا تَكَلَّمَ .

يَا لَيْتَنَا نَسْلُكُ هَذَا السَّبِيلَ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَنُظْهِرَ لَهُمْ

هذه السماحة في هذا الدين العظيم ، فلا يلبث الأعداء أن يكونوا أصدقاء ، وجنوداً أوفياء .

ب - سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر :

والغمر : ماء لبني أسد .

وكان بنو أسد كثيراً ما يؤذون من يمرُّ بهم من المسلمين ، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن في أربعين ركباً في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة ، فلما قارب بلادهم علموا به فهربوا ، وهناك وجدوا رجلاً نائماً ، فأمسكوا به ، وأمنوه إن هو دلَّهم على نعم القوم ، فدلهم عليها ، فاستاقوها ، ورجعوا إلى المدينة ، ولم يلقوا كيداً .

ج - سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة

وذو القصة : موضع قريب من المدينة ، بينه وبينها أربعة وعشرون ميلاً .

وفي أواخر ربيع الأول سنة ست من الهجرة بلغ رسول الله ﷺ أن قوماً بذى القصة يتأهبون للإغارة على نعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء - موضع قرب المدينة - فأرسل إليهم محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين ، فبلغ ديارهم ليلاً ، وقد كمن لهم المشركون حين علموا بقدومهم .

ونام المسلمون ، ولم يشعروا إلا والنبل قد خالطهم ، فوثب محمد بن مسلمة ، فصاح في أصحابه : «السلح» فوثبوا ، فتراموا ساعة من الليل ، ولكن تغلب عليهم الأعداء ، وكانوا مئة ، فقتلوه ، وجرح محمد بن مسلمة ، فتركوه لظنهم أنه في جملة القتلى ، فعاد إلى المدينة ، وأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل أبا عبيدة ليقتص من الأعداء ، فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين ، فاستاق أنعامهم ، ورجع إلى المدينة .

د - سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجُموم :

وكان بنو سليم من جملة الأحزاب في غزوة الخندق ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة مع نفر من الصحابة إليهم ، فلما وردوا الجُموم ، وجدوا القوم

قد تفرقوا ، فأصابوا امرأة من مُزَيَّنة يقال لها حليلة ، فدلّتهم على مَحَلَّة من مَحَالِّ بني سليم ، فأصابوا في تلك المَحَلَّة نعماً وشاءً وأسرى ، فكان فيهم زوج حليلة المرنية ، فرجعوا بذلك إلى المدينة ، فشكر رسول الله ﷺ لهذه المرأة صنيعها ، ومنَّ عليها وعلى زوجها ، وأطلق سراحهما .

وكانت هذه السرية في شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة .

هـ - سرية زيد بن حارثة إلى العيص

والعيص : موضع على أربع ليال من المدينة .

وسبب هذه السرية أن النبي ﷺ بلغه أن عيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة ، فأرسل لها زيد بن حارثة في مئة وسبعين راكباً ليعترضها .

قال ابن إسحاق : خرج أبو العاص بن الربيع تاجراً بمال له ، وأموال لرجال من قريش ، فلما فرغ من تجارته ، وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ ، فأصابوا كل ما معه .

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة ، ومالاً وأمانة ، وهو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : أقبل أبو العاص تحت جناح الليل حتى دخل على امرأته زينب ، فاستجار بها فأجارته .

فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح فكَبَّرَ وكَبَّرَ الناس صرخت زينب بأعلى صوتها من على بابها ، وقالت : أيها الناس ، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فلما سلم رسول الله ﷺ أقبل على الناس ، فقال : «أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت؟» .

قالوا : نعم .

قال : «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك ، حتى سمعت

ما سمعتم» ثم قال: «المؤمنون يدّ على من سواهم ، يُجِيرُ عليهم أَدْنَاهُمْ ، وقد أَجْرْنَا من أَجَارَتُهُ» .

ثم دخل رسول الله ﷺ إلى منزله ، فدخلت عليه زينب رضي الله عنها ، فسألته أن يردّ على أبي العاص ما أخذ منه ، فقبل وقال لها رسول الله ﷺ: «أَيُّ بُنْيَةٍ ، أكرمي مثواه ، ولا يخلصنَّ إليك ، فَإِنَّكَ لا تحلين له» .

وبعث رسول الله ﷺ إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم: «إن هذا الرجل مَنَّا حَيْثُ علمتم ، وقد أصبَّتم له مالاً ، فإن تُحسنوا وتردوا عليه الذي له ، فإننا نُحبُّ ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم ، فأنتم أحقُّ به» .

فقالوا: يا رسول الله ، بل نردّه عليه .

ثم رجع أبو العاص إلى مكة بكل ما كان معه من مال ، فأدّى إلى كل ذي حق حقه ، ثم قام فقال:

يا أهل مكة هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟

يا أهل مكة هل أوفيتُ ذمّتي؟

قالوا: اللهم نعم: جزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفياً كريماً .

قال: فإنني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا أنني خشيتُ أن تظنوا أنني إنما أردت أن أكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم ، وفرغتُ منها أسلمت .

ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فردّ عليه رسول الله ﷺ زينب على النكاح الأول .

في هذه السرية ، وما آلت إليه مواقف معبرة عن مهارات إيمانية ، وخلقية ، وسلوكية ، وعفة وكرم نفس ، فلقد جاد هؤلاء الجند بمالهم من المال عن طيب نفس ، وردوها إلى أعدائهم رغبة في تحقيق رغبة رسول الله ﷺ ، وهذا الرجل الطيب صهر رسول الله قام المقام الذي يقضي به الذوق ،

والشرف ، وتقتضيه الأمانة والعفة عن أموال الناس .

و - سرية زيد بن حارثة إلى الطَّرف :

والطَّرف : ماء لبني ثعلبة على ست وثلاثين ميلاً من المدينة في طريق العراق .

وفي جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلاً إلى بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة ، وهم مقيمون بالطَّرف ، فلما رآهم الأعداء ظنَّوهم طليعة لجيش رسول الله ﷺ فهربوا ، وتركوا أنعامهم ، فاستاقها المسلمون ، ورجعوا إلى المدينة سالمين ، بعد أربع ليال .

ز - سرية أبي بكر الصديق إلى بني فزارة :

روى الإمام أحمد ٤/٤٦ عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه ، قال : غزونا فزارة ، وعلينا أبو بكر ، أمره علينا رسول الله ﷺ ، فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعزَّسنا ، فلما صلينا الصبح أمرنا أبو بكر فشنَّ الغارة ، فقتلنا على الماء من قتلنا ، ثم نظرت إلى عُتَيٍّ من الناس فيه الدُّرَيْهَةُ والنساء نحو الجبل ، وأنا أعدوا في آثارهم ، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل ، فرميتُ بسهم فوق بينهم وبين الجبل . فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر ، حتى أتيت على الماء ، وفيهم امرأة من فزارة ، عليها قِشْعٌ من آدم ، ومعها ابنة لها من أحسن العرب ، فنقلني أبو بكر ابتها ، فما كشفت لها ثوباً حتى قدمتُ المدينة ، ثم بثُّ ، فلم أكشف لها ثوباً ، فلقيني رسول الله ﷺ في السُّوق ، فقال لي :

« يا سلمة ، هَبْ لي المرأة » .

فقلت : يا رسول الله ، والله لقد أعجبتني ، وما كشفت لها ثوباً ، فسكت رسول الله ﷺ ، وتركني حتى إذا كان من الغد لقيني رسول الله ﷺ في السوق ، فقال : « يا سلمة هب لي المرأة ، لله أبوك » .

قلت : يا رسول الله ، والله أعجبتني ، وما كشفت لها ثوباً ، وهي لك

يا رسول الله ، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ، وفي أيديهم أسارى من المسلمين ، ففداهم رسول الله ﷺ بتلك المرأة .

قال سلمة رضي الله تعالى عنه : كان شعارنا في هذه السرية : أَمِثْ ، أَمِثْ .

عرسنا : نزلنا آخر الليل للنوم ، والاستراحة .

عنق من الناس : طائفة منهم .

قشع : قطة .

أدم : جلد .

فنفَّلني : أعطاني .

في الأمة الواعية ، والدولة الراقية ، يعمل الناس قيادة ، وشعباً في غاية السرعة ، وعلى كل الأصعدة ، لتأمين القدر اللازم والكافي للاستمرار والاستقرار ، ودرء الأخطار ، وهذا ما كان يهدف إليه رسول الله ﷺ من وراء تحركاته ، وإرسال سراياه .

ح - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دُومة الجندل :

دومة الجندل حُصون وقرى من طرف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة .

وكانت هذه السرية في شعبان سنة ست من الهجرة الشريعة :

قال الإمام الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٩٣/٦ : روى ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر ، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ دعا عبد الرحمن بن عوف ، فقال له : «تجهَّزْ ، فإنني باعُثُكَ في سريةٍ من يومك هذا ، أو من الغد إن شاء الله تعالى» .

قال عبد الله بن عمر : فسمعت ذلك ، فقلت : لأَدْخُلَنَّ ، فلأُصَلِّينَّ مع رسول الله ﷺ الغداة ، ولأُسمعنَّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف .

قال عبد الله كنت عاشر عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجده ، إذ

أقبل فتى من الأنصار ، فسلم على رسول الله ﷺ ، ثم جلس ، فقال :
يا رسول الله ، أي المؤمنين أفضل ؟
فقال : « أحسنهم خلقاً » .

قال : فأأي المؤمنين أكيس ؟

قال : « أكثرهم ذكراً للموت ، وأحسنهم استعداداً له قبل أن ينزل بهم ،
أولئك الأكياس » .

ثم سكت الفتى ، وأقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : « يا معشر المهاجرين ،
خمس خصال إذا نزلن بكم ، وأعوذ بالله أن تدركوهن :

- إنه لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون
والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا .

- ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤمنة وجور
السلطان .

- ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ، ولولا
البهائم لم يسقوا .

- وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب عليهم عدو من غيرهم ، فأخذ
بعض ما كان في أيديهم .

وما حكم قوم بغير كتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم .

هذه براعة فكرية ، ومهارة تحمل دُرر التوجيه والتحذير من عواقب السوء ،
وغوائل الشرور ، وإننا لنرى وبال هذه النذر جاسماً في حياتنا ، ومنتشراً في
ربوع أمتنا ، فالعدو يسرح ويمرح في بلاد المسلمين ، وقد وضع يده على جل
خيراتهم ، وبأس المسلمين فيما بينهم لم يعد خافياً .

وهذه الوصية أجمل ما تكون بين يدي من يعدون أنفسهم للجهاد ،
ويطمعون بالنصر ، وحياسة الغنائم .

قال عبد الله بن عمر : إن رسول الله ﷺ أمر عبد الرحمن بن عوف أن يسير

من الليل إلى دُومة الجَنْدَل ، وكان رجاله معسكرين بالجُرف - موضع على ثلاثة أميال من المدينة - وكانوا سبعمائة .

فقال عبد الرحمن بن عوف : أحبُّ يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك ، وعليَّ ثيابُ سفري .

فأقعده رسول الله ﷺ بين يديه ، ثم نفَضَ عمامته بيده ، ثم عَمَّمَه بعمامة سوداء ، فأرْخَى بين كتفيه منها أربع أصابع ، أو نحو ذلك ، ثم قال : « هكذا ، يا ابن عوف فاعتمِّ ، فإنه أحسن ، وأعرف .

هكذا تشابك العواطف النبيلة بين القيادة ، والعساكر فعبد الرحمن أحبَّ أن يلقي رسول الله آخر ما يلقيه بزيه العسكري ، زيَّ السفر .

ورسول الله ، يتناول عمامته ، ويلقُّها على رأسه ، ويقول له هكذا فاعتمِّ . هذه الحركات ، والكلمات لها مالها من الدلالات ، والانفعالات والآثار في النفوس ، وبين الصفوف .

قال ابن عمر : ثم أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يدفع اللواء إلى عبد الرحمن بن عوف ، فدفعه إليه .

فحمد رسول الله ﷺ ربَّه ، وصَلَّى على نفسه ، ثم قال : « خذه يا ابن عوف ، اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغلُّوا ، ولا تغدروا ، ولا تُنكثوا ، ولا تُمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، فهذا عهد الله ، وسنة نبيه فيكم » .

هذا هو دستور الحرب ، وهذا قانونه ومنهاجه في سيرة المصطفى ، وغزواته ، وسرايا أصحابه .

ليس غرضهم السلب والنهب ، والحكم والتحكم ، وإنما غرضهم إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ووضعهم على سبيل السعادة الدنيوية والآخروية .

ثم إن عبد الرحمن أخذ بيده اللواء ، وبالأخرى قانون الجهاد ومنهاجه ،

ومشى حتى لحق بأصحابه ، فسار بهم حتى قدم دومة الجندل ، فلما حل بها دعاهم إلى الإسلام ، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام .

لقد دعاهم إلى الإسلام ، وشرح لهم مبادئه ، وأهدافه ، وهؤلاء قوم في أطراف الجزيرة ، ولعل الكثير منهم لم يعلم حقائق هذا الدين ، فكان من فقه عبد الرحمن ، وحذقه ، أن أمهلهم يوماً ويومين ، وثلاثة حتى يستنير لهم الأمر ، ويتضح الحال ، ثم هم يعلنون عن رغبتهم بحرية .

وهذا يختلف عن حال كثير من القبائل العربية التي كانت قريبة من المدينة ، فإنهم على علم بالإسلام بعد تلك السنوات الطويلة ، إنما كان يمنعهم من الاستجابة ، ويحملهم على العدوان عنادهم ، وكراحتهم للدين وأهله ، لذلك كنّا نرى أحياناً أن النبي ﷺ وأصحابه يباغتونهم ، وهم غارّون في ديارهم .

لقد أبى أهل دومة الجندل الإسلام أول ما قدم عليهم عبد الرحمن ، ورفضوا أن يُعطوه إلا السيف ، لكنهم لما كان اليوم الثالث أسلم الأصمغ بن عمرو الكلبي ، وكان نصرانياً ، وكان رئيسهم ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقام من أقام منهم على إعطاء الجزية .

فكتب عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك ، وأنه أراد أن يتزوج فيهم ، فكتب إليه رسول الله ﷺ : أن يتزوج بنت الأصمغ «تُماضِر» فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها ، ثم أقبل بها ، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أحد الأئمة الكبار من التابعين .

وهذه من رسول الله ﷺ سياسة حاذقة ، ومهارة فائقة حيث أراد بهذا الزواج عقد صلات الودّ والمحبة بين الأمراء ، والقادة ، وفتح باب من التعاون بين الفاتحين ، وغيرهم .

ط - سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك :

وفي شعبان سنة ست من الهجرة أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في مئة إلى بني سعد بن بكر بفدك وهي قرية بينها وبين المدينة ست ليالٍ من جهة خيبر .

وسبب ذلك أنه بلغ النبي ﷺ أن بني سعد بن بكر يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين ، مُقابل تمر يُعطونه من تمر خيبر ، فسار علي بسرّيته إليهم ، وكان يكمن النهار ، ويسير بالليل ، حتى وصل إلى ماء بين خيبر وفدك ، فوجدوا عيناً لبني سعد بن بكر أرسلوه إلى خيبر يعرض على يهودها نصرهم ، فطلبوا منه أن يدلهم على القوم ، وهو آمنٌ ، فدلهم على موضعهم ، فاستاق منه المسلمون نَعَم القوم ، وهرب الرُّعاةُ ، فحذَّروا قومهم ، فدخلهم الرعب ، فهربوا جميعاً ، وتفرَّقوا ، فرجعت السريّة سالمة ، وبأيديهم من غنائم القوم الكثير ، بفضل هذه الحركة السريعة الواعية .
وردَّ الله كيد المشركين ، فلم يمدُّوا اليهود بشيء .



ثانياً- الحوادث التي حدثت ، وبعض الأحكام التي شرعت

في إِبَّان هذه المرحلة من مراحل حياة رسول الله ﷺ ، وهو يكافح ، ويجاهد ، ويقود ، ويغزو ، ويسوس ، ويعلم بمهارة وحذق ، وروية ، ونشاط ، وقعت وقائع ، وحدثت حوادث ، وشرعت شرائع كان لها مكانها البارز ، ورحابها الواسع بين أحداث مهاراته الإنسانية عليه الصلاة والسلام ، نذكر منها:

أ- زواجه ﷺ زينب بنت جحش

وزينب هذه هي بنت عمة النبي ﷺ : أميمة بنت عبد المطلب .

زوجها النبي ﷺ من مولاه زيد بن حارثة ، لكن الحياة لم تطب بينهما ، وكانت ترى لنفسها منزلة عليه ، فطلقها زيد بن حارثة ، وكان يُدعى إذ ذاك زيد بن محمد ، لأن النبي ﷺ كان قد تبَّناه ، يوم كان التبني جائزاً .

فزوجها ربُّ العزة نبيه محمداً ﷺ ليرفع بذلك من مكانتها ، ويعوضها ما يمكن أن يكون قد دخل عليها من الشعور بالنقص بزواجها من مولى هو دونها نسباً وعشيرة .

لكن النبي ﷺ استحيا أن يعلن هذا النكاح ، لمكان العرف السائد عند الناس من حرمة زوجة المتبنى ، وخشي لغط اللاغطين .

فأعلن القرآن هذا النكاح ، وأحلَّ زوجة المتبنى ، وأبطل ذلك العرف الجاهلي .

قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ

أَنْ تَحْشَهُ فَلَمَّا فَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجَتْهَا لَيْكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿[الأحزاب : ٣٧]﴾ .

ووقع ما كان يخشاه النبي ﷺ من لغط اللاغطين فقال المنافقون وأمثالهم : إن محمداً يحرم نكاح نساء الأولاد ، وقد تزوج امرأة ابنه زيد .

فأعلن القرآن صراحة أن زيدا ليس ابن محمد حقيقة ، فلا يصح أن يُنسب إليه ، وإنما يجب أن ينسب إلى أبيه حارثة ، وما دام ليس ابناً له ، فلا حرج من زواجه بامراته بعد طلاقها ، وانقضاء عدتها .

قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وقال : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [٤١] أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿[الأحزاب : ٤ - ٥]﴾ .

ولهذا الزواج العلوي الكريم كانت زينب رضي الله عنها تفخر به على باقي نسائه ﷺ وتقول :

زَوَّجَنِي اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَأَوْلَمَ عَلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِخَبْرٍ وَلَحْمٍ .

وكانت رضي الله عنها قديمة الإسلام ، ومن المهاجرات . وكانت ذات صنعة تعمل بيدها ، وتتصدق في سبيل الله .

قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب ، وأتقى الله ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم ، وأعظم أمانة وصدقة .

وكان رسول الله ﷺ يعرف لها هذا ، ويقول : « إِنَّ زَيْنَبَ لَأَوَْاهَةٌ » .

فقال رجل : يا رسول الله ، ما الأوَاهة؟

قال : «المتخشع المتضرع» .

وكان زواج النبي ﷺ من زينب سنة خمس من الهجرة الشريفة ، وقد توفيت بعد النبي ﷺ ، وكانت أول نسائه لحوقاً به ، وكان ذلك سنة (٢٠ هـ) .

انظر «أسد الغابة» .

ب - احتجاب أزواج النبي ﷺ:

رسول الله ﷺ رسول الأمة ، وقائدها ، وقادوتها ، فلا بد - والحالة هذه - من لفّ بيوتة بهالة من الشرف الزائد ، والترفع المتميز ، والملاحظة الدقيقة ، ولذا كان مقبولا ومعقولا ، أن ينزل في حقهن نوع من الشدة عند لقاء الناس ، وخطابهم ، ليكن أبعد ما يكن عن قيل وقال ، ونظير من المشبوهين من الرجال .

وهذا هو المعني بقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

وأهل البيت هنا هم أزواج النبي ﷺ .

وقد أدرك عمر بن الخطاب بمهارته ، وحكمته ضرورة أخذ أزواج النبي ﷺ أنفسهن بهذه الشدة ، وبعدهن عن لقاء الرجال الأجانب إلا من وراء حجاب .

فكان يقول : لو أطاع فيكن ما رأتن عین .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

وهنا يتنطع بعضهم فيقول : أنتهى أن نكلّم بنات عمنا إلا من وراء حجاب؟ لئن مات محمد لأتزوجن عائشة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : أزواجه اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ، ومن استحل ذلك كان كافرا ، وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه ، وتنبهاً على علو مرتبته .

أما المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ فلم يؤمرن بمثل هذا الحجاب ، ولم يفرض عليهن إذا كلمن الناس أن يكلموهن من وراء حجاب ، وإنما أمرن بغض الأبصار ، وحفظ الفروج ، وعدم إبداء الزينة للأجانب ، وأمرن بأن يضربن

بخمرهن على جيوبهن ، كيلا تبقى صدورهن مكشوفة كما كان شائعاً في أيام الجاهلية ، وأن أن يدنين عليهن من جلابيبهن ، التي تستر أجسامهن ، لئلا يطمع باغوايهن طامع ، وليعرفن بالجد والتصون ، والبعد عن مواطن الريب والشبهات ، فينصرف عنهن اللاهثون وراء اللاهثات .

وقد قال الله عز وجل للنبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ج - فرض الحج :

وفي السنة السادسة من هجرة المصطفى ﷺ فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ليجتمع المسلمون عند بيت الله العتيق على تعظيم الله ، وتجديد العزم على طاعته ، واتباع هديه ، وتوحيد قلوبهم ، وحرص صفوفهم ضمن دائرة شريعتهم وأسوار دينهم .

وقد أعلن النبي العظيم ﷺ هذه الفريضة ، وخاطب الناس بها ، فقال :

«يا أيها الناس ، قد فرض عليكم الحج فحجُّوا» . رواه مسلم (١٣٣٧) .

ورغب ﷺ بهذه العبادة ، فقال : «من حجَّ هذا البيت ، فلم يرفث ، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّهُ» . رواه البخاري (١٨٢٠) في الحج ، ومسلم (١٣٥٠) في الحج .

وقال : «ليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة ، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمسُ بذنوبه» رواه الترمذي (٨١٠) في الحج ، والنسائي (٢٦٢١) في الحج ، وابن حبان (٣٦٩٣) .

د - قتل أبي رافع اليهودي :

واسم هذا الخبيث: عبد الله بن أبي الحقيق ، وكان من أشد الناس شراً على المسلمين ، وكان له مهارة فائقة في قلب القلوب ضد المسلمين والتحريض على حربهم ، وكان ذا ثروة طائلة يقلب بها أفئدة اليهود كما يريد ،

وكان يلقب بتاجر أهل الحجاز ، ويُعدُّ سيد يهود خيبر والمحرك لهم . وكان يؤذي رسول الله ، ويعين عليه . شأنه شأن كعب بن الأشرف الشاعر اليهودي سيد بني النضير ، الذي كان يقيم في حصن له قرب المدينة ، وكان يبالغ في هجو النبي ﷺ ، وأصحابه ، والتحريض عليهم والتشبيب بنساء المسلمين ، فأمر النبي ﷺ بقتله ، فانطلق إليه خمسة من الأوس فقتلوه في ظاهر حصنه .

ولما انفردت الأوس بقتل عدو الله كعب بن الأشرف تآقت أنفس الخزرج إلى قتل عدو آخر للنبي ﷺ والمسلمين . فاستأذنوه بقتل صنو كعب ، هو عبد الله بن أبي الحقيق وهو أبو رافع ، فأذن لهم .

قال الزهري رحمه الله تعالى : كان مما صنع الله لرسوله أن الأوس والخزرج كانا يتصاولان تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئاً إلا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا ، وكذلك الأوس .

فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف ، تذاكرت الخزرج من رجل له من العداوة لرسول الله ﷺ كما كان لكعب ، فذكروا ابن أبي الحقيق ، وهو بخيبر . فانتدب له خمسة من الخزرج يرأسهم عبد الله بن عتيك حتى أتوا خيبر ، فقال عبد الله لأصحابه : مكانكم ، فإني منطلق إلى حصن ابن أبي الحقيق ، ومتلطف مع البواب له ، لعلني أقدر أن أدخل عليه حصنه ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنّع بثوب كأنه يقضي حاجته ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : ادخل يا عبد الله إن كنت تريد الدخول ، فإني أريد أن أغلق الباب ، فدخل ، وكمّن حتى نام البواب ، فأخذ المفاتيح ، وفتح ليسهل له الهرب ، ثم توجه إلى بيت أبي رافع ، وصار يفتح الأبواب التي توصل إليه ، وكلما فتح باباً أغلقه من الداخل ، حتى انتهى إليه ، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، فلم يمكنه تمييزه ، فنادى : يا أبا رافع .

قال : من ؟

فأهوى بالسيف نحو الصوت ، فلم يغن شيئاً .
وعند ذلك قالت امرأته : هذا صوت ابن أبي عتيك .

فقال لها : ثكلتك أمك ، وأين ابن أبي عتيك الآن؟

فعاد عبد الله للنداء مغيراً صوته قائلاً : ما هذا الصوت الذي أسمعه ،
يا أبا رافع؟

قال : لأمك الويل ، إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف .
فعمد إليه فضربه أخرى لم تغن شيئاً .

فتوارى ، ثم جاءه كالمغيث ، وغير صوته ، فوجده مستلقياً على ظهره ،
فوضع السيف في بطنه ، وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم ، ثم خرج من
البيت ، وكان نظره ضعيفاً ، فوقع من فوق السلم ، فانكسرت رجله ، فعصبها
بعمامته ، ثم انطلق إلى أصحابه ، وقال : النجاة ، قُتِلَ والله أبو رافع ، فأنتهوا
إلى رسول الله ﷺ فحدّثوه ، فقال لعبد الله : «ابسط رجلك» .

فمسح عليها ، فكأنه لم يشتكها قط ، وعادت أحسن ما كانت .

وفي رواية : أنهم جاؤوا رسول الله ﷺ ، وهو على المنبر ، فقال لما رآهم :
«أفلحت الوجوه» .

فقالوا : أفلح وجهك يا رسول الله ، فأخبروه بقتل عدو الله .

قال حسان بن ثابت يُذَكِّرُ بقتل كعب ، وابن أبي الحقيق :

يا ابنَ الحَقِيقِ وأنتَ يا ابنَ الأَشْرَفِ	للهِ دَرٌّ عِصَابَةٌ لا قِتْئَهُم
مرحاً كأَسَدٍ في عَرِينٍ مُغْرِفِ	يَسْرُونَ بالبِيضِ الخِفَافِ إِلَيْكُمْ
فسقوكم حَتْفاً ببيضِ دُفِّ	حتّى أتوكم في محلٍّ ببلادكم
مستصغرين لكلِّ أمرٍ مُجْحَفِ	مستبصرين لنُصْرِ دينِ نبيهم

يسرون : يسرون ليلاً

البيض الخفاف : السيوف

مرحاً : نشطاء

عرين : بيت الأسد ، وأصله : جماعة الشجر .

مُعَرَف: الشجر الملتف الأغصان.

ذَفَف: سريعة القتل.

مُجْحَف: مُضَرَّ مؤذٍ.

قال ابن حجر في «الفتح» ٧/ ٤٠٠ بعد أن ذكر حديث قتل أبي رافع: في

الحديث:

١ - جواز قتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله ، أو لسانه .

٢ - جواز التجسس على أهل الحرب وتطلب غرتهم .

٣ - جواز إبهام القول للمصلحة ، وجواز تعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين .

هـ - قصّة عُكَل ، وعُريّنة

عُكَل: قبيلة عربية من تيم الرباب يتصل نسبها إلى عدنان وعُريّنة: قبيلة أخرى ، وهي حيٌّ من بجيلة ، وتتصل بنسبها إلى قحطان .

وفي شهر شوال سنة ست من الهجرة الشريفة قدم إلى المدينة رهط من عُكَل وعُريّنة .

قال أنس: كانوا أربعة من عُريّنة ، وثلاثة من عُكَل فأظهروا إسلامهم ، وبايعوا رسول الله ﷺ ، وكانوا سقاماً ، مصفرةً ألوانهم ، عظيمة بطونهم ، فلم يوافقهم مناخ المدينة ، فشكوا أمرهم إلى النبي ﷺ ، وقالوا يا نبي الله ، إنا كُنّا أهل ضَرْع ، ولم نكن أهل ريف ، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة ، وكانت ترعى خارج المدينة ، وقال: «اخرجوا فاشربوا من ألبانها وأبوالها» ففعلوا ، فلما صَحُّوا ، وتمَّ شفاؤهم ، وسمنت أبدانهم ، جازوا الإحسان كفراً ، فقتلوا الراعي ، ومثّلوا به ، واستاقوا الإبل ، وانطلقوا بها .

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ أرسل وراءهم على وجه السرعة كُرْز بن جابر الفهري في عشرين فارساً ، فلحقوهم ، وقبضوا عليهم جميعاً ، فلما ارتفع النهار جيء بهم أسرى إلى النبي ﷺ .

فماذا عساه أن يفعل بهم ، وقد أعلنوا بفعلهم هذا حربهم للإسلام ،
وقطعوا ولاءهم ، ثم قتلوا ، وسرقوا ، وهربوا ، مرتدين عن الدين .

ونجاتهم بما أخذوا ، وسلامتهم من مغبة ما فعلوا ، تفتح بلا شك من
جديد باباً لدخول المغامرين لتجريب حظهم في النيل من الإسلام وأهله .

لهذا حكم فيهم رسول الله ﷺ بحكم كافٍ شافٍ يشفي قلوب المؤمنين ،
ويكفي لردع الحاقدين .

فأمر ﷺ بقطع أيديهم ، وأرجلهم ، وفُقِّ عيونهم ، وإلقائهم بالحرّة حتى
ماتوا عطشاً وجوعاً .

لقد فعل بهم كما فعلوا براعي رسول الله ﷺ ومثّل بهم كما مثّلوا به ، فأقام
فيهم شريعة القصاص ، وطبّق عليهم أشدّ العقاب .

لكنه ﷺ بعد هذا الموقف الشديد الزاجر ، كان ينهى عن المثلة ويقتصر
على القتل .

وانظر قصة هؤلاء المجرمين في صحيح البخاري (٤١٩٢) في المغازي .
و- صلح الحُدَيْبِيَّة :

الحُدَيْبِيَّة : قرية قريبة من مكة ، أكثرها في الحرم ، سميت باسم بئر كانت
هناك ، وبينها وبين مكة مرحلة واحدة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل .
وأضيف الصلح إليها لأنه وقع عندها .

وبعض المحدثين ، وعلماء السير أطلقوا على هذه الحادثة اسم : غزوة
الحديبية .

ونحن لم نستعمل هذا الاسم لأن النبي ﷺ لم يخرج غازياً وإن كان قد
استنفر طوائف من الأعراب تحسباً أن يصدّه أهل مكة عن المسجد الحرام -
وإنما خرج معتمراً ، وساق معه الهدى برهاناً على ذلك .

وكان هذا الصلح في شهر ذي القعدة ، أواخر السنة السادسة من الهجرة
الشريفة .

وكان للنبي ﷺ في هذه القصة قيادة رائعة ، ومهارات إنسانية متميزة .

كما كان لأصحابه الكرام مواقف مآنية عارمة ، والتزامات راسخة ، وسلوكات بطولية ، وسيتضح ذلك من دراستنا لهذا الموضوع من جوانبه المتعددة .

١ - سبب خروجه ﷺ :

قال العلماء : أرى رسول الله ﷺ أنه دخل مكة ، هو وأصحابه آمنين محلّقين رؤوسهم ومُقصرّين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفاتحه ، وعرف مع المعرفين . أي الواقفين بعرفة ، ورؤياه عليه الصلاة والسلام حق .

فأعلن في المسلمين أنه يريد العمرة ، فاستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، ليكون نائباً عنه في الصلاة ونحوها مدّة غيابه كعادته في كل سفر .

٢ - خروج رسول الله ﷺ

ثم دخل بيته فاغتسل ، ولبس ثوبين من نسج صُحار ، وركب ناقته القصواء من عند بابه ، وخرج بزوجه أم سلمة معه ، وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق بهم من العرب ، لا يحملون من السلاح إلا السيوف في القُرْب ، وساق الهدى ، فسار يوم الاثنين لَهلال ذي القعدة ، حتى نزل ذا الحليفة ، فصلّى الظهر ، ثم دعا بالبُذْن ، فجلّلها ، وأشعرها ، وهي موجّهات إلى القبلة ، وأشعر المسلمون بدنهم وقلّدوها .

ثم ركب ناقته من باب المسجد بذي الحليفة ، فلما انبعثت به راحلته مستقبلة القبلة أحرم بالعمرة ، ليأمن الناس حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له .

لقد قدّم كل هذه الترتيبات بين يدي مسيره ، ليصبغ سلوكه بهالة من النظام ، والانضباط والاتقان ، فيبعث في صدور كل من شاهده ، أو سار معه جلال الموقف ، وهيبة التحرك .

لقد كان جميع من خرج معه في السفر نحواً من ألف وأربعمائة ، فسار بهم ملئياً: لييك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

٣- وصول خبر خروجه إلى المشركين

ولما بلغ المشركين خبرُ خروج رسول الله ﷺ راعهم ذلك ، فاجتمعوا وتشاوروا ، وقالوا:

أيريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمراً ، فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عَنوة ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله ، لا كان هذا أبداً ، ومنا عَيْنُ تطرف .

ثم استنفروا من أطاعهم من الأحابيش ، واستحثَّتْ ثقيفُ معهم النَّاسَ ، وخرجوا حتى وصلوا إلى بَلَدَح - وادٍ في طريق التنعيم إلى مكة - وعسكروا هناك ، وأجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ، ومحاربته .

موقف من التصميم فيه كل مظاهر التحدي والغطرسة .

٤ - إرسال رسول الله عيناً ليأتيه بخبر القوم :

ورسول الله ﷺ بدوره أرسل من يأتيه بخبر القوم ، فبعث عيناً له ، هو بشر بن سفيان الخزاعي ليأتيه بخبر أهل مكة ، فيعدُّ للأمر عدته .

وسار ﷺ بمن معه حتى وصل إلى غدير الأشواط على طريق مكة ، فأتاه العين الذي كان قد أرسله ، فقال له :

إن قريشاً جمعت لك جموعاً ، وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت ، وما نعوك منه .

فقال ﷺ : «أشيروا عليَّ أيُّها الناس» .

فقال له أبو بكر رضي الله عنه :

يا رسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتل أحدٍ ، ولا حربته ، فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه .

قال رسول الله ﷺ: «امضوا على اسم الله».

قال البخاري (٢٧٣١): حتى إذا كان ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين».

فو الله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش - غباره - فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية - طريق في الجبل تشرف على الحديبية - التي يُهبط عليهم منها - بركت - راحلته.

فقال الناس: حَلْ ، حَلْ - يزجرونها - فَأَلَحَّتْ - لم تتحرك - فقالوا: خلأتِ القصواء ، حرنت ، فقال النبي ﷺ: «ما خلأتِ الْقَصَوَاءَ ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خُطَةً يُعَظَّمُونَ فيها حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا».

ثم زجرها ، فوثبت.

أنت خير أيها القاريء أن النبي ﷺ رصد في نفسه - بمنتهى المهارة - كل خطوط الملاينة ، وحشد في نفسه كل ألوان المسالمة والمسايرة ، ليخرج من هذا بانطباع لدى القاضي والداني يدلُّ على مدى رحمته ، وكراهيته لإراقة الدماء ورغبته بالتوصل إلى مُبتغاه بأساليب السلم والمسالمة ، إذا كان ذلك ممكناً.

لكنه إذا ركب العدو رأسه ، وأبى إلا السنان والحسام ، فرسول الله ﷺ أقدر على ذلك منه ، وأمضى عزيمة ، وأشدُّ بأساً.

قال البخاري: فعدل رسول الله ﷺ عنهم ، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثَمَدٍ - حُفْرة - قليل الماء ، يَتَرَبُّضُهُ النَّاسُ تَرَبُّضاً - أي يأخذونه قليلاً قليلاً - فلم يُلبِثُهُ النَّاسُ حتى نزحوه ، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطشُ ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فو الله ما زال يجيشُ لهم بالرَّيِّ حتى صدروا عنه.

قال المسور رضي الله عنه : وإنهم ليغترفون بآبائهم جلوساً على شفير البئر .
إن الله عز وجل لم يبخل عليهم - وهم أهل وُدّه ، وصفوة خلقه - أن يمدّهم بالكرامات ، أو يظهر لهم تكريماً لنبيه المعجزات . ليملاً قلوبهم بالأمل الدافق ، والثقة الرافعة .

٥ - بدء المفاوضات :

قال البخاري رحمه الله تعالى : فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخِزَاعِي ، فِي نَفَرٍ مِنْ خُزَاعَةَ ، فَقَالَ : إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍ ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍ - يَرِيدُ قَرِيشاً - نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ - أَيِ الْمَاءِ الَّذِي لَا يَنْقُطِعُ - وَمَعَهُمُ الْعُوْذُ الْمَطَافِيلُ - أَيِ النَّوْقِ ذَاتِ اللَّبَنِ - وَهُمْ مَقَاتِلُوكُ ، وَصَادُوكُ عَنِ الْبَيْتِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّا لَمْ نَجِءْ إِلَى قِتَالِ أَحَدٍ ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ ، وَإِنْ قُرَيْشاً قَدْ أَنْهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ ، وَأَضْرَتْ بِهِمْ ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادْتَهُمْ مُدَّةً ، وَيُخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَإِنْ أَظْهَرَ ، فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا ، وَإِلَّا فَقَدْ جِئُوا - اسْتَرَا حُوا - وَإِنْ هُمْ أَبَوْا ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا قَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي - يَنْفَصِلُ عُنُقِي - وَلِيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ » .

موقف فيه كلُّ التحدي المسالم ، والنصح الذكي ، والإرجاف الخارق الذي من شأنه أن يُصيب العدوَّ في المقتل مهما بلغت كبرياؤه .

قال البخاري : فَقَالَ بُدَيْلٌ : سَأَبْلُغُهُمْ مَا تَقُولُ .

فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قَرِيشاً ، قَالَ : إِنَّا جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ ، وَاسْمَعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا ، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا .

فَقَالَ سُفْهَاءُهُمْ : لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرُونَا عَنْهُ بِشَيْءٍ .

وَقَالَ ذُووُ الرِّأْيِ مِنْهُمْ : هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ .

قَالَ : سَمِعْتَهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ .

فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ : أَيُّ قَوْمٍ ، أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟

قالوا: بلى.

قال: أولست بالولد؟

قالوا: بلى.

قال: فهل تتهموني؟

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أنني استنفرْتُ أهل عكاظ ، فلما بلَّحُوا عليّ - امتنعوا -
جئْتُكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟

قالوا: بلى.

قال: فإن هذا قد عرض عليكم خُطَّة رُشدٍ ، اقبلوها ، ودعوني آته.

قالوا: آته.

فأتاه ، فجعل يكلمُ النبي ﷺ.

فقال النبي ﷺ نَحُوا من قوله لِبُدَيْلٍ.

فقال عروة عند ذاك: أي محمد ، أرايت إن استأصلت أمر قومك ، هل
سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟

وإن تكنِ الأخرى - أي الهزيمة - فإني والله لا أرى وجوهاً ، وإني لأرى
أشواباً - أخلاطاً - من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك.

كلام أوله حلو ، وآخره مرٌّ ، أوله حكمة ، وآخره جهل.

وهكذا حال من لم يسدده الرشد ، ويسعفه التوفيق ، وتنقصه الخبرة.

فقال له أبو بكر رضي الله عنه امصص بظُر - فرج - اللات ، أنحن نفرُّ عنه
وندعه.

فقال عروة: من ذا؟

قالوا: أبو بكر.

قال: أما والذي نفسي بيده ، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك .

كلامٌ عربيّ ، يعرف كيف يصوغ معانيه بنفائس من الألفاظ .

قال البخاري: وجعل عروة يكلم النبي ﷺ ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته .

والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ، ومعه السيفُ ، وعليه المغفرُ ، فكلما أهوى عروةً بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعلِ السيف ، وقال له :

آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ .

فرفع المغيرة رأسه ، فقال: من هذا؟

قال: المغيرةُ بنُ شُعبة .

فقال: أي غدرُ ، ألسْتُ أسعى في غدرتك؟

وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية ، فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم .

فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبلُ ، وأما المال فلست منه في شيء» .

وهذا براعة من النبي ومهارة ، فإنه وإن قبل منه الإسلام فإنه لم يقبل منه أن يأخذ أموال الكفار في حال الأمن غدرًا ، لأنهم إنما صحبوه على الأمانة ، والأمانة تُؤدى إلى أهلها ، مسلماً كان أو كافراً .

قال البخاري: ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه ، قال :

فوالله ، ما تنخَّم رسول الله ﷺ نُخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له .

إنه نظرُ فاحصٍ ، ووصفُ فصيحٍ ، تيقن عروة من ورائه صدق أبي بكر حين قال له : امصص بظر اللات ، أنحن نَفَرُ عنه ، وندعه .

لقد علم تماماً أن قوماً يحبون قائدهم مثل هذا الحب لا يمكن أن يفروا عنه ، ويدعوه .

عندها رجع عروة إلى أصحابه ، فقال : أي قوم ، والله لقد وفدتُ على الملوك ، ووفدت على قيصر ، وكسرى ، والنجاشي ، والله إن - أي ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمدًا .

صدق عروة ، فأين هؤلاء الملوك من محمد ﷺ ، سيرهم ملوثة ، وصلاتهم بالناس مشبوهة ، وأصحابهم حولهم يرضونهم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم في وُدِّهم كاذبون .

أما أصحاب محمد فهم حقاً قلباً وقالباً يحبهم ويحبونه ، لذلك جمع الله تعالى بينه وبينهم في الثناء حين قال : ﴿ تَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ثم قال عروة لقريش : إنه قد عرض عليكم محمد خُطَّة رُشِدٍ فاقبلوها .
مرَّةً أخرى ينصحهم ، ويحكي لهم قناعته التي لم يستطع أن يحجبها عن نفسه ، وغيره .

قال البخاري : فقال رجل من بني كنانة : دعوني آتية .

قالوا : آتته .

فلما أشرف على النبي ﷺ ، وأصحابه ، قال رسول الله ﷺ : « هذا فلانٌ ، وهو من قومٍ يُعَظِّمونَ البُدنَ ، فابعثوها له » .

فبعثت له ، واستقبله الناس يلثون ، فلما رأى ذلك قال :

سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت ، ثم رجع إلى قريش

فقال لهم: يا معشر قريش ، ما على هذا عاقدناكم ، أئصدُّ عن البيت من جاء معظماً له؟

قالوا: كُفَّ عَنَّا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى .

٦ - إرسال عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش:

ثم إن رسول الله ﷺ اختار عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأرسله إلى قريش ليخبرهم أن النبي ﷺ لم يأت لقتال ، وإنما جاء معتمراً ، وأمره ﷺ أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة ، فيبشرهم بقرب الفتح ، وأن الله عز وجل مظهر دينه .

فدخل عثمان مكة بجوار أبان بن سعيد الأموي ، فبلغ أهل مكة ما أمره رسول الله ﷺ ببلاغه .

فقالوا: إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً .

ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت ، فقال: لا أطوف ، ورسول الله ﷺ ممنوع . وفي غيبة عثمان قال ناس من أصحاب النبي ﷺ: خَلَصَ عثمان من بيننا إلى البيت ، فطاف به .

فقال رسول الله ﷺ: « ما أَظُنُّهُ طاف بالبيت ، ونحن محصورون » .

قالوا: وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص إليه؟

قال: « ذلك ظَنِّي به ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف » .

فلما رجع عثمان قال المسلمون له: اشتفيت من البيت ، يا أبا عبد الله . فقال عثمان:

بئس ما ظننتم بي ، فوالذي نفسي بيده لو مكثت مقيماً بها سنة ، ما طفت حتى يطوف رسول الله ﷺ ، ولقد دعيتي قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت .

قالوا: كان رسول الله ﷺ أعلمنا وأحسننا ظناً ، هذا موقف الجند ، وهذا رأي القيادة فيهم ، إنه الولاء الصارم ، والعلم بالمواقع ، فما كان لعثمان أن

يتقدم على قائده في الوصول إلى البيت الذي خرج رسول الله إلى الطواف به ، وهذا ذكاء منه وبراعة .

٧ - بيعة الرضوان :

ثم إن قريشاً ، بعد أن بلغهم عثمان أمر النبي حبسوه عندهم ، وأخروا عوده إلى النبي ﷺ . فشاع عند المسلمين ، أن عثمان قد قتل ، فقال رسول الله ﷺ حينما سمع ذلك : « لا نبرح حتى نناجزهم الحرب » .

فدعا الناس للبيعة ، فكان يأخذ بيد أصحابه الواحد منهم بعد الآخر يبايعونه على القتال ، وعلى أن لا يفروا ، ثم قال رسول الله : « اللهم إن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك » فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

وكانت هذه البيعة تحت شجرة هناك .

وسميت هذه البيعة ببيعة الرضوان لقول الله عز وجل فيها : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] .

لقد كانت براءة الصحابة بالتزامهم ، ومهارتهم بإيمانهم المفتاح لتنزل السكينة عليهم ، والظفر بالرضى الكريم من ربهم عز وجل ، فرضوان الله عز وجل لا يؤزع جُزأفاً على العباد ، بل له أسبابه التي لا بدَّ منها ، وفي طليعتها الإيمان والعمل الصالح ، والجهاد في سبيله سبحانه وتعالى .

لكنه بعد هذه البيعة تبين أن عثمان لم يقتل ، وعاد سالماً .

٨ - الصلح وشروطه :

ولما سمعت قريش بالبيعة على القتال ، وترك الفرار خافوا وأجمعوا على الصلح والموادعة ، وقالوا السهيل بن عمرو : ائت محمداً ، فصالحه ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « سهّل أمركم » .

تفاعل باسمه ، وكان من عادته أنه يُحبُّ التفاؤل ، ويكره التشاؤم . ثم

جلس متربعاً ، ثم جاء سهيل وجلس على ركبتيه ، فكلّم رسول الله ﷺ ، فأطال الكلام ، وارتفعت الأصوات وانخفضت فقال عباد بن بشر لسهيل : اخفض من صوتك عند رسول الله ، ثم جرى بين رسول الله ﷺ وبين سهيل بن عمرو القول حتى تم الاتفاق على الصلح .

فدعا النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب وقال له : «بسم الله الرحمن الرحيم» . فقال سهيل : أما الرحمن ، فو الله ، ما أدري ما هي ، ولكن اكتب : باسمك اللهم .

فقال المسلمون : والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ : «اكتب باسمك اللهم» .

ثم قال : «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» .

فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدّدناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله .

فقال رسول الله ﷺ : «والله إني لرسول الله ، وإن كذبتُموني ، اكتب : محمد بن عبد الله» .

ثم تمّ الصلح على ما يلي :

أ - أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم بعضاً .

ب - أن يرجع الرسول والمسلمون عامهم هذا ، فإذا كان العام المقبل ، قدموا ، وخلّوا بينهم وبين مكة ، فأقاموا فيها ثلاثاً ، لا يحملون من السلاح إلا السيوف في القُرب .

ج - أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ، وإن كان على دين محمد ردّه إلى وليه ، وأنه من أتى قريشاً ممن اتبع محمداً لم يردوه عليه .

د - وأن بينهم وبين محمد عيّبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ، ولا إغلال ، أي أن الأمر مطوي في صدور سليمة ، قائم على ترك المؤاخذه بما تقدم بينهم من

أسباب الحرب ، والمحافظة على العهد الذي وقع بينهم ، مع ترك الخيانات ،
والسرقات ونحوهما .

هـ- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن
يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل .

فلما فرغ من الصلح والكتابة أشهد على الكتاب رجال من المسلمين ،
ورجال من المشركين .

فلما تم هذا الصلح توثبت خزاعة ، فقالوا : نحن في عقد محمد ، وعهده .
وتوثبت بنو بكر ، فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

٩- رعاية رسول الله ﷺ لشروط الصلح :

بعد التفاوض على شروط الصلح ، وقبل كتابته ، حصل ما يشبه الامتحان
لرعايته ، والمحافظة عليه .

قال البخاري (٢٧٣١) في الشروط : فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن
سهيل بن عمرو يزسّف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه
بين أظهر المسلمين .

فقال سهيل : هذا ، يا محمد أوّل ما أقاضيك عليه أن تردّه إليّ .

فقال النبي ﷺ : «إنا لم نقض الكتاب بعد» .

قال سهيل : فو الله إذا لم أصالحك على شيء أبداً .

قال النبي ﷺ : «فأجزه لي» .

قال : ما أنا بمجيزه لك .

قال : «بلى ، فافعل» .

قال : ما أنا بفاعل .

قال أبو جندل : أي معشر المسلمين ، أردّ إلى المشركين وقد جئت
مسلماً ، ألا ترون ما قد لاقيت .

وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عز وجل .

لكن رسول الله ﷺ رَدَّه إلى أبيه ، فحمى موقفه من النقض ، وأثبت بمهارته رعايته لمبادئه وعهوده ، وأنه النبي الذي جاء بالخلق ، وصدق الوفاء بالعهود ، مهما كان الظاهر قاسياً ، فإن الحق أحق أن يتبع .

وبعد رجوعه إلى المدينة جاءه أيضاً أبو بصير بن أسيد الثقفي مسلماً مهاجراً ، فأرسل أهله رجلين في طلبه ، فقالا : يا محمد ، العهد الذي جعلت لنا فيه ، فدفعه إليهما ، فخرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة ، فنزلا ياكلان من ثمر لهما ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين ، والله إني لأرى سيفك ، يا فلان هذا جيداً ، فأرنه انظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه به حتى برد ، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة ، فأخبر النبي ﷺ .

وجاء أبو بصير ، فقال : يا رسول الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم .

فقال النبي ﷺ : «وَيْلُ أُمَّه ، مِسْعَرُ حَرْبٍ لو كان له أحد» .

فلما سمع ذلك عرف أنه سيردُّه إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، فلحق به أبو جندل ، فصار لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، لا يسمعون بعير خرجت لقريش إلا اعترضوها ، فقتلوا من فيها ، وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم ، لما أرسل إليهم : فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل رسول الله ﷺ إليهم . رواه الإمام أحمد (٣٣١ / ٤) .

وصدق رسول الله حين قال : «من جاء منهم فرددناه إليهم ، فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً» .

فها قد جاء الفرج ، وسعى المشركون أنفسهم يسألون رسول الله ﷺ أغفال ذلك الشرط ، وعدم التقيد به .

١٠ - موقف الصحابة من الصلح وشروطه :

لم يتقبل جلُّ الصحابة في أول الأمر هذا الصلح ، ورأوا في جل شروطه إجحافاً بحقهم ، وتعدياً عليهم ، ويمثل هذا الموقف بكل أبعاده ، ويعبر عن الصحابة فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين جاء إلى النبي ﷺ ، وقال : فقلت : ألسنتَ نبيَّ الله حقّاً؟

قال «بلى» .

قلت : ألسنا على الحق ، وعدُّونا على الباطل؟

قال : «بلى» .

قلت : فلم نعطي الدّنية في ديننا إذا؟

قال : «إني رسول الله ، ولستُ أعصيه ، وهو ناصري» .

قلت : أوليس كُنْتَ تحدّثنا أنا سنأتي البيت ، فنطوف به؟

قال : «بلى ، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟

قلت : لا .

قال : «فإنك آتیه ومُطَوِّفٌ به» .

قال : فأتيتُ أبا بكر ، فقلت : يا أبا بكر ، أليس هذا نبيّ الله حقّاً؟

قال : بلى .

قلت : ألسنا على الحق ، وعدُّونا على الباطل؟

قال : بلى .

قلت : فلم نُعْطِ الدّنيّة في ديننا إذا؟

قال : أيُّها الرجلُ ، إنه لرسول الله ﷺ ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسكُ بغرزه إنه على الحقّ .

قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟

قلت: لا .

قال: فإنه آتية ومُطَوَّفٌ به . رواه البخاري (٢٧٣١) في الشروط .

سبحان الله ، كيف التقى جواب أبي بكر بجواب رسول الله ، ليس بينهما فرق ، في التعبير والتفكير ، والنظر في العواقب .

فليس بعد النبي ﷺ أفضل من أبي بكر رضي الله عنه وليس عيباً في عمر وغيره أن تُقَصِّر مواهبهم ومهاراتهم عن مواهب النبي ﷺ ومهاراته في إدراك عواقب هذا الصلح وشروطه ، فهو رسول الله المؤيد بالوحي ، وهو في القمة رأياً وفكراً وحكمة ومهارة .

١١ - التحلل من العمرة

قال الإمام البخاري: فلما فرغ من قضية الكتاب ، قال رسول الله ﷺ: «قوموا فانحروا ، ثم احلقوا» .

فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات .

فلما لم يقيم منهم أحد دخل على أم سلمة رضي الله عنها ، فذكر لها ما لقي من الناس .

فقالت أم سلمة: يا نبي الله ، أتحب ذلك؟

اخرج ، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُذْنَكَ ، وتدعو حالقك ، فيحلقك .

فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُذْنَهُ ، ودعا حالقه فحلقه .

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً .

رأي حكيم من امرأة عاقلة حلّ معضلة ، وفكَّ عُقْدَ مُشْكَلة ، لم يأنف نبي

الامة أن يأخذ برأي امرأة تبين صواب قولها ، فهو القائل :
«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها ، فهو أحقُّ بها» رواه
الترمذي (٢٦٨٧) في العلم .

١٢ - كان صلح الحديبية فتحاً :

روى البيهقي عن عروة قال : قفل رسول الله ﷺ راجعاً ، فقال رجل من
أصحاب رسول الله ﷺ : ما هذا بفتح ، لقد صُددنا عن البيت ، وصُدَّ هَدْيُنَا ،
ورَدَّ رسولُ الله ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه ، فبلغ ذلك رسول الله
ﷺ ، فقال : «بئس الكلام ، بل هو أعظم الفتح ، قد رضي المشركون أن
يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم في الأمان ،
ولقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله تعالى عليهم ، وردَّكم سالمين
مأجورين ، فهو أعظم الفتح .

أنسيتم يوم أحد : إذ تُصعدون ولا تُلَوون على أحدٍ ، وأنا أدعوكم في
أخراكم ؟

أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت
الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجر وتظنون بالله الظنونا» .

فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، فهو أعظم الفتح والله يا نبيَّ الله ،
ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله ، وبالأمر منا . «سبل الهدى
والرشاد» ٥٨/٥ .

وقال أبو بكر رضي الله عنه : ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح
الحديبية ، ولكن الناس قَصُرَ رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجلون
والله لا يعجل لعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وتصديقاً لهذا ، وتأكيذاً له أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ وهو في
طريقه إلى المدينة سورة الفتح . روى البخاري (٤٨٣٣) في التفسير عن زيد بن
أسلم عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره ، وعمر بن

الخطاب يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شيء فلم يُجبه رسول الله ﷺ ، ثم سأله فلم يُجبه ، ثم سأله فلم يُجبه ، فقال عمر بن الخطاب :

ثَكَلْتُ أُمَّ عُمَر ، نَزَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ - أَلَحَّحْتَ عَلَيْهِ - كُلَّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ .

قال عمر : فحركت بعيري ، ثم تقدمتُ أمام الناس ، وخشيتُ أن ينزل في القرآن ، فما نَشِبْتُ أن سمعتُ صارخاً يصرخ بي ، فجئت رسول الله ﷺ ، فسلمت عليه ، فقال : «لقد أنزلت عليَّ اللَّيْلَةَ سورة لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مما طلعت عليه الشَّمْسُ» ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ .

١٣ - استثناء النساء من شرط الردِّ إلى المشركين :

ولما رجع ﷺ إلى المدينة جاءه نسوة مؤمنات مهاجرات بينهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، أخت عثمان لأمه ، فطلبها المشركون ، فقالت : يا رسول الله ، إني امرأة ، وإن رجعت إليهم فتنوني ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

لقد تَوَجَّهَتْ هذه القضية بكل هذه النتائج العظيمة ، وحققت كل الأهداف الرائعة ، حتى حُقَّ لها أن تسمى : (فتحاً مبيناً) وكان على النبي ﷺ وأصحابه أن ينتظروا العام القادم حتى يعاودوا الكرَّة ، ويرجعوا ليؤدوا العمرة محلقيين رؤوسهم ومقصرين ، آمنين مطمئنين ، لا يضايقهم عدوٌّ ، ولا يخافون أحداً ، مطمئنين إلى قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

قال البلاذري رحمه الله تعالى : قال العلماء : والمصلحة المترتبة على هذا الصلح هي ما ظهر من ثمراته الباهرة ، وفوائده الظاهرة التي كانت عاقبتها فتح مكة وإسلام أهلها كلهم ، ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون ، ولا يتظاهرون عندهم أمر رسول الله ﷺ كما هو ، ولا يَحِلُّونَ بمن يُعلمهم بها مُفَصَّلَةً ، فلما حصل صلح الحديبية ،

اختلطوا بالمسلمين ، وجاؤوا إلى المدينة ، وذهب المسلمون إلى مكة ، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحوهم ، وسمعوا منهم أقوال النبي ﷺ مفصلة بجزئياتها ، ومعجزاته الظاهرة ، وأعلام نبوته المتظاهرة وحسن سيرته ، وجميل طريقته ، وعاینوا بأنفسهم كثيراً من ذلك .

فمالت نفوسهم إلى الإيمان ، حتى بدر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة ، فأسلموا وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام . فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما كان تمهد لهم من الميل ، وكانت العرب في البوادي ينتظرون بأسلامهم إسلام قريش ، فلما أسلمت قريش أسلمت العرب في البوادي . «سبل الهدى والرشاد» ٨٠/٥ .

٣٩- مكاتبة الملوك :

بعد رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية أواخر سنة ست من الهجرة ، وقد أمن قريشاً ، وخلا الطريق من الأخطار ، راح ﷺ يكتب الملوك والأمراء ، يشرح لهم حقيقة الإسلام ، ويدعوهم إليه بمتهى الرحمة والبراعة ، والغيرة والرغبة أن يخلصهم الله تعالى من كوابيس النزوات ، وسلطان الزعامات ، ويشرح صدورهم لنور الحق ، وطريق الإسلام .

عن أنس رضي الله عنه قال : إن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى ، وإلى قيصر ، وإلى النجاشي ، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى . رواه مسلم (١٧٧٤) في الجهاد .

وروى البخاري (٢٩٣٨) في الجهاد عن أنس رضي الله تعالى عنه : لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم ، قيل له : إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً .

فاتخذ خاتماً من فضة ، فكأنني أنظر إلى بياضه في يده ، ونقش فيه : «محمد رسول الله» .

وروى الطبراني عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، فقال: «إنَّ الله بعثني للنَّاسِ كافَّةً ، فأدُّوا عني ، ولا تختلفوا عليَّ» .

قال ابن سعد في «الطبقات»: أرسل رسول الله ﷺ ستة نفر في يوم واحد ، وكان كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بُعث إليهم ، ومن هؤلاء: أ- عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي:

قال ابن سعد في «الطبقات» ٢٥٨/١: كان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ، وكتب إليه كتابين يدعوه في

أحدهما: إلى الإسلام ، ويتلو عليه القرآن ، فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينه ، ونزل من سريره ، فجلس على الأرض تواضعاً ، ثم أسلم ، وشهد شهادة الحق ، وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته .

وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وتصديقه على يدي جعفر بن أبي طالب .

وفي الكتاب الآخر: يأمره أن يزوجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي ، فتنصر هناك ومات .

وأمره رسول الله ﷺ في الكتاب: أن يبعث إليه بمن قبله من أصحابه ، ويحملهم ، ففعل .

فزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأصدق عنه أربعمئة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين وما يُصلحهم ، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري .

ودعا بحق من عاج فجعل فيه كتابي رسول الله ﷺ ، وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها .

نص كتابه إلى النجاشي:

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة: سلام على من اتبع الهدى ، فإنني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو

الملك القُدُوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ،
وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه
ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ،
والموالة على طاعته ، وأن تتبعني ، وتوقن بالذي جاءني ، فإني رسول الله
وإني أدعوك وجندك إلى الله عز وجل ، وقد بلغتُ ونصحتُ ، فاقبلوا
نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى .

ب - دَحِيَّة بن خليفة الكلبي إلى قيصر :

روى البخاري (٢٩٤٠ - ٢٩٤١) في الجهاد ، ومسلم (١٧٧٣) في الجهاد
عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، وبعث بكتابه إليه مع
دَحِيَّة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ، ليدفعه إلى قيصر .

وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً
لما أبلاه الله .

فلما جاء قيصر كتابُ رسول الله ﷺ ، قال حين قرأه : التمسوا لي ها هنا
أحداً من قومه لأسأله عن رسول الله ﷺ .

قال ابن عباس ، فأخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام في رجال من
قريش ، قدموا تُجَاراً في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش .

قال أبو سفيان : فوجدنا رسولَ قيصر ببعض الشام ، فانطلق بي ،
وبأصحابي حتى قدمنا إيلاء ، فأدخلنا عليه ، فإذا هو جالس في مجلس ملكه ،
وعليه التاج ، وإذا حوله عظماء الروم فقال لترجمانه :

سَلِّمُ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَسَباً إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ؟

قال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم إليه نسباً .

قال : ما قرابة ما بينك وبينه؟

فقلت : هو ابن عم .

وليس في الركب يومئذٍ أحد من بني عبد مناف غيري .

فقال قيصر : أدنوه .

وأمر بأصحابي ، فجعلوا خلف ظهري عند كتفي . ثم قال لترجمانه :

قل لأصحابه : إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبي ، فإن كذب فكذبوه .

قال أبو سفيان : والله لولا الحياء يومئذٍ من أن يأتُر أصحابي عني الكذب لكذبتُه حين سألتني عنه ، ولكنني استحييتُ أن يأتروا الكذب عني ، فصدقته .

ثم قال لترجمانه : قل له : كيف نسبُ هذا الرجل فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسبٍ .

قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟

قلت : لا .

فقال : كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من مَلِكٍ ؟

قلت : لا .

قال : فأشراف الناس يتَّبِعُوهُ أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : فيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يَرْتَدُّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا .

قال : فهل يَغْدِرُ ؟

قلت: لا ، ونحن الآن منه في مدّة ، نحن نخاف أن يَغْدِر .
قال أبو سفيان: ولم يمكنني كلمة أُدْخِل فيها شيئاً أنْتَقِصه به لا أخاف أن
تُؤْثِر عني غيرها .

قال: فهل قاتلتموه ، أوقاتلكم؟

قلت: نعم .

قال: فكيف كانت حربيه وحربكم؟

قلت: دُولاً وَسِجَالاً: يُدَال علينا المِرّة ، ونُدَال عليه الأخرى .

قال: فماذا يأمركم به؟

قلت: يأمرنا أن نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكَ به شيئاً ، وينهانا عمّا كان يعبدُ
آبَاؤنا ، ويأمرنا بالصَّلَاة ، والصَّدقة ، والعفاف ، والوفاء بالعَهْد ، وأداء
الأمانة .

فقال لترجمانه حين قلت ذلك له قل له :

إني سألتك عن نسبه فيكم ، فرعمت أنه ذو نسبٍ ، وكذلك الرسل تُبْعَث
في نسب قومها .

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فرعمت أن لا .

فقلتُ: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله . قلت: رجل يأتُم بقولٍ قد
قيل قبله .

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فرعمت أن لا ،
فعرفت أنه لم يكن ليدعَ الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وسألتك: هل كان من آبائه ملك؟ فرعمت: أن لا .

فقلت: لو كان من آبائه ملك ، قلت: يطلب ملك آبائه .

وسألتك أشرافُ النَّاسِ يَتَّبِعونه أم ضعفاؤهم؟ فرعمت أن ضعفاءهم اتَّبَعوه
وهم أتباع الرسل .

وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون ، فرعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتمّ.

وسألتك: هل يرتدُّ أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فرعمت أن لا ، فكذلك الإيمان حين تَخْلُطُ بشاشتهُ القلوب ، لا يَسْخَطُهُ أحد.

وسألتك: هل يَغْدِرُ؟ فرعمت أن لا ، وكذلك الرسل لا يَغْدِرُونَ.

وسألتك: هل قاتلتموه وقتلكم؟ فرعمت أن قد فعل وأن حربكم وحربه تكون دُولاً ، ويُدال عليكم المَرَّةُ ، وتُدالون عليه الأخرى ، وكذلك الرسل تُبْتَلَى ، وتكون لها العاقبة.

وسألتك: بماذا يأمركم؟ فرعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عمّا كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، قال: وهذه صفة نبي قد كُنْتُ أعلم أنه خارج ، ولكن لم أعلم أنه منكم.

وإن يك ما قُلْتَ حقّاً ، فيوشك أن يملك موضع قَدَمَيَّ هاتين ، ولو أرجو أن أحلّص إليه لتجشّمتُ لقاءه ، ولو كنتُ عنده لغسَلْتُ قدميه.

قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ ، فقرأء فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتَّبَعَ الهدى ، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِمَ تَسْلَمَ ، وأسلِمَ يؤتكَ الله أجرك مرّتين ، فإن تولَّيتَ ، فعليك أثم الأريسيين. أي أتباعك.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَمَآٰؤُا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآٰمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمۡ ٱلَّا نَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَآبَآ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء

الروم وكثر لغطهم ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا .

فلما أن خرجت مع أصحابي ، وخلوت بهم قلت لهم : لقد أمر - عظم - أمر ابن أبي كبشه ، هذا ملك بني الأصغر يخافه .

قال أبو سفيان : والله ما زلت ذليلاً مُستيقناً بأن أمره سيظهر ، حتى أدخل الله قلبي الإسلام ، وأنا كاره .

وروى ابن سعد في «الطبقات» ٢٥٩/١ ، أن هرقل قال لعظماء الروم حين قرأ كتاب النبي ﷺ .

يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرُّشد ، وأن يثبت لكم ملككم ، وتتبعون ما قال عيسى بن مريم ؟

قالت الروم : ما ذاك أيها الملك ؟

قال : تتبعون هذا النبي العربي .

قال : فحاصوا حَيضة حُمُرِ الْوَحْشِ ، وتناحزوا - تناخسوا - ورفعوا الصليب .

فلما رأى هرقل ذلك منهم يش من إسلامهم ، وخافهم على نفسه وملكه ، فسكنهم ، ثم قال :

إنما قلت لكم ما قلت أختبركم ، لأنظر كيف صلابتكم في دينكم ، فقد رأيت منكم ما أحب ، فسجدوا له .

إن حوار الملك مع أبي سفيان إنما هو حوار الملوك ، وحديث المهرة الكبار ، لقد سبرغور الدعوة ، وعرف تاريخ الداعي ، وانكشفت الحجب ورأى الحق أبلج ، ولكن بقيت العقبة الكأداء : حبُّ الملك والجاه ، والحرص على المال والمتاع ، فوقف أمام هذه العقبة ، وضعف عن التضحية بما كان له ، فأثر البقاء على العماية ، وأطبق عينيه عن نور الهداية .

قال الإمام النووي : ولا عذر له في هذا ، لأنه قد عرف صدق النبي ﷺ وإنما شحَّ بالملك ، فطلب الرياسة ، وأثرها على الإسلام ، ولو أراد الله هدايته

لوقفه كما وفق النجاشي ، وما زالت عنه الرياسة .

وقال الحافظ بن حجر : لو تفتن هرقل لقوله ﷺ في الكتاب إليه : «أُسْلِمَ تَسْلَمَ» .

وحمل الجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة لأسلم ، وسلم من كل ما يخافه ، ولكن التوفيق بيد الله عز وجل «السيرة الحلبية» ٢٨٦/٣ .

ج - عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى :

روى البخاري (٤٤٢٤) في المغازي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه ، فأمره ، أن يدفعه إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوى نائب كسرى على البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ : «أَنْ يُمَزَّقُوا كُلُّ مُمَزَّقٍ» .

قال الإمام الشامي : قال محمد بن عمر الأسلمي : وكان مكتوباً فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى سكرى عظيم فارس ، سلام على من أتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله ، فإنني أنا رسول الله أرسلت إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، وإن توليت فإنما عليك إثم المجوس .

فلما قرأ الكتاب مزقه ، وكتب إلى عامله باليمن باذان : أن ابعث من عندك رجلين جَلْدَيْنِ إلى هذا الرجل الذي بالحجاز فليأتاني بخبره .

فبعث باذان رجلين جلدَيْنِ ، وكتب معهما كتاباً إلى النبي ﷺ ، فقدمَا المدينة ، فدفعَا كتاب باذان إلى النبي ﷺ ، فبسم رسول الله ﷺ ، ودعاهما إلى الإسلام ، وفرائضهما تُرْعَد ، وقال :

«ارجعَا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد ، فأخبركما بما أريد» .

فجاءاه من الغد ، فقال لهما :

«أبلغنا صاحبكما أنّ ربّي قتل ربّه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها».

قال ابن سعد: وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ مضيّن من جُمادى الأولى سنة سبع ، وأن الله عز وجل سلط عليه ابنه شيرويه فقتله . «الطبقات» ٢٥٩ / ١ .

فرجعاً إلى باذان بذلك ، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن ، وقيل: إن الخبر وصل إلى باذان ، وهو مريض ، فاجتمعت إليه أساورته ، فقالوا: من تؤمّر علينا ، فقال: اتبعوا هذا الرجل ، وأخلصوا في دينه ، وأسلموا .

وكان باذان أسلم في حياة رسول الله ﷺ .

ولما مات باذان ، ولّى رسول الله ﷺ ابنه شَهْرَوَيْه بن باذان صنعاء وأعمالها . «سبل الهدى والرشاد» ٣٦٢ / ١١ .

د- حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس:

وبعث ﷺ حاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس ، صاحب الإسكندرية ، عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً كان فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلّم تسلم يؤتكَ اللهُ أجرك مرتين ، وإن توليت ، فإنما عليك إثم القبط ، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

فأوصله له حاطب بالإسكندرية ، فلما قرأه قال: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه ، وأخرجه من بلده؟

فقال حاطب: ألسنت تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله ، فماله حيث أخذه قومه ، فأرادوا أن يقتلوه ، ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله ، حتى رفعه الله تعالى إليه .

قال: أحسنت ، أنت حكيم ، جاء من عند حكيم .

ثم قال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزُهود فيه ، ولا ينهى عن مَرُغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة - أي علاماتها - إخراج الغائب المستور ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر .

كلام رائع ، ووصف دقيق ، ونظر فاحص يخرج من ذكي عاقل ، لا حظ
شارات النبوة ، وعلامات الأمانة في شخصية النبي ﷺ ، وأساليب دعوته ،
ودقة اختياره لسفرائه ورسله إلى الناس ، ثم كتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ،
سلام عليك ، أما بعد :

فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن
نبياً قد بقي ، وكنت أظنه يخرج بالشام ، وقد أكرمتُ رسولك ، وبعثت لك
بجارتين لهما مكان عظيم في القبط ، وقد أهديت لك كسوة ، وبغلة تركبها ،
قال في «الطبقات» ١/ ٢٦٠ : ولم يزد على هذا ، ولم يُسلم .

وقبل رسول الله ﷺ هديته ، وأخذ الجاريتين: مارية أم إبراهيم بن
رسول الله ﷺ ، وأختها سيرين ، أعطاهما لحسان بن ثابت .

وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها ، وهي دُلْدُل . قال حاطب :
كان لي مكرماً في الضيافة ، وقلة اللبث ببابه ، ما أقمت عنده إلا خمسة أيام .

هـ- رسل آخرون :

وأرسل ﷺ عدا الأربعة الذين ذكرناهم - إلى أكثر من ثلاثين آخرين ما بين
ملك ، وأمير وقبيلة ، وصاحب جاه ، نذكر منهم على سبيل المثال :

١ - الحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء أرسل إليه شجاع بن وهب
الأسدي .

٢ - هُوْذَة بن علي الجنفي باليمامة ، أرسل إليه سَلِيط بن عمرو .

- ٣ - جيفر وعبد الله ابنا الجُلَنْدَى ملكا عُمان أرسل إليهما عمرو بن العاص .
- ٤ - المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، أرسل إليه العلاء بن الحضرمي .
- ٥ - الحارث بن عبد كُلال الحميري باليمن ، أرسل إليه المهاجر بن أمية المخزومي .

٦ - وكتب لأسقف بني الحارث بن كعب ، وأساقفة نجران وكهنتهم ، ومن تبعهم ورهبانهم: أُنَّ لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير ، من بيعهم ، وصلواتهم ، ورهبانيتهم ، وجوارُ الله ورسوله ، لا يغيَّر أسْقُفٌ عن أسقفيته ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهنته ، ولا يغير حقّ من حقوقهم ، ولا سلطانهم ، ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم ، غير مثقلين بظلم ، ولا ظالمين .

وكتب إلى أهل اليمن كتاباً يخبرهم فيه بشرائع الإسلام وفرائض الصدقة في المواشي والأموال ، ويوصيهم بأصحابه ورسله خيراً ، وكان رسوله إليهم معاذ بن جبل ، ومالك بن مرارة . «انظر الطبقات الكبرى» ١ / ٢٥٨ .

هذا وليس غرضنا أن نأتي على ذكر جميع من أرسلهم ، ومن أرسل إليهم ، ونصوص كتبه التي تحمل الدعوة ، وأصول الإسلام إلى العباد ، فقد ذكرنا قبل أنه كتب إلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى . رواه مسلم (١٧٧٤) في الجهاد .

وإنما غرضنا أن نبين أنه ﷺ ، التزم أمر ربه حين قال له .

﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] .

فأدى الأمانة حق الأداء ، وبلغ الرسالة أفضل البلاغ ، وجاهد في الله بكل ما يملك من وسائل الحذق والمهارة ، والحكمة ، وصدق الله عز وجل حيث قال فيه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي : ببخيل [التكوير: ٢٤] .

٤٠ - غزوة خيبر :

خيبر : مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع تقع على بعد مئة ميل شمال المدينة جهة الشام ، وأهلها من اليهود ، وهي آخر أوكارهم .

وقد سار النبي ﷺ إليها في أواخر المحرم سنة سبع من الهجرة داعياً أهلها إلى الإسلام ، وراغباً أن يضع حداً لتفكير أولئك القوم بإثارة أحدٍ ضد المسلمين ، أو تعاونهم معه ، وكان ﷺ يعلم موضع خطاه تماماً وهو يسير إليهم .

وكان معه ﷺ في هذه الغزوة من أصحابه الأشاوس ألف وأربعمائة ما بين فارس وراجل ، وصحبه من نسائه أم سلمة رضي الله عنها ، ومن المناسبات اللطيفة في هذا المسير ، ما رواه البخاري (٤١٩٦) في المغازي (ومسلم (١٨٠٢) في الجهاد عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر ، فسرنا ليلاً ، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع رضي الله عنه ، يا عامر ، ألا تُسمعنا من هُنَيْهَاتِكَ (أراجيزك) وكان عامر رجلاً شاعراً ، فنزل يَحْدُو بالقوم يقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا
وَأَلْقَيْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنْ لَا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا
وبالصياح عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟» .

قالوا: عامر بن الأكوع .

قال: «يَرْحُمُهُ اللَّهُ» .

قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله ، لولا أمتعتنا به .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ: «ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِباً ، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعاً قَرِيباً وهو معكم» . رواه البخاري (٤٢٠٥) في المغازي .

ولما أشرف النبي ﷺ على خيبر قال لأصحابه: «قفوا» ثم قال: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ ،

وما أَضَلَّلَنَ ، وربَّ الرِّيحِ وما أَذْرَيْنَ ، فإنَّا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها ، أقدموا بسم الله» .
«سبل الهدى والرشاد» ١١٨/٥ .

أحداث وأقوال ، ومواقف ، حدثت في الطريق إلى معاقل القوم كلها تدل على ما كان يتمتع به النبي ﷺ وأصحابه من مهارات إيمانية ، وقناعات توكلية ، وشارات إنسانية .

قال الإمام الشامي : روى الشافعي ، وابن إسحاق والشيخان من طرق عن أنس رضي الله عنه قال : سار رسول الله ﷺ إلى خيبر ، فانتهى إليها ليلاً ، وكان رسول الله ﷺ إذا طرق قوماً ليلاً لم يُغَرَّ عليهم حتى يُصبح فإذا سمع أذاناً أمسك ، وإذا لم يسمع أذاناً أغار عليهم ، فصلينا الصبح عند خيبر بغلَسٍ ، فلم نسمع أذاناً ، فلما أصبح ركب رسول الله ﷺ ، وركب معه المسلمون ، وأنا رديف أبي طلحة ، فأجرى - أسرع - نبي الله ﷺ ، فانحسر عن فخذ رسول الله ﷺ ، فإني لأرى بياض فخذ رسول الله ، وإن قدمي لتمس قدم رسول الله ﷺ .
وخرج أهل القرية إلى مزارعهم بمكاتلهم ، ومساحيهم ، فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا : محمد والله ، محمد والخميس ، أي الجيش .

فقال رسول الله ﷺ - ورفع يديه - «الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» . وهذا الحديث يدل على أن أهل خيبر لم يكونوا على علم بسير رسول الله ﷺ إليهم ، بل كانوا لا يظنون أن رسول الله ﷺ سيغزوهم لمنعتهم وسلاحهم وحصونهم ، وكثرة عددهم ، ولكن خاب ظنهم ، وطاش سهمهم لما رأوا أن عين الحق ليست نائمة عن مكرهم ، ولا هي غافلة عن خبثهم ، فإذا رسول الله ﷺ يغشاهم وإذا مهارته وشجاعته تدور حول بيوتهم .

قال ابن سعد في «الطبقات» ١٠٦/٢ : صفَّ رسول الله ﷺ أصحابه ، ووعظهم ، وفرَّق بينهم الرايات ، ولم يكن الرايات إلا يوم خيبر ، إنما كانت الألوية ، فكانت راية النبي ﷺ السوداء من بُرْدٍ لعائشة تُدعى العُقَاب ، ولواؤه

أبيض ، دفعه إلى علي بن أبي طالب ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سعد بن عباد ، وكان شعارهم :
«يا منصور أمت» .

ومعنى شعارهم : العلامة التي كانوا يتعارفون بها في الحرب ، وهي :
«يا منصور أمت» .

والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الأمر بالإماتة .

ثم ابتدأت المعارك بين رسول الله ﷺ وأهل خيبر ، وأبلى المسلمون بلاء حسناً ، وتقدم رسول الله ﷺ صفوفهم يقاتل ، وهو يومئذ على فرس يقال له : (الضَّرب) وعليه درعان ، وبیضة ، ومغفر ، وبدأت حصون اليهود تتهاوى وجنودهم تتقهقر ، وأخذ المسلمون يقتحمونها حصناً حصناً ، حتى صار اليهود إلى حصنين منيعين ، هما الوطيح ، والسَّلام ، فتحصَّنوا فيهما ، فحاصرهما النبي ﷺ بضع عشرة ليلة ، كان يشن الغارة عليهما خلالها ، حتى إذا أيقن من فيهما بالهلاك سألوا النبي ﷺ أن يخرجهم ويُجليهم ، ويحقن دماءهم ، ويتركوا له الأموال ، فوافقهم رسول الله ﷺ على ذلك ثم إنهم سألوا رسول الله ﷺ أن تبقى خيبر تحت أيديهم يعملون فيها ، ويرزعوها ، لأنهم أعرف بأراضيهم ، وأمر لها ، ولهم شَطْرُ ما يخرج منها ، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك ، وقال لهم :

«على أنا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم» .

روى البخاري (٤٢٤٨) في المغازي عن ابن عمر قال : أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ، ولهم شَطْرُ ما يخرج منها . ووزع رسول الله ﷺ غنائم خيبر ، فأعطى للراجل سهماً ، وأعطى للفارس سهمين ، وقيل ثلاثة أسهم .

وحصل بهذا الفتح المبين السعة على المسلمين في الأرزاق والأموال .

قالت عائشة رضي الله عنها لما فتحت خيبر :

الآن نشبع من التمر . رواه البخاري (٤٢٤٢) في المغازي .

وقال ابن عمر رضي الله عنه : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر ، رواه البخاري (٤٢٤٣) في المغازي .

من المواقف البارزة في هذه الغزوة وبعدها :

أ- ما كان من فتح على يدي علي رضي الله تعالى عنه :

عن بُريدة رضي الله عنه قال : لما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء فرجع ولم يفتح له ، فلما كان الغد أخذه عمر ، فرجع ولم يفتح له ، فقال النبي ﷺ : «لأعطينَّ هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يُحبُّ اللهَ ورسولَهُ ، ويُحِبُّهُ اللهَ ورسولُهُ» .

قال : فبات الناس يُدركون ليلتهم ، أُتيهم يُعطاهما ، فلما أصبح النَّاسُ غدوا على رسول الله ﷺ ، كُلُّهم يَزْجوا أن يُعطاهما ، فقال : «أين عليّ بنُ أبي طالب؟» .

فقيل : هو ، يا رسول الله يَشْتَكِي عينيه ، قال : «فأرسلوا إليه» .

فأتي به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له : فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال عليّ : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ أي مسلمين ، فقال : «انْفُذْ على رِسْلِكَ حتى تَنْزَلَ بِساحتهم ، ثم ادْعُهُم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه ، فوالله لأن يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ» . رواه البخاري (٤٢١٠) في المغازي .

ب- تصدّي علي بن أبي طالب لبعض فرسان اليهود وقتلهم :

قال الإمام الشامي : روى محمد بن عمر عن جابر رضي الله عنه قال : أوَّلُ من خرج من حصون خيبر مبارزاً الحارث أخو مَرْحَب ، فقتله علي رضي الله تعالى عنه .

ثم برز عامر ، وكان رجلاً جسيماً طويلاً ، فقال رسول الله ﷺ حين برز عامر وطلع : «أَتَرَوْنَهُ خَمْسَةَ أَذْرَعٍ؟» .

فخرج إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فضربه ضربات ، كل ذلك لا يصنع شيئاً ، حتى ضرب ساقيه فبرك ، ثم ذَفَفَ عليه ، وأخذ سلاحه .

ثم برز ياسر أخو عامر ، وهو يقول :

قد علمتُ خير أني ياسِرُ شاكي السَّلاحِ بطل مُغامِرُ
إذا اللَّيْثُ أَقْبَلَتْ تُبَادِرُ وأحجمت عن صولة المساوِرُ
إنَّ حُسَامِي فِيهِ مَوْتُ حَاضِرُ

قال ابن إسحاق : فخرج إليه علي رضي الله عنه فقتله .

ثم خرج مرحب ، وهو رابع إخوته ، وعليه مِغْفَرٌ مُعْصَفَرٌ يمانِي ، وَحَجَرٌ قد ثقبه مِثْلُ البِيضَةِ على رأسه ، وهو يَرْتَجِزُ ويقول :

قد علمت خير أني مَرْحَبُ شاكي السَّلاحِ بطلٌ مُجَرَّبُ
إذا اللَّيْثُ أَقْبَلَتْ تَلْهَبُ

فبرز له علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعليه جُبَّةٌ أَرْجُوَانُ حُمْرَاء ، وهو يقول :

أنا الذي سَمَنِي أُمِّي جَيْدَرَهُ كليث غاباتٍ كَرِيهِ المنْظَرَهُ
أو فيهم بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهُ

ثم ضربه ففلق رأسه ، وكان الفتح .

والسَّنْدَرَةُ : شجرة يصنع منها مكاييل عظيمة .

هذه مهارات الأطراف المتنازعة ، والجهات المتخاصمة ، كل يمثل مهارة في جانبه ، ويشكل خبرة في موضعه ، لكن شتان بين مهارة تخدم الحق ، وتداعو إليه ، ومهارة تخدم الباطل ، وتدافع عنه ، والعاقبة دوماً للمتقين وصدق الله عز وجل حيث قال : ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد : ١٧] .

ج - قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لما بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهما أبو رُهم ، والآخر أبو بُرْدَة في بضع وخمسين رجلاً من قومي ، فركبنا سفينة ، فالفقنا سفينتنا إلى النجاشي في الحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده ، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر ، فأسهم لنا من غنائمها ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا من شهد معه ، إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معنا ، وهذا بعد أن استطاب نفوس أصحابه الذين شهدوا الغزوة: «سبل الهدى والرشاد» ١٣٥/٥ .

وقال ابن هشام: لما قدم جعفر بن أبي طالب علي رسول الله ﷺ قبل رسول الله بين عينيه ، والتزمه ، وقال: «ما أدري بأيّهما أسرُ: بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر» .

وهذا من وفائه ﷺ لأصحابه ، والمهاجرين إليه ، والمهاجرين في سبيله .
بهذا الخلق الرائع استحوذ على نفوس أصحابه ، وأصبح المفدى لديهم ، والمفضل عندهم .

د - زواجه ﷺ من صفية:

صفية: هي بنت حُيي بن أخطب سيد بني النضير ، سُبِيت يوم خيبر ، وكانت بين الأسرى ، وكانت امرأة عاقلة ، اصطفاها النبي ﷺ لنفسه ، وجعلها عند أم سليم ، حتى اهتدت وأسلمت ، فأعتقها النبي ﷺ ، وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، وأولم عليها بالتمر والأقط والسمن ، فأكل الناس حتى شبعوا ، وكان ذلك في طريقه إلى المدينة بعد فراغه من خيبر ، وبعد أن طهرت وحلت له .

قالت رضي الله عنها: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وما من الناس أحد أكره إليّ منه ، قتل أبي ، وزوجي ، وقومي ، فقال رسول الله ﷺ: «يا صفيةُ ، أما

إني اعتذر إليك مما صنعتُ بقومك ، إنهم قالوا لي : كذا وكذا ، وقالوا فيَّ كذا وكذا ، وصنعوا فيَّ كذا وكذا» .

وما زال يعتذر إليَّ حتى ذهب ذلك من نفسي ، فما قمت من مقعدي ، ومن الناس أحد أحبَّ إليَّ منه . «السيرة الحلبية» ٧٤٩ / ٢ .

ومما يدل على عقلها ، وصدقها في إيمانها ، ومحبتها للنبي ﷺ ، أنه أراد أن يعرس بها بعد أن قطع ستة أميال من خيبر ، فأبت عليه ، فوجد في نفسه عليها ، فلما وصل الصهباء طاوعته ، فقال لها :
«ما حملك على إباتك حين أردتُ المنزل الأول؟» .

قالت : يا رسول الله خشيت عليك قُربَ يهود . «السيرة الحلبية» ٥٠ / ٢ .
فقبل منها ، ورضي عنها ، وأقام بذلك المحل ثلاثة أيام .

إن هذا الزواج المبارك ليدل على مدى ما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من مهارة في تأليف القلوب وتطيبها ، وعلى ما يتمتع به من رأفة وعطف وشفقة .

فهذه امرأة سيدة فاضلة عاقلة كانت في قوم ضلُّوا ، فضلَّت معهم ، لكنها اليوم أسلمت واهتدت ، فماذا يجبر كسرهما ، ويخرجها من دوامة الأحزان التي عايشتها ، والمأس التي غشيتها ، إنه هذا الزواج الكريم الذي نقلها من صف أهل الضلال ومن بؤرة الكراهية والأحزان إلى سدة الشرف ، والحبِّ لسيد الأكوان عليه الصلاة والسلام .

لقد أصبحت بعد هذا الزواج السيدة الأولى في المجتمع ، ولم تعد يهودية سبيّة ، لقد صارت أم المؤمنين ، يترضى عنها الناس كلما ذكرت .

كان رسول الله ﷺ يُحبها ، ويعطف عليها ، ويواسيها ويدافع عنها ، ويعلمها كيف تثبت مكانها إذا ما تعرضت لهمز أو لمز .

عن أنس رضي الله عنه قال : بلغ صفيّة أن حفصة قالت : بنت يهودي ، فبكت ، فدخل عليها النبي ﷺ ، وهي تبكي ، فقال : «ما يُيكِكِ؟» .

فقالت : قالت لي حفصة : إني بنت يهودي ، فقال النبي ﷺ : «إنك لابنة

نبي ، وإن عمك لنبي ، وإنك لتحت نبي ، ففيم تفخر عليك؟». ثم قال : «اتقي الله يا حفصة». رواه الترمذي (٣٨٩٤) في المناقب وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

وخرجت مع النبي ﷺ حين حجّ بنسائه ، فلما كان ببعض الطريق برك بصفية جملها ، فبكت ، فجاء رسول الله ﷺ حين أخبر بذلك ، فجعل يمسح دموعها بيده الشريفة . «أسد الغابة» ٦ / ١٧٠ .

هـ - قصة الشاة المسمومة :

إن اليهود لم يقصروا في أذية النبي ﷺ في سلم ، ولا في حرب فهاهم - وقد خرجوا منهزمين في خيبر - أرادوا أن لا يُفوّتوا عليهم الفرصة ، لعلها أن تثمر لهم ، ولو مرة ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ من يدسّ له السمّ في الطعام . روى البخاري (٤٢٤٩) في الجزية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سمّ .

وفي رواية للبخاري (٥٧٧٧) في الطب ، أن النبي ﷺ جمع اليهود فقال لهم :

«هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟»

قالوا : نعم .

فقال : هل جعلتم في هذه الشاة سمّا؟» .

فقالوا : نعم .

فقال : «ما حملكم على ذلك؟» .

فقالوا : أردنا أن كنت كاذباً نستريح منك ، وإن كُنت نبيّاً لم يضرّك .

وقال ابن إسحاق : لما اطمان رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية ، وكانت قد سألت : أي عضو من الشاة أحبّ إلى رسول الله ، ف قيل لها : الذراع ، فأكثر فيه من السمّ ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع ،

فلاك منها مُضْغَةً ، فلم يُسْغَهَا ، ومعه بشرُّ بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال : «إن هذا العظم ليخبرني أنه مَسْمُومٌ» .

ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : «ما حملك على ذلك؟» .

قالت : بلغت من قومي ما لم يَخَفَ عليك ، فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ، ومات بشر من أكلته فماذا يستحق اليهود بعد ذلك؟

إن رسول الله ﷺ لم يقابلهم بمهارته على ذلك بل ترك للتاريخ والأجيال أن يشهدوا عليهم ، ويحكموا على خبثهم وغدرهم وجرائمهم وسوء طويأهم ، لقد تركهم بعد فتح خيبر في أرضهم يزرعون ، ويحصدون ، ويأكلون آمنين سالمين ، وإن كانوا يؤدّون إلى رسول الله نصف ما ينتجون ، وكان بوسعهم أن يظلموا هكذا ، لكن طبعهم حملهم على الغدر مرّة أخرى في خلافة عمر ، فأجلاهم من أرض خيبر ، وطهر جزيرة العرب من رجسهم ، فلعجؤوا إلى بلاد الشام ينتظرون الفُرْصَ ولو بعد ألف سنة ليكيدوا - إن استطاعوا - للمسلمين ، وها هو كيدهم الآن لا يخفى على أحد ، وهاهي جرائمهم التي يندى لها كل جبين إن كان فيه ذرة من رحمة أو حياة .

و- صلح فدك :

فدك : بلدة بينها وبين المدينة ثلاث مراحل ، وأهلها من اليهود ، وكان من شأنهم أنه لما فتحت خيبر أرسلوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه الأمان على أن يتركوا البلدة ويرحلوا ، ففعل ، وكانت أرض فدك لرسول الله ﷺ خاصة ينفق منها على نفسه ، ويعول منها صغير بني هاشم ويزوج منها أيمهم .

ز- صلح تيماء :

وتيماء قرية على ثمان مراحل من المدينة كان يسكنها اليهود ، فلما بلغهم ما فعله المسلمون بيهود خيبر ، أدركهم الفرع ، وصالحوا رسول الله ﷺ على دفع الجزية ، ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين .

ح - فتح وادي القرى :

وادي القرى : واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة ، كثير القرى ، وأهله يهود ، دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام - منصرفه من خيبر - فامتنعوا من ذلك ، فقاتلهم وفتح بلادهم ، وغنم أموالهم ، فخمسها ، وترك الأرض والنخل في أيديهم وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر ، وأراح الله تعالى المسلمين من كيدهم ، وخبثهم .

ط - رجوع الرسول إلى المدينة مؤيداً منصوراً :

روى مسلم (٦٨٠) في المساجد ، وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليله ، حتى إذا أدركه الكرى - النعاس - عرس - نزل - وقال لبلال : «أكلأ لنا الليل» ، فصلّى بلال ما قدر له .

ونام رسول الله ﷺ وأصحابه ، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مؤاجة الفجر ، فغلبت بلالاً عيناه ، وهو مستند إلى راحلته ، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ، ولا بلال ، ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس ، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً ، ففزع رسول الله ﷺ ، فقال : «أي بلال» .

فقال بلال : أخذ بنفسي الذي أخذ - بأبي أنت وأمي يا رسول الله - بنفسك . قال : «اقتادوا» .

فاقتادوا رواحلهم شيئاً ، ثم توضأ رسول الله ﷺ ، وأمر بلالاً ، فأقام الصلاة فصلّى بهم الصبح ، فلما قضى الصلاة قال : «من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه : ١٤] .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الجُرف - موضع بينه وبين المدينة ثلاثة أميال إلى جهة الشام - ليلاً نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً .

ولما نظر رسول الله ﷺ إلى جبل أحد قال : «هذا جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه ، اللهم إني أحرّم ما بينَ لابَتَي المدينة» رواه البخاري (٢٨٨٩ - ٢٨٩٣) في الجهاد ، ومسلم (١٣٦٥) في الحج .

ولابتا المدينة : حرتهاها ، مثنى حرّة ، وهي الأرض ذات الحجارة السوداء .

ي - ما قاله كعب بن مالك شعراً في غزوة خيبر .

ونحن وردنا خيبراً وفروضه	بكل فتى عاري الأشاجع مذود
جواد لذي الغايات لا واهن القوى	جريء على الأعداء في كل مشهد
عظيم رماد القدر في كل شتوة	ضروب بنصل المشرفي المهند
يرى القتل مذحاً إن أصاب شهادة	من الله يرجوها وفوزاً بأحمد
يدود ويخمي عن ذمار محمد	ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصّره من كل أمر يريه	يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بالأنباء بالغيب مخلصاً	يريد بذاك العز والفوز في غد

فروضه : المواضع التي فيها الأنهار .

إلا شاجع : عروق ظهر الكف .

مذود : دفاع عن الذمار ، وما تجب حمايته .

المشرفي : السيف .

الأنباء : الأخبار .

لقد حقق رسول الله بهذا الخروج كل ما يريد ، ووصل بمهارته إلى كل ما يحب وعاد مؤزراً منصوراً ، فليكن قدوة قادة المسلمين ، وحكامهم وشعوبهم .

٤١ - كثرة السرايا بعد صلح الحديبية وفتح خيبر :

تجلت هبة رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية ، والنصر على اليهود في خيبر ، وذاع صيته ، وخشيه القاصي والداني ، وعمت أنباء دعوته أفاق الجزيرة وأطرافها ، ودقت عواصم الملوك والأمراء ، ورنت في نوحها ، ولم يبق إلا جيوب من الأعراب هنا وهناك ، فراح يرسل ﷺ أصحابه إلى دعوة هذه الجيوب ، وتأديب الضالين منها ، وليس له من غرض إلا هداية تلك الأقوام

الحائرة ، وردّها إلى الطرق السالكة النيرة ، فهو الرحمة المهداة إلى الناس جميعاً ، ومن هذه السرايا :

أ - سرّية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ثُرّة :

قال ابن سعد (١١٧/٢) : بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب في ثلاثين راكباً إلى عَجَزِ هَوَازَن بَثْرَة - وهي على أربع ليال من مكة ، فخرج ومعه دليل من بني هلال ، فكان يسير الليل ، ويكمن النهار ، فأتى الخبرُ هوازن فهربوا ، وجاء عمر محالّهم فلم يلق منهم أحداً ، فانصرف راجعاً إلى المدينة ، وكان ذلك في شعبان سنة سبع من الهجرة .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذه السرية أن عمر لما وصل الجدر - وهو عائد ، قال له دليله الهلالي : هل لك في جمع آخر تركته من خثعم جاؤوا سائرين قد أجذبت بلادهم ؟

فقال عمر : لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم ، إنما أمرني أن أصمد لقتال هوازن بَثْرَة .

وهذا منه رضي الله عنه مهارة وعبقريّة ، حيث لم يبح لنفسه أن يتصرف إلا في حدود أوامر القيادة العامة لرسول الله ﷺ ، ولم يتجنّ على رسول الله ﷺ بعمل شيء لم يأمره به .

ب - سرّية بشير بن سعد :

قال ابن سعد (١١٨/٢) : بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين راكباً إلى بني مُرّة بناحية بحدك في شعبان سنة سبع من مُهاجر رسول الله ﷺ ، فخرج يلقي رعاء الشاء ، فسأل عن الناس ، فقل : في بواديهم ، فاستاق النعم والشاء ، وانحدر إلى المدينة ، فخرج الصريخ فأخبرهم ، فأدركه الدّهم منهم - أي العدد الكثير - عند الليل ، فباتوا يُرامونهم بالنبل ، حتى فنيّت نبل أصحاب بشير ، وأصبحوا ، فحمل المريّون عليهم ، فأصابوا أصحاب بشير ، وقاتل بشير قتالاً شديداً ، حتى أصيب ، وضرب كعبه ، حتى ظنّ أنه مات ، ورجعوا

بَنَعْمَهُمْ وَشَائِهِمْ ، وَقَدِمَ عُلبَةُ بْنُ زَيْدٍ الْحَارِثِيُّ بِخَبَرِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَدِمَ مِنْ بَعْدِهِ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ .

لَقَدْ أَصِيبَتْ هَذِهِ السَّرِيَّةُ ، وَلَمْ يُفَتَّ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ ، فَالْحَرْبُ سِجَالٌ ، وَهِيَ دَوْلٌ بَيْنَ النَّاسِ ، وَالْمُسْلِمُونَ يَعْلَمُونَ بِمَا قَدْ يَصِيبُهُمْ ، وَهُمْ قَدْ وَطَنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى احْتِمَالِ الْأَذَى ، لَكِنْهُمْ دَائِمًا عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ ، لِأَنَّهُمْ فِي أَحْضَانِ إِحْدَى الْحُسَيْنِ ، النَّصْرُ ، أَوْ الشَّهَادَةُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ [التوبة : ٥٢] .

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لَهُمْ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي آتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] .

نَعَمْ الْمُسْلِمُ يَرْجُو رِضْوَانَ رَبِّهِ ، وَيَطْمَعُ بِجَنَّتِهِ ، وَهَذَا يُعْطِيهِ شَحْنَةً قَوِيَّةً مِنَ الصُّمُودِ ، وَالصَّبْرُ عَلَى التَّحَدِّيِّ ، بَيْنَمَا الْمَشْرُكُونَ لَا أَمَلَ لَهُمْ إِلَّا فِي حَطَامِ الدُّنْيَا ، لِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَتَفَوَّقُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ بِهَذَا الْعَنْصَرِ الْمَعْنَوِيِّ الْعَظِيمِ .

جـ سَرِيَّةُ غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ إِلَى الْمَيْفَعَةِ :

الْمَيْفَعَةُ : اسْمُ مَوْضِعٍ وَرَاءَ بَطْنِ نَخْلٍ بِنَاحِيَةِ نَجْدٍ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ ثَمَانِيَةُ بُرْدٍ .

وَكَانَ يَسْكُنُهُ بَنُو عُوَالٍ ، وَبَنُو عَبْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ .

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيُّ فِي مِئَةِ وَثَلَاثِينَ رَجُلًا ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَكَانَ دَلِيلُهُمْ يَسَارُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَهَجَمُوا عَلَيْهِمْ جَمِيعًا ، وَوَقَعُوا وَسْطَ مُحَالِّهِمْ ، فَقَتَلُوا مِنْ أَشْرَفِهِمْ ، وَاسْتَقَاوَا نَعْمًا وَشَاءَ ، وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَأْسُرُوا أَحَدًا .

وَفِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ طَارَدَ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَجُلًا مِنَ الْمَشْرِكِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْمَشْرُكَ أَنَّهُ مَقْتُولٌ تَشَهَّدَ ، فَظَنَّ أَسَامَةُ أَنَّ عَدُوَّهُ إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ تَخْلَصًا مِنْ

الموت ، فقتله أسامة ، ولما رجع المسلمون إلى المدينة أخبروا رسول الله بما فعل أسامة ، فاستاء لفعله ، وقال :

«يا أسامةُ ، أقتلته بعدما قال : لا إلهَ إلا الله؟» .

قلت : يا رسول الله ، إنما كان مُتَعَوِّذاً ، قال : «قتله بعدما قال : لا إلهَ إلا الله» .

قال : فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم .
رواه البخاري (٦٨٧٢) في الديات وفي رواية قال له :
«فهلا شققت عن قلبه ، فتعلم أصادق هو أم كاذب» .

من هذه الحادثة نعلم أن الغرض من الغزو والجهاد ليس هو القتل وإراقة الدماء ، وإنما الغرض الدعوة إلى الله عز وجل ، وتخليص العباد من عبادة الأصنام ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، فإن فعلوا ذلك ، فقد انتهت الخصومة ، وتوقفت الحرب ، وغدا الجميع إخواناً في الله تعالى ، كما قال الله عز وجل : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَلِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] .

د - سرية بشير بن سعد إلى يَمَنُ وَجَبَّار :

وفي شوال سنة سبع من الهجرة بلغ رسول الله ﷺ أن عُيَيْنَةَ بن حصن واعد جماعة من غطفان كانوا مُقيمِينَ قريباً من خير بأرض اسمها : يَمَنُ وَجَبَّار للإغارة على المدينة ، فلم يمهلهم رسول الله ﷺ ، فأرسل لهم بشير بن سعد في ثلاث مئة رجل ، فساروا إليهم يكمنون النهار ، ويسرون الليل حتى أتوا محلّتهم ، فأصابوا نَعْماً كثيرة ، وتفرّق الرعاء ، فأخبروا قومهم ففزعوا ولحقوا بعليةا بلادهم ، فرجع بالنعم ، وأصاب منهم رجلين ، فأسرهما ، وقدم بهما إلى رسول الله ﷺ فأسلما ، فأرسلهما ﷺ سالمين .

وهذا دليل على أن الإسلام يجب ما قبله ، ويقطع الخصومة بين المسلمين ومن كانوا عدوّاً لهم بالأمس القريب .

٤٢ - عُمره القضاء :

وسمّاها ابن سعد: عُمره القضية ، لأن رسول الله ﷺ قاضى قريشاً عليها ، أي صالحهم عليها ، وليست قضاء عن العُمرة التي صُدَّ عن البيت فيها ، فإنها لم تكن فسدت بصدّهم له عن البيت ، بل كانت عُمرة تامة معدودة في عُمره التي اعتمرها ﷺ بعد الهجرة . «السيرة الحلبية» ٧٧٩/٢ .

قال الإمام الشامي: لما دخل هلال ذي القعدة سنة سبع ، وهو الشهر الذي صدّه فيه المشركون عن البيت ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا للعمرة ، ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ، فلم يتخلف أحد شهدا ، إلا رجال استشهدوا بخير ، ورجال ماتوا .

وخرج مع رسول الله ﷺ قوم من المسلمين عُمّاراً ، فكانوا في عمرة القضاء ، أو القضية ألفين من المسلمين .

وعمل ﷺ في خروجه عمل القائد المسالم الحذر فساق الهدى ستين بدنة ، وجعل عليها أحد جنوده ناجية بن جُنْدَب الأسلمي ، وحشد السلاح ، وحمله معه: البَيْضَ ، والدُّرُوعَ ، والرماح ، وقاد مئة فرس ، وأحرم من باب مسجده ، فلبّى ولبّى المسلمون معه ، فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه ، وجعل عليها محمد بن مسلمة ، كما قدم السلاح ، واستعمل عليه بشير بن سعد ، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله: لقد شرطوا علينا أن لا ندخل عليهم مكة بسلاح إلا سلاح المسافرين: السيوف في القُرب ، فقال ﷺ: «لا ندخلُ عليهم الحرم بالسلاح ، ولكن يكون قريباً منا ، فإن هاجنَا هَينجٌ - أي حركنا حرب - من القوم كان السلاح قريباً منا» .

فلما وصل ﷺ مرَّ الظهران قدم السلاح إلى بطنٍ يأجج حيث نظر إلى أنصاب الحرم - أي الأعلام على حدوده ، وخلف على السلاح أَوْسَ بن خَوْلِيّ الأنصاري في مئة رجل .

فلما علم بذلك أهل مكة قالوا: ما أحدثنا حَدَثاً ، وإنّا على كتابنا ومدّتنا ، فقيم يعزونا محمد في أصحابه؟

ثم بعثوا مِكرَز بن حفص في نفر من قريش ، فقالوا: يا محمد ، ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك ، وقد شرطت عليهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر: السُّيُوف بالْقُرْب .

فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أدخل عليهم بالسلاح» .

فقال مِكرَز: هو الذي تُعرف به: البرُّ والوفاء .

ثم رجع مِكرَز إلى مكة سريعاً ، وقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح ، وهو على الشرط الذي شرط لكم .

قال الإمام الشامي (١٩١/٥): لما دخل رسول الله ﷺ مكة ، أمر بالهَدْْي أُمَامه ، حتى حُبِس بذي طُوى ، ودخل على ناقته القِصواء ، وأصحابه مُخَدِّقُونَ به ، قد توشحوا السُّيُوف يُلبُّون ، وعبد الله بن رواحة أخذ بزمام الناقة ، وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ نَحْنُ ضَرْبُنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ
قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ فِي صُحُفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُولِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ إِنِّي رَأَيْتُ الْحَقَّ فِي قَبُولِهِ

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا ابن رواحة ، بين يدي رسول الله ﷺ ، وفي حرم الله ، تقول الشعر؟ .

فقال رسول الله ﷺ: «خَلَّ عَنْهُ يَا عُمَرُ ، فَلْهِيَ أَسْرَعَ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ» .

ثم قال: «يا ابن رواحة ، قل: لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده» .

فقالها ابن رواحة ، فقالها الناس كما قالها .

روى الإمام مسلم (١٢٦٦) في الحج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة ، فقال المشركون: إنه يقدِّم عليكم غداً قَوْماً قد وَهَنْتَهُمُ الْحُمَّى ، وَلَقُوا مِنْهَا شِدَّةً وَجَلَسُوا مِمَّا يَلِي الْحِجْرَ ، فَأَمَرَهُمْ

النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط ، ويمشوا ما بين الرُّكنين ، ليرى المشركون جلدهم .

فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى وهتتهم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا .

وعند أبي داود (١٨٨٩) في الحج: تقول قريش: كأنهم الغُرْلان .

لقد أمرهم رسول الله ﷺ أن يُظهروا أمام العدو القوة ، فإنها اللغة التي يفهما العدو دائماً ، عندما تُعَمِّيه المعصية عن رؤية الحق وسماعه .

وهذا منه ﷺ براعة وحذق في موطنه المناسب . ثم لما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة على راحلته ، فلما فرغ دعا بالهدي فنحر عند المروة ، وقال ﷺ: «هذا المنحر ، وكلُّ فجاج مكة مَنَحَرٌ» . رواه ابن سعد في «الطبقات» ١٢٢/٢ .

ثم أمر - عليه الصلاة والسلام - ناساً من أصحابه أن يذهبوا إلى أصحابهم بطن يأجج ، فيقيموا على السلاح ، ويأتي الآخرون ويقضوا نُسكهم ، ففعلوا .

زواج رسول الله ﷺ من ميمونة بنت الحارث الهلالية :

لقد قال العباس بن عبد المطلب للنبي ﷺ: إن ميمونة بنت الحارث قد تأيمت من أبي رُهم بن عبد العزى ، فهل لك أن تتزوجها ، فأجاب عليه الصلاة والسلام طلب عمه رحمة بها ، وعطفاً عليها ، وقد مات زوجها .

فأرسل جعفر بن أبي طالب إليها فخطبها ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب ، فزوجها من رسول الله ﷺ ، وكان ذلك بعد أن تحلل رسول الله ﷺ من عمرته ، وقيل: بل عقد عليها وهو محروم ، وهذا من خصوصياته ، ثم دخل بها وهو حلال .

خروج رسول الله ﷺ من مكة ورجوعه إلى المدينة :

قال ابن سعد: فلما كان الظهر من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو ،

وَحُوَيْطَب بن عبد العُزَّى ، فقالا : قد انقضى أجلُّك فأخرج عنا ، فقال لهما :
«وما عليكم لو تركتموني ، فأعرستُ بين أظهركم ، فصنعت طعاماً» .
فقالا : لا حاجة لنا في طعامك ، أخرج عنا ، فهذه الثلاثة التي بيننا قد
انقضت .

فأمر - ﷺ - أبا رافع ، فنادى بالرحيل ، وقال : «لا يمسينَّ بها أحد من
المسلمين» .

وركب رسول الله ﷺ حتى نزل سَرَفَ ، وتأمَّ الناس إليه .
وأقام أبو رافع بمكة حتى أمسى ، فحمل إليه ميمونة بنت الحارث ، فبنى
بها رسول الله ﷺ سَرَفَ ، ثم أدلج فسار حتى قدم المدينة ، وذلك في ذي
الحجَّة .

وميمونة هذه رضي الله عنها كانت آخر زوجة للنبي ﷺ وتوفيت في نفس
المكان الذي بنى بها رسول الله ﷺ ، لكن بعد وفاته بنحو من أربعين سنة ، فقد
توفيت سنة إحدى وخمسين من الهجرة الشريفة ، وهي آخر من توفي من
أزواجه ، وهي أخت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب لأُمها .

هذه رحلة عمرة القضاء ، أو عمرة القضية بأحكامهما ، وأحداثها
وظلالها ، وما كان في ظلالها من لفتات كريمة ، ومعالم بارزة تدل على مدى
ما كان يتحلى به رسول الله ﷺ من شيم عظيمة ، ومواهب رائعة ، ومهارات
فائقة ، يجب أن تظل ساطعة في حياة المسلمين ، وضياء في تاريخهم ،
يستلهمونها ، ويتعلمون منها ، وليس ذلك عيباً .

فرسول الله ﷺ هو القدوة لهم ، والأسوة الحسنة فيهم .

٤٣ - إسلام خالد بن الوليد ورفيقه :

لقد وفد إلى رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية ، وقيل أيضاً بعد عمرة
القضية ثلاثة من أهل مكة ، طالما كانت لهم الأيدي الطويلة في قيادة الجيوش
المناوئة للإسلام والمسلمين ، وهم :

- خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، وأمه لبابة الصغرى أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ .

- عثمان بن طلحة العبدري القرشي .

- عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي .

أقبل هؤلاء الثلاثة معاً إلى المدينة بعد أن شرح الله صدورهم للإسلام ، وعلموا أنه الحق الذي لا يجوز اتباع سواه ، وقد لاحت لهم انتصاراته ، وبرزت لهم حقائقه ، واتضحت معالمه ، ولم يروا في مقاومته إلا الجهل والغباء ، وما إن رآهم رسول الله ﷺ حتى أعلن فرحته وسروره بقدومهم ، وقال لأصحابه :

«رَمَتَكُمْ مَكَّةُ بِأَفْلاذِ كِبْهَا» . «أسد الغابة» .

فصافحهم رسول الله ﷺ ، وبايعهم ، وقال لخالد رضي الله عنه : «الحمد لله الذي هداك ، قد كُنْتُ أرى لك عقلاً رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسَلِّمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ» .

فقال : يا رسول الله : ادع الله لي أن يغفر تلك المواطن التي كنت شهادتها عليك ، فقال عليه الصلاة والسلام :

«الإسلام يَجِبُ ما قبله» .

وروى الإمام أحمد (٢٠٤/٤) عن عمرو بن العاص قال : قلت : يا رسول الله ، أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي ، فقال رسول الله ﷺ : «إِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ ما قبله ، وَإِنْ الْهَجْرَةَ تَجِبُ ما قبلها» .

قال عمرو : فوالله ، إِنْ كُنْتُ لأشدُّ الناس حياءً من رسول الله ﷺ ، فما ملأت عيني من رسول الله ، ولا راجعته بما أريدُ حتى لحق بالله عز وجل حياءً منه .

وفي رواية لأحمد (٢٠٥/٤) قال عمرو بن العاص : لما ألقى الله عز وجل الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ لبايعني ، فبسط يده إليّ فقلت : «لا أبايعك يا رسول الله حتى تغفر لي ما تقدم من ذنبي» .

قال: فقال لي رسول الله ﷺ: «يا عمرو ، أما علمت أن الهجرة تجبُّ ما قبلها من الذنوب ، يا عمرو ، أما علمت أن الإسلام يجبُّ ما كان قبله من الذنوب» .

وقال ابن الأثير في «أسد الغابة»: هاجر عثمان بن طلحة إلى رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد ، فلقيا عمرو بن العاص قد أتى النبي ﷺ يريد الهجرة ، فاصطحبوا حتى قدموا على رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله حين رآهم: «ألقت إليكم مكَّةُ أفلاذ كبدها» .

وأقام عثمان بن طلحة مع النبي بالمدينة ، وشهد معه فتح مكة ، ودفع إليه مفتاح الكعبة يوم الفتح ، وإلى ابن عمه شيبه بن عثما بن أبي طلحة وقال لهما: «خذوها خالدةً تالدةً ، لا يَنزَعُها منكم إلى ظالم» .

لقد أنزل رسول الله ﷺ هؤلاء الثلاثة منازلهم ، وعرف لهم أقدارهم ومكانتهم ، وأحسن رعايتهم ، وتوجيههم حتى كان لهم جهدهم المشكور في الدعوة إلى الله عز وجل وحمل راية الإسلام في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته ، فقد اشتركوا في الفتوح ، وكان لهم القُدْحُ المَعْلَى في اكتساب النصر والذكر .

ورسول الله ﷺ لا يَضِيعُ الإمكانات والمهارات عند الأفراد ، ولا يهملها حتى تجفَّ ، وتذوي ، بل كان بحذفه ، وحكمته يضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، ويفتح كل المنافذ لتنتلق المواهب بناءً رشيدة وهو القائل: «إذا وسَّد الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة» .

روى البخاري (٥٩) في كتاب العلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يُحدِّثُ القوم جاءه أعرابي ، فقال: متى السَّاعةُ؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّثُ .

فقال بعض القوم: سمع ما قال ، وكره ما قال .

وقال بعضهم: بل لم يسمع .

حتى إذا قضى حديثه قال: «أين أُرَاهُ السائل عن السَّاعة؟» .

قال: ها أنا ، يا رسول الله .

قال: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» .

قال: كيف إضاعتها؟

قال: «إِذَا وُثِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» .

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر ناصحاً له :

«يا أبا ذرّ ، إني أراك ضعيفاً ، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي ، لا تأمرنَّ على اثنين ، ولا تولِّنَّ مال يتيم» . رواه مسلم (١٨٢٦) في الإمارة .

وروى مسلم (١٨٢٥) في الإمارة عن أبي ذر رضي الله عنه قال : فقلت : يا رسول الله ، ألا تستعملني؟ قال : فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : «يا أبا ذر ، إنَّك ضعيف ، وإنها أمانةٌ ، وإنها يوم القيامة خِزْيٌ وَندامةٌ ، إلا أخذها بحقِّها ، وأدى الذي عليه فيها» .

وعن أبي موسى الأشعري قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمِّي ، فقال أحد الرَّجلين : يا رسول الله ، أمَّرنَا على بعض ما ولَّكَ اللهُ عز وجل ، وقال الآخرُ مثْلَ ذلك .

فقال رسول الله ﷺ : «إِنَّا لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ» . رواه مسلم (١٧٣٣) رقم (١٤) .

هذه مواقف من الرسول القائد في التوظيف ، واستعمال الرجال والموظفين ، وهي تنطق بنفسها عن معناها ، وفحواها ، فاعتبروا يا أولي الأمر إن كنتم تعتبرون .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ ﴾ [يس : ١١] .

وقال : ﴿ إِن تَسْمِعُوا إِلَّا مَنْ يُوْثِقُ بَيْنَنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل : ٨١] .

٤٤ - سرِّيَّة مؤتة :

وقد سمَّاهَا البخاري وكثير من اصحاب السَّير : «غزوة مؤتة» لأهميتها وكثرة

من حضرها من الصحابة رضي الله عنهم .

ومؤتة : قرية على مشارف الشام ، تسمى اليوم الكرك .

قال ابن حجر : هي على مرحلتين من القدس .

وكانت هذه السرية في شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة الشريفة .

أ - سببها : وسبب هذه الغزوة مقتل الحارث بن عُمير الأزدي رسول رسول الله ﷺ ، فإن رسول الله أرسله بكتاب إلى ملك بصرى ، فلما نزل مؤتة عرض له شُرْحِبِيل بن عمرو الغساني فقتله ، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ ، فندب الناس للخروج إلى مؤتة ، فسرعان ما اجتمع من المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل ، قد تهيؤوا للخروج إلى حيث قتل صاحبهم .

بهذه السرعة أراد رسول الله ﷺ أن يعلن للروم وأتباعهم أنه ليس خوَّاراً ، ولا وجلاً ، ولا يتركهم يجنون ثمرة الغدر من غير عقاب .

وبهذه السرعة استجاب له أصحابه الكرام ، ووضعوا أنفسهم وأموالهم في خدمة الحق والدفاع عن الكرامة .

وكانت هذه السرية أول سرية تخطت حدود الجزيرة ، ودخلت في تخوم الشام ، أي حدودها .

ب - تسمية القادة في هذه السرية :

لقد استعرض رسول الله أصحابه المتجهرين بالجُرف ، وقال لهم : «أميرُ الناس زيد بن حارثة ، ودفع له لواء أبيض ، فإن قتل زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة ، فليزُتَضِ المسلمون برجل منهم ، فليجعلوه عليهم .

ج - تشييع رسول الله لهم ، ووداعه إياهم ، ووصيته لهم :

ثم مشى رسول الله ﷺ مشياً لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فودعهم ، وأوصاهم ، وقال لقواده : «أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين

خيراً ، اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدوَّ الله ، وعدوَّكم بالشام ، لا تَغْدِرُوا ، ولا تَغْلُوا ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا امرأة ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تهدموا بناء .

فلما انصرف رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن رواحة :
خَلَفَ السَّلَامُ عَلَى امْرِئٍ وَدَعَتْهُ فِي النَّخْلِ خَيْرٌ مَشِيعٍ وَخَلِيلٍ
ثم بكى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، فقالوا له : ما يُكيك يا ابن رواحة ؟

فقال : أما والله ما بي حبُّ الدُّنيا ولا صباةٌ بكم ، ولكنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ، يذكر فيها النار .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٧١] .

فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود .

يا سبحان الله ، ما الذي كان يشغل لبَّ هذا الصحابي القائد وهو يودع أصحابه ، أين الأهل ، والأحباب ، والأموال والأزواج ، إنهم كانوا جميعاً في غيبة عن باله ، وإنما الذي كان يسكن فؤاده ، ويحرِّك شجونه إنما هو خوف النار ، فهل يكون بعد ورودها سلامة منها ، وتجاوز لها .

بهذه العقائد والعواطف صمدوا للعواصف ، وتخطوا الحواجز ، وسعدوا في المواقف .

ولما ودَّعهم أصحابهم ، وقالوا لهم :

صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردَّكم إلينا صالحين .

قال عبد الله بن رواحة :

لَكُنْتُي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً	وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبِدا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدِي حَرَّانَ مُجْهَرَةً	بِحَرْبَةٍ تَنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي	أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَارٍ وَقَدْ رَشَدَا

فرغ : سعة .

حرّان : شديد التعطش للقتل .

جدثي : قبري .

ولما فصل الجيش من المدينة سمع العدو بمسيرهم ، فجمع لهم جموعاً كثيرة :

جمع هرقل مئة ألف مقاتل من الروم .

وجمع شُرْحبيل بن عمرو مئة ألف مقاتل آخر من قبائل لَحْم ، وِجْدَام ، والقَيْن ، وبَهْرَاء .

وسمع المسلمون بتلك الجموع الهائلة ، فأقاموا في مَعَان ليلتين يفكّرُونَ في أمرهم .

فقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبره بكثرة عدونا ، فإما أن يمدّنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له .

وهنا يبرز عبد الله بن رواحة مرّة أخرى إلى الواجهة قائلاً :

يا قوم ، والله إن التي تكرهون لهي التي خرجتم تطلبون ، «الشهادة» وما نقاتل إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحُسَيْنَيْن : إما ظهور ، وإما شهادة ، ولست بَشَرُ المنزلتين .

فما كذب القوم ، ولا خالفوه ، ولا قعدوا دون قصده ، بل قالوا :

صدق والله ابنُ رواحة .

ومضوا رضي الله عنهم بعزيمة الأسود ، حتى إذا كانوا بتخوم اللقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى اللقاء يقال لها : «مَشَارَف» ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى مؤتة .

وتعبأ المسلمون للمشركين فجعلوا على مَيمَنَتهم قُطْبَة بن قتادة ، وعلى مَيسَرَتهم عبادة بن مالك .

د- بدء القتال :

ثم التقى الناس واقتتلوا قتالاً شديداً.

فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم ، أي قتل برماحهم .

ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب ، فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء ، فعرقبها ثم قاتل القوم بشدة ، وجرأة نادرة وهو يرتجز :
يا حَبْذا الجَنَّةِ واقترباها طيِّبَةً وبارداً شرابها
والرُّومُ رُومٌ قد دنا عذابها كافرةً بعيدةً أنسابها
عليَّ إذ لا قِيَتُها ضِرابها

وظل يقاتل حتى قتل .

قال الإمام الشامي : فكان جعفر أولَ رجل من المسلمين عقر فرساً له في سبيل الله ، خشية أن يغنمها العدو .

روى البخاري (٤٢٦٠) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أنه وقف على جعفر يومئذ ، وهو قتيل ، فعددتُ به خمسين بين طعنة وضربة ، ليس منها شيء في دبره ، يعني في ظهره .

قال ابن إسحاق : فلما قتل جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، ثم تقدم ، وهو على فرسه ، فجعل يَسْتَنْزِلُ نفسه ، ويتردّدُ بعض التردّد ، ثم قال :
أَقْسَمْتُ يا نفس لَتُنْزِلَنِي طائِعَةً أو لَتُكْرِهَنِي
إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّثَّةَ مَالِي أراك تَكْرِهِينَ الجَنَّةَ
قد طال ما قد كُنْتَ مُطْمَنَّةً هل أنت إلا نطفةً في شَنَّةِ
وقال أيضاً :

يا نَفْسُ إِنْ تُقَتِّلِي تَمُوتِي هذا حِمَامِ المَوْتِ قد صَلَّيتِ
وما تَمَنَّيتِ فقد أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هُدَيْتِ
أَجْلَبِ النَّاسِ : صاحوا .

الرنة : الصوت .

الشنة : السقاء البالي .

ولما نزل رضي الله عنه إلى المعركة جاءه عبد الله بن عمر بعزق من لحم ، فقال له : شُدَّ بهذا صَلْبُكَ فَإِنَّكَ لَقِيتَ فِي أَيَّامِكَ هَذِهِ مَا لَقِيتَ . فأخذه من يده ، ثم انتَهَسَ مِنْهُ نَهْشَةً ، ثم سَمِعَ الحُطَمَةَ فِي نَاحِيَةِ النَّاسِ ، فقال :

وَأَنْتِ فِي الدُّنْيَا؟

ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ووقع اللواء من يده .

فصاح قُطْبَةُ بْنُ عَامِرٍ : يَا قَوْمَ ، يَقْتُلُ الرَّجُلُ مُقْبِلًا أَحْسَنَ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ مُدْبِرًا . فأسرع ثابت بن أقرع فأخذ الراية ، ثم قال : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اصْطَلِحُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ . فقالوا : أَنْتَ .

قال : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ .

فاصطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . «سَبِيلُ الْهَدْيِ وَالرِّشَادِ» ١٥٠/٦ .

قال الشامي : روى الطبراني برجال ثقات عن موسى بن عُقْبَةَ قَالَ : ثُمَّ اصْطَلَحَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ أَمْرَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، فَهَزَمَ اللَّهُ الْعَدُوَّ ، وَأَظْهَرَ الْمُسْلِمِينَ .

وروى محمد بن عمر الأسلمي عن عَطَّافِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ : لَمَّا قَتَلَ ابْنُ رَوَاحَةَ مَسَاءً بَاتَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا وَقَدْ جَعَلَ مُقَدِّمَتَهُ سَاقَتَهُ ، وَسَاقَهُ مُقَدِّمَتَهُ ، وَمِيمَنَتَهُ مِيسِرَةً ، وَمِيسِرَتَهُ مِيمَنَةً ، فَأَنْكَرَ الْعَدُوُّ مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ رَايَاتِهِمْ ، وَهَيَّاتِهِمْ - وَقَالُوا : قَدْ جَاءَهُمْ مَدَدٌ ، فَفَزَعُوا ، وَانْكَشَفُوا مِنْهُمْ مِيزِينَ ، فَقَتَلُوا مَقْتَلَةً لَمْ يَقْتُلْهَا قَوْمٌ .

لقد أبلى خالد بلاء عظيمًا فكراً وكرًا ، وضرباً بالعدو وطعنًا .

روى البخاري (٤٢٦٥) في المغازي عن قيس بن أبي حازم قال : سمعت خالد بن الوليد يقول : لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية .

وفي رواية البخاري قال : دُقَّتْ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف .

وروى ابن سعد عن أبي عامر قال : لما أخذ خالد اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوء هزيمة رأيتها قط ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا .

هـ- رسول الله ﷺ يصف المعركة لأصحابه :

روى البخاري (٤٢٦٢) في المغازي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ نعى زيداً ، وجعفرًا ، وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : «أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم» .

وقال ﷺ : «إنَّه أحزنني قتل أصحابي ، حتى رأيتهم في الجنة إخواناً على سُرُرٍ مُتقابلين ، ورأيت جعفرًا ذا جناحين مضرجاً بالدماء ، مصبوغ القوادم . «الطبقات» ١٣٠ / ٢ .

وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا حيا ابن جعفر قال : «السلام عليك يا ابن ذي الجناحين» . رواه البخاري (٤٢٦٤) في المغازي .

و- رجوع السرية إلى المدينة واستقبال الرسول لهم :

لقد رجع المسلمون من هذه السرية بأثواب العز والفخر ، قلَّةً أبلت ، وأوقعت في العدو على كثرته أقدح الخسائر ، ورجعت بكثير من الغنائم ، ولم يفتَّ بعضهم استشهاد القادة ، بل صمدوا وانتصروا ، وهامهم في طريق عودتهم يمرون بقرية لها حصن كان أهلها قتلوا في ذهاب المسلمين رجلاً من

المسلمين ، فحاصروهم حتى فتح الله عليهم عنوة ، وقتل خالد مقاتلتهم .
ولما وصلوا إلى المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ ، مرحباً ومثنياً عليهم ،
وذاكراً بطولتهم ، ورجولتهم بقوله الكريم : «أنتم الكرّارون» .

قال ذلك لما سمع من يقول لهذا الجيش العائد : أيها الفرارون . نعم إنهم
الكرّارون الذين أفلتوا بأنفسهم أمام هذا الزحف الهائل من المشركين ، وأوقعوا
بهم مثل تلك الخسائر ، ولما لم يتبعوا فلولهم ظن البعض أن هذا نوع من
الفرار ، فصحح لهم رسول الله ﷺ هذا الفهم ، وبين لهم أن الوقوف عند ذلك
النصر ، كان عين العقل والفضل ، والمهارة والحقق .

وأعجب العجب في هذه السرية أنه لم يقتل من المسلمين إلا نفر قليل
لا يزيدون على عدد الأصابع إلا قليلاً .

قال الإمام الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ١٥٥ / ٦ : وقال في «البداية»
بعد أن ذكر جميع من قتل بمؤتة من المسلمين : فالمجموع اثنا عشر رجلاً .

قال : وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين :

أحدهما : وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله ، عدتها ثلاثة آلاف .

وأخرى كافرة عدتها مئتا ألف مقاتل : من الروم مئة ألف ، ومن نصارى
العرب مئة ألف ، يتبارزون ويتصاولون ، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين
سوى اثني عشر رجلاً ، وقتل من المشركين خلق كثير .

هذا خالد وحده يقول : لقد دقت في يدي يومئذ تسعة أسياف ، وما صبرت
في يدي إلا صفيحة يمانية .

فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها ، دع غيره من الأبطال والشجعان من
حملة القرآن .

قال : وهذا مما يدخل في قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اتَّفَتَتَا^١
فِئَةٌ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْغَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ^٢
بِصَرِيحِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران : ١٣] .

ز - اهتمام النبي ﷺ بأسر الشهداء :

لقد اهتم النبي ﷺ بأسر الشهداء من أصحابه ، ودعا إلى تكريمهم ، والعطف عليهم والإحسان إليهم ، وتقديم الطعام لهم ، والقيام بمؤنتهم وكفائتهم أيام محتتهم ، وانشغالهم بأحزانهم .

لذلك نرى النبي ﷺ عندما رجع الجيش ، وخرج الصبيان يسألون عن أوليائهم ، نراه يقول : «خذوا الصبيان فاحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر» .

فأتي بعبد الله بن جعفر ، فأخذه فحمله بين يديه ، وقال له : «هنيئاً لك ، أبوك يطير مع الملائكة في السماء ، له جناحان من ياقوت» . «السيرة الحلبية» ٧٩٢/٢ .

وقال ﷺ : «اصنعوا لآل جَعْفَرٍ طعاماً ، فإنه أتاهم أمر شغلهم» . رواه أبو داود (٣١٣٢) في الجنائر .

وذكر ابن الأثير في «أسد الغابة» ٣/١ : أن رسول الله ﷺ لما أتاه نعي جعفر دخل على امرأته أسماء بنت عميس فعزّأها فيه ، ودخلت فاطمة رضي الله عنها ، وهي تبكي وتقول : واعمّاه ، فقال رسول الله ﷺ : «على مثل جعفر فلتبك البواكي» .

وأعلن ﷺ التزامه بأسر الشهداء والأسر المحتاجة فقال : «أنا أولى بكلّ مؤمنٍ من نفسه ، من ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ» . روه مسلم (٨٦٧) في الجمعة . والضياع : هم الأطفال والعيال .

٤٥ - محصلة هذا الدور ونتائجه العظيمة :

كان لهذا الدور من أدوار سيرة النبي ﷺ نتائج عظيمة جداً ، وتمت فيه إنجازات رائعة ، تعبر كلها عن مدى ما كان يتمتع به النبي ﷺ من المهارات الراقية ، والإبداعات المتفوقة ، والحكم الجليلة ، وحسن القيادة والسياسة ، والجرأة والبصيرة ، التي تقعد دونها صفات العباقرة والمبدعين ، والفلاسفة والمشرعين ، والأدباء والسياسيين والقادة والمتفوقين .

وسنذكر من هذه النتائج ما تحتاجه هذه العجالة للكشف عن مواهبه ﷺ ، ومهاراته ، ونجاحاته في دعوته .

أ - أمن جانب أهل مكة وهم العدو الأكبر ، بعد صلح الحديبية .

ب - التخلص من كيد اليهود وعدوانهم بعد جلائهم عن المدينة ، وهزيمتهم في خيبر .

ج - انتشار ذكر الإسلام في أقاصى بلاد العرب وأدانيها ، ووصوله إلى الدول المتاخمة لبلاد العرب .

و - انتصار الإسلام في جُلّ المعارك واللقاءات ، وعلو شأنه ، واشتداد أمره .

هـ - بلوغ هبة الرسول ﷺ قلوب العرب والعجم ، وتحسّسهم بشأنه العظيم ، وتخوفهم من قوة أمره .

و - انتعاش حالة المسلمين الاقتصادية ، بما كان يصل إليهم من الغنائم والخراج ، والزكوات ، لاسيما ما كان يصلهم من خيبر .

ز - استقرار كثير من الجوانب التشريعية سواء في العبادات ، أو المعاملات ، أو القضايا الاجتماعية والسياسية .

ح - قيام المجتمع الفاضل القائم على روح الأخوة ، والمحبة ، والعدل والمساواة والايثار ، والإحسان والنظام والاتقان والتعاون .

ط - قيام دولة الإسلام الأولى بقيادة النبي ﷺ ، بكل ما تعنيه كلمة دولة بمفهومها الحديث .

لقد تحقق للنبي ﷺ وصحبه الكرام - بما أدّوه من مهارة ، وبما قاموا به من تضحية - وعُدّ الله الكريم لهم بقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] .

وقد تنبأ النبي ﷺ بهذه العواقب الرائعة ، وبشر أصحابه بهذه النتائج

المشرقة ، وهم يومها في أشد محنهم ، وأذية المشركين لهم .

فهذا خباب بن الأرت رضي الله عنه يشكو للنبي ﷺ مرَّ العذاب ، ويقول له : يا رسول الله ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فيجيبه النبي الأعظم بقوله الكريم مبشراً ، مطمئناً : «والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتَّى يسيرَ الراكبُ من صَنَعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يخافُ إلا الله ، أو الذئبَ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون»
رواه البخاري (٣٦١٢) في المناقب .

فصلى الله تعالى وسلم على نبيه العظيم ، ورضي الله تعالى عن أصحابه الكرام ، ووقفنا بفضلهم وكرمهم أن نفتدي بهم ، ونسير على دربهم إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

* * *

الدور الرابع

مهاراته ﷺ من فتح مكة إلى وفاته :

هذا الدور المبارك هو خاتمة أدوار سيرته العطرة الذي تجلى فيه أعظم الفتح ، وشق فيه ﷺ طريق أمته نحو المشرق والمغرب ، فسار أمامهم إلى تبوك آخر بلاد العرب يومئذ معلناً أن دعوته إلى الناس كافة ، فإذا كانت حياته لا تتسع لبلوغ الآفاق ، ففي جُهد أصحابه الأكفاء المقدرة على القيام بهذا الواجب الجلل بكل مهارة وإبداع ، وفي هذا الدور المبارك أكمل الله تعالى له الدين ، وأتم عليه وعلى أمته النعمة ، ومكن لهم في الأرض ، لا يخافون إلا الله تعالى .

وكان من بواكير هذا الدور العظيم من أدوار سيرته العطرة :

١ - غزوة الفتح الأعظم : فتح مكة المكرمة :

ومكة هي أم القرى ، وأهلها هم زبدة العرب ، وبفتحتها ، وإسلام أهلها يكون قد انفتح الباب على التمام ، واستسلم الناس إلى الله عز وجل ، ودخلوا في دينه أفواجا ، وكان فتحها في (١٧) رمضان سنة ثمان من الهجرة الشريفة .

أ - سبب هذه الغزوة : ويتجلى سبب هذه الغزوة بغدر قريش ، ونقضهم العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وذلك بمؤازرتهم ، ومناصرتهم أحلافهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ .

فقد غدا ناس من بني بكر ، وكلموا أشراف قريش ، وطلبوا منهم أن

يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح - وخزاعة كانت قد دخلت في عهد المسلمين ، كما دخلت بكر في عهد قريش بعد صلح الحديبية - فأجابوهم لذلك ، وخرج حشد من قريش متنقيين متنكرين ، فالتقوا مع بني بكر في مكان اسمه «الوتير» وبيتوا خزاعة ليلاً ، وهم آمنون مطمئنون ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً .

فكان هذا منهم أول الغدر ، والنقض للعهد والميثاق ، وهذا أول الأسباب الذي هيا لرسول الله ﷺ هذا الفتح ، الذي كان يطمع به ، وينظر إليه ، لكن إنما كان يمنعه منه الوفاء بذلك العهد الذي بينه وبين الناس ، وهو ﷺ سيد من وقي ، ورعى العهود والمواثيق .

ب - تبليغ رسول الله ﷺ غدر قريش :

لقد ذهب عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة ، فقدموا على النبي ﷺ فأخبروه بما أصابهم من الغدر على يد قريش وحلفائهم بني بكر ، وقال عمرو بن سالم بين يدي رسول الله ﷺ :

يا رب إني ناشدُ محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلاًدا
إن قريشاً أخلفوك الموعداً ونقضوا ميثاقك المؤكداً
هم يبتوننا بالوتير هجداً وقتلوننا رُغعاً وسجداً
فانصر رسول الله نصراً أيّداً وادعُ عباد الله يأتوا مدداً
في فيلق كالبحر يجري مُزبداً

فقام رسول الله ﷺ يجرؤ رداءه ، وقال : «نُصِرْتُ يا عمرو بن سالم ، لا نُصِرْتُ إن لم أنصر بني كعب - يعني خزاعة - مما أنصر منه نفسي» .

فما برح ﷺ حتى مرّت سحابة ، فرعدت ، فقال رسول الله ﷺ : «إن هذه السحابة لتستهلُّ بنصر بني كعب» . «الطبقات» ١٣٤ / ٢ . و«سبل الهدى والرشاد» ٢٠٢ / ٥ .

موقف بطولة ، ورجولة ، وأداء لحق العهد والحلف . بلا مماراة ، ولا مواربة .

موقف صريح ينطق بالحق والمهارة والمروءة والوفاء «لا تُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصِرْ بَنِي كَعْب».

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله يا سيد الأوفياء والشرفاء.

ج- ندم قريش على ما فعلت :

أما قريش فقد أَحَسَّتْ بما عملت ، وندمت على ما فعلت ، وهي على علم بمواقف الرسول الكريم ، وعلى معرفه أنه لا ينام على ضيم ، ولا يُقَرُّ بعسف ولا ظلم ، فراحت تفكر في المخرج من هذه الورطة التي أَلْقَتْ بنفسها فيها ، فما كان منهم إلا أن أرسلوا أبا سفيان إلى النبي ﷺ ليشدَّ العقد ، ويجدد العهد ، ويزيد في المدة ، فركب راحلته وقصد المدينة ، وهو يظن أنه لم يسبقه أحد بخبر ما حدث ، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ ، فطوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني ؟ أو رغبت بي عنه ؟

قالت : بل هو فراش رسول الله ، وأنت امرئ مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه .

موقف يعبر عن صدق الولاء لله ولرسوله ، فموالاة الله ورسوله ، فوق موالاة الأهل إن كانوا على غير ذلك ، وهذا من مهارات المسلمين الصادقين .

قال لها أبو سفيان : يا بنية ، لقد أصابك بعدي شر .

هكذا يظن بمنطقه البعيد عن الدين .

قالت رضي الله عنها ، بل هداني الله للإسلام ، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها كيف تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر .

نعم موقفها من أبيها لا يمنعها من بذل النصيح له ، ولو أسلم لعاد من أحب الناس إليها ، وقد صار فيما بعد إلى ذلك ، فقام أبو سفيان من عندها ، وأتى النبي في المسجد ، وعرض عليه ما جاء له ، فقال له النبي ﷺ : «هل كان من حَدَثٍ؟» .

قال: لا .

فقال عليه الصلاة والسلام: «فنحن على مُدَّتنا وصلحنا» .

فأعاد أبو سفيان على رسول الله القول ، فلم يردَّ عليه شيئاً .

فذهب إلى أبي بكر ، لعله يجد عنده أملاً فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ،
فقال أبو بكر: «ما أنا بفاعل» .

ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكلمه ، فكان عمر شديداً عليه ،
وقال له :

«أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر - صغار النمل -
لجهدتكم به» .

ثم أتى أبو سفيان غير أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ، فلم يجد عند
أحد شيئاً ، وكلهم يقول :

«جوارنا في جوار رسول الله ﷺ» .

د- رجوع أبي سفيان إلى مكة :

فلما يش أن يجد النصير والمعين بين المسلمين رجع إلى مكة خائباً ، لم
يأت لهم بشيء ، فاتهمه أهل مكة أنه خانهم واتبع الإسلام ، فتنسك عند
الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة .

هـ- تجهز رسول الله ﷺ للغزو :

قال ابن إسحاق: إن رسول الله ﷺ مكث بعد خروج أبي سفيان ما شاء الله
أن يمكث ، ثم قال لعائشة رضي الله عنها :
«جهّزينا ، وأخفي أمرك» .

ثم دعا أبا بكر رضي الله تعالى عنه ، وأخبره برغبته ، فقال الصديق :
يا رسول الله ، أوليس بينك وبين قريش عهد؟ قال : «نعم ، ولكن غدروا
ونقضوا» .

ثم أمر أصحابه الكرام أن يتجهزوا ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة وقال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة» .

فقدم جمع من قبائل أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وأشجع ، وجهينة .

وطوى ﷺ الأخبار عن الناس ، كيلا يشيع الأمر ، فتعلم قريش ، فتستعد للحرب ، فالرسول ﷺ لا يريد أن يقيم حرباً بمكة ، وإنما يريد هداية أهلها ، وانقيادهم للإسلام الذي به عزهم الحقيقي من دون مساس بحرمة مكة وبيت الله الحرام ، لذلك قال : «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم ، فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة» .

و- قصة حاطب بن أبي بلتعة :

قال الإمام الشامي : لما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر بالمسير إليهم .

وقيل : كان في الكتاب : إن رسول الله توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله تعالى عليكم ، فإن الله مُنْجِزٌ له ما وعده فيكم ، فإن الله تعالى ناصره ، ووليه .

وقيل كان فيه : إن رسول الله قد نفر ، فإمّا إليكم ، وإما إلى غيركم ، فعليكم بالحدز .

وفي رواية : وقد أحببت أن يكون لي يد بكتابي إليكم .

ثم أعطى الكتاب امرأة ، وجعل لها جُعلًا على أن تبليهم أهل مكة ، وقال لها : اخفيه ما استطعت ، فأعلم الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالأمر .

روى البخاري (٣٠٠٧) في الجهاد ، ومسلم (٢٤٩٤) في فضائل الصحابة عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير ، والمقداد بن الأسود وقال : «انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خَاحٍ ، فإن بها ظعينةً ، ومعها كتابٌ فخذوه منها» .

فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الرّوضة ، فإذا نحن بالظعينة فقلنا :
أخرجني الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب .
فقلنا : لتُخرجنّ الكتاب ، أو لنُلقيَنَّ الثّيابَ .
فأخرجته من عِقاصها .

فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من
أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطبُ ،
ما هذا؟ » .

قال : يا رسول الله ، لا تَعَجَلْ عليّ ، إني كنتُ امرءاً مُلصقاً في قريش ،
ولم أَكُنْ من أنفُسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون
بها أهليهم وأموالهم ، فأحييتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم
يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله كُفْراً ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر
بعد الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « قد صدقكُم » .

فقال عمرُ ، يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : « إنه قد
شهد بَدْرًا ، وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم
فقد غَفَرْتُ لَكُم » .

هذه زَلّة من حاطب ، لكن القائد العظيم ، لم يُلغِ بها ماضيه المجيد ولم
يسقط من الاعتبار جهاده في بدر بهذه الغلطة .

وهذا منه ﷺ منتهى الوفاء لأصحابه ، والاستبقاء على مودتهم ، ومنتهى
المهارة في كسب حُبهم واحترامهم ، وتطبيب قلوبهم ، فليس في الدنيا
معصوم بعد الأنبياء .

ز - خروج رسول الله ﷺ من المدينة قاصداً مكة :

قال الإمام الشامي : خرج رسول الله ﷺ يوم الأربعاء بعد العصر لعشر خلون
من رمضان ، ونادى مناديه : « من أحبّ أن يُصومَ فليُصُمْ ، ومن أحبّ أن يُفطرَ
فليُفطر » .

وروى البخاري (٤٢٧٦) في المغازي ، أن النبي ﷺ خرج في رمضان من المدينة ، ومعه عشرة آلاف ، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة ، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة ، يصُومُ ويصُومون حتى بلغ الكَدِيدَ - وهو ماء بين عُسْفان وقَدِيدَ - أفطر وأفطروا .

وسار رسول الله ﷺ وفي طريقه لقي عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله ، فأمره أن يعود معه إلى مكة ، ويرسل عياله إلى المدينة ، وروي أنه قال له حين لقيه مهاجراً:

«هَجَرْتُكَ يَا عَمُّ آخِرُ هَجْرَةٍ ، كما أن نبوتي آخر نبوة» .

«سبل الهدى والرشاد» ٢١٣/٥ .

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام قُدَيْدًا عقد الألوية والرايات ، ودفعها إلى القبائل .

ثم نزل مرَّ الظهران عشاءً ، فأمر أصحابه فأوفدوا عشرة آلاف نار .

ج - أمر قريش :

لم تكن أخبار هذا الزحف العظيم ، قبل وصول رسول الله ﷺ إلى مرَّ الظهران قد وصلت قريشاً بعد ، ولكنهم كانوا يتوقعون أمراً بسبب فشل أبي سفيان فيما جاء به إلى المدينة ، ويتوجَّسون خيفة ، فأرسلوا أبا سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبُدَيْل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ ، فأقبلوا يسرون حتى دنوا من مرَّ الظهران فإذا هم بنيران عظيمة ، كأنها نيران عرفة ، فقال أبو سفيان : ما هذه لكانها نيران عرفة .

فقال بُدَيْل بن ورقاء : نيران بني عمرو .

فقال أبو سفيان : عمرو أقلُّ من ذلك .

وفي هذه الأثناء كان حرس رسول الله ﷺ وعلى رأسهم العباس يطوف حول العسكر ، فسمعوا أصواتهم ، وعرف العباس صوت أبي سفيان ، فأمسكوا به وبمن معه ، فأتوا بهم رسول الله ﷺ ، فأسلموا .

وروى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما رأى أبا سفيان قال له :

«ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» .

قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد .

قال : «ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟» .

قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك ، وأوصلك ، أما هذه ، والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً .

هل رأيت يا أخي مثل هذه المكابرة بين يدي القائد العظيم ، إنَّ قتل هذا الزعيم المتنكر لنبوة رسول الله بين يديه لأهون عليه من شربة ماء ، وليس بينه وبين طيران رأسه عن جثته إلا إشارة بטרقة عين .

لكنه ﷺ - كما قال أبو سفيان - : الرسول الكريم الذي يصل ما انقطع ، ويعطى من حرم ، ويعفو عمن ظلم ، وليس له عند الناس ألا حبُّ هدايتهم إلى الله تعالى .

لقد تخوف العباس من عناد أبي سفيان ، فحذَّره ، وقال له : اسلم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق وأسلم .

وانتهى دوره في الخصام ، وغدا جندياً من جنود الإسلام ، ولما انتهى هذا المشهد من الحوار بين القائد وأسيره الكبير .

قال الرسول ﷺ للعباس بن عبد المطلب : امسك أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين فحبسه العباس هناك ، وانتظر به حتى يرى جند الله تتدفق بألويتها وراياتها .

ط - تعبث رسول الله ﷺ أصحابه لدخولهم مكة ومرورهم بأبي سفيان :

لقد كان رسول الله ﷺ بحذقه ورحمته حريصاً أن يقنع قريشاً بعدم جدوى معارضتهم ، وأن الأولى بهم - وقد آن الأوان - أن يسلموا ، ويدخلوا فيما دخل

فيه الناس ، فيحققوا بذلك دماءهم ، ويُحرزوا أموالهم .

فجمع لهم الجموع ، ونظم الصفوف ، وفرق الرايات والألوية إظهاراً للعزة والقوة التي تغلق على القوم منافذ التفكير بالحرب والمعارضة .

فأمر رسول الله ﷺ منادياً يُنادي : لَتُصْبِحَ كُلُّ قَبِيلَةٍ قَدْ أَرْحَلَتْ ، ووقفت مع صاحبها عند رايته ، وتظهر ما معها من الأداة والعُدَّة ، فأصبح الناس على أتم استعداد للسير والدخول ، والمرور على أبي سفيان بعَرَضٍ لم ير أبو سفيان مثله ، ولم تشهد جزيرة العرب له نظيراً .

وقدَّم رسول الله ﷺ بين يديه الكتائب : ومَرَّتِ القبائل على قادتها ، والكتائب على راياتها .

قال محمد بن عمر : وكان أول من قدَّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في بني سُليْم ، وهم أَلَفٌ ، ومعهم لواءان وراية ، فلما مروا بأبي سفيان كَبَرُوا ثلاث تكبيرات ، ثم مضوا .

فقال أبو سفيان : يا عباس ، من هؤلاء ؟

فقال : هذا خالد بن الوليد .

قال : الغلام ؟ .

قال : نعم .

قال : ومن معه ؟

قال : بنو سُليْم .

قال : مالي ، ولبنِي سُليْم .

ثم مرَّ على أثره الزبير بن العوام في خمس مئة من المهاجرين وأفناء العرب ، ومعهم راية سوداء ، فلما مرُّوا بأبي سفيان كَبَرُوا ثلاثاً .

فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟

قال : هذا الزبير بن العوام .

قال : ابن أختك؟

قال : نعم .

ثم مرت بنو غفار في ثلاث مئة يحمل رايتهم أبو ذر ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً .

فقال أبو سفيان : من هؤلاء؟

قال : بنو غفار .

قال : مالي ولبنني غفار .

ثم مرّت أسلم في أربع مئة فيها لواءان ، يحمل أحدهما بُرَيْدَةُ ، والآخر ناجية ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً .

فقال : من هؤلاء؟

قال : أسلم .

قال : مالي ولأسلم .

ثم مرّت بنو كعب بن عمرو في خمس مئة يحمل رايتهم بُسر بن سفيان ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً .

فقال : من هؤلاء؟

قال العباس : بنو عمرو بن كعب .

ثم مرت مُزَيْنَةُ في ألف فيها ثلاثة ألوية ، ومئة فرس ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً .

قال : من هؤلاء؟

قال العباس : مُزَيْنَةُ .

قال : مالي ولمزينة .

ثم مرّت جُهَيْنَةُ في ثمان مئة ، فيها أربعة ألوية ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً .

فقال : من هؤلاء؟

قال : جهينة .

قال : مالي ولجهينة .

ثم مرّت كنانة في مئتين ، يحمل لواءهم أبو واقد الليثي ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً .

فقال : من هؤلاء؟

قال العباس : بنو بكر .

ثم مرت أشجع في ثلاث مئة ، معهم لواءان ، وهم آخر من مرّ ، فلما حاذوه كبروا ثلاثاً .

قال أبو سفيان : من هؤلاء؟

قال العباس : هؤلاء أشجع .

قال أبو سفيان : هؤلاء كانوا أشدّ العرب على محمد .

قال العباس : أدخل الله تعالى الإسلام في قلوبهم ، فهذا فضل من الله تعالى .

ثم قال أبو سفيان : أبعد ما مرّ محمد؟

فقال العباس : لا ، لم يمض محمد بعد ، ولو أتت الكتيبة التي فيها محمد رأيت فيها الحديد ، والخيول ، والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة .

قال أبو سفيان : ومن له بهؤلاء طاقة؟

وجعل الناس يمرّون كل ذلك يقول أبو سفيان : ما مرّ محمد؟

فيقول العباس : لا .

حتى طلعت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء ، التي فيها المهاجرون والأنصار ، وفيها الرايات والألوية ، مع كل بطن من بطون الأنصار لواء وراية ، وهم في الحديد ، لا يرى منهم إلا الحدق ، ولعمر بن الخطاب فيها

زَجَلَ بصوت عالٍ ، وهو يزعها ، ويقول: رُوِيْدًا حَتَّى يَلْحَقَ أَوَّلَكُمْ آخِرَكُمْ ،
ويقال: كان في تلك الكتيبة ألفا دارع ، وأعطى رسول الله ﷺ رايته سعد بن
عبادة ، فهو أمام الكتيبة ، فلما مرَّ سعد براية رسول الله نادى أبا سفيان ،
فقال:

اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُسْتَحْلُ الحُرْمَةُ ، اليوم أذل الله قريشاً.

قال أبو سفيان: حبذا يوم الذمار: أي الهلاك.

ثم طلع رسول الله ﷺ وهو على ناقته القصواء بين أبي بكر ، وأسيد بن
الحضير.

فقال العباس: هذا رسول الله ﷺ.

فقال أبو السفيان: لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً.

قال العباس: يا أبا سفيان ، إنها النبوة.

قال: فنعم ، إذاً.

فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان ، قال: يا رسول الله أَمَرْتَ بقتل قومك؟

ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟

قال: «ما قال؟»

قال: كذا ، وكذا ، وإني أنشدك الله في قومك ، فأنت أبرُّ الناس ، وأوصل

الناس ، وأرحم الناس.

فقال رسول الله ﷺ: «كذب سعد ، يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة ،

اليوم يوم يُعْظَمُ الله فيه الكعبة ، اليوم يوم تُكْسَى فيه الكعبة ، اليوم يوم أعزَّ الله
فيه قريشاً».

هل كانت مكة ، وأهلها وزعيمها أبو سفيان بحاجة ليؤمنوا ويكفوا أيديهم

إلى مثل هذا الاستعراض العسكري الذي لا تختلف عنه الاستعراضات
العسكرية اليوم؟

نعم ، إن رسول الله ﷺ أراد أن يري الناس جند الله عز وجل ، وما صاروا إليه من العزة والقوة ، وقد كانوا بالأمس القريب يعذبون ، ويطاردون في كل مكان .

أراد بهذا أن تفتح الأبواب على مصاريعها ليدخل الناس إلى رحاب الهداية ، وواحات الأنس بالدين من غير كَرْ ولا فَرْ ، ومن غير قروح ولا دماء .

ي - تكريم رسول الله ﷺ لأبي سفيان :

وفي هذه الأثناء وفي خضم هذا العرض ، وأطياف هذا الموقف ، قال العباس بن عبد المطلب ، للنبي ﷺ : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يُحبُّ الفخر ، فاجعل له شيئاً .

قال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

أي تكريم هذا؟ لقد جعل داره ملجأً للخائفين ، وحصناً للموتورين ، في الوقت الذي لم يكن رسول الله ﷺ خائفاً منه ، ولا محتاجاً إلى تملُّقه ، وفي الوقت الذي لم تتدخل فيه جراحات المسلمين التي كان لأبي سفيان أعظم الأدوار في تفتيقها بالدماء .

إنه التكريم النابع من الرحمة ، والعطف ، وحب الخير لكل الناس .

لقد صاح العباس بعد هذا بأبي سفيان ، وقال له : النجاة إلى قومك .

فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة قبل أن يصلها رسول الله ﷺ ، وصرخ بأعلى صوته :

يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك؟

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

ك - دخول رسول الله ﷺ مكة .

ودخل رسول الله ﷺ بكتيبته مكة من أعلاها «كداء» وحوله الأسود مقنعين بالحديد ، لا يرى منهم إلا الحدق .

وفي هذا المظهر الحافل بالعزة دخل رسول الله مكة خاشعاً متواضعاً ، خافضاً رأسه ، حتى ليكاد عُثُونُه - شعر ذقنه - يمسُّ واسطة الرحل ، وهو يقرأ سورة الفتح .

وأمر خالد بن الوليد أن يدخل بمن معه مكة من أسفلها ، «كُدَى» وأمرهم أن يكفوا أيديهم ، ولا يقاتلوا إلا من قالتهم ، ولما وصل ﷺ إلى البيت رأى حوله ثلاث مئة وستين صنماً ، فجعل يطعنها الواحدة تلو الآخرة بعود في يده ، وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١] .

﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩] . رواه البخاري (٤٢٨٧) في المغازي .

وطاف بالبيت راكباً على القصواء ، يستلم الركن بمخجنه وكبر ، فكبر المسلمون بتكبيره ، حتى ارتجَّت مكة تكبيراً ، ثم أمر عثمان بن طلحة أن يأتيه بمفتاح البيت ، فإذا في جوف الكعبة أيضاً آلهة ، فأبى أن يدخل البيت وفيه هذه الآلهة المزورة .

روى البخاري (٤٢٨٨) في المغازي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرجت صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام ، فقال النبي ﷺ: «قاتلهم الله» ، لقد علموا ما استنفسما بها قط .

ثم دخل البيت ، فكبر في نواحي البيت ، وخرج ، ولم يصل . ثم دعا عثمان بن طلحة ، فرفع إليه المفتاح ، وقال له: «خذوها خالدة مخلدة» ، إنني لم أدفعها إليكم (أي حجابة البيت) .

ولكن الله دفعها إليكم ، ولا ينزعها منكم إلا ظالم .

وقد صح من روايات أخرى أن النبي ﷺ صَلَّى داخل الكعبة ، كما أخبر بلال رضي الله عنه ، وكان مع النبي ﷺ ، ثم أمر بلالاً رضي الله تعالى عنه ، فصعد فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

قال ابن إسحاق: وأمسك النبي ﷺ بعضادتي باب الكعبة ، وقد اجتمع الناس من حوله ، ما يعلمون ماذا يفعل بهم ، فخطب فيهم قائلاً: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده».

ألا كُلُّ مأثرةٍ أو دم ، أو مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج.

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب».

وتلا قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم قال: «يا معشر قريش ، ما ترون أنني فاعل بكم؟».

قالوا: خيراً أخ كريم ، وابن أخ كريم.

فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». «فقه السيرة» ص ٣٦١.

وروى البخاري (٤٢٩٥) في المغازي ، ومسلم (١٣٥٤) في الحج عن أبي شريح العدوي أن النبي ﷺ قال يوم الفتح: «إن مكة حرمها الله ، ولم يُحرّمها النَّاسُ ، فلا يحلُّ لأمريءٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ، ولا يعضدَ بها شجراً ، فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله ﷺ فيها ، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لكم ، وإنما أذن فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب».

ماذا بقي - أخي الكريم - بعد هذا النصر العظيم ، والفتح المبين ، وصلّى

العفو عن قوم عَذَّبوه وعَذَّبوه ، وأخرجوه وغَرَّبوه ، وحاربوه ، وأَلَبُّوا عليه ،
وجرَّحوه ، وقتلوا خيرةً من أهله وأصحابه .

واليوم يقف القائد بين الجموع تعلو محياه البسمة ، ويمد يديه ، للناس ،
ويفتح صدره لهم ، ماذا بقي؟

لقد بقي أن يُقبل عليه الناس ، ويسعوا إليه - وقد رأوا آيات الصدق ، وأدلة
النبوة تملأ بسناها كل أرض وكل سماء - ليبايعوه على الإسلام ، ويعاهدوه على
اتباع الحق ، ونصرة الدين ، وهكذا فعلوا .

ل - ذكر البيعة :

قال الإمام الشامي في «سبل الهدى والرشاد» ٥ / ٢٤٧ :

روى الإمام أحمد ، والبيهقي عن الأسود بن خلف رضي الله تعالى عنه ،
أنه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح .

قال : فجاء الكبار والصغار ، والرجال والنساء فبايعهم على الإيمان بالله
وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، قال : وقال الحافظ
أبو جعفر محمد بن جرير : اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على
الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلس
رسول الله ﷺ ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ،
فلما فرغ منبيعة الرجال ، بايع النساء - وفيهن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان
مُنتَقِبَةً ، متنكرةً خوفاً من رسول الله ﷺ أن يُخبر بما كان من صنعها بحمزة
رضي الله عنه ، فهي تخاف أن يأخذها بحدثها ذلك .

فلما دَنَيْنَ من رسول الله ﷺ قال : «بايعنني على أن لا تُشركنَ بالله شيئاً» .

فرفعت هند رأسها وقالت : والله إنَّك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على
الرجال ، فقال : «ولا تُسرِقن» .

فقال : والله إنني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت
أدري : أكان ذلك حلالاً ، أم لا؟ .

فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول - أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حلٍّ ، عفا الله عنك ، ثم قال : «ولا تزنين» .

فقلت : يا رسول الله ، أو تزني الحرّة؟ ثم قال : «ولا تقتلن أولادكن» .

قلت : قد ربيناهم صغاراً ، وقتلتهم كباراً ، فأنت وهم أعلم .

فضحك رسول الله ﷺ ، وعمر رضي الله عنه ، ثم قال : «ولا تأتين ببهتانٍ تفتريه بين أيديكن وأرجلكن» .

فقلت : والله إن إتيان البهتان لقيح ، ولبعض التجاوز أمثل ، ثم قال : «ولا تعصين» .

فقلت : في معروف .

فقال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه : «بايعهنَّ واستغفر لهنَّ الله إن الله غفور رحيم» .

فبايعهنَّ عمر رضي الله عنه .

وكان رسول الله ﷺ لا يصفح النساء .

قالت عائشة رضي الله عنها : لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها . رواه البخاري (٧٢١٤) في الأحكام .

وفي رواية : ما كان يبايعهن إلا كلاماً ويقول :

«إنما قولِي لامرأة واحدة كقولِي لمئة امرأة» رواه أحمد ٣٥٧/٦ .

يتبيّن من هذه البيعة للرجال والنساء مدى حرص الرسول ﷺ على توثيق أمره ، وتأكيد عهده ، وتربية المؤمنين والمؤمنات على الالتزام بالعهود ، والتحلي بالفضائل .

ولقد برز في سلوكه ﷺ جانب اللطف والعفو والصفح ، وتأليف القلوب على الخير ، ولم يؤاخذ امرأة دأبت على مراجعته مرّة بعد مرّة ، مع ما كان لها من تاريخ محرج مع النبي ﷺ ودعوته وأصحابه .

إنها لما جاءت كانت متنقبة متنكرة ، فلما اطمأنت إليه كشفت عن نقابها ، وقالت : أنا هند بنت عتبة .

فقال لها رسول الله ﷺ : «مرحباً بك» .

فقلت : الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه ، لتمسني رحمتك يا محمد .

ثم قالت : يا رسول الله ، والله ما كان على وجه الأرض من أهل خباء أحب إلي من أن يذلوا من خبائك ، ولقد أصبح ، وما على الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من خبائك . «سبل الهدى والرشاد» ٢٥٥/٥ .

إن المعروف الذي كان يبذله رسول الله ﷺ واللفظ واللين ، والرحمة التي كان رسول الله ﷺ يبسطها للعدو والصديق كان من شأنها أن تبدل الأحوال ، وتستل سخائم الخلال من قلوب الرجال والنساء ، وصدق الله عز وجل حيث قال في نبيه الكريم ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقال : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقال : ﴿ آدَفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

م - مقولة الأنصار بعد الفتح :

لما رأى الأنصار رضي الله عنهم رأفة النبي ﷺ بأهل مكة ، وكف القتل والأذى عنهم ، تخوفوا أن يتركهم رسول الله ﷺ ويقيم في بلده ، وتحركت في نفوسهم عوامل الحب لرسول الله ، والضن به ، وقالوا فيما بينهم :

«أما الرجل فآدرسته رغبة في قريته ، ورأفة بعشيرته» .

فبلغه ذلك ، فأسرع إليهم وقال : «يا معشر الأنصار» .

قالوا : لبيك ، يا رسول الله .

قال : قلت : «أما الرجل فآدرسته رغبة في قريته ؟» .

قالوا: قد كان ذاك .

قال: «كَلَّا ، إني عبدُ الله ورسولُه ، هاجَرْتُ إلى الله وإليكم ، والمحيا محياكم ، والمماتُ مماتكم» .

فأقبلوا إليه ليكون ويقولون: «والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضَّنَّ بالله وبرسوله» فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانَكُمْ وَيَعْذِرَانَكُمْ» رواه مسلم (١٧٨٠) في الجهاد .

فصلى الله عليه وسلم ما أشدَّ وفاءه لأصحابه ، وما أعظم حكمته في مداراتهم وتطيب قلوبهم ، ورضي الله عنهم ، ما كان أعظم محبتهم لرسول الله ﷺ ورغبتهم فيه ، وحرصهم عليه .

س - هدم الأصنام :

وبعد فراغه من أمر الفتح ، التفت ﷺ إلى تطهير البلاد من الأصنام ، لاسيما أكبرها ، وأشدّها تعلقاً للناس بها .

- ففي اليوم الخامس من مقامه في مكة أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين راكباً لهدم هيكل العزى ، وهي أكبر صنم لقريش ، وكانت ببطن نخلة ، فتوجه إليها خالد وهدمها .

- وأرسل عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه في نفر لهدم سُواع ، وهو أعظم صنم لهذيل ، وكان على ثلاثة أميال من مكة ، فذهب إليه وهدمه .

- وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة ، وهي صنم لكلب وخزاعة ، وهي بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منها إلى قُدَيْد ، فتوجهوا إليها وهدموها .

- ونادى منادي رسول الله ﷺ بمكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره» .

وهكذا سقطت الطواغيت ، ونفض عبادهما أيديهم منها ، وآبوا إلى الله عزَّ وجلَّ .

ع - قصة فضالة بن عمير الليثي :

في هذه الأجواء التي ترفرف فيها معالم النصر ، وتعلوا فيها رايات الأمن والأمان يقوم فضالة بن عمير الليثي بمحاولة شاذة يجزّب فيها حظه ، وهي اغتيال النبي ﷺ ، وهو يطوف بالبيت ، ويدنو فضاله من النبي ﷺ ، وقبل أن يقوم بشيء يلتفت إليه رسول الله ﷺ ، ويقول له : «أفضالة؟» .

قال : نعم ، فضالة ، يا رسول الله .

قال : «ماذا كنت تحدّث به نفسك؟» .

قال : لاشيء ، كنت أذكر الله ، فضحك رسول الله ﷺ ، ثم قال : «استغفر الله» .

ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : «والله ما رفع يده عن صدري حتى مامن خلق الله شيء أحبّ إليّ منه» .

قال فضالة : فرجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأة كنت أتحدّث إليها ، فقالت : هلمّ إلى الحديث ، فقال : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلمّ إلى الحديث فقلت : لا يأبى عليّ الله والإسلام
لو قد رأيت محمّداً وقبيله بالفتح يوم تكسّر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيناً والشرك يغشى وجهه الإظلام
«زاد المعاد» ٤١٢/٣ .

لقد تغير الرجل بلمسة رسول ، ودعوة نبي ، وتوفيق رب العالمين ، وأضحى صديقاً للحق ، يغار على الإسلام ، ويأبى ما اعتاده من أحاديث الآثام .

إن الله عز وجل كما عصم رسول الله ﷺ من الغدر به ، والقتل له حلّاه بمكارم الأخلاق ، وسلّحه بكل أساليب المهارات ، وفنون التأليف ، وأصناف الرفق واللين ، والتجيب إلى الناس ، ونفى عنه عوامل الطيش ، والنزق ، وحب الانتقام للنفس .

وصدقت عائشة رضي الله عنها حين قالت :

«ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه ، إلا أن ينتهك محارم الله تعالى ، فينتقم لله تعالى» . رواه مسلم (٢٣٢٨) في الفضائل .

ف - إسلام أبي قحافة والد أبي بكر الصديق :

واسمه : عثمان بن عامر القرشي التيمي ، أتى به أبو بكر رضي الله عنه يوم الفتح النبي ﷺ ليبايعه .

روى الإمام أحمد ١٦٠ / ٣ : أن أبا بكر رضي الله عنه جاء بأبيه أبي قحافة إلى رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يحمله ، حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : «لو أقرزت الشيخ في بيته لأتينا» تَكْرِمَةً لأبي بكر ، فأسلم ، ولحيته ورأسه كالثغامة بياضاً ، فقال رسول الله ﷺ : «غَيَّرُوهَا ، وَجَنَّبُوهُ السَّوَادَ» .

والثغامة نبت أبيض الزهر .

وتوفي أبو قحافة سنة أربع عشرة ، وله سبع وتسعون سنة .

ص - المؤمنون ممن أهدر رسول الله دماءهم :

لقد أفرط جماعة من المشركين في النيل من الإسلام ، والإساءة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فأهدر دمهم حين دخل مكة ، وأمر بقتلهم حيثما وجدوا ، وهم ستة رجال ، وأربع نسوة ، فقتل بعضهم ، وأدركت العناية بعضهم فأسلم ، وحقن دمه ، منهم :

- عكرمة بن أبي جهل ، فإنه كان هو وأبوه من أشد الناس أذية للنبي ﷺ ، وأصحابه ، فلما بلغه أن النبي ﷺ أهدر دمه ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وفرَّ إلى اليمن ، فتبعته امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وهي بنت عمه - وكانت أسلمت ، واستأمنت له رسول الله ﷺ فأَمَنَهُ - فوجدته في ساحل البحر يريد أن يركب السفينة ، فنادته ، وقالت : يا ابن عم جئتكَ من عند أوصل

الناس وأبّر الناس ، وخير الناس ، لا تهلك نفسك ، فقد استأمنت لك ، فجاء معها ودخل على النبي ﷺ ، فقال له : يا محمد ، إن هذه أخبرتني أنك أمّنتني؟ قال : « صدقت ، إنك آمن » .

فقال عكرمة : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد رسول الله ، وطأطأ رأسه من الحياء ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا عكرمة ، ما تسألني شيئاً أقدرُ عليه إلا أعطيتكه » .

قال : استغفر لي كُلَّ عداوة عاديتكها .

فقال ﷺ : « اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها ، أو منطلق تكلم به » .

وروي أن النبي ﷺ قال : قبل أن يقدم عليه عكرمة : « يأتاكم عكرمة مؤمناً مهاجراً ، فلا تسبوا أباه ، فإن سبَّ الميت يؤذي الحيِّ ، ولا يلحق الميت » . « السيرة الحلبية » ٣ / ٣٩ - ٤٠ .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، يا نبي الخير ، والمعروف والإنسانية والعفو والإحسان .

تاريخ حافل بالأذى ورثه الرجل عن أبيه وزاد فيه يسقط كله بلحظة ، وينساه القائد ، ويتحاشى ذكره ، خشية أن يخدش من عزة وكرامة رجل دخل عليه مؤمناً ، وألقى إليه بنفسه مستسلماً .

إنها المروءة ، والعبقريّة ، والمهارة التي يحتاجها القادة والعلماء والعظماء .

هذا الرجل - عكرمة - رضي الله عنه ، ما إن أسلم حتى جدَّ وشدَّ في تدارك ما فاتته ، فقد صدق في إسلامه ، ووضع نفسه في خدمة الدين ، حتى قتل شهيداً في قتال الروم في وقعة اليرموك .

- هبّار بن الأسود ، أهدر النبي ﷺ دمه ، لأنه مع كفره ، وأذيته للنبي ﷺ ،

عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ في سفهاء من قریش ، وهي في طريقها إلى المدينة مهاجرة ، بعد أن بعث بها زوجها أبو العاص ، فنخس بغيرها ، وقيل : ضربها بالرمح ، فسقطت من على الجمل على صخرة ، وكانت حاملاً ، فألقت

ما في بطنها ، فقال رسول الله ﷺ : «إن لقيتم هَبَّاراً فأحرقوه» .

ثم قال : «إنما يعذب بالنار رب النار ، إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه» ، فلم يجدوه يوم الفتح .

فلما رجع النبي ﷺ إلى المدينة جاء هَبَّار ، فدخل على النبي ﷺ رافعاً صوته بقوله : يا محمد أنا جئت مُقَرَّراً بالإسلام ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأعتذر إليك .

لقد هربت منك في البلاد ، فأردت اللقوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائذك وفضلك في صفحك عمن جهل عليك .

وَكُنَّا يا نبي الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من الهلكة ، فاصفح عن جهلي وعما كان مني ، فإني مقرّ بسوء فعلي ، معترف بذنبي .

فأجابه القائد العظيم بغير تمهل ، ولا تردّد - متناسياً ماضياً طويلاً من السوء ، ومتشاغلاً عنه : «يا هَبَّار عفوت عنك ، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام ، والإسلام يجب ما كان قبله» .

«السير الحلبية» ٣/ ٣٨ .

- صفوان بن أمية ، وكان كأبيه أمية بن خلف ، شديد العداوة للنبي ﷺ ، فلما بلغه أن رسول الله ﷺ أهدر دمه اشتدّ عليه الأمر ، فهرب ليقذف نفسه في البحر ، فأتى عمير بن وهب ، وهو ابن عم صفوان رسول الله ﷺ فقال له : يا نبي الله ، إن صفوان سيد قومي ، وقد هرب ليقذف نفسه في البحر ، فأمنه ، فإنك أمنت الأحمر والأسود ، فقال ﷺ : «أدرك ابن عمك ، فهو آمن» .

فقال : أعطني آية يعرف بها أمانك .

فأعطاه عمامته التي دخل بها مكة .

فذهب عمير ، وأدرك صفوان ، وهو يريد أن يركب البحر ، فناده قائلاً : أي صفوان ، فذاك أبي وأمي ، جئتك من عند أفضل الناس ، وأبرّ الناس ،

وأحلم الناس ، وخير الناس ، وابن عمك عزّه عزّك ، وشرفه شرفك ، ومملكه ملكك .

قال : إني أخافه على نفسي .

قال : هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف على رسول الله ﷺ ، وقال : إن هذا يزعم أنك أمّنتني .

قال : «صدق» .

فقال : يا رسول الله ، امهلني بالخيار شهرين .

فقال ﷺ : «أنت بالخيار أربعة أشهر» .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، ماذا يقول الذي يزعم أنك أكرهت الناس على الإسلام . وأنت تعطي هذا ، وهو أسيرك ، ودمه بين شفتيك الخيار أربعة أشهر ، ثم إن شاء بعد أسلم ، وإن شاء لم يسلم .

ولصفوان هذا حديث يُحكى بعد هذا مع رسول الله ﷺ ، يدل على حُكّة القائد ، ووضوح أمره .

لقد خرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، وهو لا يزال على شركه ، وعند صفوان سلاح ، وعتاد ، فطلب منه رسول الله ﷺ أن يعيره بعض السلاح ، فما تردّد أن قال للنبي ﷺ .

طوعاً ، أو كَرْهاً؟

فقال عليه الصلاة والسلام : «بل طوعاً ، عارية مضمونة» .

فأعاره .

ولما انتصر المسلمون بحنين ، وغنموا غنائم كثيرة ، رأى النبي ﷺ صفوان بن أمية يَرْمُقُ شِعْباً مليئاً نعماً وشاةً من أنعام الغنائم ، فقال له رسول الله ﷺ : «أيعجبك هذا؟» .

قال: نعم.

قال: «هولك ، وما فيه».

فقبض صفوان مافي الشعب ، وراح يقول: والله ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبي ، فأسلم ، وحسن إسلامه .

إسلام رجل واحد ، وإنقاذه من الكفر والنار أعظم من النعم والشاء في نظر النبي ﷺ ، فالمال عرض زائل ، وعارية مستردة ، لكن الإيمان والإسلام والنجاة من النار ثمار يانعة لا تفتنى ولا تبيد ، والنبي ﷺ يعلم كم في إثارتها من فضل .

وهذا دليل آخر يدل على ما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من فنون الرحمة ، وألوان العطف والإحسان ، ووضوح الهدف .

وهناك مواقف أخرى من العفو ، والمسامحة ، والإجارة ، والأمان طار ذكرها هنا وهناك ، وعلمها القاصي والدني ، وهي معالم فخر في مُحْيَا هذا النبي ﷺ ، وبشائر نور في جبينه الكريم .

ق - قفل باب وجوب الهجرة إلى المدينة بعد الفتح :

كانت الهجرة إلى المدينة واجبة على كل من أسلم خارجها ، فلما فتحت مكة رفع هذا الوجوب ، وغدت أرض الإسلام واحدة يقيم المسلم حيث شاء فيها .

روى البخاري (٤٣٠٥) في المغازي عن مجاشع بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح .

فقلت: يا رسول الله ، جئتك بأخي لتبایعه على الهجرة ، قال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها» .

فقلت: على أي شيء تبایعه؟ قال: «أبایعه على الإسلام ، والإيمان والجهاد» .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «لا هجرة بعد الفتح» رواه البخاري (٤٣١١) في المغازي.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: زرت عائشة رضي الله تعالى عنها مع عبيد بن عمير ، فسألها عن الهجرة ، فقالت: «لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفرون أحدهم بدينه إلى الله ، وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يُفتن عليه أما اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء ، ولكن جهاد ونية». رواه البخاري (٤٣١٢) في المغازي.

لقد وضع النبي ﷺ للمسلمين بعد فتح مكة معالم واضحة ، ورسم له هدفاً جلياً: «جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا». رواه البخاري (٣٠٧٧) في الجهاد.

ر- مقام النبي ﷺ بمكة عام الفتح:

روى البخاري (٤٢٩٨) في المغازي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين».

لقد كان هذا الفتح العظيم إيذاناً بولادة فجر جديد من أيام الدعوة ، وعزة الإسلام ، مما مكّن الأمن والأمان في الأرض وفتح الأبواب للناس ليدخلوا بحرية في دين الله أفواجاً.

لا يخافون سوط سلطان ، ولا ظلم إنسان ، والحمد لله رب العالمين .

٢- غزوة حنين:

حنين: واد قريب من الطائف ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات .

وقد خرج إليها رسول الله ﷺ لست خلون من شوال سنة ثمان من الهجرة الشريفة .

وهي الغزوة التي تلت غزوة الفتح ، وليس بينهما كبير وقت .

وكانت غزوة حنين خاتمة لحروب العرب ، التي أعز الله تعالى بها الإسلام وأهله ، ومكن لهم تماماً في الأرض .

فلم يبق إلا فئات قليلة هنا وهناك يسوقهم الطيش إلى شهر السلاح ، ثم لا يلبثون أن يغمدوه حين تظهر لهم قوة الحق ، وسلطان الدين .

أ- سبب غزوة حنين :

وسبب هذه الغزوة ما كان من استياء هوازن وثقيف من النصر الذي كان لرسول الله ﷺ على أهل مكة ، وخشيتهم أن يصيبهم ما أصاب أهل مكة من الهزيمة .

فقد اجتمع أشرافهم وتشاوروا ، وقال بعضهم لبعض : قد فرغ محمد من قتال قومه ، ولا ناهية له عنا ، فلنغزه قبل أن يغزونا ، ونفخ الشيطان في أنوفهم ، وتملكتهم حمية الجاهلية ، حتى قال قائلهم : والله إن محمداً لاقى قوماً لا يحسنون القتال ، فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم .

فحشدوا حشوداً كبيرة ، وجمعوا جموعاً كثيرة ، وقاد قافلتهم . وجمع أمرهم مالك بن عوف النَّصْرِي سيد هوازن ، وكان يومها شاباً في الثلاثين من عمره ، فأوغر الشيطان صدره ، وصدور قومه على المسلمين ، وحبب إليهم أن يخرجوا بقضهم وقضيضهم ، فإن مالك بن عوف أمرهم أن يخرجوا بأموالهم ونسائهم ، وذرائعهم ، ويزجُّوا بها كلها في أتون هذه المعركة الفاصلة ، ظناً منه أن الحمية ، والغيرة على الأهل والمال سوف تكون الدافع للتضحية ، والحاجب من الهزيمة .

وهذا من طيش الشباب الذي فاتته تجربة الكهول وأصحاب الرأي والخبرة .

فقد قال دريد بن الصمة لمالك بن عوف ، وقد عسكر بقومه ومن معه من الأموال والنساء والذرية بأوطاس بين مكة والطائف .

ودريد بن الصمة كان رجلاً شجاعاً مجرباً ، قد جاوز المئة من العمر ، خرج معهم للاستئناس برأيه ، والاستفادة من خبرته .

قال: بأي واد أنتم؟

قالوا: بأوطاس.

قال: نعم محل الخيل ، لا حَزْنٌ ضِرْسٌ: أي ليس غليظاً صلباً ، ولا سَهْلٌ دَهِسٌ: أي لين كثير التراب .

ثم قال: مالي أسمعُ رغاءَ البعير ، ونُهاقَ الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعارِ الشاء ، وخُوار البقر؟ .

قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ، ونساءهم ، وأبناءهم .

فلقي مالكا وقال له: لم ذلك؟

فقال: أردت أن أجعل خلف كل إنسان أهله وماله يقاتل عنهم .

فصفق دُرَيْدٌ بإحدى يديه على الأخرى تعجباً ، وقال: وهل يردُّ المنهزم شيء؟

إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحت في أهلك ومالك .

يا مالك ، ارفع الأموال والنساء والذراري إلى عليا قومهم ، وممتنع بلادهم ، ثم اتق القوم على متون الخيل والرجال ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ، فقد أحرزت أهلك ومالك .

مهارة في القول والرأي ، وخبرة في الحرب وعواقبها ، ونصيحة من مجرب عركته الحروب والتجارب ، وعلمته الأيام والسنون ، لكنها لم تجد أذنأ صاغية عند شاب غرته نفسه ، وأقنعه حقه وطيشه ، فقال:

والله لا أفعل ، ولا أغير أمراً صنعته ، إنك قد كبرت وكبر عقلك .

فقال دريد: والله ما هذا لكم برأي ، إن هذا فاضحكم في عورتكم ، وممكّن منكم عدوكم ، فانصرفوا واتركوه .

فسلَّ مالك سيفه ، ثم نكَّسه ، ثم قال: يا معشر هوازن ، والله لتُطِيعُنَّني ،

أو لأتكننَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري .

فخاف قومه عليه ، وخشوا أن يقتل نفسه ، فأجمعوا رأيهم معه .

ثم قال مالك لدريد : هل من رأي غير هذا؟

قال : نعم ، تجعل كميناً يكون عوناً لك ، إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم ، وكررت أنت بمن معك ، فإن كانت لك لم يُفلت من القوم أحد .

ثم ركب دريد بغيره مُولياً من حيث جاء .

موقف آخر للرجل ، تبدى فيه المهارة والعبقرية العسكرية ، وقد كان لهذه النصيحة العسكرية دورها في أول اللقاء مع المسلمين ، لكنها كانت الفضيحة في النهاية على القوم .

فعباً عندئذ مالك بن عوف أصحابه في وادي حنين ، وانتشروا يكمنون في أنحائه ، وأمرهم أن يحملوا على المسلمين - إن هم جاؤا حملة رجل واحد .

ب - علم رسول الله ﷺ بأمر هوازن وثقيف :

سمع رسول الله ﷺ خبر هوازن وثقيف ، وأنهم يحشدون له ، وهم على وشك الخروج إليه ، فأرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي إليهم ، وأمره أن يدخل بينهم ، ويقيم فيهم ، ويأتيه بأخبارهم ، فذهب إليهم ، وطاف بمعسكرهم ، ثم جاء إلى النبي ﷺ بخبرهم .

ج - تعبئة رسول الله ﷺ جيشه :

وعمل رسول الله ﷺ عمل القائد الفذ ، فرتب الأمور ، وأعدَّ العدة ، ورسم الخطة ، وبحث عن السلاح والرماح ، فاستعار من صفوان بن أمية مئة درع بما يكفيها من السلاح ، واستعار من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، وخرج ﷺ باثني عشر ألف رجل ، ألفين من أهل مكة ، والباقيين هم من جاؤوا معه من المدينة ، وركب رسول الله ﷺ بغلته ، ولبس درعين

والمغفر والبيضة ، وسار بالجيش فلما اقترب من العدو صفهم ، ووضع الألوية والرايات في الأنصار والمهاجرين .

د- إعجاب المسلمين بكثرتهم :

وأعجب هذا الجيش المنظم بعض الجنود ، فداخلهم شيء من الغرور ، والركون إلى القوة ، حتى قال قائلهم : «لن نغلب اليوم من قلة» .

وسمع هذا رسول الله ﷺ ، فاستاء منه ، وشقَّ عليه ، وهو المربي الذي يعلم أن النصر من عند الله تعالى ، وقد تذهب القوة إذا لم تمسك بها العناية الإلهية .

هـ- علم مالك بن عوف بمقدم رسول الله ﷺ :

ووصل خبر خروج النبي ﷺ إلى مسامع مالك بن عوف ، سيد هوازن ، فما كان منه إلى أن عمل بوصية دُرَيْد بن الصمة ، فعبأ أصحابه في وادي حنين ، وانتشروا يكمنون في شعابه ، ومضايقه ، وأوعز إليهم أن يحملوا على المسلمين حملة واحدة .

ز- وصول رسول الله ﷺ حُنيناً بجشيه :

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد أجوف له مضايق ، وشعاب ، وإننا ننحدر فيه انحداراً ، وفي عماية الصبح ، وقد كان القوم سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا في شعابه ، وأجنابه ، ومضايقه ، وتهيَّؤوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتابب قد شدُّوا علينا شدَّة رجل واحد ، وكانوا رماة ، وخرجوا علينا من مضايق الوادي ، وشعبه ، فانكشف أوائل الخيل مولية ، وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ، لا يلون على شيء ، وارتفع النقع ، فما منا أحد يبصر كفه . «سبيل الهدى والرشاد» .

٣١٨/٥

ح - موقف رسول الله ﷺ عند الهزيمة :

قال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما ، وعندئذ انحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين صامداً ثابتاً ينادي :

«أيها الناس ، هَلَمْ إِلَيَّ ، أيها الناس ، هَلَمْ إِلَيَّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

قال العباس رضي الله عنه : شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ ، فلم نفارقه ، ورسول الله على بغلة له بيضاء ، فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مُدْبِرِينَ ، فطفق رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بغلته قبل الكفار ، وأنا آخذ بلبجامها أكفها أن لا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : «أي عباس ، ناد أصحاب السَّمرة» .

فقال عباس بأعلى صوته - وكان رجلاً صَيِّتاً - : أين أصحاب السَّمرة ؟ . رواه مسلم (١٧٧٥) في الجهاد .

ط - العود إلى القتال من جديد :

طرق هذا الصوت السحري قلوب الأنصار والمهاجرين ، وجموع الهاربين قبل أن يطرق أسماعهم ، فكأن لم يكن بهم خوف ، ولا هلع ، وكأن لم يكونوا مدبرين ، فانعطفوا إلى رسول الله ﷺ حين سمعوا صوت العباس انعطاف البقر على أولادها ، يقولون بأعلى أصواتهم ، وبملء أفواههم : «يا لبيك ، يا لبيك» .

ثم كروا على العدو كَرَّةً رجل واحد ، وراحوا يضربون وجوههم وأدبارهم بصدق الإيمان ، وعزيمة الأبطال ، يسترخصون الموت ، ولا يهابون الشهادة في سبيل الله .

وهنا راح رسول الله ﷺ ، وهو على بغلته ينظر إلى قتالهم ، ويقول : «الآن حمي الوطيس» .

ثم نزل عن بغلته ، وقبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل بها وجوههم ، فقال : «شاهت الوجوه» .

قال : سلمة بن الأكوع : فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة ، فولوا مدبرين منهزمين لا يلون على شيء واتبع المسلمون أفعاءهم يقتلون ويأسرون ، فما رجع الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ ، وفرّ مالك بن عوف بمن معه حتى وصلوا الطائف ، فامتنعوا بحصونها ، وقد تركوا وراءهم كل ما جمعه من مال وعيال ، غنائم للمسلمين .

ي - تتبع فلول المشركين :

قال ابن سعد : ولما انهزم المشركون في حنين أمر رسول الله ﷺ بطلبهم ، فانتهى بعضهم إلى الطائف ، وبعضهم نحو نخلة وتوجه قوم منهم إلى أوطاس ، فعقد رسول الله ﷺ لأبي عامر الأشعري لواء ، ووجهه في طلبهم ، وكان معه سلمة بن الأكوع ، فانتهى إلى عسكرهم ، فإذا هم ممتنعون ، فقتل منهم أبو عامر تسعة مبارزة ، ثم برز له العاشر ، وكان مُعلماً بعمامة صفراء ، فضرب أبا عامر فقتله ، واستخلف أبو عامر أبا موسى الأشعري ، فقاتلهم حتى فتح الله عليه ، وقتل قاتل أبي عامر .

فقال رسول الله ﷺ : «اللهم ، اغفر لأبي عامر ، واجعله من أعلى أمتي في الجنة» .

ودعا لأبي موسى أيضاً .

ك - من أخلاق رسول الله ﷺ في الحرب :

ما كان يخوض رسول الله ﷺ حرباً إلا ويتمنى ألا تطول ، ويسعده أن لا تكون خسائرها إلا قليلة في كل الأطراف ، وكان يؤلمه أن يرى امرأة ، أو صغيراً بين القتلى .

وقد مرّ ﷺ بامرأة ، وقد قتلها خالد بن الوليد والناس مجتمعون عليها ، فقال : «ما هذا؟» .

قالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد ، فقال رسول الله ﷺ لبعض من معه .
«أدرك خالدًا ، فقل له : إن رسول الله ﷺ ينهك أن تقتل وليدًا ، أو امرأة ،
أو عسيفًا» . أي أجيرًا .

رواه أحمد ١٧٨/٤ ، وأبو داود (٢٦٦٩) في الجهاد .

ل - أم سُلَيْم في حنين :

أم سليم رضي الله تعالى عنها ، هي أم أنس بن مالك ، وهي زوج
أبي طلحة رضي الله تعالى عنه ، وهي امرأة فاضلة ، مناضلة تقية ، قال
رسول الله ﷺ فيها : «رأيت أني دخلت الجنة ، فإذا أنا بالرُمَيْصَاء امرأة
أبي طلحة» .

والرُمَيْصَاء اسم أم سُلَيْم رضي الله تعالى عنها .

خرجت مع زوجها أبي طلحة إلى مكة يوم الفتح ، ثم خرجت معه إلى
حنين ، وهي حازمة وسطها ببرد لها ، وفي حزامها خنجر ، فقال لها أبو طلحة :
ما هذا الخنجر معك يا أم سُلَيْم ؟

قالت : إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به .

فقال أبو طلحة : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سُلَيْم ؟
فأعادت عليه القول .

فجعل رسول الله ﷺ يضحك . «السيرة الحلبية» ٣/ ٧٢ .

هكذا كان نساء الصحابة رضوان الله تعالى عنهن ، فضلاً عن رجالهم .
كل ذلك بفضل التربية الحميدة الرشيدة التي كان النبي المصطفى ﷺ يربى
أصحابه من النساء والرجال عليها .

م - حكاية أم عمارة الأنصارية ليوم حنين :

وهي نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف الأنصارية ، البطلة المجاهدة
الصامدة ، ذكرت رضي الله عنها ما كان منها ، وما رأته في حنين ، وقالت :

لما كان يوم حُنين ، والناس منهزمون في كل وجه ، وكُنَّا أربع نِسوة ، وفي يدي سيف لي صارم ، وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها ، وإنها يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة ، وأم سُلَيْط ، وأم الحارث .

فجعلت أم عُمارة تصيح : يا للأنصار ، أية عادة هذه؟ مالكم والفرار؟

قالت : وانظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق ، معه لواء ، يُوضِع جملة - يحثه على السرعة في السير - في أثر المسلمين ، فأعرض له ، فأضرب عُرقوب الجمل ، فيقع على عجزه ، وأشدُّ عليه ، ولم أزل أضربه حتى أثبتته ، وأخذت سيفاً له ، ورسول الله ﷺ قائم ، مُصَلَّت السيف بيده ، قد طرح غمده ينادي : «يا أصحاب سورة البقرة» .

فكرَّ الأنصار ، ووقفت هوازن قدر حَلْبِ ناقة ، ثم كانت إيَّاهَا .

فوالله ما رأيت هزيمة قط كانت مثلها ، قد ذهبوا في كل وجه ، فرجع إليَّ أبنائي جميعاً : حُبيب وعبد الله أبناء زيد بأسارى مُكْتَفَيْن ، فأقوم إليهم من الغيظ ، فأضرب عنق واحد منهم .

وجعل الناس يأتون بالأسارى ، فرأيت في بني مازن ابني النجار ثلاثين أسيراً .

وكان المسلمون بلغ أقصى هزيمتهم مكة ، ثم كَرَّوا بعد ، وتراجعوا ، فأسهم لهم رسول الله ﷺ جميعاً .

وكانت أم الحارث الأنصارية آخذة بخطام جمل الحارث زوجها ، فقالت : يا حارث ، أترك رسول الله ﷺ والناس يولون منهزمين؟ وهي لا تفارقه .

قالت : فمرَّ عليَّ عمر بن الخطاب ، فقلت : يا عمر ما هذا؟

قال : أمر الله تعالى ، «سبل الهدى والرشاد» ٥ / ٣٣٠ .

ن - إرسال البشير بالنصر إلى المدينة :

لما تم النصر للمسلمين يوم حنين أسرع رسول الله ﷺ ، فأرسل نَهْيَك بن أوس الأشهلي يحمل البشرى بهذا النصر إلى أهل المدينة تطميناً لهم ، وتطبيعاً

لقلوبهم ، فقد كانت أنباء الهزيمة أولاً قد سرت في كل مكان .
قال نهيك فسرت من أوطاس ثلاث ليال ، فلما انتهيت إلى المصلى
ناديت :

أبشروا يا معشر المسلمين بسلامة رسول الله ﷺ ، والمسلمين ، لقد ظفّره
الله تعالى بهوازن ، وأوقع بهم ، فسبى نساءهم ، وغنم أموالهم ، وتركث
الغنائم في يديه تجمع ، فاجتمع الناس يحمدون الله تعالى على سلامة
رسول الله ﷺ والمسلمين .
ثم انتهيت إلى بيوت أزواج النبي ﷺ ، فاخبرتهن ، فحمدن الله تعالى على
ذلك .

س - جمع الغنائم والثاني في قسمتها :

لما انهزم المشركون في حنين ، وخلفوا وراءهم أموالهم ، ونساءهم
وذرايرهم أمر رسول الله ﷺ بالغنائم أن تجمع ، ونادى مناديه : «من كان يؤمن
بالله واليوم الآخر فلا يغلّ» .

وروى الحاكم بسند صحيح (٤٩/٣) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه
قال : أخذ رسول الله ﷺ يوم حنين وبرّة ، ثم قال : «يا أيّها النّاسُ ، إنّهُ لا يحلُّ
لي ممّا أفاء الله تعالى عليكم قَدْر هذه إلا الخمسُ ، والخمسُ مردود عليكم ،
فأدوا الخيطة والمخيطة ، وإياكم والغلول ، فإنه عار على أهله يوم القيامة» .

ولما جمعت الغنائم لم يقسمها رسول الله ﷺ ، بل أمر أن تحبس كلها في
الجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري .

وعلى السبي أبا سفيان بن حرب ، وقيل : بديل بن ورقاء .

وظلت هناك حتى انصرف رسول الله ﷺ راجعاً من حصار الطائف .

قال ابن سعد : (١٥٢/٢) في «الطبقات» : كان السبي ستة آلاف بين امرأة
وغلام .

وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بغير ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة .

وأربعة آلاف أوقية فضة .

وكان من رحمته ﷺ أن يؤوب أهل الطائف إلى رشدهم ، وينتهوا عن غيهم ، فيكون له في غنائمهم وسبيهم شأن آخر .

لذلك لم يبادر إلى قسمة هذه الغنائم ، وتربص في أمرها .

ع - حصار الطائف :

أما المنهزمون من ثقيف ومن معهم ، فقد أمّوا الطائف ، وأغلقوا عليهم أبواب حصونهم ، وجمعوا ما يحتاجون من مؤن ، وعتاد يكفيهم زمناً .

وأما النبي ﷺ فقد خف إليهم بحركته ، وتبع فلولهم بمهارته ، وقدم بين يديه خالد بن الوليد بألف من أصحابه ، فنزلوا ناحية من حصونهم ، وناداهم بأعلى صوته : أن ينزل إليّ بعضكم أكلمه ، وهو آمن حتى يرجع ، أو اجعلوا لي مثل ما جعلت لكم ، وأدخل عليكم حصنكم ، أكلمكم .

قالوا : لا ينزل إليك رجل منا ، ولا تصل إلينا ، ولا نفارق ديننا .

ووصل رسول الله ﷺ بعد خالد رضي الله عنه إلى الطائف ، وضرب عسكره قريباً منها .

فرماهم المشركون بوابل من السهام ، كأنها جراد منتشر ، فأصيب ناس من المسلمين ، فارتفع رسول الله ﷺ بجيشه إلى موضع مسجده اليوم بالطائف حيث لا تصل إليهم سهام القوم .

وحاضرهم بضعة عشر يوماً ، كان خالد خلالها يناديهم : من يبارز؟ فلم يخرج إليه أحد ، ثم نادى مراراً ، فلم ينزل إليه أحد .

فنادى عبدُالليل : لا ينزل إليك أحد ، ولكننا نقيم في حصننا فقد خبأنا فيه ما يصلحنا سنين ، فإذا أقمتَ حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا .

فأرسل رسول الله ﷺ منادياً ينادي :

«أَيُّما عبد نزل من الحصن ، وخرج إلينا فهو حُرٌّ» .

فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً ، منهم : أبو بكر : نُفِيع بن مَسْرُوح ،
تدلى من الحصن في بكرة ، فكني بها ، رضي الله تعالى عنه ، وكان عبداً
للحارث بن كَلْدَةَ .

ثم إن رسول الله ﷺ شاور أصحابه في شأنهم ، فقال له سلمان الفارسي
رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ، أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم ،
فإننا كنا بأرض فارس نصب المنجنيقات على الحصون ، فنصيب من عدونا ،
فأمره رسول الله ﷺ فصنع منجنيقاً بيده ، فنصبه على حصن الطائف ، وهو أول
منجنيق رُمي به في الإسلام . «سبل الهدى والرشاد» ٣٨٥/٥ .

وهكذا نجد أن النبي ابتكر سلاحاً ، واستخدم آلة حرب لأول مرة ، وهذا
واجب القائد أن يوفر لجيشه ما يستطيع من العتاد والسلاح ، ولا يقدر ذلك في
صدق توكله على الله عز وجل .

وروي أيضاً أن رسول الله ﷺ أتى بدبابتين ، دخل المسلمون من تحتها ،
ثم زحفوا بهما إلى جدار الحصن ليحفروا ، فأرسلت ثقيف بسكك الحديد
المحماة بالنار ، فحرقَت الدبابتين .

فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم ونخيلهم ، وتحريقها ، فنادته ثقيف : لم
تقطع أموالنا ، إما أن تأخذها إن ظهرت علينا ، وإما أن تدعها لله ، وللرحم .
فقال رسول الله ﷺ : «فإني أدعها لله وللرحم» .

أي رحم هذه ، التي قطعها هؤلاء المشركون ، وجنوا عليها ، لكن
رسول الله ﷺ رعى هذه الرحم ، وترك لهم أموالهم لله تعالى ، ولهذه الرحم ،
رحمة ، وكرماً وإنسانية .

ومعلوم أن رسول الله كان مسترضعاً فيهم ، وهو صغير .

ثم إن رسول الله ﷺ استشار نوفل بن معاوية الدِّيلي في الذهاب ، أو
المقام ، فقال :

«يا رسول الله، ثعلبٌ في جُحْرِ، إن أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرَكَ» .
فأعلن رسول الله ﷺ الرحيل عن الطائف ، وقال : «إنا قافلون إن شاء الله تعالى» .

فقال بعض أصحابه : يا رسول الله ، نرجع ، ولم نفتحه ، فقال لهم :
«اغدوا على القتال» .

فغدوا عليه ، فأصابهم جراح ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «إنا قافلون غداً» .
فأعجبهم ذلك ، فضحك رسول الله ﷺ .

ولما قفل رسول الله ﷺ عائداً قال لأصحابه : «قولوا : آيرون ، تائبون ،
عابدون لربنا حامدون» .

حركات وتحركات وأعمال كلها مكسوة ، ومَحْشُوءَةٌ بألوان العبودية لله
تعالى ، والشكر له ، والثقة به ، والاعتماد عليه .

وقال له - ﷺ - بعض أصحابه : يا رسول الله ، ادع على ثقيف ، فقال :
«اللهم ، اهدِ ثقيفاً ، وأتِ بهم مسلمين» .

وقد استجاب الله تعالى له ، وهدى ثقيفاً ، فقد جاء وفدهم إلى رسول الله
ﷺ بالمدينة لإعلان إسلامهم .

ف - مواقف في الطريق من الطائف إلى الجعرانة :

خرج رسول الله ﷺ من الطائف عائداً إلى الجعرانة ، وهي على عشرة أميال
من مكة ، حيث السبي ، والغنائم مجموعة فيها ، وعليها حرس رسول الله
ﷺ .

وفي طريق العودة حدث ما يلفت النظر ، ويدعو إلى العبرة في سيرة القائد
العظيم :

أ - سراقه بن مالك ، قال :

لقيت رسول الله ﷺ ، وهو منحدر من الطائف إلى الجعرانة ، فتخلَّصْتُ

إليه ، والناس يمضون أمامه أرسالاً ، في مِقْنَبٍ - جماعة - من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعونني بالرماح ، ويقولون: إليك ، إليك ، ما أنت؟ وأنكروني ، حتى إذا دنوت ، وعرفت أن رسول الله ﷺ يسمع صوتي أخذت الكتاب الذي كتبه لي أبو بكر ، فجعلته بين إصبعين من أصابعي ، ثم رفعت يديّ به ، وناذيتُ: أنا سراقه بن جُعْشَم ، وهذا كتابي .

فقال رسول الله ﷺ: «هذا يوم وفاء وبرٍّ ، أدنوه» . فأدْنيت منه ، فكأنني انظر إلى ساق رسول الله ﷺ في غرزه ، كأنها الجُمَارَةُ - قلب النخلة - فلما انتهيت إليه سلمت وسقت الصدقة إليه ، وما ذكرت شيئاً أسأله عنه ، إلا أني قلت :

يا رسول الله ، أرأيت الضالَّةَ من الإبل تَغْشَى حياضي ، وقد ملأَتْها لإبلي ، هل لي من أجر إن سقيتها؟ . قال رسول الله ﷺ: «نعم ، في كل ذات كبد حرّى أجر» .

نعم إنه يوم برٍّ ، وموقف وفاء ، لم ينس القائد ما كان من سراقه ، لقد كان يطارد رسول الله ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة ليأتي به إلى أهل مكة حياً أو ميتاً ، فينال على ذلك جائزتهم ، فلما خاب مسعاه ، ورأى نفسه عاجزاً بين يدي رسول الله طلب منه الأمان ، فأمنه رسول الله ، وكتب له أبو بكر كتاباً بذلك احتفظ به حتى هذه الساعة التي احتاجه بها .

نعم لم ينس القائد ذلك الموقف ، ولكنه تسامى فوقه ، وتناساه ، وقدم لسراقه ألوان العفو والمعروف .

٢- أبو رُهم الغفاري ، قال :

إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي ، وفي رجلي نعلٌ غليظ ، إذ زحمتُ ناقتي ناقة رسول الله ﷺ ، ويقع حَزْفُ نَعْلِي على ساق رسول الله ﷺ ، فأوجعته ، ففرع قدمي بالسَّوْط ، وقال: «أوجعتني ، فتأخر عني» .

فانصرفت ، فلما كان من الغد ، إذا رسول الله ﷺ يلتمسني ، فقلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول الله ﷺ بالأمس .

قال: فجئته ، وأنا أترقب فقال: «إنك أصبت رجلي بالأمس فأوجعتني ، فقرعت قدمك بالسوط ، فدعوتك لأعوضك منها».

فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني .

قال أبو رهم: فرضاه عني كان أحبَّ إليَّ من الدنيا وما فيها .

ما هذه الحساسية ، والشفافية ، انتهى الموقف ، وانصرف الرجل بعد تلك الزحمة ، والضربة ، ولم يعد يريد شيئاً .

لكن القائد لم ينس أنه ربما كان قد أذى الرجل ، فالتمس له استرضيه ، ويعرضه عما كان قد تأذى به .

من يفعل هذا من القادة نحو جندي ربما يكون مغموراً بين الجنود؟ نعم يفعل رسول الله ﷺ ، بما طبعه الله عليه من رقة وعطف وحنان .

ص - تقسيم السبي والغنائم :

ثم رجع عليه السلام إلى الجعرانة حيث ترك السبي ، فأحصاه وخمسه ، وأعطى منه شيئاً كثيراً لأناس ضعف إسلامهم يتألفهم بذلك ، وأعطى أناساً لم يسلموا ليحبب إليهم الإسلام .

ومن الأولين أبو سفيان ، أعطاه أربعين أوقية من الذهب ومئة من الإبل ، وكذلك ابنه معاوية ويزيد ، فقال له: بأبي أنت وأمي: لأنت كريم في السلم والحرب .

ومنهم حكيم بن حزام أعطاه كأبي سفيان ، فاستزاده فأعطاه ، ثم استزاده فأعطاه مثلها ، وقال: «يا حكيم إنَّ هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس يورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى» . فأخذ حكيم المائة الأولى ، وترك ما عداها ، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا ، فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال فلا يأخذه .

وأعطى عليه السلام عيينة بن حصن مئة من الإبل ، وكذلك الأقرع بن حابس ، والعباس بن مرداس ، وأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاء كان رآه يرمقه ، فقال له : «هل يعجبك هذا؟ فقال نعم ، قال : هو لك ، فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد؛ وكان سبب إسلامه ، وكان عليه السلام يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم ، وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية ، حتى جعل من الصدقات قسم للمؤلفة قلوبهم ، وقد عاد ذلك بفائدة عظمت ، فإن كثيرين ممن أعطوا في هذا اليوم ولم يكونوا أشربوا في قلوبهم حب الإسلام صاروا بعد من أجلاء المسلمين ، وأعظمهم نفعاً : كصفوان بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والحارث بن هشام ، وغيرهم .

ثم أمر عليه السلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم ، وقسمه على الغزاة بعد أن اجتمع إليه الأعراب ، وصاروا يقولون له : اقسم علينا حتى ألجؤوه إلى شجرة فتعلق رداؤه ، فقال : «ردّوا ردائي أيها الناس ، فوالله إن كان لي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما الفيتومني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً» . ثم قام إلى بعيه وأخذ وبرة من سنامه وقال : «أيها الناس والله مالي من غنيمتكم ولا هذه البرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدّوا الخيط والمخييط فإن الغلول يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة» ، فصار كل من أخذ شيئاً من الغنائم خلصة يردّه ولو كان زهيداً . ثم شرع يقسم ، فأصاب الراجل أربعة من الإبل وأربعون شاة ، والفارس ثلاثة أمثال ذلك ، فقال رجل من المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فغضب عليه السلام حتى احمرّ وجهه وقال : «ويحك من يعدل إذا لم أعدل؟! فلم يؤده غضبه أن ينتقم لنفسه ، حاشاه عليه السلام من ذلك ، بل لم يزد على أن نصح وحذر ، وقال له عمر وخالد بن الوليد : دعنا يا رسول الله نضرب عنقه ، فقال : «لا لعله أن يكون يصلي فقال ، خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ! فقال ﷺ : «إني لم أؤمر أن أنقب على قلوب الناس ، ولا أشق عن بطونهم» ، ولما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب ، وترك

الأنصار غضب بعضهم حتى قالوا: إن هذا لهو العجب ، يعطي قرشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!!! فبلغه ذلك فأمر بجمعهم ، وليس معهم غيرهم ، فلما اجتمعوا قال : «يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم؟ ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي؟ إن قریشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة؟ وإنني أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أغضبتهم يا معشر الأنصار في أنفسكم لشيء قليل من الدنيا ألفت به قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يزلزل؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار» . فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحطاً ، ثم انصرف عليه السلام ، وتفرقوا .

ق - وفود هوازن :

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه ﷺ وفد هوازن يرأسهم زهير بن صُرد ، وقالوا: يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهن مخازي الأقوم ، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله ، وقال زهير: إن في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك ، ثم قال أبياتاً يستعطفه بها :

امنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر
أمنن على نسوة قد كنت ترضعها إذفوك مملوءة من محضها الدرر
إننا لنشكر للنعماء إن كُفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدّخر
إننا نؤمل عفواً منك نلبسه هدى البرية أن تعفو وتتصر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه من أمهاتك ، إن العفو مشتهر

فقال ﷺ : «إن أحب الحديث إليّ أصدقه ، فاخترأوا إحدى الطائفتين : إمّا السبي وإمّا المال ، وقد كنت أنتظر تكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون» ، فقالوا:

ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً ، اردد علينا نساءنا وأبنائنا فهو أحب إلينا ، ولا نتكلم في شاة ولا بعير ، فقال ﷺ : «أما مالي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فإذا أنا صليت الظهر فقوموا وقولوا: نحن نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله بعد أن تظهروا إسلامكم وتقولوا: نحن إخوانكم في الدين . ففعلوا ، فقال ﷺ لأصحابه : «أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين ، وإنني قد رأيت أن أردّ عليهم سبيهم ، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل ، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ، وامتنع من ذلك جماعة من الأعراب: كالأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، والعباس بن مرداس ، فأخذه الرسول منهم قرصاً ، وأمر ﷺ بأن تحبس عائلة مالك بن عوف النصري رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أمية ، فقال له الوفد: أولئك سادتنا ، فقال ﷺ : إنما أريد بهم الخير ، ثم سأل عن مالك ، فقالوا: هرب مع ثقيف ، فقال أخبروه أنه إن جاءني مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيه مئة من الإبل ، فلما بلغ ذلك مالكا نزل من الحصن خفية حتى أتى رسول الله بالجعرانة ، فأسلم وأحرز ماله ، واستعمله عليه السلام على من أسلم من هوازن .

ر - عمرة الجعرانة والرجوع إلى المدينة :

ثم إنَّ الرسول ﷺ اعتمر ، فأحرم من الجعرانة ، ودخل مكة بليل ، فطاف واستلم الحجر ، ثم رجع من ليلته ، وكانت إقامته بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ، ثم أمر عليه السلام بالرحيل فسار الجيش آمناً مطمئناً حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذي القعدة ، سنة ثمان من الهجرة الشريفة .

لقد كانت غزوة حنين بأتراحها وأفراحها ، وكُرَّها وفرَّها عبرة لمن يعتبر ، ودرساً بليغاً لمن ينتفع وفيها من الأحكام والقضايا والأحداث ما ينير الطريق ، وينفع البصير ، وقد تجلت في هذه الغزوة في سيرة القائد من المهارات ، والعبقريات ما يملأ العين ، ويثلج الصدر ، ويحمل على القناعة بأنه القدوة

العظيمة لكل مسلم ، والأسوة الحسنة لكل مؤمن .

فصلى الله تعالى وسلم عليك يا سيدي يا رسول الله وعلى ألك الأظهار ،
وأصحابك البررة من المهاجرين والأنصار .

جعلنا الله تعالى تحت لوائك المحمود ، ومن أحبابك عند حوضك
المورود .

٣- سرايا رسول الله ﷺ بعد حنين :

لقد تتبع رسول الله ﷺ الجيوب المتبقية هنا وهناك من فلول المشركين ،
وأرسل إليهم البعوث والسرايا يدعونهم إلى الله عز وجل ، ويقاتلون من أصر
منهم على الكفر والغدر ، ومن هذه السرايا .

أ- سرية قيس بن سعد :

ولما رجع ﷺ من الجعرانة سنة ثمان بعث قيس بن سعد بن عبادة في أربع
مئة من الصحابة إلى ناحية من اليمن ، وأمره أن يدعو صُداء - وهم حي من
العرب - إلى الإسلام ، فخرج قيس بأصحابه وعسكر بناحية قناة - واد بالمدينة -
فقدم رجل من صُداء ، فسأل عن ذلك البعث ، فأخبر به ، فجاء رسول الله ﷺ ،
فقال : « يا رسول الله جئتك وافداً عمن ورائي ، فاردد الجيش ، فأنا لك بقومي .

فلم يتوقف رسول الله ﷺ ولم يتردد وأمر فوراً برّد الجيش ، وهذا يدل على
أن قصده من السرايا والجيوش ليس هو إذلال الناس ، بل هدايتهم ، فإذا
تحققت من غير حرب ولا ضرب ، فنعمًا ذلك .

ورجع الصُدائي إلى قومه ، وقدم بخمسة عشر رجلاً منهم ، فأعلنوا
إسلامهم بين يدي رسول الله ﷺ .

وهنا قال الرسول ﷺ للصُدائي : « إِنَّكَ مُطَاعٌ فِي قَوْمِكَ ، يَا أَخَا صُداء .

فقال : بل الله هداهم .

ثم وافى النبي ﷺ بمئة منهم في حجة الوداع .

ب - سرية عُيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم :

وسبب هذه السرية أن رسول الله ﷺ أرسل بشير بن سفيان العدوي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقات أموالهم ، وأمره أن يأخذ العفو ، ويتوقى كرائم أموالهم ، فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فُرض عليهم ، وشهروا السيوف ، وقالوا : ما لهذا يأخذ أموالكم منكم بالباطل .

فرجع بشير ، وأخبر رسول الله ﷺ بما كان من تميم ، فأرسل إليهم عيينة بن حصن في خمسين فارساً ليس فيهم أحد من المهاجرين والأنصار ، فسار إليهم يكمن النهار ، ويمشي ليلاً ، حتى نزل بساحتهم ، وحاربهم ، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً ، وعشرين امرأة ، وثلاثين صبياً ، ورجع بالكل إلى المدينة ، فأمر بهم رسول الله ﷺ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث ، فجاء في أثرهم وفد من تميم يضم عدداً من رؤسائهم ، فيهم : عطار بن حاجب ، والزُّبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، فلما رأى الأسرى الوفد بكى إليه النساء ، والذراري ، مما جعل الوفد يعجلون إلى النبي ﷺ ، وينادونه بصوت عال ، وجاف : يا محمد أخرج إلينا نفاخرك ، فإن مدحنا زين ، وذمنا شين ، فخرج إليهم ﷺ ، وقد تأذى من صياحهم ، وكان الوقت وقت الظهر ، فأذن بلال ، ودخل النبي ﷺ للصلاة ، فعلقوا به يقولون : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا ، وخطيبنا ، نشاعرك ونفاخرك ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : «ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخر أمرنا» .

ثم مضى رسول الله ﷺ فصلى الظهر ثم جلس إليهم ، فكلموه ، وكلمهم ، فأسلموا ، وحسن إسلامهم ، وردَّ رسول الله ﷺ إليهم أسراهم ، وأحسن جائزتهم ، وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ، ويتفقهون في الدين .

ومن طريف ما حصل في ذلك المجلس : أن عمرو بن الأهتم مدح الزبرقان بن بدر فقال فيه : إنه لمطاع في انديته ، سيد في عشيرته .

فقال الزبرقان : لقد حسدني يا رسول الله لشرفي ، وقد يعلم أفضل مما

قال .

فغضب عمرو من قوله ، وقال : أنا أحسبك ، والله ، إنك للثيم الخال ،
حديث المال ، أحق الوالد ، مبغض في العشيرة .

ثم التفت عمرو إلى رسول الله ﷺ ، فعرف في وجهه الكراهة لقوله ،
فقال : يا رسول الله ، والله لقد صدقت في الأولى ، وما كذبت في الثانية :
رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أقبح ما وجدت ، فعند ذلك
قال رسول الله ﷺ : «إن من البيان لسحراً» .

لقد صدق من قال :

وعَيْن الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السُّخْط تبدي المساويا
لكن المسلم الحق منضبط ، إذا رأى خيراً أنشره ، وإذا رأى شراً ستره .

ولقد نزل في جلافة بعض أفراد هذا الوفد وخشونتهم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ
الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وراءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات : ٤ - ٥] .

أخي الكريم : كم تجد في رسول الله ﷺ من المهارات والأخلاق ،
والمكارم ، وهو القائد الذي امتلأ وقته ، وازدحم بأعباء الدعوة ، وحقوقها ،
وواجباتها .

كم تجد فيه من المكارم حتى اتسع صدره لهذه المجالس ، والمواقف ،
فاستوعب الجميع ، وأرضى الكل بالحق ، وقادهم إليه راضين غير مكرهين ،
فالصلاة والسلام عليك يا سيد الأنبياء وإمام المرسلين .

ج - سرية الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق :

وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ
صدقاتهم ، فلما عرفوا بقدومه خرج لاستقباله عشرون رجلاً منهم مسلحين ،
فلما نظر إليهم ظنهم يريدون حربه ، لما كان بينه وبينهم من العدواة في
الجاهلية ، فرجع مسرعاً إلى المدينة ، وأخبر الرسول ﷺ أن القوم ارتدوا
ومنعوا الزكاة .

فأرسل إليهم خالد بن الوليد لاستكشاف أمرهم ، فسار إليهم بأصحابه خفية ، حتى إذا كان بساحتهم سمع مؤذنه يؤذن بالصبح ، فأتاهم خالد ، فلم ير منهم إلا الطاعة ، فرجع وأخبر الرسول ﷺ فأرسل إليهم عباد بن بشر ليأخذ صدقاتهم ويعلمهم شرائع الإسلام ، ويقرئهم القرآن ، فأقام عندهم عشراً ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ راضياً .

قيادة جادة راقية لرسول الله ﷺ يهتم بالخبر ، ويتحرى الحقائق ، ويتصرف على ضوء الوقائع ، كل ذلك بمتهى الحكمة والمهارة ، لا يتجنى على أحد ، ولا يقصر في واجب .

د - سرية علقمة بن مُجَزَّر المدلجي إلى الحبشة :

وسمع رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة رآهم أهل جدة يريدون الإغارة عليها ، فأرسل إليهم على ظهر السرعة عقبة بن مُجَزَّر في ثلاث مئة من الصحابة ، فسار حتى وصل جدة ، ونزل في المراكب ليدركهم ، فلما رآوه هربوا ، فرجع المسلمون ، ولم يلقوا كيداً .

فلما كانوا في الطريق عائدین استأذنه بعض من معه بالسرعة إلى أهلهم ، فأذن لهم ، وأمر عليهم عبد الله بن حُذافة السهمي ، وكان فيه دعاة ، فنزلوا ببعض الطريق ، وأوقدوا ناراً ، فقال لهم : عزمت عليكم إلا توابتم في هذه النار .

فقال بعضهم : ما أسلمنا إلا فراراً من النار .

وهمَّ بذلك بعضهم ، فمنعهم عبد الله ، وقال : كنت مازحاً ، فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وفي رواية : « الطاعة في المعروف » .

انظر « البخاري » (٤٣٤٠) .

هـ - سرية علي بن أبي طالب إلى هدم الفُلس :

والفُلس : صنم لطيء ، أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب في مئة وخمسين

رجلاً من الأنصار ليهدمه ، وأعطاه راية سوداء ، ولواءً أبيض ، فشنوا الغارة على طيء مع الفجر ، فهدموا الصنم ، وحرَّقوه ، ولما حاربته طيء هزموهم ، وسبوه ، واستاقوا النعم والشاء .

وكان في السبي سَفَّانة بنتُ حاتم الطائي ، أخت عدي بن حاتم .

أما عدي فهرب إلى الشام .

ولما رجع علي إلى المدينة بالسبي والغنائم طلبت سَفَّانة من النبي ﷺ أن يمنَّ عليها ، ويطلق سراحها ، فأجابها لذلك ، لأنه كان من سسته أن يكرم الكرام ، ويتألف القلوب ، ويسعى لردِّ الناس إلى خطيرة الحق والدين بأيِّ وسيلة تلوح له ﷺ .

قالت سَفَّانة للنبي ﷺ لما منَّ عليها ، وأطلق سراحها : «شكرتكَ يَدُ افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يَدُ استغنت بعد فقر ، وأصاب اللهُ بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردِّها عليه» .

كلام في غاية الجودة ، وغاية الفهم ، والحدق .

لقد كانت هذه المهارة سبباً في إسلامها ، وسعيها لإسلام أخيها الذي كان قد فرَّ لما رأى طلائع الحق تتجول في ربوع أحياء أرضه .

وكان من حديث مجيئه ، أن أخته توجهت إليه بالشام ، وأخبرته بما عُوِّملت به من الكرم ، فقال لها :

ما ترين في أمر هذا الرجل ؟

فقالت : أرى أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن نبياً ، فللسابق إليه فضل ، وإن يكن ملكاً فأنت أنت .

قال : والله هذا هو الرأي .

وفود عدي بن حاتم على النبي ﷺ :

خرج عدي من الشام ، وجاء المدينة ، فلقى رسول الله ﷺ ، فقال له النبي : «من الرجل؟» .

قال : عدي بن حاتم .

فأخذه ﷺ إلى بيته ، وبينما هما يمشيان إذ لقيته امرأة عجوز ، فاستوقفته ، فوقف معها طويلاً تكلمه في حاجتها .

فقال عدي : والله ما هو بملك .

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفاً ، فقدمها إلى عدي ، وقال : «اجلس على هذه» .

فقال عدي : بل أنت اجلس عليها .

فقال : «اجلس عليها» .

فجلست عليها ، وجلس هو على الأرض ، فقلت : والله ما هذا بملك ، ثم قال : «يا عدي ، أسلم تسلم» .

قالها ثلاثاً .

فقلت : إني على دين ، وكان عدي نصرانياً .

قال : «أنا أعلم بدينك منك» .

فقلت : أأنت أعلم بديني مني؟

قال : «نعم ، أأنت تأكل مرباع قومك؟» .

قلت : بلى .

قال : «فإن هذا لا يحلُّ لك في دينك .

والمرباع : رُبْع الغنائم .

قال عدي : فلم يَعدُ أن قالها حتى تواضعت له ، ثم قال : «يا عدي ، أما إني أعلم ما الذي يمنحك من الإسلام ، إنك تقول : إنما اتبعه ضَعْفُ الناس ، ومن لا قوَّة لهم ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم» ثم قال : «أتعرف الحيرة؟» .

قلت : لم أرها ، وقد سمعت بها .

قال : «فوالذي نفسي بيده لِيُتَمَنَّ اللهُ هذا الأمر ، حتى تخرج الطغينةُ من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، وَلِيَفْتَحَنَّ كنوز كسرى بن هُرمز» .

قلت : كسرى بن هُرمز؟

قال : «نعم ، كسرى بن هُرمز ، وَلِيُبْذَلَنَّ المالُ ، حتى لا يقبله أحد» . رواه أحمد (٢٥٧/٤) .

فأسلم عدي رضي الله عنه ، وعاش حتى رأى ما سمع من المصطفى ﷺ ، وقال : فهذه الطغينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هُرمز ، والذي نفسي بيده لتكوننَّ الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها . رواه أحمد (٢٥٧/٤) .

بهذه الروح كان رسول الله ﷺ يحاور ، ويناور ، ويبشر ، ويعامل ، ملك على الناس قلوبهم بحلاوة لفظه ، وعظيم لحظه ، وقوة فهمه ، ومهارة أمره ، فلم يجدوا بداً من إكباره ، ولم يجدوا مَنُذَوِّحة من اتباعه ، إلا من عمي فؤاده ، وطبع الله تعالى على قلبه ، فاصر على كفره ، ومات بغيفه .

٤ - غزوة تبوك :

تبوك : مكان معروف يكاد يقع في منتصف الطريق من المدينة إلى دمشق ، وكانت هذه الغزة في شهر رجب ، سنة تسع من الهجرة ، وهي آخر غزواته ﷺ ، وكانت تسمى أيضاً : غزوة العُسرة .

أ - سبب غزوة تبوك :

قال ابن سعد في «الطبقات» ١٦٥/٢ : بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنه ، وأجلبت معه لُحْم ، وجُذامٌ ، وعاملَةٌ ، وغسان من متنصرة العرب ، وقَدَّموا مُقَدِّماتهم إلى البلقاء .

وروى الطبراني أن جيش الروم كان قوامه أربعين ألف مقاتل .

ولما بلغ رسول الله ﷺ ذلك الخبر ، ندب الناس إلى الخروج للقاء هؤلاء الأعداء ، وجلّى لهم وجهته ، وأعلمهم بمقصده على خلاف عادته .

روى البخاري (٤٤١٨) في المغازي عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة : أي غزوة تبوك .

غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومغازاً ، وعدواً كثيراً فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد .

وقال الإمام الشامي : لما عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم عام تبوك ، كان ذلك في زمان عُسرة من الناس وشدة من الحرّ ، وجَدَّب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم .

نعم ، لقد كانت هذه الرحلة في هذه الغزوة ثقيلة على النفس ، فيها أقسى مظاهر الابتلاء والامتحان .

لكن ذلك لم يحمل رسول الله ﷺ على التباطىء في الخروج ، ولا على التساهل في إعداد العدة تمشياً مع سياسته الرائدة في إقناع العدو بجاهزية المسلمين للهجوم ، والتصدي تحت وطأة أشد الظروف ، والأحوال تحدياً .

لقد ندب أصحابه للخروج على وجه السرعة ، وأمرهم بالجهاز ، وحشد العدة ، ودعا من حوله من أحياء العرب للخروج معه ، وحث الموسرين على النفقة ، وقام بكل ما يمكن من التعبئة البشرية ، والجاهزية القتالية .

فخرج مع رسول الله ﷺ المسلمون ، قال كعب بن مالك : والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يجمعهم كتابٌ حافظ ، رواه البخاري (٤٤١٨) في المغازي .

ب - تسابق الموسرين بتقديم الأموال :

لقد حضّر رسول الله ﷺ على الصدقة ، ورغب الموسرين بالإنفاق فجاءوا بصدقات كثيرة ، وقدموا أموالاً وفيرة ، وكان أول من جاء بالمال : أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، جاء بكل ماله ، وكان أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » .

فقال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » .

قال : نعم ، مثل ما جئت به .

روى الترمذي (٣٦٧٥) في المناقب عن أسلم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول :

أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ، فوافق ذلك عندي مالاً ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ، إن سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » .

قلت : مثله .

وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : « يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك ؟ » .

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

قال : والله لا أسبقه إلى شيء أبداً .

فرضي الله عنهما ، هكذا المسلم في الملمات والجندي في المهمات .

وجاء عثمان بن عفان بمال كثير ، وجهاز ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها .

روى الترمذي (٣٧٠٠) في المناقب عن عبد الرحمن بن حُباب قال :

شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العُسرة ، فقام عثمان بن عفان ، فقال :

يا رسول الله عليّ مئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

ثم حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفان ، فقال: يا رسول الله ، عليّ
مئتا بغير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

ثم حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله ، عليّ
ثلاث مئة بغير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل
عن المنبر ، وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه ، ما على عثمان
ما عمل بعد هذه» .

وجاء رضي الله عنه بألف دينار فنثرها في حجر رسول الله ﷺ ، فراح
رسول الله ﷺ يقلبها في حجره ويقول: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»
مرتين ، رواه الترمذي (٣٧٠١) .

والأحلاس: جمع حِلْس ، وهو كساء يوضع على ظهر الدابة ، ويكون
تحت الرَّحْل ، أو السَّرَج .

والأقتاب: جمع قَتَب ، وهو الرحل الصغير على قدر سنام البعير .

قال ابن إسحاق: إن عثمان أنفق في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد
مثلها ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإنني عنه راض» . «سبل
الهدى والرشد» ٤٣٥/٥ .

وجاء العباس ، وطلحة بمال كثير .

وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمر .

وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن .

حتى إن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول: هذا البعير بينكما
تعتقبانه .

وفي هذه السرعة والأريحية ، والتضحية بالمال استقام هذا الجيش ثلاثين
ألف مقاتل ، وتمت ذخائره ومؤنه واستعداداته .

وفي هذه الأثناء أتى النبي ﷺ سبعة من فقراء المسلمين المتشوقين للخروج
بصحبة النبي ، وتقديم النفس في سبيل الدعوة إلى الدين ، والقتال من أجله ،

وقالوا: يا رسول الله: جئنا لتحملنا معك.

فقال رسول الله ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه».

فصدموا رضي الله عنهم ، ورجعوا نقيض أعينهم بالدمع ، وحينئذٍ أسرع عثمان بن عفان رضي الله فجهز ثلاثة منهم ، وجهاز العباس بن عبد المطلب اثنين ، وجهاز يامين بن عمرو اثنين ، فطابت أنفسهم ، ولحقوا بجيش المصطفى ﷺ.

وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف العظيم لهؤلاء الرجال العظماء فقال عز وجل: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

ج- دور المنافقين في هذه الغزوة:

النفاق شر ، وأهله أشرار ، وهم لا يقصرون في الشدائد عن إثارة الفتن ، وبعث الشائعات والأراجيف ، والتماس الأعذار للعقود ، وعدم النهوض لأداء الواجب.

فهاهم اليوم يقول بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرّ.

واجتمع جماعة منهم فأرجفوا ، وتكلّموا بحق رسول الله ﷺ بما يسؤوه ، فأرسل إليهم عمار بن ياسر يسألهم عما قالوا: فقالوا: كنّا نخوض ونلعب.

وجاء الجد بن قيس ، فقال: يا رسول الله ، ائذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشدّ عُجباً بالنساء مني ، وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وأذن له فيما أراد ، وراح عبد الله بن أبي بن سلول يقول: يغزو محمد بن الأصفر مع جُهد الحال ، والحرّ ، والبلد البعيد ، أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب ، والله لكأنني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الجبال.

هذه أدوار من التخاذل والتخذيل يمكن أن تفتّ في عضد أقوى الجيوش والرجال.

لكن رسول الله ﷺ بذُربته وحكمته ومهاراته كان يتجاوزها ويمضي صادق الهمة والعزيمة رابط الجأش ، ثابت القدم ، غير مبال بمواقف مثل هؤلاء الأقرام .

لذلك كان يأذن لهم بالعودة وعدم الخروج ، لأنهم بهذه القلوب المدغولة لا يزيدون المسلمين إلا سوءاً ، كما قال عز وجل : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة : ٤٧] .

ولقد ندد القرآن الكريم بموافقهم ، وفضح سرائرهم ، ونواياهم فقال عز وجل فيهم : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّعْيَةُ وَسَيَاخِلُفُونَ بِاللهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٤٢] .

وقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَلَآ تَفْتِنُنَا أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٤٩] .

وقال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة : ٦٥] .

وقال : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨١] .

د - قعود بعض المؤمنين الصادقين عن الخروج :

لقد تخلف عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة نفر من الصحابة عن غير شك ولا ارتياب ، منهم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكان لهم فيما بعد حديث يذكر .

كما تخلف عن النبي ﷺ بعض أصحاب الأعدار ، وهم الذين عناهم القرآن الكريم .

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٩٠].

هـ- خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك:

قال الإمام الشامي: خرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الخميس من شهر رجب سنة تسع من الهجرة وعسكر في ثنية الوداع ، وهناك عقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر ، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام ، وراية الأوس إلى أسيد بن الحُضَيْر ، وراية الخزرج إلى أبي دجانة ، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواء ، وكان دليله إلى تبوك عَلَقْمَةُ بن الفُغْوَاء الخزاعي ، وسار ﷺ بأكثر من ثلاثين ألفاً من أصحابه الكرام ، يملأ قلوبهم الإيمان ، ويؤجج حماسهم حب الشهادة في سبيل الله عز وجل ، معتصمين بحبل الله متوكلين عليه ، واثقين بنصره .

و- من استخلفهم رسول الله في المدينة:

لقد استخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة ، وخلف على أهله علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وأمره بالإقامة فيهم .

وجاء دور المنافقين أيضاً ، فقالوا: ما خلفه إلا استثقلاً له ، وتخففاً منه .

فلما قالوا ذلك أخذ عليّ سلاحه وخرج ، حتى لحق برسول الله ﷺ ، وهو نازل بالجُزف ، فأخبره بما قالوا ، فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا ، ولكني خلقتك لما تركت ورائي فارجع ، فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي» .

فرجع عليّ إلى المدينة . «سبل الهدى والرشاد» ٥ / ٤٤١ .

ز- قصة أبي ذر رضي الله عنه:

روى ابن إسحاق عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك ، جعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون: يا رسول الله ،

تخلف فلان ، فيقول : «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك به غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه» .

حتى قيل يا رسول الله تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بغيره ، فقال رسول الله ﷺ : «فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه .

وكان أبو ذر قد خرج على بغيره فأعيا به ، فعالجه ، فلم يفلح ، فأخذ متاعه منه ، وحمله على ظهره ، ولحق برسول الله ﷺ .

قال أبو ذر : فطلعت على رسول الله ﷺ نصف النهار ، وقد أخذ مني العطش ، فنظر ناظر من المسلمين ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : «كُنْ أبا ذرٍّ» .

فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله والله أبو ذرٍّ ، فقال رسول الله ﷺ : «رحم الله أبا ذرٍّ ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده» .

فلما قدم أبو ذر على رسول الله ﷺ أخبره خبره فقال : «قد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنباً إلى أن بلغتني» .

ووضع متاعه عن ظهره ، ثم استسقى فأتي بإناء من ماء فشربه . «سبل الهدى والرشاد» ٥/ ٤٤٣ .

هذا هو الصدق في الولاء ، وهذا هو مقتضى الإيمان بالله والحب له .

ح - قصة أبي خيثمة رضي الله عنه :

روى الطبراني عن أبي خيثمة الأنصاري قال : لما سار رسول الله ﷺ أياماً دخل أبو خيثمة على أهله في يوم حارٍّ ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه ، وقد رشّت كل منهما عريشها ، وبرّدت له فيه ماء ، وهيات له فيه طعاماً ، فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأته ، وما صنعتا له فقال :

سبحان الله ، رسول الله ﷺ - قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - في

الضَّح - الشمس - والريح والحَرَّ يحمل سلاحه على عنقه ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعام مهياً ، وامرأة حسنة في ماله مقيم ، ما هذا بالنَّصَف ، ثم قال :

والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : «كن أبا خيثمة» .

فقال رجل : هو والله يا رسول الله أبو خيثمة .

ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخير .

وقال أبو خيثمة في هذا شعراً :

لما رأيتُ النَّاسَ في الدين نافقوا أتيتُ التي كانت أعفَّ وأكرما
وبايَعْتُ باليُمْنى يدي لمحمد فلم أَكْتَسِبْ إثماً ولم أَغْشَ مَحْرَماً
تركْتُ خضيباً في العريش وصِرْمَةً صفايا كراماً بُسْرُها قد تحمَّما
وكنْتُ إذا شكَّ المنافقُ أَسْمَحْتُ إلى الدِّينِ نَفْسِي شَطْرَه حَيْثُ يَمَّمَا
صرمة : نخلة ، تحمَّما : أسودَّ ونضج ، أَسْمَحْتُ : لانت ، وسهلت وانقادات .

رضي الله تعالى عن أبي خيثمة ، وأمثال أبي خيثمة ممن آثروا الفداء ، وقدموا العطاء ، وزهدوا في الدنيا ، وقدموا الآخرة فكانوا ملوكاً أو كالمملوك عزة ، وإباءً ورفعة ، وقد قيل : اطلب الموت توهب لك الحياة .

ط - ما لاقى النبي وأصحابه من وعاء السفر ومشقة الطريق :

ولاقى النبي ﷺ وأصحابه في هذه الرحلة جهوداً شاقة ، وأتعباً جسيمة ، فكان الرجلان والثلاثة يتعاقبون على جمل واحد ، وأصابهم العطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عُسرة في الماء ، وعسرة في النفقة ، وعُسرة في الظهر ، فصبروا وصابروا ، وصرف الله تعالى عنهم البلاء والأعداء .

ي - مرور رسول الله ﷺ بالحجر :

ومرّ جيش رسول الله ﷺ : «بالْحَجَرِ» وهي منازل ثمود قوم صالح ، فقال لأصحابه : «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، أن يُصيبكم ما أصابهم ، إلا أن تكونوا باكين» .

ثم قنع رأسه ، وأسرع السير ، حتى أجاز الوادي . رواه البخاري (٤٤١٩) في المغازي ، ومسلم (٢٩٨٠) في الزهد .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : في الحديث الحثُّ على المراقبة عند المرور بديار الظالمين ، ومواضع العذاب ، والاعتبار بهم وبمصارعهم ، وأن يستعيز بالله من ذلك .

ك - وصول رسول الله ﷺ إلى تبوك :

لما انتهى ﷺ بجيشه إلى تبوك لم يجد هناك كيداً ولا قتالاً ، فقد تفرّق أولئك الذين كانوا قد تجمعوا للقتال ، واختفوا ، وكفى الله المسلمين شرّهم .

ل - استعمال الحرس :

وكان رسول الله ﷺ يقظاً في حضره ، وسفره ، يعد للأمر عدته ، ويأخذ بالأسباب ، ومنها استخدام الحرس المكلفين برقابة المعسكر ، فقد استعمل على الحرس بتبوك من يوم قدم إلى أن رحل عبّاد بن بشر ، فكان عباد يطوف ويطوف في أصحابه على المعسكر ، فغدا على رسول الله ﷺ يوماً ، فقال : يا رسول الله ، ما زلنا نسمع صوت تكبير من ورائنا حتى أصبحنا ، أفولّيت أحداً يطوف على الحرس ؟

فقال : «ما فعلت ، ولكن عسى أن يكون بعض المسلمين انتدب» فقال سِلْكان بن سلامة : يا رسول الله ، خرجت في عشرة من المسلمين على خيلنا ، فكنا نحرس الحرس ، فقال رسول الله ﷺ : «رحم الله حرس الحرس في سبيل الله ولكم قيراط من الأجر على كل من حرستم من الناس جميعاً ، أو دابة» . «سبل الهدى والرشاد» .

م- نزول رسول الله تبوك واتخاذ مسجداً ، وخطبته :

قال الإمام الشامي : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك وضع حجراً قبله مسجد تبوك ، وأوماً بيده إلى الحجر ، وما يليه ، ثم صلى بالناس الظهر ، ثم أقبل عليهم ، فقال : « ما هاهنا شام ، وما هاهنا يمن » .

وروى الإمام أحمد (٣/ ٣٧ / ٥٨ / ٤١٤) أن رسول الله ﷺ خطب عام تبوك ، وهو مُسند ظهره إلى نخلة ، فقال : « ألا أخبركم بخير الناس ، وشرّ الناس ؟ إن من خير الناس رجلاً يحمل في سبيل الله على ظهر فرسه ، أو على ظهر بعيره ، أو على قدميه حتى يأتيه الموت ، وإن من شرّ الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله لا يزْعوي إلى شيء منه » .

ن- مصالحة ملك أيلة ، وأهل جَرْبَاء ، وأذْرُح :

وفي مقام رسول الله ﷺ بتبوك أتاه ملك أيلة يُحَنَّة بن رُؤبة ، ومعه أهلُ جَرْبَاء ، وأذْرُح ، فأهدى لرسول الله ﷺ بغلة ، وصالحه النبي على دفع الجزية ، ولم يسلم ، فكساه رسول الله ﷺ بُرداً ، وكتب له ﷺ ولأهل أيلة كتاباً ، نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمانة من الله تعالى ، ومحمد النبي رسول الله ﷺ لِيُحَنَّة بن رُؤبة ، وأهل أيلة : سفنهم وسيّارتهم في البرّ والبحر ، لهم ذمة الله ، وذمة رسوله ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، ومن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يَحِلُّ أن يُمنَعوا ماءً يَرُدُّونه ، ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر » .

وكتب أيضاً لأهل أذْرُح وجَرْبَاء ، كتاباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد النبي لأهل أذْرُح وجَرْبَاء ، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مئة دينار في كل رجب ، وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح ، والإحسان للمسلمين . « سبل الهدى والرشاد » ٤٦١ / ٥ و « السيرة الحلبية » ١١٧ / ٣ .

أيلة : مدينة بالشام على ساحل البحر عند خليج العقبة .

وَجَزْبَاء ، وَأَذْرُح : بلدان بالشام ، بينهما ثلاثة أميال .

س - بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة :

قال ابن عبد البر في «الدّرر» ص ٢٩٠ : وقبل رجوعه ﷺ من تبوك بعث خالد بن الوليد في أربع مئة وعشرين فارساً إلى أكيدر دومة بن عبد الملك صاحب دومة ، وهي دومة الجندل ، في شمال نجد ، وهي طرف من أفواه الشام ، بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة ، وقال له : «إنك ستجده يصيد البقر ، فإن ظفرت به فلا تقتله ، فأتاه خالد ليلاً ، وقرب من حصنه ، وأرسل الله تعالى بقر الوحش ، فأتت تحك حائط القصر بقرونها ، فنشط أكيدر ليصيدها ، وخرج في الليل ، فأخذه خالد ، وبعث به إلى رسول الله ﷺ ، فعفا عنه ، وردّه إلى حصنه بعد أن صالحه على الجزية .

هذه الأحداث التي وقعت إبان وجود النبي ﷺ بتبوك تدل على مدى ما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من هيبة في البلاد ، وبين العباد ، فإنه وإن لم يلق عدواً ولا كيداً في تبوك ، فقد جاءه من حولها من أهل البلاد مسالمين مصالحين ، راضين بدفع الجزية ، وسلطان الإسلام .

ع - استشارة النبي أصحابه في مجاوزة تبوك :

قال في «السيرة الحلبية» ١١٩/٣ : وقد استشار النبي ﷺ أصحابه في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن كنت أمرت بالسير فسر .

فقال رسول الله ﷺ : «لو أمرت بالسير لم استشركم فيه» .

فقال : يا رسول الله إن للروم جموعاً كبيرة ، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا في هذه السنة حتى ترى ، أو يحدث الله أمراً ، فتبع ﷺ مشورة عمر وعدل عن مواصلة السير في بلاد الشام .

ف - رجوع النبي ﷺ من تبوك إلى المدينة :

ثم إن النبي ﷺ قفل راجعاً إلى المدينة ، وقد أدى بهذه الغزوة أغراضها ، فأخاف من أخاف ، وصالح من صالح ، ورجع سالماً منصوراً .

فلما أشرف الجيش على المدينة قال النبي ﷺ لأصحابه : « هذه طابة ، وهذا أحد ، جبل يحبُّنا ونحبُّه » . رواه البخاري (٤٤٢٢) في المغازي وغيره .

وقال : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مساراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » .

قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟

قال : « وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » . رواه البخاري (٤٤٢٣) في المغازي .

لقد التمس ﷺ عذراً للذين حبستهم الأعداء عن الخروج معه بأبدانهم ، وقلوبهم ، ترفرف بالحركة مع الجيش ، وبهذا يكون قد حماهم من همز أو لمز من قد يرى في تخلفهم بعض التقصير .

ودخل عليه الصلاة والسلام المدينة في رمضان من السنة نفسها ، فتكون غيبته عنها في هذه الغزوة قرابة شهرين .

ص - استقبال رسول الله عند وصوله إلى المدينة :

واستقبل الناس رسول الله ﷺ ، وهو يؤم المدينة بفرحة عارمة ، وبهجة وسرور ، وجعل الناس والصبيان والولائد يقلن :

طلّع البدرُ علينا من ثِيَّاتِ الوداعِ
وجب الشكرُ علينا ما دعا الله داعِ

وروى البخاري (٤٤٢٧) في المغازي عن السائب بن يزيد رضي الله تعالى عنه ، قال :

أذكر أني خرجتُ مع الصبيان نتلَّى النبي ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من غزوة تبوك .

ولما وصل المدينة ﷺ بدأ بالمسجد - كعاداته إذا قدم من سفر - فصلّى ركعتين ، ثم جلس للناس .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، قال : « الحمد لله الذي رزقنا في سفرنا هذا أجراً وحسنة » .

ق - مسجد الضرار :

وهو مسجد أسسه المنافقون قريباً من مسجد قباء حين كان رسول الله يتجهز لغزوة تبوك رغبة بتفريق كلمة المسلمين ، ومكاناً لتبْيِيت المؤامرات ، وكان الذي أوحى لهم به أبو عامر الراهب ، فإنه قال لهم : ابنوا مسجدكم ، واستمدوا فيه بما استطعتم من قوة السلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فأتي بجيش من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه ، فكانوا يرصدون قدومه ، فلما فرغوا من بنائه أتوا النبي ﷺ ، وقالوا : إنا بنينا مسجداً للذي العلة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، قال : « إنا على جناح سفر ، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا لكم فيه » .

ولما رجع ﷺ من غزوة تبوك ، وكان على نحو ساعة من المدينة ، كشف الله عز وجل له خفايا ونوايا المنافقين في بناء هذا المسجد ، ونهاه أن يصلي لهم فيه .

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [١٠٩] لَا نَقَمُ فِيهِ أَبَدًا الْمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١١٠﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى شِقَاقٍ جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١١﴾ [التوبة : ١٠٧ - ١٠٩] .

فندب رسول الله ﷺ بعض أصحابه ، وقال لهم : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فهدموه وحرّقوه » .

فخرجوا مسرعين فهدموه ، وحرّقوه ، حتى وضعوه بالأرض .

إن المنافقين أخطر فصائل الأعداء على المسلمين ، لأنهم إنما يحاربون الإسلام من الداخل وهم أعلم بأحوال المسلمين من عدوهم الخارجي ، وهم البوابة التي يتسلل من قبلها أعداء الأمة ، لذا كان على الأمة أن تحذر عدوها الخارجي مرة ، وتحذر هؤلاء المنافقين ألف مرة .

قال الله عز وجل في هؤلاء المنافقين :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعِجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦] .

ر - حديث الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك :

لقد تخلف عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة ثلاثة من خيار الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وهم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد تولى كعب بن مالك الحديث عن نفسه ، وعن صاحبيه في هذا التخلف ، وفي هذا الحديث ما فيه من العبر ، والعظات ، والمواقف الفريدة التي تُسَجَّل لهؤلاء الثلاثة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم .

روى البخاري (٤٤١٨) في المغازي عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال :

لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرِيدَ عَيْرَ قَرِيشٍ ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ ، حِينَ تَوَاتَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَا أَحْبَبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدٌ بَدْرٍ ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا ، كَانَ مِنْ خَبْرِي : أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرُ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، وَاللَّهُ مَا أَجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةَ إِلَّا وَرَى بَغِيرَهَا ، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ

الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد ، وأستقبلَ سفرًا بعيداً ، ومفازاً وعدواً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبةً غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يُريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ ، ولا يجمعهم كتابٌ حافظٌ ، يريدُ الديوانَ . قال كعب : فما رجلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ إلا ظنَّ أن سيخفى له ، ما لم ينزل فيه وحيُّ الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلالُ ، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم ، فأرجعُ ولم أقض شيئاً ، فأقولُ في نفسي : أنا قادرٌ عليه ، فلم يزل يتمادى بي حتى أشتدَّ بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلتُ أتجهَّز بعده بيوم أو يومين ثمَّ ألحقُهم ، فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهَّز ، فرجعتُ ولم أقض شيئاً ، ثم غدوتُ ، ثم رجعتُ ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارطَ الغزو ، وهممتُ أن أرتحلَ فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم يقدر لي ذلك ، فكنْتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم ، أحرزني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال : وهو جالسٌ في القوم بتبوك : (ما فعل كعب) . فقال رجلٌ من بني سلمة : يا رسولَ الله ، حسبهُ برداه ، ونظره في عطفه ، فقال معاذُ بن جبل : بشئ ما قلت : والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ ، قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجَّه قافلاً حضرني همِّي ، وطفقتُ أتذكرُ الكذبَ وأقولُ : بماذا أخرجُ من سخطه غداً ، وأستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلماً قيل : إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح عني الباطل ، وعرفتُ أني لن أخرجَ منه أبداً بشيء فيه كذب ، فأجمعتُ صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدِمَ من سفرٍ بدأ بالمسجد ، فيركعُ فيه ركعتين ، ثمَّ جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجنَّته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم الم غضب ، ثمَّ قال « تعال » فجئت

أمشي حتى جلستُ بين يديه ، فقال لي : « ما خَلَفَكَ ، أَلَمْ تكن قد أَتَبعتَ ظَهركَ » فقلتُ : بلى ، إني والله - يا رسول الله - لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطيْتُ جدلاً ، ولكنني والله ، لقد علمت لئن حَدَّثتكَ اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى به عني ، ليوشكنَّ الله أن يسخطك علي ، ولئن حَدَّثتكَ حديثَ صدقٍ تجد عليَّ فيه ، إنِّي لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ، ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسرَ مِنِّي حين تخَلَّفتَ عنك ، فقالَ رسول الله ﷺ : « أمَّا هذا فقد صدَّقَ ، فقمُ حتى يَقْضِيَ اللهُ فيكَ » . فقمْتُ ، ونارَ رجالٍ من بني سلمة فأَتَبَّعُونِي ، فقالوا لي : والله ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا ، ولقد عجزتَ أن لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما أعتذرَ إليه المتخلِّفونَ ، قد كان كافيكَ ذنبكَ أَسْتَغْفِرُ رسول الله ﷺ لكَ . فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذبَ نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا : نعم ، رجُلانِ قالا مثل ما قلت ، فقليلَ لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما؟ قالوا : مرارةُ بن الربيعِ العمري ، وهلالُ بن أميةَ الواقفي ، ذكروا لي رجلين صالحين ، قد شهدا بدرًا ، فيهما أسوءُ ، فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثة من بين من تخلفَ عنه ، فاجتنبنا النَّاسَ وتغيَّروا لنا ، حتى تنكَّرتَ في نفسي الأرضَ فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلكَ خمسين ليلةً ، فأما صاحباي ، فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاةَ مع المسلمين ، وأطوفُ في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلمُ عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرَّكَ شفَّتيه بردُ السلامِ عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه ، فأسارقه النَّظْرَ ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ ، وإذا التفَّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة النَّاسِ ، مشيتُ حتَّى تسوَّرتَ جدارَ حائطِ أبي قتادة ، وهو أبْنُ عمِّي وأحبُّ النَّاسِ إليَّ ، فسَلَّمْتُ عليه ، فوالله ما ردَّ عليَّ السَّلامَ ، فقلتُ : يا أبا قتادة ، أنشدك بالله هل تعلمُني أُحِبُّ اللهُ ورسولَهُ؟ فسكت ، فعدتُ له فنشدته فسكت ، فعدتُ له فنشدته ،

فقال: الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسوّرت الجدار .

قال: فبينما أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا ببطي من أنباط أهل الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه يقول: من يدل على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان ، فإذا فيه : أمّا بعد ، فإنّه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعه ، فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء ، فتيّمت بها التّور فسجرتُ بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إنّ رسولَ الله ﷺ يأمرُك بأن تعتزلَ امرأتك ، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا ، بل أعتزلها ولا تقرّبها ، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك ، فقلت لامرأتي: ألحقي بأهلك ، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أميّة رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسولَ الله إنّ هلال بن أميّة شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا ، ولكن لا يقربك» . قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فقال لي بعض أهلي: لو أستأذنت رسولَ الله ﷺ في امرأتك ، كما أذن لامرأة هلال بن أميّة أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسولَ الله ﷺ ، وما يدريني ما يقول رسولُ الله ﷺ إذا أسأذنته فيها ، وأنا رجلٌ شابٌّ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ ، حتى كملت لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسولُ الله ﷺ عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله ، قد ضاقت على نفسي ، وضافت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعتُ صوت صارخ ، أوفى على جبل سلع ، بأعلى صوته: يا كعبُ بن مالكِ أبشر ، قال: فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج ، وأذن رسولُ الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يشيروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إليّ رجلٌ فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعته له ثوبيّ ، فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ،

وأستعرتُ ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقاني الناس
 فوجاً فوجاً ، يُهتُوني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك ، قال كعبٌ: حتى
 دخلتُ المسجد ، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ حوله الناس ، فقام إليّ طلحةُ بن
 عبيد الله يُهرولُ حتى صافحني وهتاني ، والله ما قام إليّ رجلٌ من المهاجرين
 غيره ، ولا أنساها لطلحة ، قال كعبٌ: فلما سلّمت على رسول الله ﷺ ، قال
 رسول الله ﷺ ، وهو يبرقُ وجهه من السرور: «أُبشِّرُ بخير يوم مرَّ عليك منذ
 ولدتك أمُّك». قال: قلتُ: أَمِنْ عندك يا رسولَ الله ، أم مِنْ عند الله؟ قال:
 «لا ، بل من عند الله» وكان رسولُ الله ﷺ إذا سرَّ أَسْتَنَارَ وجهه حتى كأنه قطعة
 قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله ، إنَّ من
 توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسول الله ، قال رسول الله ﷺ:
 «أَمْسِكْ عليك بعض مالك فهو خيرٌ لك». قلتُ: فَإِنِّي أُمسِكُ سهمي الَّذي
 بخير ، فقلتُ: يا رسولَ الله ، إنَّ الله إنَّما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن
 لا أحدثُ إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في
 صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن ممَّا أبلاني ، ما تعمّدت
 منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً ، وإنِّي لأرجو أن يحفظني
 الله فيما بقيت ، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ
 وَالْمُخَلِّجِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ
 قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ
 خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ
 مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَابَعُ الَّذِينَ
 آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩]. فوالله ما أنعم الله عليّ
 من نعمة قط ، بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله
 ﷺ أن لا أكون كذّبه فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإنَّ الله قال للذين كذبوا -
 حين أنزل الوحي - شرّاً ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ
 لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعَرَضُوا عَنْهُمْ فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ
 جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٥-٩٦﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦].

قال كعبٌ: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرنا حتَّى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا» وليس الذي ذكر الله ممَّا خلفنا عن الغزو ، إنَّما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا ، عمَّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

٥ - وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ:

لما رجع رسول الله ﷺ من تبوك وفد عليه وفد ثقيف وكان من أمرهم أن رسول الله ﷺ لما فكَّ الحصار عن الطائف ، ورجع من غير أن يفتح الطائف قال له بعض أصحابه: ادع عليهم يا رسول الله ، فقال: «اللهم اهد ثقيفاً ، وأت بهم». رواه الترمذي (٣٩٤٢) وأحمد ٣/٣٤٣ وكان أول من أتى منهم عروة بن مسعود الثقفي ، تبع النبي ﷺ ، وهو في طريقه إلى المدينة عائداً من الطائف ، فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم رضي الله عنه ، وسأل النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه ، ويدعوهم إلى الإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ: «إنهم قاتلونك» .

فقال: يا رسول الله ﷺ ، أنا أحب إليهم من أبقارهم ، فخرج إلى قومه يرجو منهم طاعته ، لمرتبته فيهم ، لأنه كان فيهم محبباً مطاعاً ، فلما دعاهم إلى الإسلام ، وأظهر لهم دينه ، ما كان منهم إلا أن رموه بالنبل من كل مكان ، فأصابه سهم فقتله ، فقبل له - رضي الله عنه - قبل أن يلفظ أنفاسه: ما تقول في دمك؟ قال: «كرامة أكرمني الله تعالى بها وشهادة ساقها الله إليّ ، فليس فيّ إلا مافي الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفونني معهم» .

فدفنوه معهم .

وروي أن رسول الله ﷺ قال فيه: «إنَّ مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه». «سبل الهدى والرشاد» ٦/٢٩٦ .

ثم إن ثقيفاً أقاموا شهراً بعد مقتل عروة بن مسعود ، ثم ائتمروا فيما بينهم وتشاوروا ، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد أسلموا وبايعوا ، فأجمعوا أمرهم أن يرسلوا إلى النبي ﷺ من يكلمه ، فأرسلوا إليه خمسة من أشrafهم فيهم عثمان بن أبي العاص ، وكان أصغرهم سناً ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ، ضرب لهم قبة في ناحية المسجد لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، وهم لا يزالون على شركهم .

وكانوا يغدون إلى رسول الله ﷺ كل يوم ، ويخلفون في رحالهم عثمان بن أبي العاص ، فكان إذا رجعوا ذهب إلى النبي ﷺ ، واستقرأه القرآن ، وإذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر ، حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن ، وهو يكتّم ذلك عن أصحابه .

ثم دار بينهم وبين النبي حديث فيه من الغرابة ، والمتعة ما فيه ، وذلك أن كنانة بن عبد ياليل ، قال للنبي ﷺ : هل أنت مُقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟ . قال : « نعم ، إن أنتم أقررتُم بالإسلام أقاضيكُم ، وإلا فلا قضية ، ولا صلح بيني وبينكم » .

قالوا : أفرأيت الزنى؟ فإننا قوم نغترب لا بدّ لنا منه .

قال : « هو عليكم حرام ، إن الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانُوا فِي حَشَةٍ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

قالوا : أفرأيت الربا؟ فإنه أموالناك كلّها ، قال : « لكم رؤوس أموالكم » إن الله تعالى يقول : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨] .

قالوا : أفرأيت الخمر؟ فإنه لا بدّ لنا منها ، قال : « إن الله قد حرمها » وقرأ : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا الْخُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] .

فارتفع القوم ، وخلا بعضهم ببعض ، ثم كلموه ألا يهدم لهم الرّبة ، فأبى عليهم .

فقال ابن عبدياليل: إنا لا نتولى هدمها ، فقال: «سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها» .

بكل هذا الصدر الرحب استقبل رسول الله ﷺ هذا الوفد ، وخاطبهم ، وأخذ وأعطى معهم ، وهم يطلبون أن يظلوا على بقايا جاهليتهم فأبى ولم يضق ذرعاً بهم ، ولم يتأفف من مطالبهم ومواقفهم ، تألفاً لهم ، وترغيباً في الإسلام الكامل التنظيف من هذه الهنات والثِّرَّهات التي أرادوها ، فلما رأوا كل ذلك الحلم ، أعلنوا إسلامهم ، وطلبوا من النبي ﷺ أن يؤمر عليهم ، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص ، لما رأى من حرصه على الإسلام ، وقراءة القرآن ، وتعلم الدين ، وأمره أن يؤمهم في الصلاة .

ثم إن القوم رجعوا إلى قومهم ، واحتالوا لهم ، ورغبوهم في الإسلام حتى أسلموا ، وشهدوا شهادة الحق .

ثم إن النبي ﷺ أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة فهما اللات صنم ثقيف بالطائف ، وطهرهم من رجس عبادتها .

قال ابن سعد: روي عن المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه أنه قال: «دخلت ثقيف في الإسلام ، فلا أعلم قوماً من العرب كانوا أصحَّ إسلاماً ، ولا أبعد أن يوجد فيهم غشٌّ لله تعالى ، ولكتابه منهم .

هذه هي البراعة في الدين ، وهذا هو مقتضى الإيمان الصحيح .

وكل ذلك كان بفضل براعة الرسول ﷺ ومهارته في دعوته .

٦ - حج أبي بكر رضي الله تعالى عنه بالناس :

لما قفل رسول الله ﷺ عائداً من تبوك ، وبعد أن أهل شهر شوال من سنة تسع للهجرة أراد أن يحج ، ثم قال: إنما يحضر المشركون ، فيطوفون عُراً ، فلا أحبُّ أن أحج حتى لا يكون ذلك» .

فأرسل في أخريات ذي القعدة من عام تسع للهجرة أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ليحجَّ بالناس ، فخرج أبو بكر في ثلاث مئة رجل من المدينة

ومعه الهدى عشرون بدنة أهداها رسول الله ﷺ ، وساق أبو بكر خمس بدنات .

ولما سافر أبو بكر نزل على رسول الله ﷺ أوائل سورة براءة ، فأرسل بها علياً رضي الله عنه ليقراها على الناس يوم الحج الأكبر ، وقال : « لا يبلغ عني إلا رجل مني » رواه أحمد (٣/١) والترمذي ٣٠٩٠ في التفسير .

فلحق علي أبو بكر رضي الله تعالى عنهما ، فلما لقيه ، قال أبو بكر لعلي : هل استعملك رسول الله ﷺ على الحج ؟

قال : لا ، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس .

فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليّ على الناس ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة تتضمن نذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم ، وإمهالهم أربعة أشهر يسبحون فيها في الأرض كيف شاؤوا ، وهذه الأشهر تبدأ من اليوم العاشر من ذي الحجة ، وتنتهي في آخر العشر الأول من ربيع الآخر ، أما من رَعَوْا عهودهم ولم ينقضوها فأمر بإتمام عهودهم إلى مدتها ، ثم نادى : لا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عُريان ، وفي هذا قال الله عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] .

روى الترمذي (٣٠٩٢) في التفسير عن زيد بن يُثَيع قال : سألنا علياً بأي شيء بُعِثَ في الحَجَّةِ ؟ قال : بُعِثْتُ بأربع : أن لا يطوفَ بالبيت عُريان ، ومن كان بيته وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدّته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة ، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا .

وبهذا يكون قد انزاح عن مكّة المكرمة ، وبيت الله الحرام كل ألوان الشرك ، وتطهرا من فلول المشركين .

وستظل هذه البلدة المكرمة ، وهذا البيت المطهر إن شاء الله تعالى قبله عامرة للمسلمين جميعاً إلى يوم القيامة ، وقد قال الله عز وجل لنبيه إبراهيم

عليه الصلاة والسلام: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾ [الحج: ٢٦].

فطهره إبراهيم ، ودنسه المشركون ، ثم أعاد طهره محمد ﷺ وأصحابه الكرام ، وسيظل طاهراً من الشرك إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى ، عامراً بذكر الله تعالى ، وتوحيده ، والدعوة إلى دينه ، وموئلاً تهوي إليه أفئدة الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إلى أن تقوم الساعة ويرث الله الأرض ومن عليها .

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧].

وإليك الآيات الكريمة من أول سورة براءة التي قرأها علي رضي الله تعالى عنه أيام الحج الأكبر على المسلمين :

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا أَمَرْتُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
وَأِنْ نَكَوْا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا
أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْبَلُونَ قَوْمًا نَكَوْا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ
الرَّسُولِ وَهُمْ بِكَدِّكُمْ أَوْلَىٰ مَرَّةً أَخَشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ .

٧- وفاة رأس المنافقين عبد الله بن سلول :

في ذي القعدة من أواخر السنة التاسعة للهجرة الشريفة مات رأس النفاق
عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان لرسول الله ﷺ موقف فريد في التعامل مع هذا
الميت الخبيث كرم به ولده المؤمن الصالح عبد الله بن أبي ، واستمال به
كثيرين من المنافقين الذين كانوا يكيدون للإسلام وأهله ، وضرب مثلاً أعلى
في الصنم والإغضاء ، وإمكان الترفع فوق الجراحات ، إذا كان في ذلك
مصلحة ترتجى للدعوة وأهلها .

روى البخاري (٤٦٧٢) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال : «لما
توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فأعطاه قميصه ، وأمره
أن يكفنه فيه ، ثم قام يصلي عليه ، فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه ، فقال : تصلي
عليه ، وهو منافق ، وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟ .

قال : «إنما خيرني ، فقال : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة : ٨٠] ، فقال : سأزيد على السبعين» .

قال : فصلّى رسول الله ﷺ وصلينا معه ، ثم أنزل الله عليه : ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى
أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٤﴾
[التوبة : ٨٤] .

قال ابن حجر في «فتح الباري» ١٩٠ / ٨ :

إنما فعل رسول الله ﷺ ما فعل ، وقال ما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته
على من بعث إليه وفي إظهاره هذه الرأفة لطف بأمته ، وباعث على رحمة
بعضهم ببعض .

قال الشيخ الخضري: وقد نزع رُبَّةُ النفاق كثيرٌ من المنافقين بعد هذا اليوم ، وبعد تلك المعاملة الفريدة .

٨ - سرية خالد بن الوليد إلى بني عبد المَدَّان بنجران :

المدان : اسم صنم بنجران .

وعبد المدان : اسمه عمرو .

وبنو عبد المدان : قبيلة يقال لهم بنو الحارث .

ونجران : موضع باليمن ، سُمِّي بنجران بن زيد بن سبأ .

قال الإمام الشامي في «سبيل الهدى والرشاد» ٢٣٢ / ٦ .

وفي شهر ربيع الآخر من سنة عشر للهجرة بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جمع إلى بني عبد المدان بنجران من أرض اليمن ، وأمره :

أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثة أيام ، فإن استجابوا قبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم .

فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الرُّكبان يضربون في كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : أيُّها الناس ، أسلموا تسلموا .

فأسلم الناس ، ودخلوا فيما دُعُوا إليه ، فأقام فيهم خالد بن الوليد يعلمهم شرائع الإسلام ، وكتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه ﷺ ، ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد النبي رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد ، السلام عليك يا رسول الله ، ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

يا رسول الله ، صلى الله عليك ، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام ، وكتاب الله ، وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإني قدمت عليهم ، فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما

أمرني رسول الله ﷺ وبعثت فيهم رُكبانا ينادون: يا بني الحارث ، أسلموا تسلموا ، فأسلموا ، ولم يقاتلوا ، وإني مقيم بين أظهرهم ، أمرهم بما أمر الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام ، وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إليَّ رسول الله ﷺ ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته .
فكتب إليه رسول الله ﷺ :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

فإن كتابك جاءني مع رسولك يُخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما مدعوتهم إليه من الإسلام ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم ، وأنذرهم ، وأقبلْ ولْيُقْبَلْ معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته» .

ما أجمل هذه المرسلات المفعمة بالبشر ، والسرور ، والعطف واللطف بالعباد بين القائد وأمرائه وقواده ، فإنها تجعل القائد والمقود ينعمون على صعيد واحد ، ويتعاونون على ما فيه خير العباد والبلاد .

وقد روي أن وفد بني الحارث بن كعب لما قدموا على النبي ﷺ ، واجتمعوا إليه قال لهم : «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟» .

قالوا: كُنَّا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبداً أحداً بظلم . قال : «صدقتم» .

وأمر عليهم قيس بن الحُصَيْن .

ما أجملها من معالم ، ترصع جبين الرجال : «نجتمع ولا نفترق ، ولا نبداً أحداً بظلم» .

إنها جوهر ما يدعو إليه الإسلام ، وذروة سنام هذا الدين ، وبهذه الجواهر المضئية عز الإسلام ، وبزٍّ ، ووضع أهله في موضع القدوة والعز .

٩ - سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن :

قال ابن سعد في «الطبقات» ١٦٩/٢ :

بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن في شهر رمضان سنة عشر من مُهاجره ، وعقد له لواء ، وعمَّه بيده ، وقال له : «أَمْضِ وَلَا تَلْتَفْتُ ، فَإِذَا نَزَلْتَ بِسَاحَتِهِمْ فَلَا تَقَاتِلْهُمْ حَتَّى يَقَاتِلُوكَ» .

وفي رواية : «فادعهم إلى قول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فإن قالوا : نعم ، فمرهم بالصلاة ، فإن أجابوا فمرهم بالزكاة ، فإن أجابوا فلا تبغ منهم غير ذلك ، والله ، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس ، أو غربت» «سبل الهدى والرشاد» ٢٣٨ / ٦ .

فخرج إليهم علي في ثلاث مئة فارس ، فلما انتهى إليهم لقي جموعهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، ورموا المسلمين بالنبل ، فصَفَّ علي أصحابه وأمرهم بالقتال ، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم ، فكفَّ عن طلبهم قليلاً ، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا ، وبايعه رؤساؤهم ، وقالوا : نحن على من وراءنا من قومنا ، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله تعالى ، فقبل منهم ، وأقام فيهم يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الشرائع ، وكتب إلى رسول الله ﷺ يخبره بخبرهم ، فأمره رسول الله ﷺ أن يوافيه الموسم ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فوافاه بمكة في حجة الوداع .

انتصارات متلاحقة ، وأقوام يدخلون في الإسلام ينعمون بنعمة الحرية في أفيائه ، ويستنشقون روح الأمن والأمان في ربوع أهله وأصحابه ، فإن الحرب تنحسر والخصام يزول عندما يشهد الجميع شهادة الحق وينضووا تحت راية الإسلام .

١٠ - بعث العمال إلى اليمن :

وكان من هديه ﷺ أن يبعث الفقهاء والعلماء من أصحابه إلى القبائل المسلمة ، أو القبائل التي لم تسلم بعد ليدعوا إلى الله تعالى ، ويعلموا شرائع الدين ، ويقيموا في العباد أحكام الدين ، ومن هذا القبيل بعثه ﷺ معاذ بن جبل ، وأبا موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهما إلى اليمن .

روى البخاري (٤٣٤١) في المغازي عن أبي بردة قال : بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ، ومعاذ بن جبل إلى اليمن .

قال : وبعث كل واحد منهما على مِخْلَافٍ .

قال : واليمن مِخْلَفَان ، ثم قال : «يَسِّرُوا ، وَلَا تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا ، وَلَا تُنْفِرُوا» .

فانطلق كل واحد منهما إلى عمله .

والمِخْلَاف : هو الإقليم ، فكان معاذ للجبهة العليا إلى صوب عدن .

وأبو موسى للجبهة السفلى .

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل :

«إِنَّكَ ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسولُ الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأياك وكرائم أموالهم ، واتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فإنه ليس بينها وبين الله حجابٌ» . رواه البخاري (١٤٩٦) في الزكاة .

وقد مكث معاذ رضي الله تعالى عنه باليمن ، معلماً ، ووالياً حتى توفي رسول الله ﷺ .

أما أبو موسى ، فقد قدم على رسول الله ﷺ في حجة الوداع .

١١ - تتابع الوفود إلى رسول الله ﷺ :

بعد فتح مكة ، وغزة تبوك ، وصل رسول الله ﷺ بدعوته إلى قمة البلاغ ، وذروة النصر ، والعزة ، فلم يعد أمام العدو الظاهر والخفي بدٌّ من التظاهر بالرضى ، والانضواء تحت لواء الدعوة ، وراية الدين ، فجاءت الوفود من كل فج عميق إلى رسول الله ﷺ تعلن ولاءها له ، ورضاها به ، ودخولها في دينه ، وما هي إلا أيام حتى يشرق الدين في أفئدة هؤلاء ، وأولئك ، فتصفو

سرايرهم . وتستشير ضمائرهم ، وتستقيم ظواهرهم ، ويسيرون مع الركب بإخلاص ووثاق .

لقد كان نجاح رسول الله ﷺ ثمرة طبيعية لجهوده وجهاده ، القائم على صدق الإيمان ، والإخلاص ، والجهد ، والتخطيط ، والعبقرية الدعوية ، والمهارة البلاغية ، وفي المقدمة التأيد الإلهي ، والتوفيق الرباني .

قال ابن إسحاق : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وروى البخاري (٤٣٠٢) في المغازي قال : «كانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق ، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم» .

ومعنى : تلوم : أي تنتظر .

وعدد الإمام الشامي في كتابه «سبل الهدى والرشاد» أسماء أكثر من مئة وفد ممن وفدوا على النبي ﷺ ، وأعلنوا ولاءهم له .

وقد كان النبي ﷺ يهتم لهذه الوفود ، ويعد العدة لاستقبالهم ، ويحضر الجوائز لإكرامهم ، فلا يدعهم يصدرون عنه إلا والبسمة تعلق شفاههم ، والرضى يغمر قلوبهم ، وجلال النبوة يغشى نفوسهم .

قال محمد بن عمر عن جندب بن مكيث ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا قدم عليه الوفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر أصحابه بذلك ، فرأيت أنه وقد قدم عليه وفد كندة وعليه حلة يمانية ، وعلى أبي بكر وعمر مثله .

وقال عروة بن الزبير : إن ثوب رسول الله ﷺ الذي كان يخرج فيه للوفود حَضْرَمِيٌّ ، طوله أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان وشبر . «سبل الهدى والرشاد» ٢٥٩/٦ .

أما جوائز الوفود ، فقد كان - ﷺ - يقدمها إلى كل فرد منهم .

قال ابن حجر في «فتح الباري» ٧/ ٧٤١: وكانت جائزة الواحد على عهده ﷺ «وقية» من فضة ، وهي أربعون درهماً.

وقد أوصى - ﷺ قبل وفاته بالوفود ، وحسن استقبالهم ، وقال لخلفائه: «وأجيزوا الوفدَ بنحوٍ ما كنت أجيزهم». رواه البخاري (٣٠٥٣) في الجهاد.

وهذا من عظيم شمائله ، وكريم خصاله ، ومهارات سياساته وعبقريته قيادته .

وإليك طائفة من الوفود التي وفدت عليه ﷺ ، وليس من غرضنا أن نستقصي وسوف ترى البراعة في هذه اللقاءات والاستقبالات ، التي تفيض بالدروس والعبر والآداب التي يحتاجها الداعي والأديب والسياسي .

آ- وفود نصارى نجران:

وكانوا ستين راكباً.

قال بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ: لم نر وفداً مثلهم .

دخلوا المسجد ، وعليهم ثياب الجبّة - القطن والكتّان - وأزديّة الحرير ، مختمين بالذهب ، ومعهم بُسُط فيها تماثيل ، ومُسوح - ثياب غليظة من الشعر - جاؤوا بها هدية للنبي ﷺ ، فلم يقبل منهم البسط ، وقبل المسوح .

ولما جاء وقت صلاتهم صلوا في المسجد مستقبلين بيت المقدس ، فقال رسول الله ﷺ: «دعُوهم» .

فلما أتموا صلاتهم أتوا النبي ﷺ فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وقالوا: كُنَّا مسلمين قبلكم .

فقال عليه الصلاة والسلام: «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولداً» .

قالوا: فمن مثل عيسى من غير أب؟

فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وليطهر الله تعالى لهم أنهم في شك من أمرهم ، أمر نبيه ﷺ أن يطلب منهم أن يباهلهم ، وأنزل عليه ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فدعاهم رسول الله ﷺ لذلك فامتنعوا ، ورضوا بإعطاء الجزية ، وهي: ألف حلّة في صفر ، وألف حلّة في رجب ، مع كل حلّة أوقية من فضة .
ثم قالوا: أرسل معنا أميناً ، فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ، وكان لذلك يسمى : أمين هذه الأمة .

روى البخاري (٤٣٨٠) في المغازي عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال :
جاء العاقب ، والسيد صاحب نجران إلى رسول الله ﷺ يُريدان أن يلاعنا ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعد ، قال :

إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلاً أميناً ، ولا تبعث معنا إلا أميناً .
فقال : «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حقّ أمين» .
فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» .

فلما قام ، قال رسول الله ﷺ : «هذا أمين هذه الأمة» .

وفي رواية البخاري (٤٣٨) أنه قال :

«لكل أمة أمينٌ ، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» .

فكان أبو عبيدة فيهم مثل جيش في تأثيره ، وحسن سياسته وتدبيره ، فلم تمض فترة إلا وقد رجع السيد ، والعاقب فأعلننا إسلامهما بين يدي رسول الله ﷺ .

وهكذا تتجلى حكمة رسول الله ﷺ في استقبال هذا الوفد وفيهم ما فيهم من المخالفة والمعاندة ، فقد صبر عليهم ، واستمع إليهم ، وجادلهم بالحكمة .

ب - وفود ضِمَام بن ثعلبة :

كان ضمام رجلاً جلدأ أشعر ذا غديرتين ، بعثه بنو سعد بن بكر وافداً إلى رسول الله ﷺ .

روى البخاري (٦٣) في العلم عن أنس رضي الله تعالى عنه ، قال : بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل ، فأناخه في المسجد ، ثم عقله ثم قال لهم : أيكم محمد؟

والنبي ﷺ متكىء بين ظهرائيهم ، فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكىء ، فقال له الرجل :

ابن عبد المطلب؟

فقال له النبي ﷺ : « قد أجبتك » .

فقال الرجل للنبي ﷺ : إني سأئك فمُشدّد عليك في المسألة ، فلا تجذ عليّ في نفسك .

فقال : « سلّ عمّا بدا لك » .

فقال : أسألك برّبك ، وربّ من قبلك ، آلهُ أرسلك إلى الناس كلّهم؟

فقال : « اللّهم نعم » .

قال : أنشدك بالله ، آلهُ أمرك أن نُصلّي الصلوات الخمس في اليوم واللييلة؟

قال : « اللّهم ، نعم » .

قال : أنشدك بالله ، آلهُ أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟

قال : « اللّهم ، نعم » .

قال : أنشدك بالله ، آلهُ أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا ، فتقسمها

على فقرائنا؟

فقال النبي ﷺ: «اللهم ، نعم» .

فقال الرجل: آمَنْتُ بما جئتَ به ، وأنا رسول من ورائي من قومي ، وأنا ضِمَامُ بن ثعلبة ، أخو بني سعد بن بكر .

لم يَسْتَأْ رسول الله ﷺ لهذه الشدَّة ، والاستحلاف وهو الصادق المصدق : لما كان يتمتع به من اللطف بالناس ، وحسن الاستقبال لهم ، والرحمة بهم .

وقد أبدى هذا السائل براعة ، ومهارة ، ورغبة في الاستيثاق من الأمر ، فلم يتردد بعدها من إعلان إسلامه ، ورجوعه إلى قومه داعياً لهم بالإسلام ، والدخول في طاعة رسول الله ﷺ ، لهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما :

ما سمعنا بوافد قومٍ أفضل من ضِمَامِ بن ثعلبة .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ما رأيت أحداً أحسن مسألة ، ولا أوجز من ضمام .

وقال رسول الله ﷺ لما ولى ضمام :

«فَقَّهَ الرجل» .

وكان من صدقه ، وفقهه أنه لما رجع إلى قومه ، واجتمعوا إليه ، كان أول ما تكلم به إليهم : بُسَّتِ اللَّاتُ وَالْعَزَى .

فقالوا: مَهْ يا ضمام ، اتَّقِ البرص ، اتَّقِ الجذام ، اتَّقِ الجنون ، فقال : ويلكم ، إنهما - والله - لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً فاستنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه .

فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل أو امرأة إلا مسلماً ، «سبل الهدى والرشاد» ٣٥٥/٦ .

ج - وفود عبد القيس :

وعبد القيس كانت مساكنهم بالبحرين وما ولاها من أطراف العراق ،
وبينهم وبين الحجاز أرض نجد .

وكان من خبرهم أن النبي ﷺ كان يحدث أصحابه يوماً فقال لهم :
« سيطلع عليكم من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق » .

فقام عمر رضي الله عنه ، فتوجه نحوهم ، فلقي ثلاثة عشر راكباً ، فقال :
من القوم ؟

فقالوا : من بني عبد القيس .

قال : فما أقدمكم ، التجارة ؟

قالوا : لا .

قال : أما إن النبي ﷺ قد ذكركم أنفاً ، فقال خيراً .

ثم مشوا معه حتى أتوا النبي ﷺ ، فقال عمر للقوم : هذا صاحبكم الذي
تريدون .

فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم حتى أتوا النبي ﷺ ، وهم في لباس
سفرهم ، فأخذوا بيده فقبلوها . فاستقبلهم الرسول ﷺ خير استقبال ، وقال
لهم : « مرحباً بالقوم غير خزايا ، ولا ندامى ، اللهم اغفر لعبد القيس » .

وروى أحمد حديث هذا الوفد (٤٣٢ / ٣) وفيه ما يشوق لسماعه ، وسنقل
أطرافاً منه :

عن شهاب بن عباد أنه سمع وفد عبد القيس وهم يقولون : قدمنا على
رسول الله ﷺ ، فاشتد فرحهم بنا ، فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا ،
فقعدنا ، فرحب بنا النبي ﷺ ، ودعا لنا ، ثم نظر إلينا ، فقال : « من سيدكم
وزعيمكم ؟ » .

فأشرنا باجمعنا إلى المنذر بن عائد ، فقال : « أهذا الأشج ؟ » .

وكان أول يوم وضع عليه هذا الاسم بضربة لوجهه بحافر حمار .

قلنا : نعم يا رسول الله .

فتخلف بعد القوم ، فعقل رواحهم ، وضَمَّ متاعهم ، ثم أخرج عييته - وعاء من خوص - فألقى عنه ثياب السفر ، ولبس من صالح ثيابه ، ثم أقبل إلى النبي ﷺ ، وقد بسط النبي ﷺ رِجله ، واتكأ ، فلما دنا منه الأشجُّ أوسع القوم له ، وقالوا : ها هنا ، يا أشجُّ ، فقال النبي ﷺ ، واستوى قاعداً ، وقبض رجله :

«هاهنا ، يا أشجُّ» .

فقعد عن يمين النبي ﷺ ، فرحب به ، وألطفه ، وسأله عن بلاده ، وسمَّى له قرية قربة من قرى هجر ، فقال : بأبي وأمي ، يا رسول الله ، لَأنت أعلم بأسماء قرانا منا .

ثم أقبل - ﷺ - على الأنصار ، فقال : «يا معشر الأنصار ، أكرموا إخوانكم ، فإنهم أشباهكم في الإسلام ، أسلموا طائعين ، غير مكرهين ، ولا موتورين» .

فلما أن أصبحوا قال : «كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم ، وضيافتهم إياكم؟» .

قالوا : خير إخوان ، ألانوا فراشنا ، وأطابوا مطعمنا ، وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتاب ربنا تبارك وتعالى ، وسنة نبينا ﷺ .

فأعجبت النبي ﷺ ، وفرح بها ، ثم أقبل علينا رجلاً رجلاً ، فعرضنا عليه ما تعلمنا .

وروى مسلم (٢٥) في الإيمان أن النبي ﷺ قال للأشج : أشج عبد القيس :

«إن فيك خصلتين يُحبُّهما الله : الحلم والأناة» .

إنها قصة تحكي مواقف رائعة ، ومهارات إنسانية متقدمة ، تصور علاقة متميزة كانت تظهر واضحة بين النبي وإخوانه وأصحابه ، ممن أسلم قديماً ، أو

أسلم حديثاً ، علاقة بر ، ولطف ، وصدق ، وحسن معاملة ، وهذا من أسرار نجاح الرسول ﷺ في تكوين صلات وعلاقات إنسانية رائعة وراقية مع الناس فأجمل بالدعاة والمدعوين أن يرتقوا إلى هذا المستوى المتميز في صلاتهم وعلاقاتهم ، وأخلاقهم .

د- وفود كِنْدَة:

وكِنْدَة قبيلة من اليمن ينسبون إلى كِنْدَة لقب جدهم ثور بن عُفَيْر ، لُقِّب بذلك لأنه كند أباه النُّعْمَة ، ولحق بأخواله ، والكَنْدُ: القطع . «القاموس المحيط» .

قال ابن إسحاق: قدم الأشعث بن قيس على رسول الله ﷺ في ستين ، أو ثمانين راكباً من كندة .

وكان الأشعث فيهم وجيهاً مطاعاً ، فلما دخلوا على النبي ﷺ المسجد ، قالوا: خبأنا لك شيئاً ، فأخبرنا عما خبأناه لك ، فقال: «سبحان الله ، إنما يُفعل ذلك بالكاهن ، وإن الكاهن والتَّكهن في النار» ، ثم قال: «إنَّ الله بعثني بالحق ، وأنزل عليّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه» .

فقالوا: أسمعنا منه ، فتلا عليهم قول الله عز وجل: ﴿وَالصَّٰلِفَتِ صَفًا ۝١﴾ **فَالزَّيْجَرَتِ زَجْرًا ۝٢** **فَاللَّيْلِ ذِكْرًا ۝٣** **إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤** **رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥** [الصفافات: ١ - ٥] .

ثم سكت ، وسكن ، ودموعه تجري على لحيته .

فقالوا: إنا نراك تبكي ، أفمن مخافة من أرسلك تبكي؟

قال: «إن خشيتي منه أبكتني ، بعثني على صراط مستقيم في مثل حدِّ السيف إن زغْتُ عنه هلك ، ثم تلا: ﴿وَلَيْنَ شِئْنًا لَّنْذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧﴾ [الإسراء: ٨٦ - ٨٧] .

ثم قال لهم: «ألم تسلموا؟» .

قالوا: بلى .

قال: ما بال هذا الحرير في أعناقكم؟» .

فعند ذلك شقّوه ، وألقوه . «نور اليقين» ص: ٢٧٣ .

نعم تابوا إلى الرشد ، وألقوا من أعناقهم مظاهر الغيِّ ، ومن قلوبهم أفكار الشرك ، وأعلنوا ولاءهم للحق ، وتركوا كل ما يُبغضه الدين .

وهكذا ينقلب القلب بعد الهداية ، من الغواية إلى الرشاد ، وينغسل من أدران الماضي بماء العلم ، وسلسيل النور .

هـ- وفود تُجيب :

وهم حيٌّ من اليمن ، وفد على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر رجلاً منهم ، ومعهم صدقات أموالهم التي فرض الله تعالى عليهم ، فسرّ بهم رسول الله ﷺ ، وأكرم منزلهم ، وقالوا: يا رسول الله ، سُقْنَا إليك حقَّ الله في أموالنا ، فقال عليه الصلاة والسلام: «ردُّوها ، فاقسموها على فقرائكم» .

فقالوا: يا رسول الله ، ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا .

قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله ، ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا ، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الهدى بيد الله ، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان» .

ثم جعلوا يسألونه عن القرآن والسنن ، فازداد رسول الله ﷺ فيهم رغبة ، وأمر بلالاً أن يُحسن ضيافتهم .

ثم أرادوا الرجوع إلى أهلهم ، ف قيل لهم: ما يعجبكم؟

قالوا: نرجع إلى من وراءنا ، فنخبرهم برؤية رسول الله ﷺ ، ولقائنا إياه ، وما ردَّ علينا ، ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فودَّعوه ، فأجازهم بأفضل ما كان يجيز الوفود ، ثم قال لهم: «هل بقي منكم أحد؟» .

قالوا: غلام خلفناه في رحالنا ، وهو أحدثنا سنأ .

قال: «فأرسلوه إلينا».

فلما رجعوا إلى رجالهم قالوا للغلام: انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، أنا من الرهط الذين أتوك أنفأ ، وقد قضيت حاجتهم ، فاقض حاجتي .

قال: «وما حاجتك؟» .

قال: تسأل الله تعالى أن يغفر لي ، ويرحمني ، ويجعل غناي في قلبي .

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر له وارحمه ، واجعل غناه في قلبه» .

ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه .

فعاش الرجل بفضل دعاء رسول الله ﷺ ، وصدقه في رغبته على أفضل حال ، وأزده في الدنيا ، وأقنعه بما رزقه الله تعالى .

وكان أبو بكر رضي الله يذكره بعد وفاة رسول الله ﷺ ويسأل عنه ، ويوصي به خيراً . «سبل الهدى والرشاد» . ٢٨٥ / ٦ .

و- وفود همدان:

همدان: قبيلة يمنية معروفة ، وفدوا على النبي ﷺ بعد رجوعه من تبوك ، وعليهم مقطعات من الحِبرَات ، اليمينية ، والعمائم العدنية .

وكان فيهم مالك بن النَّمط ، وكان شاعراً مجيداً ، أنشد لرسول الله ﷺ:

صَوَادِرَ بِالرِّكْبَانِ مِنْ هَضْبٍ قَرَدَدٍ	حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاqَصَاتِ إِلَى مَنْى
رَسُولُ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهْتَدٍ	بِأَنْ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدَّقٍ
أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ	فَمَا حَمَلَتْ نَاقَةَ فَوْقَ رَحْلِهَا
وَأَمْضَى بَحْدَ الْمُشْرِفِيِّ الْمُهَنْدِ	وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبَ الْمَعْرُوفِ جَاءَ

الراقصات: الإبل .

الهَضْبُ: جمع هضبة ، وهي الجبل .

قَرَدَدَ: ما ارتفع من الأرض .

وقد أمّر رسولُ الله ﷺ مالكاَ على من أسلم من قومه ، وقال ﷺ في حقِّ هَمْدان .

«نعم الحيُّ هَمْدان ، ما أسرعها إلى النصره وأصبرها على الجَهد ، وفيهم أبدال ، وأوتاد». «نور اليقين» .

نمسك عند هذا الحدّ من ذكر الوفود ، وإلا فهم أكثر من هذا بكثير ، وما من وفد وفد على رسول الله ﷺ ، إلا وكان له مع رسول الله ﷺ موقف مشرف ، وكان لرسول الله ﷺ معهم مواقف ، تنم عن دروس وعبر ، وترسم ظلالاً لحسن البراعة ، وترك أفياء من الأنس وحسن المعاملة .

١٢ - وفاة إبراهيم بن النبي ﷺ :

أمه مارية القبطية رضي الله عنها ، أهداها لرسول الله ﷺ المقوقس صاحب الاسكندرية حين راسله النبي ﷺ ودعاه إلى الإسلام ، فقبلها منه ، ودعاها إلى الإسلام ، فأسلمت ، فأكرمها ، وأنزلها بمال له في العالية ، وكانت مارية دينئةً ، بيضاء جميلة ، وكان رسول الله ﷺ معجباً بها ، وكان يحبها ويكرمها ، ويطؤها بملك اليمين .

ولدت مارية إبراهيم في شهر ذي الحجة سنة ثمان للهجرة في العالية وكانت قابلته : سلمى مولاة رسول الله ﷺ ، فخرجت إلى زوجها أبي رافع ، فأخبرته ، فبشر أبو رافع رسول الله ﷺ ، فسُرَّ بذلك كثيراً ووهب أبا رافع عبداً .

ثم انطلق به رسول الله ﷺ إلى أم سَيْف ، امرأة قَيْنٍ - حداد - بالمدينة يقال له : أبو سيف ، فدفعه إليها . «فتح الباري» ٢٠٧/٣ .

قال أنس رضي الله عنه : ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ ، كان إبراهيم مسترضعاً في عوالي المدينة ، وكان ينطلق ، ونحن معه ، فيدخل البيت ، وإنه ليدخن ، وكان ظئره قَيِّناً .

والظئر: المرضع ، وأطلق على هذا القين لفظ الظئر ، باعتباره زوجاً للمرضع . «فتح الباري» ٢٠٧/٣ .

ثم إن النبي ﷺ خلق شعر إبراهيم يوم سابعه ، وسماه ، وتصديق بزنته ورقاً ، وعق عنه بكشين .

وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : «وُلِدَ لي الليلة غلام ، فسميته باسم أبي إبراهيم» . رواه مسلم (٢٣١٥) في الفضائل .

وروى ابن سعد عن أنس قال : لما ولد إبراهيم لرسول الله ﷺ جاء جبريل إلى رسول الله ، فقال : السلام عليك يا أبا إبراهيم .

وعاش إبراهيم ثمانية عشر ، أو سبعة عشر شهراً من ولادته ، وتوفي بعدها .

روى البخاري (١٣٠٣) في الجنائز ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف الفُين - وكان ظئراً لإبراهيم عليه السلام - فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم ، فقبله وشمّه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك ، وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تَذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت ، يا رسول الله ، فقال : «يا ابن عَوْف ، إنها رحمة» .

ثم اتبعها بأخرى ، فقال ﷺ : «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضِي رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ» .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : لما قبض إبراهيم بن النبي ﷺ قال لهم رسول الله ﷺ : «لَا تَدْرِجُوهُ فِي أَكْفَانِهِ حَتَّى أَنْظَرَ إِلَيْهِ» .

فأتاه ، فانكب عليه ، وبكى . رواه ابن ماجه (١٤٧٥) في الجنائز ، بسند ضعيف .

وصلى عليه رسول الله ﷺ ، بعد أن غسله الفضل بن العباس وألحده في قبره الفضل وأسامة بن زيد ، ورسول الله ﷺ جالس على شفير القبر ، ثم إنه

بعد تسوية القبر رشَّ رسول الله ﷺ عليه ماء ، وعلم قبره بعلامة ، وذلك في البقيع مقبرة أهل المدينة .

كسوف الشمس عند موت إبراهيم :

لما كسفت الشمس ورأى الناس ذلك ، أسرع بعض المتعجلين ، فقال : إنما كسفت لموت إبراهيم عليه السلام ، جرياً على ما كان يشاع من أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء ، فأسرع رسول الله ﷺ لردِّ هذا القول ، وإبطال هذا العرف الجاهلي ، وأعلن الحقيقة الصحيحة ، والواقع الحي ، فقال : « إِنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، لَا يَنْكَسِفَانِ لموت أحد ، وَلَا لحياته ، فإذا رأيتموهما فادْعُوا اللَّهَ ، وَصَلُّوا حتى ينكشفَ » . رواه البخاري (١٠٤٣) في الكشف ، ومسلم (٩١٥) في الكسوف .

وما الصلاة والدعاء إلا عنوان شكر الله تعالى على هذه النعم ، ورغبة إليه تعالى في استبقاء هذا الفضل سابغاً عاماً على العباد .

١٣ - حجة الوداع :

وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يسمونها : «حجة الإسلام» .

روى الإمام مسلم (١٢١٨) في الحج ، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : إِنَّ رسول الله ﷺ مكث - في المدينة - تسع سنين لم يحجَّ ، ثم أَدَّنَ في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاجٌّ ، فقدم المدينة بشراً كثير ، كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُنُ أَنْ يَأْتَمَّ برسول الله ﷺ ، ويعمل مثله عمله .

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة مغتسلاً ، متدهنًا ، مُتَرَجِّلًا ، مُتَجَرِّدًا في ثوبين صُحَارِيَّين : إِزَارٍ ، ورداءٍ ، وذلك يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة ، وأخرج معه نساء كلهن ، فصلَّى الظهر بذي الحليفة ركعتين ، ثم ركب ناقته ، فلما استوت به ناقته في البيداء أحرم من يومه ذلك مفرداً ، وقيل قارناً ، وقيل متمتعاً ، ثم أهلَّ بالتوحيد :

«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمَلِكُ ، لَا شَرِيكَ لَكَ» .

قال جابر رضي الله عنه ، وأهل الناس بإهلاله .

فنظرت إلى مدّ بصري بين يدي رسول الله ﷺ من راكبٍ وماشيٍّ ، وعن يمينه مثلُ ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملنا به .

ثم مضى - ﷺ - يسير المنازل ، ويؤم أصحابه في الصلوات ، وكان يوم الاثنين : بمرّ الظهران ، فغربت له الشمس بسرف ، ثم أصبح ، فاغتسل ، ودخل مكة نهراً من أعلاها من طريق كدّاء ، وهو على راحلته ، حتى انتهى إلى باب بني شيبه ، فلما رأى البيت ، رفع يديه ، فقال :

«اللَّهُم زِدْ هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً ، وزِدْ من عظمه ممن حجّه واعتمره تشريفاً وتكريماً ومهابةً وتعظيماً وبرّاً» . ثم أتى البيت فاستلم الركن ، ثم طاف بالبيت سبْعاً ، ورمل ثلاثة أشواط من الحجر إلى الحجر ، وهو مضطجع بردائه ، واستلم الحجر ، ثم صلى خلف المقام ركعتين ، قرأ فيهما : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا ، فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٥٨] أبداً بما بدأ الله به فبدأ بالصفا ، فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد الله وكبره وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قديرٌ ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ثم دعا بين ذلك ، ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى ، حتى إذا صعد مشى ، حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا ، سعى سبْعاً راكباً على راحلته ، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة ، قال : لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحلّ ، وليجعلها عمرة .

فحل الناس كلهم ، وقصروا إلا النبي ﷺ ، ومن كان معه هدي .

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى ، فأهلوا بالحج ، وركب رسول الله ﷺ فصلًى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة ، فسار رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي ، فخطب الناس وقال : «أيُّها الناس ، اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً .

أيُّها النَّاسُ ، إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أولَ دمٍ أضع من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث ، وربا الجاهلية موضوع ، وأوّلُ رباٍ أضع ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضُوع كله .

أيُّها النَّاسُ ، إن الشيطان قد يئس من أن يُعبدَ بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يُطعَ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيُّها النَّاسُ إنّ النّسيءَ زيادة في الكفر يضلُّ به الذين كفروا يُحلُّونه عاماً ، ويُحرِّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله ، وإن الزّمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض ، السّنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متواليات ، وواحد فرْدٌ : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان .

اتقوا الله في النّساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله ، إن لكم عليهن حقاً ، ولهنَّ عليكم حقاً ، لكم عليهنَّ أن لا يُوطئنَ فرشكم أحدًا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبرِّح ، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف .

فاعقلوا أيُّها النَّاس قولي ، فإنني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وسنة رسوله .

أَيُّهَا النَّاسُ ، اسمعوا وأطيعوا ، وإن أُمِّرَ عليكم عبد حبشيٍّ ، مُجَدِّعٌ ،
ما أقام كتاب الله تعالى .

أَرْقَاءَكُمْ أَرْقَاءَكُمْ ، أَطْعَمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ ، وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ ، وَإِنْ
جَاؤُوا بِذَنْبٍ لَا تَرِيدُونَ أَنْ تَغْفِرُوهُ ، فَبِيعُوا عِبَادَ اللَّهِ ، وَلَا تَعَذِّبُوهُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، اسمعوا قولِي واعقلوه ، تَعْلَمُنَّ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ ،
وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ ، فَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طَيِّبِ نَفْسٍ
مِنْهُ ، فَلَا تَظْلِمُنَّ أَنْفُسَكُمْ .

اللَّهُمَّ ، هَلْ بَلَغْتَ؟ وَتَسْتَلْقُونَ رَبِّكُمْ ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضَلَالًا يَضْرِبُ
بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ .

أَلَا لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضٌ مِنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ
مِنْ سَمْعِهِ .

وَأَنْتُمْ تَسْأَلُونَ عَنِّي ، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» .

قَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ ، وَأَذَيْتَ ، وَنَصَحْتَ .

فَقَالَ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةَ ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ ، وَيَنْكِتُهَا إِلَى النَّاسِ : «اللَّهُمَّ
أَشْهَدُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

ثُمَّ أَذِنَ ثُمَّ أَقَامَ ، فَصَلَّى الظُّهْرَ ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ ، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ
حَتَّى أَتَى الْمَوْقِفَ ، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا يَدْعُو حَتَّى غَرَبَتِ
الشَّمْسُ ، وَكَانَ مِنْ دَعَائِهِ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ
الْقَبْرِ ، وَمِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ ، وَمِنْ وَسْوَسةِ الصِّدْرِ ، وَمِنْ شَتَاتِ الْأَمْرِ ، وَمِنْ
شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ فِيْمَا دَعَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حُجَّةِ الْوُدَاعِ :
«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلَامِي ، وَتَرَى مَكَانِي ، وَتَعْلَمُ سَرِّي وَعَلَانِيَتِي ، وَلَا يَخْفَى
عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي ، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ ، الْوَجِلُ
الْمَشْفِقُ ، الْمَقْرُ الْمَعْتَرَفُ بِذَنْبِهِ ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمُسْكِينِ ، وَابْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالُ

المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريع ، من خضعت لك رقبتك ،
وفاضت لك عَبرته ، وذلك لك جسده ، ورغم لك أنفه .

اللهم ، لا تجعلني بدعائك ربي شقياً ، وكن بي رؤوفاً رحيماً ، يا خير
المسؤولين ، يا خير المعطين . «السيرة الحلبية» ٣ / ٣٢٤ .

وقال ﷺ : «أفضلُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من
قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل
شيء قدير» رواه الترمذي (٣٥٨٥) في الدعوات ، ونزل على النبي ﷺ ، وهو
في عرفات بعد العصر ، يوم الجمعة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

ثم أردف رسول الله ﷺ أسامة بن زيد خلفه ، ودفع إلى المزدلفة ، وقد
شقق للقصواء الذمام ، ويقول بيده اليمنى : «أيها الناس ، السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ» .

حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ،
ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين
له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل
القبلة ، فدعا ، وكبر ، وهلل ، ووحد ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، فدفع
قبل أن تطلع الشمس ، حتى أتى بطن مُحَسَّرٍ ، فحرك قليلاً ، ثم سلك الطريق
الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة ، فرماها بسبع
حَصَيَّاتٍ مثل حصى الخَذَفِ ، يكبر مع كل حصاة منها ، ثم انصرف إلى المنحر ،
فنحر ثلاثاً وستين بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر ، وأشركه في هديه ، ثم
أمر من كل بَدَنَةٍ ببَضْعَةٍ فجعلت في قدر ، فطبخت فأكل من لحمها ، وشرب
من مرقها ، ثم دعا بالحلاق ، فبدأ بشق رأسه الأيمن فحلقة ، ثم بشقه
الأيسر ، وقسم شعره بين الناس ، فأعطى ، أبا طلحة ، وأمَّ سليم .

قال أنس : رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقة ، وقد طاف به أصحابه ،
ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل .

وحلق أصحابه أيضاً ، أو قصروا ، ولبسوا ثيابهم ، وتطيب رسول الله ﷺ ، ثم ركب ﷺ ، فأفاض إلى البيت ، فطاف ، ثم صلى الظهر ، وأتى بني عبد المطلب ، وهم يسقون على زمزم ، فقال : « انزعوا بني عبد المطلب ، فلولاً أن يغلبكم الناس على السقاية لنزعت معكم » .

فناولوه دلوأ فشرب منها ، ثم رجع ﷺ من يومه إلى منى فأقام بها ثلاثة أيام يرمي بها الجمرات بعد الزوال من كل يوم ، وكان ينهى عن صيام هذه الأيام ، ويقول : « إنهن أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى ، فلا يصومهن أحد » .

ثم نهض رسول الله ﷺ من منى في اليوم الثالث ، ونفر منها بعد الزوال ، فوجد أبا رافع رضي الله عنه قد ضرب له قبة بالأبطح ، وكان ﷺ قد قال لأسامة بن زيد : « غداً نزل المحصب إن شاء الله » ، فصلى به الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، ورقد رقدة ، وأمر الناس أن لا ينصرفوا إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم بالبيت ، يعني طواف الوداع ، ثم قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة بعد أن أقام بمكة عشرة أيام ، فلما وصل إلى ذي الحليفة بات بها ، لأنه ﷺ كان يكره أن يطرق المدينة ليلاً إذا عاد من سفر .

ولما رأى المدينة كبر ثلاثاً ، وقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيئون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون لرئيسنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ثم دخل المدينة نهراً من طريق المعرّس .

« السيرة الحلبية » ٣ / ٣٤٠ .

هذه كوكبة من الأقوال والأفعال والحركات والتصرفات ، والشرائع والأحكام والمهارات عرضنا إليها في هذه الحجة العظيمة ، والتقطناها من مصادرها في كتب الحديث والسيرة ، وإنها لتعبر عن آمال النبي ﷺ ، وتطلعاته في تخليد ذكريات تبقى حية في نفوس الأصحاب والأجيال ، تمدهم بالطاقة ، وتهديهم إلى الصراط السوي .

ولنا وقعة مختصرة مع عبر ودروس هذه الحجة المباركة التي ختم بها

رسول الله ﷺ حياته ، وودع بها أمته ، ووضع المسؤولية بعده في أعناقهم إلى يوم القيامة .

من عبر حجة الوداع ودروسها :

أولاً : المعنى الكبير لحجة رسول الله ﷺ :

قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه : «فقه السيرة» :

إن لحجة رسول الله ﷺ هذه معنى جليلاً يتعلق بالدعوة الإسلامية ويتعلق بحياته ﷺ ويتعلق بالمنهج العام للنظام الإسلامي .

لقد تعلم المسلمون من رسول الله ﷺ صلاتهم وصيامهم وأمر زكاتهم وعامة ما يتعلق بهم من عبادات وواجبات ، وبقي أن يعلمهم مناسكهم وكيفية أدائهم شعائر الحج بعد أن طويت تلك التقاليد الجاهلية المتوارثة أيام موسم الحج من تَصَدِية وصفير وعُزْي أثناء الطواف ، وقُضِي عليها مع القضاء على الأوثان وتطهير بيت الله الحرام منها .

وإن الدعوة إلى الحج لبيت الله الحرام ستظل قائمة إلى يوم القيامة ، فهي دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأمر من ربه سبحانه وتعالى . ولكن انحرافات الجاهلية وضلالات الوثنية قد زادت فيه تقاليد باطلة وصبغته بكثير من مظاهر الكفر والشرك ، وقد جاء الإسلام ليغسل هذه الشعيرة مما قد علق بها من أدران ، ويعيدها نقية صافية تشع بنور التوحيد وتقوم على أساس العبودية المطلقة لله تعالى .

من أجل ذلك أَدَّن رسول الله ﷺ في الناس أنه حاجٌّ إلى بيت الله الحرام ، ومن أجل ذلك أقبل الناس من كل حدبٍ وصوبٍ يريدون أن يأتُموا به ليتعلموا الأعمال الصحيحة للحج فلا يقعوا في رواسب التقاليد الجاهلية البائدة .

ويبدو أنه قد أُلقي في روعه ﷺ ، أن مهمته في الأرض توشك أن تنتهي ، فقد أدى الأمانة ، وأينعت أرض الجزيرة بغرس التوحيد وانتشر الإسلام يغزو الأفتدة والقلوب في كل مكان .

وإن بالناس - وهم اليوم كثرة متفرقون - لشوقاً إلى مزيد من اللقاء مع رسولهم والاستفادة من هديه ونصائحه ، وبه هو أيضاً ﷺ شوقاً إلى مزيد من اللقاء معهم ، لاسيما تلك الحشود التي دخلت في الإسلام حديثاً من مختلف جهات الجزيرة العربية ، ممن لم تتح لهم فرص اللقاء الكافي معه ﷺ . وإن أكبر وأجمل فرصة لذلك إنما هي فرصة اللقاء في الحج إلى بيت الله الحرام ، وفي سفوح عرفات ، لقاء بين أمة ورسولها في ظل شعيرة من أكبر شعائر الإسلام ، لقاء اتضح أنه كان في علم الله تعالى وإلهام رسوله لقاء توصية ووداع .

ويريد رسول الله ﷺ أيضاً أن يلتقي بهؤلاء الحشود الذين جاءوا ثمرة جهاد استمر ثلاثة وعشرين عاماً . ليلخص لهم تعاليم الإسلام ونظامه في كلمات جامعة وموعظة مختصرة يضمّنها كوامن وجدانه ونبرات محبته لأُمته ، وليستطلع من وجوههم صورة نسلهم وأعقابهم الذين سيأتون من بعد فيُنهي إليهم نصائحه وتوصياته من خلف حواجز الزمن ووراء أسوار القرون .

تلك هي بعض معاني حجة رسول الله ﷺ : حجة الوداع ، وإنك لترأها متجسدة في خطبته التي ألقاها في وادي عُرنة في يوم عرفة .

ثانياً - تأملات في خطبة الوداع :

ولله ما أروعها من كلمات ، تلك التي ألقاها في سفوح عرفات ، راح يخاطب فيها الأجيال والتاريخ بعد أن أدى الأمانة ونصح للأمة وجاهد في سبيل الدعوة إلى ربه ثلاثة وعشرين عاماً لا يكلّ ولا يملّ ، والله ما أروعها من ساعة ، تلك التي اجتمع حول رسول الله ﷺ فيها الآلاف المؤلفة ، اجتمعوا حوله خاشعين متضرعين ، وطالما تربصوا به قبل ذلك متأمرين ومحاربين ، آلاف مؤلفة يملؤون ما يمتد به النظر من كل الجهات ، تردد بلسان حالها قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر : ٥١] .

وأخذ رسول الله ﷺ ينظر من خلال وجوههم إلى الأجيال المقبلة ، إلى

العالم الإسلامي الكبير الذي سيملاً شرق الأرض وغربها . وراح يلقي على مسامع هذا العالم خطابه المودع :

«أيها الناس إسمعوا قولي فإني لا أدري ، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً...» .

وأنصت الدنيا لتسمع قوله ، وأنصت الحجر والقفر والمدر إلى الكلمة المودعة ينطق بها فم رسول الله ﷺ بعد أن أنست وسعدت به الدنيا كلها ثلاثة وستين عاماً ، هاهو اليوم يلّمح بالرحيل ، بعد أن قام بأمر ربه وغرس الأرض بغراس الإيمان ، وهاهو الآن يلخص المبادئ التي جاء بها وجاهد في سبيلها في كلمات جامعة ، وبنود معدودة ، يلقي بها إلى سمع العالم .

فماذا كان أول بند منها؟

يا سبحان الله ما أجلّ وأروع ! . لكأنه ﷺ إنما كان يستلهم توصياته تلك من واقع المنزلاقات التي سيتنكب فيها أقوام من أمته خلال الزمن تائهين وراء غيرهم ضائعين عن القبس الذي ستركه بين أيديهم ، فلقد كان أول بند منها هو قوله : أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا .

ولقد كرر هذه التوصية نفسها مرة أخرى في خاتمة خطابه ، وأكد ضرورة الاهتمام بها وذلك عندما قال : تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ألا هل بلغت؟

ونحن نقول :

أجل والله ، لقد بلغت يا سيدي . . ولعلنا اليوم أولى من ينبغي أن يجيبك ، اللهم لقد بلغت ! . . وإن كنا في ذلك إنما نسجل مسؤولية على أعناقنا قصرنا كل التقصير في القيام بحقها .

أما البند الثاني : فلم يكن مجرد توصية ، ولكنه قبل ذلك قرار أعلن عنه

للملأ كله . . لأولئك الذين كانوا من حوله . والأمم التي ستأتي من بعده .

وهذه هي صيغة القرار :

ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية ، تحت قدمي موضوع ! . . دماء الجاهلية موضوعة . . وربما الجاهلية موضوع . .

فما المعنى الذي تتضمنه صيغة هذا القرار؟ . . إنه يقول: إن كل ما كانت الجاهلية تفخر وتمسك به من تقاليد العصبية والقبلية ، وفوارق اللغة والأنساب والعرق . واستعباد الإنسان أخاه بأغلال الظلم والمراعاة . قد بطل أمره ومات اعتباره ، فهو اليوم جيفة منتنة غيبتها شريعة الله في باطن الأرض ، وأصبح مكانها من حياة المسلم اليوم تحت موطئ الأقدام ، إنه رجس ولئى ، وعماهة أدبرت ، وغاشية بادت .

فمنذا الذي يرجع بعد ذلك لينبش التراب عن الجيفة المنتنة فيعانقها؟ . . وأي عاقل يتقمم الأدران التي تخلص منها ليتمسح ثانية بها؟ . . . وأي أبي يعمد إلى القيد الذي كسره البارحة وألقاه ، ليصلحه ويعود فيتقيد به اليوم؟! . . .

أرجاس من تقاليد الجاهلية ، أبعدھا الرسول ﷺ عن منطلق الإنسانية وتقدمها الفكري والحضاري ، وأعلن أنها قد عادت حثالة مدفونة تحت قدميه ، كي يثبت للعالم كلها ويسجل على مسمع القرون والأجيال ، أنه مامن تائه يزعم التقدم الفكري إذ يعمد فينبش شيئاً من هذا الدفين القديم ، إلّا وهو يرجع القهقري يسبح في أغوار قصبة من التاريخ المظلم القديم ، وإن خيل إليه وهمه أنه إنما يتقدم صعداً ويخطو مترقياً .

وأما البند الثالث: فقد أعلن فيه رسول الله ﷺ عن تطابق الزمن إذ ذاك مع أسماء الأشهر المقسم عليها . وذلك بعد تلاعب بها من العرب في الجاهلية وصدر الإسلام . فقد كانوا - كما قال مجاهد وغيره - يجعلون حجهم كل عامين في شهر معين من السنة . فيحجون في ذي الحجة عامين ، ثم يحجون في المحرم عامين وهكذا ، فلما حج رسول الله ﷺ هذا العام ، وافق حجه شهر ذي الحجة وأعلن رسول الله ﷺ إذ ذاك أن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله

السموات والأرض ، الذي استقر اسمه ، ذا الحجة .

وذكر بعضهم أن المشركين كانوا يحسبون السنة اثني عشر شهراً وخمسة عشر يوماً . فكان الحج في رمضان وفي شوال وذو القعدة . . وفي كل شهر من السنة . وذلك بحكم استدارة الشهر بسبب زيادة الخمسة عشر يوماً ، ولقد كان حج أبي بكر في السنة التاسعة من الهجرة واقعاً في شهر ذي القعدة بسبب ذلك ، فلما كان العام المقبل . (وفيه قام رسول الله ﷺ بحجة الوداع) وافق حجّه ذا الحجة في العشر منه وطابق الأهلة ، وأعلن حينئذ عليه الصلاة والسلام نسخ الحساب القديم للزمن وأن السنة إنما تعتبر بعد اليوم اثني عشر شهراً فقط ، فلا تداخل بعد اليوم ، قال القرطبي ، وهذا القول أشبه بقول النبي ﷺ : «إن الزمان استدار . . . » أي إن زمان الحج عاد إلى وقته الأصلي الذي عينه الله يوم خلق السموات والأرض ، بأصل المشروعية التي سبق بها علمه .

وفي البند الرابع : أوصى رسول الله ﷺ خيراً بالنساء ، وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية ، وثبتت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية .

ولقد كانت هذه الحقيقة جديرة بتأكيد التوصية بها ، بسبب أولئك المسلمين الذين كانوا قريبي عهد بتقاليدهم الجاهلية التي تقضي بإهمال شأن المرأة وعدم الاعتراف بأي حق لها ، ولعل هنالك حكمة أخرى لهذه التوصية والاهتمام بها . وهي أن يكون المسلمون في كل عهد وطور من الزمن ، على بينة من الفرق الكبير بين كرامة المرأة وحقوقها الطبيعية التي ضمنتها شرعة الإسلام ، وما يهدف إليه بعضهم من استباحة الوسائل المختلفة إلى التمتع والتلهي بها ، وهو ما حاربه الإسلام .

وفي البند الخامس : وضع النبي ﷺ الناس من جميع المشكلات التي قد تعترض حياتهم ، أمام مصدرين لا ثالث لهما ، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما ، الأمان من كل شقاء وضلال ، هما : كتاب الله وسنة رسوله .

وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من

بعده ، ليبيّن للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفاً على عصر دون آخر ، وأنه لا ينبغي أن يكون لأيّ تطور حضاري أو عرف زمني أي سلطان أو تغلب عليهما .

وأما البند السادس : فقد أوضح فيه ﷺ ما ينبغي أن يكون عليه علاقة الحاكم أو الخليفة أو الرئيس مع الرعية أو الشعب ، إنها علاقة السمع والطاعة من الشعب للحاكم مهما كان نسبه وشأنه ومظهره ما دام يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، فإذا حاد عنهما فلا سمع ولا طاعة ، فلا مناط لولاء الحاكم وضرورة اتباعه إلا سيره على نهج الكتاب والسنة ، وليكن بعد ذلك إن شاء عبداً حبشياً مجدّعاً ، فلا يخفضه ، ذلك قيد شعرة عن غيره عند الله تعالى .

ولقد أوضح لنا رسول الله ﷺ بهذا ، أنه لا امتياز للحاكم من وراء حدود كتاب الله تعالى وسنة نبيه ، ولا يمكن لحاكميته أن ترفعه قيد شعرة فوق مستوى المنهج والحكم الإسلامي ، إذ هو في الحقيقة ليس بحاكم ولا يتمتع بأي حاكمية حقيقية ، ولكنه أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى ، ومن هنا لم تتعرف الشريعة الإسلامية على شيء مما يسمى بالحصانة أو الامتيازات لطبقة ما بين المسلمين في شؤون الحكم أو القانون والقضاء .

وفي الختام يشعر رسول الله ﷺ أنه أخرج مسؤولية الدعوة وتبليغها عن عنقه ، فهاهو الإسلام قد انتشر ، وهاهي ضلالات الجاهلية والشرك قد تبددت ، وهاهي أحكام الشريعة الإلهية قد بلغت ، وهاهو الوحي ينزل عليه ﷺ يقول الله تعالى مخاطباً البشر كلهم : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

ولكنه ﷺ يريد أن يطمئن إلى شهادة أمته بذلك أمام الله تعالى يوم القيامة عندما يُسألون . . . فأعقب توصياته هذه لهم بأن نادى فيهم قائلاً : إنكم ستُسألون عني ، فما أنتم قائلون ؟

وارتفعت الأصوات من حوله تصرخ : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، وحيثنذاطمأن الرسول العظيم ﷺ ! . . .

لقد كان يريد أن يستوثق من هذه الشهادة التي سيلقى بها وجه ربه عز وجل... ولقد اطمأن الحبيب الأعظم ﷺ إذ ذاك ، وشعشع الرضى في عينيه ، ونظر بهما إلى الأعلى مشيراً بسبابته إلى السماء ثم إلى الناس يقول :

اللهم أشهد... اللهم أشهد... اللهم أشهد.

ويا ما أعظمها من سعادة!؟.. سعادة رسول الله عليه الصلاة والسلام بشبابه الذي أبلاه وعمره الذي أمضاه في سبيل نشر شريعة ربه جل جلاله ، وذلك حينما ينظر فيرى حصيلة الجهد الذي قدّم والعمر الذي بذل ، أصواتاً ترتفع وتعج بتوحيد الله ، وجباهاً تعنو ساجدة لدين الله وقلوباً خفاقة تجيش بحب الله ، ألا ما أسعد حبيب الله إذ ذاك بذكرى ما لقيه من ظمأ الهواجر ، وشتات السفر في القفر ، وعذاب السخرية والإيذاء ، في سبيل هذا الإيمان الذي شاده فوق أرض الله!.. فلتكتحل به عينك يا سيدي سعادة وسروراً ، وليبارك لك ربك في وجيب قلبك اليوم حمداً ونشوة وجوراً.

ولا والله ، ما كان ذلك شهادة تلك الآلاف المحتشدة من حولك فحسب ، يا سيدي رسول الله ، ولكنها شهادة المسلمين في كل جيل وعصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تعلن بلسان حالها ومقالها ، نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجزاك الله عنا خير ما جوزي نبي عن أمته.

ولكن مسؤولية الدعوة قد انتقلت من بعدك إلى أعناقنا ، وما أبعدنا اليوم عن القيام بحقها ، وما أشد خيبتنا بلقائك يا سيدي غداً ، وإن علينا أوزاراً من التقاعس والتكاسل والركون إلى زهرة الحياة الدنيا ، بينما يلتف من حولك أصحابك البررة الكرام ، إن في أيديهم وعلى أبدانهم شهادة الدم الذي سفكوه والجهد الذي بذلوه والدنيا التي حطموها تحت أقدامهم نصرة لشريعتك ودفاعاً عن دعوتك وتأسياً بجهادك.

أصلح الله حالنا وحال المسلمين جميعاً ، وأيقظنا من سكرة الدنيا ونشوة الشهوات والأهواء ، وتغمدنا بلطفه وكرمه وجوده.

١٤ - سرية أسامة بن زيد :

وهي آخر سرية بعث بها رسول الله ﷺ ، لكنها لم تغادر إلى وجهها إلا في خلافة الصديق رضي الله عنه .

لقد كان رسول الله ﷺ يذكر مقتل زيد بن حارثة ، وجعفر ، وعبد الله بن رواحة ، ويرى في الروم غطرسة ، ترهب العرب الضاريين على الحدود ، وتجعلهم يتخوفون من الدخول في الإسلام .

فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث الثقة في قلوبهم ، بأن دخولهم في الإسلام سوف لا يجبر عليهم الحتوف .

فلما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع أقام بالمدينة بقية ذي الحجة ، والمحرم ، فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة الشريفة أمر بالتهيؤ لغزو الروم ، وأمرهم بالجد ، والسرعة ثم دعا من الغد يوم الثلاثاء لثلاث ليال بقين من صفر أسامة بن زيد ، وأخبره أنه سيبعثه على رأس سرية إلى قتال الروم الذين قتلوا أباه ، وأوصاه بوصية تعدد قمة في الوصايا الحربية والتكتيك العسكري ، والسلوك الديني والأخلاقي ، فقال له : «يا أسامة ، سر على اسم الله وبركته ، حتى تنتهي إلى موضع قتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر صباحاً على أهل أبنى - مكان قريب من مؤتة - وحرّق عليهم ، وأسرع السير تسبق الأخبار ، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك» .

فلما كان يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر بُدئ برسول الله ﷺ وجعهُ ، فَحُمَّ ، وَصُدَّعَ ، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده ، ثم قال : «اغزُ بسم الله ، في سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، اغزوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأة ، ولا تتمنوا لقاء العدو ، فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم ، ولكن قولوا : اللهم اكفناهم بما شئت ، واكفف بأسهم عنا ، فإن لقوكم قد جلبوا وضجوا ، فعليكم بالسكينة والصمت ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وقولوا : اللهم إنا نحن عبيدك ، وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم

بيدك ، واعلموا أن الجنة تحت البارقة» .

فخرج أسامة بلوائه معقوداً ، فدفعه إلى بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب الأسلمي ، وعسكر بالجُرْف - موضع على ثلاثة أميال من المدينة -

ولحق الناس بجيش أسامة ، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب في تلك السرية ، منهم أبو بكر وعمر .

فاشتكى رسول الله ﷺ ، وهم على أهبة المسير ، فخرج إليهم عاصباً رأسه ، فقال : «أيُّها الناس ، انفذوا بعث أسامة» .

ثم دخل بيته .

وهنا تكلم بعض المتطعين ، وقال : يستعمل هذا الغلام على جلة المهاجرين والأنصار .

وكان أسامة يومئذ في سن العشرين ، أو دونها ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ خرج إلى الناس وهو عاصب رأسه ، فقال : في حدة وغضب بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه .

«أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ، ولئن طعتم في إمرتي أسامة لقد طعتم في إمرتي أباه من قبله ، وإيم الله ، إن كان للإمارة لخليقاً ، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إليّ ، وإنهما لمخيلان لكل خير ، فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم .

ثم دخل رسول الله ﷺ بيته .

لقد قطع بهذا الكلام الفصل السنة المتقولين ، وأبطل أعراف المتصيدين ، والمتنفذين ، وأقر بالحق للأجدر به ، والقادر عليه مهما كان نسبه ، أو مظهره .

ثم جاء المسلمون في هذا الجيش يودعون رسول الله ﷺ ، ثم يمضون إلى العسكر بالجُرْف .

ودخلت أم أيمن مولاة رسول الله ، وأم أسامة على النبي ، فقالت له :

يا رسول الله ، لو تركت أسامة يقيم في معسكره حتى تتمائل ، فإن أسامة إن خرج على حالته هذه لم ينتفع بنفسه ، فقال : «أنفذوا بَعَثَ أسامة» .

فمضى الناس إلى المعسكر ، فبأثوا ليلة الأحد ، فلما كان يوم الأحد اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعه ، فدخل عليه أسامة ، فقبله ، وعيناه تهملان ، والنبي ﷺ لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ، ثم يضعهما على أسامة ، كأنه يدعو له ، ورجع أسامة إلى معسكره .

ثم دخل يوم الاثنين ، وأصبح رسول الله ﷺ مُفِيقاً ، فقال لأسامة : «أغذُ على بركة الله» .

فودعه أسامة ، وخرج إلى معسكره ، فأمر الناس بالرحيل .

فبينما هو يريد الركوب إذا رسول أمّه أم أيمن قد جاءه يقول : إن رسول الله ﷺ يموت ، فأقبل ، وأقبل معه عمر ، وأبو عبيدة ، فانتهاوا إلى رسول الله ﷺ ، وهو يموت ، فتوفي ﷺ حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من هجرته الشريفة .

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرف إلى المدينة ، ودخل بُرَيْدة بن الحُصَيْن بلواء أسامة معقوداً ، حتى غرزه عند باب رسول الله ﷺ .

فلما بويح أبو بكر أمر بُرَيْدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ليمضي لوجهه ، وألّا يحلّه حتى يغزو الروم ، وقال له : انفذ في وجهك الذي وجهك فيه رسول الله ﷺ .

وكلم أبو بكر أسامة أن يأذن لعمر في التخلف عنه ، ففعل ، فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة خرج أسامة ، فسار إلى أهل ابْنِي في ثلاثة آلاف من الصحابة ، فيهم ألف فارس .

وخرج أبو بكر يودعهم ماشياً ، وأسامة راكب ، وسار معهم ساعة ، ثم قال لأسامة : «أستودع الله دينك ، وأمانتك ، وخواتيم عملك ، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يوصيك ، فأنفذ لأمر رسول الله ﷺ ، فإنني لست آمرك ، ولا أنهاك عنه ، إنما أنا مُنْفَذٌ لأمرٍ به رسول الله ﷺ» .

فخرج أسامة سريعاً ، فسار إلى أهل أبني عشرين ليلة ، فشنَّ عليهم الغارة ، فقتل من أشرف له ، وسبى من قدر عليه ، وأجال الخيل في عرصاتهم ، وأقاموا يومهم ذلك في تعبئة ما أصابوا من الغنائم ، وكان أسامة على فرس أبيه سَبَّحَة ، وقتل قاتل أبيه في الغارة ، وأسهم للفرس سهمين ، ولصاحبه سهماً ، وأخذ لنفسه مثل ذلك .

فلما أمسى أمر الناس بالرحيل ، ثم أغدَّ السير فورد وادي القرى في تسع ليال ، ثم بعث بشيراً إلى المدينة يخبرهم بسلامتهم ، ثم قصد بعد في السير فسار إلى المدينة ستّاً ، والعجيب إنه لم يصب في هذه السرية أحد ، رغم بعد الشقة ، وطول السفر .

وخرج أبو بكر رضي الله تعالى عنه في المهاجرين ، وأهل المدينة يتلقونهم سروراً بسلامتهم .

ودخل أسامة على فرس أبيه : سَبَّحَة ، واللواء أمامه يحمله برِيدة بن الحُصَيْب ، حتى انتهى إلى المسجد ، فدخل فصلى ركعتين ، ثم انصرف إلى بيته .

وبلغ هرقل ، وهو بحمص ، ما صنع أسامة ، فبعث رابطة يكونون بالبلقاء فلم تزل هناك حتى قدمت البعوث إلى الشام في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما .

رضي الله تعالى عن هذه القيادات الشابة ، والجنود المؤمنة ، ما كان أجدرهم بالنصر ، وأولاهم بالعزة ، فقد صدقوا الله ما عاهدوه وصدقهم ما وعدهم .

١٥ - مصيبة المصائب : وفاة رسول الله ﷺ :

لقد كان وجود رسول الله ﷺ بين ظهرائي الناس رحمة بهم ، ونعمة عليهم ، وأماناً من أن تمتد إليهم ألسنة العذاب والخزي والدمار .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال :

[٣٣] .

قال أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه: أمانان كانا على عهد رسول الله ﷺ رُفِعَ أحدهما ، وبقي الآخر ، ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ مِّعَذَابِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ولقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم هذا المصاب ، فأبكاهم وبكوا له ، وأحزنهم ، وحزنوا له .

قال أنس رضي الله تعالى عنه: إن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ بكت لما قبض رسول الله ﷺ ، فقيل لها: ما يبكيك على رسول الله ﷺ؟ فقالت: إني قد علمت أن النبي ﷺ سيموت ، ولكن إنما أبكي على الوحي الذي رُفِعَ عنا . رواه أحمد ٢١٢/٣ .

وعن مكحول وعطاء أن النبي ﷺ قال: «إذا أصاب أحدكم مُصِيبَةٌ فليذكر مُصَابَهُ بي ، فإنها من أعظم المصائب» . رواه الدارمي (٥٤ - ٨٥) في المقدمة .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أيتها الناس ، أيُّما أحد من الناس ، أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تُصيبه بغيري ، فإن أحداً من أمتي لن يُصاب بمصيبة بعدي أشدَّ عليه من مصيبتِي» . رواه ابن ماجه (١٥٩٩) في الجنائز .

أ- طلائع الوداع والاستعداد للرحيل :

لقد قام ﷺ قبيل وفاته بعدد من الأقوال والأفعال تعبر عما وراءها من علامات التوديع للحياة والأحياء ، وتشير إلى نهاية المهمة ، وأداء الواجب ، نذكر منها:

أولاً - اعتكافه عشرين يوماً في آخر رمضان صامه ﷺ ، فقد كان من عادته أن يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، أما هذه السنة ، فقد اعتكف العشر الثاني والثالث من الشهر المبارك .

روى البخاري (٢٠٤٤) في الاعتكاف عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال:

«كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً» .

ثانياً - عرض القرآن على جبريل مرتين ، فقد كان قبل ذلك يعرض القرآن على جبريل كل عام مرة .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

«كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة» رواه البخاري (٦) في بدء الوحي ، ومسلم (٢٣٠٨) في الفضائل .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : «كان - جبريل - يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة ، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه ، وكان يعتكف في كل عام عشراً ، فاعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه» .

رواه البخاري (٤٩٩٨) في فضائل القرآن .

وعن فاطمة رضي الله تعالى عنها قالت :

«أسرَّ إلي النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة ، وإنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلي» . رواه البخاري (٤٩٩٧) في فضائل القرآن .

ثالثاً - الاستغفار لشهداء أحد ، والوصية بالأنصار :

ومن وفائه ﷺ أن يذكر الشهداء من أصحابه ، ويخصهم بمزيد من دعائه واستغفاره ، وهو ﷺ من لا يُردُّ له عند مولاه عز وجل دعاء ولا استغفار .

قال ابن سعد في «الطبقات» ٢/ ٢٠٥ : إن رسول الله ﷺ أتى ، فقيل له : اذهب فصل على الشهداء ، فذهب إلى أحد ، فصلَّى - أي دعا - على قتلى أحد ، فرجع معصوب الرأس .

وروى أحمد (٢٢٤/٥) أن النبي ﷺ قام خطيباً ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، واستغفر للشهداء والذين قتلوا يوم أحد ، ثم قال :

«إنكم يا معشر المهاجرين تزيدون ، وإن الأنصار لا يزيدون ، وإن الأنصار عييتي التي أويت إليها ، أكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ، فإنهم قد قضوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم» .

ومعنى : «عييتي» : خاصتي وموضع سري .

لم ينس ﷺ - وهو يوشك أن يودع الحياة تلك النخبة الكريمة من أنصاره العظماء ، لقد خشي أن يغمطهم أحد في شيء من خصائصهم ، أو يهمل شيئاً من حقوقهم ، فأوصى بهم ، ورغب في رعاية مكانتهم ، وتقدير ماضيهم ، وهذا من وفائه ﷺ .

وذكر ابن سعد عن عقبة بن عامر ، رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ صلى على قتلى أحد بعد ثمانين سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم أطلع المنبر ، فقال : «إني بين أيديكم فرط ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإنني لأنظر إليه ، وأنا في مقامي هذا ، وإنني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها» .

رابعاً - زيارة البقيع والدعاء لأهلها :

البقيع : مقبرة أهل المدينة ، وفيها دفن كثير من الصحابة رجالاً ونساءً ، وكان كثيراً ما يذهب إلى زيارة البقيع ، يدعو لأهلها ، ويستغفر لهم ، لكنه هذه المرة ذهب إليها كالمودع لأهلها .

وحدث ابن سعد بسند عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : وثب رسول الله ﷺ من مضجعه من جوف الليل ، فقلت : أين - بأبي وأمي - يا رسول الله ؟ قال : «أمرت أن استغفر لأهل البقيع» .

قالت : فخرج رسول الله ﷺ ، وخرج معه مولاه أبو رافع ، فكان أبو رافع يحدث ، قال : استغفر رسول الله ﷺ لهم طويلاً ، ثم انصرف ، وجعل يقول :

«يا أبا رفع ، إني قد خُيِّرْتُ بين خزائن الدنيا ، والخلد ، ثم الجنة ، وبين لقاء ربي والجنة ، فاخترت لقاء ربي» .

وعن أبي مُؤَيْهَبَةَ مولى رسول الله ﷺ قال : بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل ، فقال : «يا أبا مُؤَيْهَبَةَ ، إني قد أمرت أن استغفر لأهل البقيع ، فانطلق معي» .

فخرج ، وخرجت معه ، حتى جاء البقيع ، فاستغفر لأهله طويلاً ، ثم قال :

«لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ ، مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاهُمْ اللَّهُ مِنْهُ ، أَقْبَلْتُ الْفِتْنَ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ ، يَتَّبِعُ أَوَّلَهَا آخِرُهَا ، الْآخِرَةُ شَرُُّ مِنَ الْأُولَى» .

قال : ثم أقبل عليّ ، فقال : «يا أبا مُؤَيْهَبَةَ ، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، وخُيِّرْتُ بين ذلك وبين لقاء ربي عز وجل ، والجنة» .

قال : فقلت : بأبي أنت وأمي ، فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة قال : «لا والله ، يا أبا مُؤَيْهَبَةَ ، لقد اخترت لقاء ربي والجنة» .

ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم انصرف ، فبدى رسول الله ﷺ في وجعه الذي قبضه الله عز وجل فيه حين أصبح . رواه الإمام أحمد ٤٨٩/٣ .

وروى مسلم (٢٣٨٢) في فضائل الصحابة عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ جلس على المبر ، فقال : «عبد خَيْرَهِ الله بين أن يؤتاه زهرة الدنيا ، وبين ما عنده ، فاختر ما عنده» .

فبكى أبو بكر ، وبكى ، فقال : فدينك بآبائنا وأمهاتنا .

قال أبو سعيد : فكان رسول الله ﷺ هو المَخْيَرُ ، وكان أبو بكر أعلمنا به .

ب - بدء الشكوى :

لما أتم رسول الله ﷺ ما كُلِّفَ به على خير وجه ، وأدَّى ما أوْتُمِنَ عليه خير

أداء ، فهدى الله به الأمة ، وأنار به المحجة ، اختاره عز وجل إلى الرفيق الأعلى ، فبتدأه الوجع .

قال ابن سعد: أول ما بدأ رسول الله ﷺ شكواه في أواخر صفر من السنة الحادية عشر من الهجرة ، وكان شكواه إلى أن قبض ثلاثة عشر يوماً .

وكان خلال هذه الأيام ينتقل بين بيوت أزواجه ، ولما اشتدَّ عليه المرض استأذنهن أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها .

نبي الأمة ، ورسول الله ، يستأذن أزواجه ليتركهن في المبيت ، والله عز وجل خيره في أن يقسم لهن ، أو لا يقسم ، لكنه آثر رضاهن ، والإحسان إليهن ، فكان يساوي بينهن في المبيت ، ويحسن إليهن في المعاملة .

قال تعالى : ﴿ تَرْجَىٰ مَن تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوَىٰ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَن أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ [الأحزاب : ٥١] .

قال الزهري : ما علمنا أن رسول الله ﷺ أرجأ أحداً من أزواجه ، بل آواهن كلهن .

وهذا قمة في احترام النساء ، ورعايتهن ، والإحسان إليهن .

استقر ﷺ يُمرض في بيت عائشة رضي الله عنها ، وكانت ترقيه بالمعوذات ، وتمسح عنه بيده .

وراح المرض يشتدُّ عليه ، وكانت الحمى تغالبه .

قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت أحداً كان أشدَّ عليه الوجع من رسول الله ﷺ ، رواه البخاري (٥٦٤٦) في المرضى .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه ، قال : دخلت على النبي ﷺ ، وهو يوعك ، فمسستُه ، فقلت : يا رسول الله ، إنك لتوعك وعكاً شديداً ، فقال : «أجل ، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» .

فقلت : ذلك أن لك أجريين ؟

فقال: «أجل ، مامن مسلم يصيبه أذى - مرض فما سواه - إلا حطَّ الله سيئاته كما تَحُطُّ الشجرة ورقها» رواه البخاري (٥٦٦٠) في المرضى ، ومسلم (٢٥٧١) في البر .

وفي هذا الظرف العصيب ، والوجع الشديد شعر ﷺ بقلق أصحابه ، وحزنهم عليه ، فقال:

«هريقوا عليَّ من سبع قِربٍ لم تُخلَلْ أوكيُتهنَّ ، لعلي أعهد إلى الناس» ، أي أكلهم .

قالت عائشة رضي الله عنها: فأجلسناه في مِخْضَبٍ - وعاء - لحفصة زوج النبي ﷺ ، ثم طفقنا نَصُبُّ عليه من تلك القرب ، حتى جعل يشير إلينا: أن قد فعلتُنَّ .

قالت: وخرج إلى الناس ، فصلى بهم ، وخطبهم . رواه البخاري (٥٧١٤) في الطب .

وفي هذه الأثناء قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: «ادعي لي أبا بكر: أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً ، فإنني أخاف أن يتمنَّى مُتمنِّين ، ويقول قائل: أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» . رواه مسلم (٢٣٨٧) في فضائل الصحابة .

ج - صلاة أبي بكر رضي الله تعالى عنه بالناس :

ولما تعذر على النبي ﷺ الخروج إلى الصلاة في المسجد ، ولم يعد يطيق الخروج إليها ، قال: «مُروا أبا بكر فليصلَّ بالناس» .

فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: يا رسول الله ، إن أبا بكر رجل أسيف - رقيق - وإنه إذا قام مقامك لم يَكْذُ يسمع الناس ، فقال: «إِنْ كُنَّ صَوَاحِبُ يَوْسُفَ ، مُرُوا أبا بكر ، فليصلَّ بالناس» .

رواه البخاري (٣٣٨٤) في الأنبياء ، ومسلم (٤٢٠) في الصلاة ، فكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه يصلي بالناس .

وروى البخاري (٦٨٧) في الأذان ، ومسلم (٤١٨) في الصلاة عن
عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله بن عُتْبَةَ ، قال :

دخلت على عائشة ، فقلت لها : ألا تحدّثيني عن مرض رسول الله ﷺ ؟
قالت :

بلى ، ثقل النبي ﷺ ، فقال :
«أصلّى النَّاسُ؟» .

قلنا : لا ، هم ينتظرونك ، قال : «ضعوا لي ماء في المخضّب» .
قالت : ففعلنا ، فاغتسل ، فذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال :
«أصلّى النَّاسُ؟» .

قلنا : لا ، هم ينتظرونك ، يا رسول الله ، فقال : «ضعوا لي ماء في
المخضّب» .

قالت : فقعد ، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال : «أصلّى
النَّاسُ؟» .

قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ، فقال : «ضعوا لي ماء في
المخضّب» .

فقعد فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال : «أصلّى
النَّاسُ؟» .

فقلنا : لا ، هم ينتظرونك ، يا رسول الله ، والناس عكوف في المسجد ،
ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة ، فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن
يصلّي بالناس ، فأتاه الرسول ، فقال :

إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تصلّي بالناس ، فقال أبو بكر - وكان رجلاً رقيقاً -
: يا عمرُ صلّ بالناس ، فقال له عمر : أنت أحقُّ بذلك ، فصلّى أبو بكر تلك
الأيام ، ثم إن النبي ﷺ ، وجد من نفسه خفّةً ، فخرج بين رجلين ، أحدهما
العباس لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلّي بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب

ليتأخر ، فأوماً إليه النبي ﷺ: بأن لا يتأخر ، قال لهما: «أجلساني إلى جنبه». فأجلساه إلى جنب أبي بكر ، فجعل أبو بكر يصلي ، وهو قائم بصلاة النبي ﷺ ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر ، والنبي ﷺ قاعد.

د- نظرة الوداع :

دخل فجرُ يوم الاثنين ، ثاني عشر ربيع الأول ، سنة إحدى عشرة للهجرة الشريفة ، والناس صفوف خلف أبي بكر رضي الله تعالى عنه .

قال أنس رضي الله تعالى عنه : فكشف النبي ﷺ سِتْرَ الحُجْرَةِ ينظر إلينا ، وهو قائم ، كأن وجهه وَرَقَةٌ مُصْحَفٍ ، ثم تَبَسَّمَ يَضْحَكُ ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبي ﷺ : أن أتموا صلاتكم ، وأرخى الستر ، رواه البخاري (٦٨٠) في الأذان .

وانصرف الناس من صلاتهم ، وهم يظنون أن النبي ﷺ قد نشط من مرضه ، ولكن تبين أنها كانت نظرة وداع منه إلى أصحابه .

لقد سعد عليه الصلاة والسلام بهذه النظرة ، واطمأنت نفسه أن أصحابه - وهم صفوف وراء إمامهم ، وخلف قيادتهم سيتابعون المسيرة إلى الأهداف التي رسمها لهم ، وقادهم إليها .

هـ- ساعات الوفاة :

ثم عاد رسول الله ﷺ بعد تلك النظرة الحانية إلى أصحابه ، فاضطجع إلى حجر عائشة رضي الله تعالى عنها ، فأسندت رأسه إلى صدرها ، وبين يدي رسول الله ﷺ قدح فيه ماء ، فكان يدخل يده في القدح ، ويمسح وجهه بالماء ، ثم يقول : «اللهم أعني على سكرات الموت» . رواه ابن ماجه (١٦٢٣) في الجنائز .

ودخلت عليه فاطمة رضي الله تعالى عنها ، وهو يعاني شدة الموت ، فلما

رأت ما به صاححت وقالت: واكرب أباه ، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم». رواه البخاري (٤٤٦٢) في المغازي.

ودخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما ، وفي يده سواك.

قالت عائشة رضي الله عنها ، فرأيت رسول الله ﷺ ينظر إليه ، وعرفت أنه يُحبُّ السَّواك ، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: «أَنْ نَعَمْ».

فتناولته فاشتدَّ عليه ، فقلت: أَلَيْتُهُ لك؟ فأشار برأسه: «أَنْ نَعَمْ».

فلينته ، فأمره ، وبين يديه رُكوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء ، فيمسح بهما وجهه ، ويقول: «لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات».

ثم نصب يده ، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى».

ثم قبض ومالت يده. رواه البخاري (٤٤٤٩) في المغازي.

وكانت عائشة تقول: توفي النبي ﷺ في بيتي ، وفي يومي ، وبين سحري ونحري ، وجمع الله بين ريقِي وريقه في آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة. رواه البخاري (٤٤٥١) في المغازي.

قال ابن سعد: اشتكى رسول الله ﷺ يوم الأربعاء ليلة بقيت من صفر ، سنة إحدى عشرة ، وتوفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول ، حين زاغت الشمس.

ونعته السيدة فاطمة رضي الله تعالى عنها بقولها:

«يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه ، من جنَّة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل نعاه». رواه البخاري (٤٤٦٢) في المغازي.

وقد أجمع أهل السير أن النبي ﷺ توفي عن ثلاثة وستين عاماً من العمر ، قضى أربعين منها قبل البعثة ، وثلاثة عشر عاماً يدعو إلى الله تعالى في مكة ،

وعشر سنين قضاها في المدينة بعد الهجرة. «فقه السيرة» ص ٤٦٠.

وروى البخاري (٤٤٦١) في المغازي عن عمرو بن الحارث رضي الله عنه قال: «ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ، ولا درهماً ، ولا عبداً ، ولا أمة ، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة» .
و- انتشار خبر وفاة رسول الله ﷺ :

كان لخبر وفاة رسول الله ﷺ وقع الصاعقة على الصحابة رضوان الله عليهم ، أحدث فيهم زلزالاً ، ما شهدوه من قبل .

قال الإمام الشامي في كتابه: «سبل الهدى والرشاد» ١٢ / ٢٧٤: بكى الناس يوم مات رسول الله ﷺ ، حتى النساء في الخدور ، وكادت البيوت تسقط من الصراخ .

وقال: دهش الناس واختلفت أحوالهم ، وأفحموا ، واختلطوا فمنهم من حُمِلَ ، ومنهم من أقعد ، ومن أصمت ، فلم يطق الناس الكلام ، فقد أقعد علي فلم يستطع حراكاً ، وأخرس عثمان ، حتى جعل يُذهب به ، ويجاء ، ولا يستطيع كلاماً .

وكان أشدَّ الناس جزعاً عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، حتى حمّله هذا الجزع أن يتهدد من يقول: إن محمداً قد مات ، ويقول: ما مات رسول الله ﷺ ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران حين غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم .

أما أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، فقد روى البخاري (٤٤٥٢ - ٤٤٥٣) في المغازي: أنه أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنْح ، حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة ، فتيّم رسول الله ﷺ ، وهو مغشى بثوب حَبْرَةٍ ، فكشف عن وجهه ، ثم أكبَّ عليه ، فقبله وبكى ، ثم قال: «بأبي أنت وأمي ، والله لا يجمعُ الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتَّها» .

ثم خرج ، وعمرُ يكلمُ الناس ، فقال: اجلس ، يا عمر ، فأبى عمرُ أن

يجلس ، فأقبل النَّاسُ إليه ، وتركوا عمر ، فقال أبو بكر :
أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان
منكم يعبد الله ، فإن الله حيٌّ لا يموت .

قال الله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ
عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾
[آل عمران : ١٤٤] .

فوالله ، لكأن الناس لم يعلموا أن الله تعالى أنزل هذه الآية ، حتى تلاها
أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلُّهم ، فما أسمع بشراً من الناس ألا يتلوها .

قال عمر رضي الله تعالى عنه ، والله ، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ،
ففقرت - أي هلكت - حتى ما تُقْلِنِي رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض حين
سمعتة تلاها ، وعلمت أن النبي ﷺ قد مات .

مات رسول الله ﷺ وأبقى لنا ، ولأمتة روحانية التواصل معه ، والإكرام له ،
والانتفاع به عبر قنوات الصلاة والسلام عليه ، وهذا من هباته ومبراته ومهاراته .
قال ﷺ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه النَّفْخَةُ ،
وفيه الصَّعْقَةُ ، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليَّ » .

فقال رجل : يا رسول الله ، كيف تعرض صلاتنا عليك ، وقد أُرمت ؟
يعني : بليت .

قال : « إن الله حَرَّمَ على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » رواه ابن ماجه
(١٦٣٦) .

فالصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله صلاة وسلاماً دائمين
متلازمين إلى يوم الدين .

ز- تجهيز رسول الله ﷺ إلى مثواه الأخير :

لقد مكث رسول الله ﷺ في بيته بعد وفاته بقية يوم الاثنين ، وليلة الثلاثاء ،
ويومه ، وليلة الأربعاء ، حتى انتهى المسلمون من إقامة الخليفة عليهم ، ثم

غُسل عليه الصلاة والسلام ، ودفن ، وكان الذي غسَّله علي بن أبي طالب ، يساعده عمه العباس ، وابناه الفضلُ وقُسم . وأسامة بن زيد ، وشُقْران مولى رسول الله ﷺ ، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ، ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريريه في بيته ، ودخل عليه الناس أرسالاً مُتتابعين يصلون عليه ، لم يؤمهم أحد ، ثم حفر له لحدٌ في حجرة عائشة حيث توفي ، وأنزله القبر عليّ والعباس وولداه الفضل وقُسم ، ورش بلال قبره بالماء ، وقد رفع قبره عن الأرض قدر شبر .

وهكذا غُيب جسد المصطفى في تلك الروضة المباركة ، وسيظل فيها ندياً طرياً تعرض عليه فيها صلواتنا ، ويبلغه منا سلاماتنا ، وسوف نَظْلُ نَحْنُ إلى هذه الروح المباركة ، والجسد الطاهر ، فنزيده صلاة وسلاماً ، ونُسعده عملاً واتباعاً .

لقد توفي ﷺ ، وترك للمسلمين تراثاً حافلاً ، وكنزاً ثميناً ، وتركه يانعة نافعة ، لقد تركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، وترك فيهم ما إن تمسكوا به لن يضلوا بعده أبداً ، كتاب الله تعالى وسنته المباركة الشريفة .



الخاتمة

تقويم لما قدمنا ، وتلخيص لأهم ما عملنا

الخاتمة

ونقول في الختام - وختامه مسك إن شاء الله تعالى - إن سيرة المصطفى ﷺ ، تاريخ حافل ، وتراث ضخم ، وفيها كنوز لا تقدر من المعارف ، والمهارات ، وفنون من البدائع والسياسات ، ونماذج رائعة من القيادات والترتيبات ، وأعلام من الهدايات والتوفيقات .

فرسول الله ﷺ أفضل خلق الله تعالى ، ولد من أبوين كريمين ، ونشأ نشأة تحوطها العناية والرعاية الإلهية ، وشب شاباً كريماً ، سليماً من كل الهنات والعيوب ، فعمل وكافح ، وشارك في البر ، والمعروف ، وخاض غمار الأعمال التجارية والاجتماعية والإنسانية ، وتزوج من أشرف النساء وأفضلهن خديجة بنت خويلد ، فكانت له درعاً ، وسنداً ، وزرق منها البنين والبنات ، وإن كان أبناؤه منها قد ماتوا صغاراً قبل أن يبعث نبياً ورسولاً ، ولما بعث ﷺ قام بواجبه ، فبلغ ، وصبر ، وصابر ، وألف حوله جماعة مؤمنة صامدة صابرة ، ولما اشتد عليه الأذى هاجر ، وهاجر أصحابه ، وعاش في المدينة بين إخوانه من المهاجرين والأنصار ، وهناك اشتدّ أزره ، وقويت كلمته ، وكثر أصحابه ، فنشر دينه في البلاد ، والقبائل ، وبين الناس ، وجاهد في سبيله حق الجهاد ، فأرسل السرايا ، وشارك في الغزوات ، وحارب أعداء الدين ، وانتصر على المشركين ، والمعاندين ، فأقام لواء الحق ، وأعلن منار الخير ، وبسط سلطان العدل ، وحكم بين الناس بالقسط ، وعلم الناس

الخير ، وأتار لهم طريق البر ، وفَصَّلَ لهم أحكام الحلال والحرام ، ووقف بينهم مصلياً وعاش بينهم صائماً ، وبراً محسناً ، وحج بهم ، وعلمهم مناسك عبادتهم ، وكان في كل شيء رجلاً عظيماً وجد فيه إخوانه وأصحابه القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة. والشخصية الفذة ، والأبوة الرحيمة ، والأخوة الحانية ، والحاكم الشفيق ، والعالم المربي ، ففدَّوه بالمهج ، وعضوا على هديه بالنواجذ.

ولا نخطيء إن قلنا: إن محمداً ﷺ كان بطل الأبطال ، وسيد الحكماء ، وسلطان العارفين ، وسيد الخلق كلهم ، والمثل الأعلى لعباد الله أجمعين .

ولا غرابة في هذا فهو رسول الله المجتبي ، ونبيه المصطفى ، وخيرته من خلقه ، أرسله إلى الناس جميعاً ، وحفظه من الزلل ، وعصمه ، من الخل ، وحماه من شرّ الإنس والجن ، حتى أدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الله تعالى به عن الناس الغمة ، وكان بفضل الله تعالى رحمة للعالمين ، علمه ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيماً ، قال له ربه عز وجل : ﴿ يَتَأَيَّأُ الْتَّيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝٤٥ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا ۝٤٦ ﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ۝٤٧ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾ [الأحزاب : ٤٥ - ٤٨].

صلى الله تعالى عليه وسلم تسليماً كثيراً كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، ورزقنا الله تعالى حبّه ، وحب العمل بما جاء به ، والإخلاص في اتباعه ، والجهاد لعزة دينه ، وإعلاء شرعه ورفع كلمته ، آمين اللهم آمين ، وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين .

كان الفراغ من كتابة هذه القيسات من سيرة رسول رب الأرض والسموات ضحى يوم الأربعاء الثاني من شهر محرم سنة ١٤٢٤ للهجرة الشريفة ، الموافق لليوم الرابع من شهر مارس ، آذار ، سنة ٢٠٠٣ ، للميلاد ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

* * *

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تمهيد	٥
الفصل الأول: تعريف المهارات	١٥
الألفاظ ذات الصلة بالمهارة	١٥
تعريف السيرة النبوية	١٩
دراسة سيرة النبي ﷺ	١٩
فوائد دراسة سيرة النبي ﷺ	٢٠
مصادر سيرة النبي ﷺ	٢١
الفصل الثاني أنواع المهارات	٢٥
أولاً - المهارات الدنيوية	٢٥
موقف الدين من المهارات الدنيوية	٢٦
النبي ﷺ والمهارات الدنيوية	٢٨
أمثلة من المهارات الدنيوية	٣١
ثانياً - المهارات الدينية:	٣٣
الفصل الثالث: اسباب اختيارنا الكتابة في هذا الموضوع	٤٣
الفصل الرابع: نعمة الدين على العباد ودوره في تكوين المهارات	
الإنسانية:	٥٥
تعريف الدين	٥٥

٥٥	 قدم الدين
٥٨	 ضرورة وجود الدين
٦٠	 دين الله أجل النعم على العباد
٦٢	 محاسن الدين
٦٦	 رسل الله تعالى قادة ودعاة خير ودين
٦٦	 محمد آخر الرسل ودينه آخر الأديان
٦٩	 دور الدين في تكوين مهارات إنسانية
٧٣	 الفصل الخامس : مؤهلات النبي الخلقية والخلقية
٧٤	 من خصال الفضل الخلقية :
٧٤	١ - شرف نسبه ﷺ
٧٤	٢ - كمال خلقه وجمال صورته ، وطيب رائحته ، وفصاحة لسانه ، ووفور عقله
٧٦	 من خصال الفضل المكتسبة :
٧٩	١ - العقل
٧٩	٢ - الحلم ، والاحتمال ، والعمو مع المقدرة والصبر على ما يكره ...
٨٠	٣ - الجود والكرم والسخاء
٨١	٤ - الشجاعة والنجدة
٨٢	٥ - الحياء والإغضاء
٨٤	٦ - حسن العشرة وبسط الخلق
٨٥	٧ - طلاقة الوجه ودوام البسمة
٨٦	٨ - الشفقة والرحمة والرأفة
٨٦	٩ - الوفاء وحسن العهد
٨٩	١٠ - التواضع ولين الجانب وخفض الجناح
٩٠	١١ - العدل والأمانة والعفة
٩٢	١٢ - الوقار والصمت والتؤدة
٩٤	١٣ - الزهد في الدنيا

٩٧	١٤ - الخوف من الله والطاعة له
١٠١	الفصل السادس : ميادين مهارات النبي ﷺ في سيرته الكريمة :
١٠١	تمهيد
١٠٥	الدور الأول - مهاراته ﷺ من ولادته إلى بعثته
١٠٥	١ - مولده عليه الصلاة والسلام
١٠٦	٢ - ما رآته أمه عند وضعه
١٠٦	٣ - قابله
١٠٦	٤ - حاضنته
١٠٦	٥ - إرضاعه
١٠٦	٦ - تسميته
١٠٧	٧ - الخير والبركة في ديار حليلة السعدية
١٠٨	٨ - حادثة شق صدره ﷺ
١٠٨	٩ - بداية الكفاح في الحياة :
١٠٩	أ - رحلته الأولى إلى الشام
١١٠	ب - رعيه الغنم
١١٢	ج - حضوره حرب الفجار
١١٤	د - حضوره حلف الفضول
١١٦	هـ - تجارته بمال خديجة
١١٧	١٠ - زواجه من خديجة بنت خويلد
١١٩	١١ - اشتراكه في بناء الكعبة
١٢١	١٢ - معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة
١٢٢	١٣ - سيرته في قومه قبل البعثة
١٢٤	١٤ - ما أكرمه الله به قبل النبوة
١٢٥	١٥ - بشارة الكتب السماوية به
١٢٨	١٦ - حركة الأفلاك قبل البعثة
١٣٠	١٧ - الرؤيا الصالحة في النوم

١٨ - اختلاؤه في غار حراء	١٣١
الدور الثاني: مهاراته من بعثته إلى هجرته	
١ - بدء الوحي	١٣٥
٢ - فترة الوحي	١٣٦
٣ - الدعوة سرّاً	١٣٨
٤ - ثمرات الدعوة في هذه الفترة	١٣٩
٥ - السابقون إلى الإسلام	١٤٠
٦ - مركز الدعوة في هذه الفترة	١٤٤
٧ - الجهر بالدعوة	١٤٥
٨ - بدء الصراع:	١٤٩
أ - السخرية بالنبي ودعوته والهزء به	١٤٩
ب - التهم الباطلة	١٥١
ج - الإطماع بالجاه والتحذير بالقوة	١٥٢
د - الأسئلة الساخرة والاقتراحات التعجيزية	١٥٦
هـ - سعي قريش إلى أبي طالب	١٥٩
و - الأذى والعدوان	١٦٢
ز - أذية أصحاب النبي ﷺ	١٦٤
ح - الهجرة الأولى إلى الحبشة	١٦٧
ط - رجوع مهاجري الحبشة	١٦٩
ي - إسلام عمر بن الخطاب	١٧١
ك - الحصار الاقتصادي والاجتماعي	١٧٢
ل - الهجرة الثانية إلى الحبشة	١٧٥
كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي	١٧٩
م - إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي	١٨٣
٩ - أول وفد إلى رسول الله ﷺ	١٨٥
١٠ - عام الحزن	١٨٨

- ١١ - زواج رسول الله ﷺ من سودة بنت زمعة ١٩٠
- ١٢ - عقده ﷺ على عائشة رضي الله تعالى عنها ١٩٠
- ١٣ - سفر رسول الله ﷺ إلى الطائف ١٩٢
- ١٤ - عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل ١٩٨
- ١٥ - الإسراء والمعراج ٢٠١
- ١٦ - بدء إسلام الأنصار ٢٠٥
- ١٧ - بيعة العقبة الأولى ٢٠٧
- ١٨ - بيعة العقبة الثانية ٢١٠
- ١٩ - فضل الأنصار والوصية بهم ٢١٣
- ٢٠ - فضل المدينة المنورة ٢١٥
- ٢١ - إذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة ٢١٦
- ٢٢ - المؤامرة الكبرى : ٢١٨
- محصلة هذا الدور ونتائجه العظيمة ٢٢١
- أ - بناء عقيدة التوحيد ٢٢٢
- ب - إقامة صرح أركان العقيدة وبلورة معالمها ٢٢٤
- ج - التربية الإيمانية العميقة ٢٢٨
- د - التربية الأخلاقية الرفيعة ٢٢٩
- الدور الثالث: مهاراته ﷺ من هجرته إلى فتح مكة** ٢٣٣
- ١ - الهجرة الشريفة ٢٣٣
- ٢ - قصة أم معبد الخزاعية ٢٤٠
- ٣ - وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة وتلقي أهلها له وفرحهم بقدومه .. ٢٤٤
- ٤ - المجتمع الجديد وأسس بنائه ٢٤٩
- أولاً - بناء المسجد النبوي الشريف ٢٤٩
- ثانياً - المؤاخاة بين المسلمين ٢٥٢
- ثالثاً - كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم ٢٥٣
- رابعاً - تشريع صلاة الجماعة ٢٥٥

٢٥٩		خامساً- تشريع الأذان للإعلام بوقت الصلاة
٢٦٢		٥ - نزاع كاد يعصف بالمسلمين تداركه رسول الله بحكمته
٢٦٣		٦ - بدء الصراع المسلح والإذن بالقتال
٢٦٣		تمهيد:
٢٦٥		٧ - سرية حمزة بن عبد المطلب
٢٦٦		٨ - سرية عبيدة بن الحارث
٢٦٧		٩ - غزوة ودان ، وهي غزوة الأبواء
٢٦٨		١٠ - غزوة بواط
٢٦٨		١١ - غزوة العشيرة
٢٦٩		١٢ - غزوة سفوان ، وهي بدر الأولى
٢٧٠		١٣ - سرية عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة
٢٧٢		١٤ - تشريعات سياسية ، ودينية واقتصادية
٢٧٢		أ- تشريعات سياسية - موضوع القبلة
٢٧٤		ب- تشريعات دينية - صيام رمضان وصلاة العيد
٢٧٦		ج- تشريعات اقتصادية - الزكاة والأضحية
٢٧٩		١٥ - غزوة بدر الكبرى
٢٨٤		الوصية بالأسرى
٢٨٥		١٦ - غزوة بني سليم
٢٨٦		١٧ - غزوة غطفان
٢٨٧		١٨ - غزوة بني قينقاع
٢٩٠		١٩ - تزويج النبي ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها
٢٩٢		٢٠ - قتل كعب بن الأشرف اليهودي
٢٩٤		٢١ - غزوة أحد
٢٩٤		أ- سبب هذه الغزوة ودور المشركين فيها
٢٩٥		ب- سماع رسول الله خبر خروج قريش لحربه
٢٩٧		ح- دور المنافقين في كيد المسلمين

٢٩٧	د- نزول الجيش وتنظيمه
٢٩٨	هـ- بدء القتال
٢٩٨	و- الخطأ وآثاره الخطيرة
٢٩٩	ز- مواقف رائعة من البطولة والتضحية
٣٠١	ح- تبجح المشركين بما أصابوه
٣٠٢	ط- تفقد رسول الله القتلى
٣٠٢	ي- شماتة المنافقين واليهود
٣٠٣	ك- تعزية رسول الله أصحابه
٣٠٥	٢٢- غزوة حمراء الأسد
٣١٠	٢٣- تزويج رسول الله ابنته أم كلثوم
٣١٢	٢٤- زواج رسول الله من حفصة وزينب بنت خزيمة
٣١٢	٢٥- تحريم الخمر
٣١٥	٢٦- سرية عاصم بن ثابت إلى الرجيع
٣٢٢	٢٧- سرية المنذر بن عمرو الساعدي إلى بئر معونة
٣٢٥	٢٨- غزوة بني النضير
٣٣١	٢٩- غزوة ذات الرقاع
٣٣٧	٣٠- غزوة بدر الموعد
٣٣٩	٣١- حوادث
٣٣٩	١- ولادة الحسين بن علي
٣٤٠	٢- وفاة زينب بنت خزيمة أم المؤمنين
٣٤٠	٣- وفاة أبي سلمة
٣٤٠	٤- زواج النبي من أم سلمة
٣٤٣	٣٢- غزوة دومة الجندل
٣٤٥	٣٣- غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع
٣٤٧	أ- سرعة النصر في هذه الغزوة
٣٤٨	ب- زواج رسول الله من جويرية بنت الحارث

- أ- تحريض عبد الله بن سلول رأس المنافقين على الفتنة ٣٤٩
- ب- حديث الإفك ٣٥٢
- ٣٤- غزوة الخندق ٣٦٥
- أ- سببها ٣٦٦
- ب- سماع رسول الله الخبر واستشارته أصحابه ٣٦٨
- ج- رأي سلمان في حفر الخندق ٣٦٨
- و- دعوة النبي لطعام في بيت جابر ٣٧٠
- هـ- تهيؤ رسول الله لحرب المشركين ٣٧٢
- و- وصول المشركين إلى المدينة ٣٧٢
- ر- نقض بني قريظة عهدهم مع النبي ٣٧٤
- ٣٥- غزوة بني قريظة ٣٨٣
- ٣٦- غزوة بني لحيان ٣٨٩
- ٣٧- غزوة الغابة ٣٩٠
- ٣٨- سرايا وحوادث في مسيرة دعوة النبي ﷺ ٣٩١
- أولاً- السرايا ٣٩٢
- أ- سرية محمد بن مسلمة ٣٩٢
- ب- سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر ٣٩٤
- ج- سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة ٣٩٤
- د- سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم ٣٩٤
- هـ- سرية زيد بن حارثة إلى العيص ٣٩٥
- و- سرية زيد بن حارثة إلى الطرف ٣٩٧
- ز- سرية أبي بكر الصديق إلى بني فرارة ٣٩٧
- ح- سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ٣٩٨
- ط- سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك ٤٠١
- ثانياً- الحوادث التي حدثت ، وبعض الأحكام التي شرعت ٤٠٣
- أ- زواجه ﷺ زينب بنت جحش ٤٠٣

٤٠٥	ب- احتجاب أزواج النبي ﷺ
٤٠٦	ج- فرض الحج
٤٠٦	د- قتل أبي رافع اليهودي
٤٠٩	هـ- قصة عكل وعرينة
٤١٠	و- صلح الحديبية
٤١١	١- سبب خروجه ﷺ
٤١١	٢- خروج رسول الله ﷺ
٤١٢	٣- وصول خبر خروجه إلى المشركين
٤١٢	٤- إرسال رسول الله ﷺ عيناً ليأتيه بخبر القوم
٤١٤	٥- بدء المفاوضات
٤١٨	٦- إرسال عثمان بن عفان إلى قرش
٤١٩	٧-بيعة الرضوان
٤١٩	٨- الصلح وشروطه
٤٢١	٩- رعاية رسول الله ﷺ لشروط الصلح
٤٢٣	١٠- موقف الصحابة من الصلح وشروطه
٤٢٤	١١- التحلل من العمرة
٤٢٥	١٢- كان صلح الحديبية فتحاً
٤٢٦	١٣- استثناء النساء من شرط الردّ إلى المشركين
٤٢٧	٣٩- مكاتبة الملوك:
٤٢٨	أ- عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي
٤٢٨	نص كتابه إلى النجاشي
٤٢٩	ب- دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر
٤٣٤	ج- عبد الله بن حُذافة السهمي إلى كسرى
٤٣٥	د- حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس
٤٣٦	هـ- رسل آخرون
٤٣٧	٤٠- غزوة خيبر

- من المواقف البارزة في هذه الغزوة وبعدها ٤٤١
- أ- ما كان من فتح على يدي علي رضي الله تعالى عنه ٤٤١
- ب- تصدى علي بن أبي طالب لبعض فرسان اليهود وقتلهم ٤٤١
- ج- قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة ٤٤٣
- د- زواجه ﷺ من صفية ٤٤٣
- هـ- قصة الشاة المسمومة ٤٤٥
- و- صلح فك ٤٤٦
- ز- صلح تيماء ٤٤٦
- ح- فتح وادي القرى ٤٤٧
- ط- رجوع الرسول إلى المدينة مؤيداً منصوراً ٤٤٧
- ي- ما قاله كعب بن مالك شعراً في غزوة خيبر ٤٤٨
- ٤١ - كثرة السرايا بعد صلح الحديبية وفتح خيبر ٤٤٨
- أ- سرية عمر بن الخطاب إلى تربة ٤٤٩
- ب- سرية بشير بن سعد ٤٤٩
- ج- سرية غالب بن عبد الله إلى الميعة ٤٥٠
- د- سرية بشير بن سعد إلى اليمن وجبار ٤٥١
- ٤٢ - عمرة القضاء ٤٥٢
- زواج رسول الله ﷺ من ميمونة بنت الحارث الهلالية ٤٥٤
- خروج رسول الله من مكة ورجوعه إلى المدينة ٤٥٤
- ٤٣ - إسلام خالد بن الوليد ورفيقه ٤٥٥
- ٤٤ - سرية مؤتة ٤٥٨
- أ- سببها ٤٥٩
- ب- تسمية القادة في هذه السرية ٤٥٩
- ج- تشييع رسول الله لهم ووداعه إياهم ووصيته لهم ٤٥٩
- د- بدء القتال ٤٦٢
- هـ- رسول الله يصف المعركة لأصحابه ٤٦٤

٤٦٤	و- رجوع المسلمين إلى المدينة واستقبال الرسول لهم
٤٦٦	ز- اهتمام النبي ﷺ بأسر الشهداء
٤٦٦	٤٥ - محصلة هذا الدور ونتائجه العظيمة
٤٦٩	الدور الرابع: مهاراته ﷺ من فتح مكة إلى وفاته
٤٦٩	١ - غزوة الفتح الأعظم
٤٦٩	أ - سبب هذه الغزوة
٤٧٠	ب - تبليغ رسول الله غدر قريش
٤٧١	ج - ندم قريش على ما فعلت
٤٧٢	د - رجوع أبي سفيان إلى مكة
٤٧٢	هـ - تجهز رسول الله ﷺ للغزو
٤٧٣	و - قصة حاطب بن أبي بلتعة
٤٧٤	ز - خروج رسول الله من المدينة قاصداً مكة
٤٧٥	ح - أمر قريش
٤٧٦	ط - تعبئة رسول الله أصحابه لدخولهم مكة ومروهم بأبي سفيان
٤٨١	ي - تكريم رسول الله لأبي سفيان
٤٨٢	ك - دخول رسول الله ﷺ مكة
٤٨٤	ل - ذكر البيعة
٤٨٦	م - مقولة الأنصار بعد الفتح
٤٨٧	س - هدم الأصنام
٤٨٨	ع - قصة فضالة بن عمير الليثي
٤٨٩	ف - إسلام أبي قحافة والد أبي بكر الصديق
٤٨٩	ص - المؤمنون ممن أهدر رسول الله دماءهم
٤٩٣	ق - قفل باب وجوب الهجرة إلى المدينة بعد الفتح
٤٩٤	ر - مقام النبي ﷺ بمكة عام الفتح
٤٩٤	٢ - غزوة حنين
٤٩٥	أ - سبب غزوة حنين

- ب - علم رسول الله ﷺ بأمر هوازن وثقيف ٤٩٧
- ج - تعبئة رسول الله ﷺ جيشه ٤٩٧
- د - إعجاب المسلمين بكثرتهم ٤٩٨
- هـ - علم مالك بن عوف بمقدم رسول الله ﷺ ٤٩٨
- ز - وصول رسول الله ﷺ حُنيئاً بجيشه ٤٩٨
- ح - موقف رسول الله ﷺ عند الهزيمة ٤٩٩
- ط - العودة إلى القتال من جديد ٤٩٩
- ي - تتبع فلول المشركين ٥٠٠
- ك - من أخلاق رسول الله ﷺ في الحرب ٥٠٠
- ل - أم سليم في حنين ٥٠١
- م - حكاية أم عمارة الأنصارية ليوم حنين ٥٠١
- ن - إرسال البشير بالنصر إلى المدينة ٥٠٢
- س - جمع الغنائم والتأني في قسمتها ٥٠٣
- ع - حصار الطائف ٥٠٤
- ف - مواقف في الطريق من الطائف إلى الجعرانة ٥٠٦
- أ - سراقه بن مالك ٥٠٦
- ٢ - أبو رُهم الفغاري ٥٠٧
- ص - تقسيم السبي والغنائم ٥٠٨
- ق - وفود هوازن ٥١٠
- ر - عمرة الجعرانة والرجوع إلى المدينة ٥١١
- ٣ - سرايا رسول الله ﷺ بعد حنين ٥١٢
- أ - سرية قيس بن سعد ٥١٢
- ب - سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم ٥١٣
- ج - سرية الوليد بن عتبة إلى بني المصطلق ٥١٤
- د - سرية علقمة بن مجزر المدلجي إلى الحبشة ٥١٥
- هـ - سرية علي بن أبي طالب لهدم الفلس ٥١٥

- وفود عدي بن حاتم على النبي ﷺ ٥١٦
- ٤ - غزوة تبوك ٥١٨
- أ - سبب غزوة تبوك ٥١٨
- ب - تسابق الموسرين بتقديم الأموال ٥٢٠
- ج - دور المنافقين في هذه الغزوة ٥٢٢
- د - قعود بعض المؤمنين الصادقين عن الخروج ٥٢٣
- هـ - خروج رسول الله إلى تبوك ٥٢٤
- و - من استخلفهم رسول الله في المدينة ٥٢٤
- ز - قصة أبي ذر رضي الله عنه ٥٢٤
- ح - قصة أبي خيثمة ٥٢٥
- ط - ما لاقى النبي وأصحابه من وعثاء السفر ومشقة الطريق ٥٢٦
- ي - مرور رسول الله بالحجر ٥٢٧
- ك - وصول رسول الله إلى تبوك ٥٢٧
- ل - استعمال الحرس ٥٢٧
- م - نزول رسول الله تبوك واتخاذ مسجداً وخطبته ٥٢٨
- ن - مصالحة ملك أيلة وأهل جرباء وأذرح ٥٢٨
- س - بعث رسول الله خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة ٥٢٩
- ع - استشارة النبي أصحابه في مجاوزة تبوك ٥٢٩
- ف - رجوع الرسول من تبوك إلى المدينة ٥٣٠
- ص - استقبال رسول الله عند وصوله إلى المدينة ٥٣٠
- ق - مسجد الضرار ٥٣١
- ر - حديث الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ٥٣٢
- ٥ - وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ ٥٣٧
- ٦ - حج أبي بكر بالناس ٥٣٩
- ٧ - وفاة رأس المنافقين عبد الله بن سلول ٥٤٢

- ٥٤٣ ٨- سرية خالد بن الوليد إلى بني عبد المذان بنجران
- ٥٤٤ ٩- سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن
- ٥٤٥ ١٠- بعث العمال إلى اليمن
- ٥٤٦ ١١- تتابع الوفود إلى رسول الله ﷺ
- ٥٤٨ أ- وفود نصارى نجران
- ٥٥٠ ب- وفود ضمام بن ثعلبة
- ٥٥٢ ج- وفود عبد القيس
- ٥٥٤ د- وفود كنده
- ٥٥٥ هـ- وفود تجيب
- ٥٥٦ و- وفود همدان
- ٥٥٧ ١٢- وفاة إبراهيم بن النبي ﷺ
- ٥٥٩ كسوف الشمس عند موت إبراهيم
- ٥٥٩ ١٣- حجة الوداع
- ٥٦٥ من عبر حجة الوداع ودروسها
- ٥٦٥ أولاً- المعنى الكبير لحجة رسول الله
- ٥٦٦ ثانياً- تأملات في خطبة الوداع
- ٥٧٢ ١٤- سرية أسامة بن زيد
- ٥٧٥ ١٥- مصيبة المصائب وفاة رسول الله ﷺ
- ٥٧٦ أ- طلائع الوداع والاستعداد للرحيل
- ٥٧٦ أولاً- اعتكافه عشرين يوماً
- ٥٧٧ ثانياً- عرض القرآن على جبريل مرتين
- ٥٧٧ ثالثاً- الاستغفار لشهداء أحد ، والوصية بالأنصار
- ٥٧٨ رابعاً- زيارة البقيع والدعاء لأهلها
- ٥٧٩ ب- بدء الشكوى
- ٥٨١ ج- صلاة أبي بكر بالناس
- ٥٨٣ د- نظرة الوداع

هـ- ساعات الوفاة	٥٨٣
و- انتشار خبر وفاة رسول الله	٥٨٥
ز- تجهيز رسول الله إلى مثواه الأخير	٥٨٦
الخاتمة	٥٩١
الفهرس	٥٩٣

